





موعظة المؤمنين

من

إحياء علوم الدين

﴿ تأليف العلامة المفضال الشيخ محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي ﴾

(تنبيه) لايخفى أن ترقية الوعظ الديني من أهم المسائل الشاغلة لأفكار الباحثين في شؤن المسلمين اليوم ومن أجل أسبابها مسألة الكتب المفيدة الجيدة ولما رأى حضرة المؤلف المذكور أن اختصار الاحياء من أحسن الوسائل الجليلة النفع في هذا الباب قام بذلك واذ رآنا شغفين بنشر الكتب النافعة الاسلامية أهدانا ذلك الكتاب المنسوخ بخطه وأذن لنا في نشره ونحن رغبة في الخدمات الاسلامية رأينا من الواجبات المقدسة القيام بنشره وها هو قد ظهر في عالم المطبوعات مجلّى بأحسن الحلل فنرجو من الحق جلّ اسمه أن يكمل به النفع

﴿ الجزء الاول ﴾

﴿ الطبعة الاولى سنة ١٣٣١ هـ ﴾

على نفقة البحّاثة المنقّب عن الاسفار النافعه الشيخ محيي الدين صبري الكردي

(مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك يا ذا الجلال والاكرام . على ما أكملت لنا من دين الاسلام ونصلّى ونسلم على نبىّ الهدى والرحمة . المبعوث بالكتاب والحكمة . خاتم النبيين . وإمام المرشدين . سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه أجمعين

﴿ أمّا بعد ﴾ فان موعظة العامّة . والتصدّى لارشادهم فى الدروس العامّة . من الأمور المهمة . المنوطة بخاصة الأمة . إذ هم أمناء الشرع ونور سراجه . ومصابيح علومه وحفاظ سياجه . وكان السلف يملون مما وقر فى صدورهم . ما يرونه أمسّ بحالهم وزمنهم ومكانهم . ولما امتدّ الفتوح فى الاسلام . ابتدئ بجمع الهدى النبوىّ للأنام . ثم اتسع العمران وعظمت الحضارة . فأخذ ينمو التفريع والتخريج والانبساط فى الفنون على نسبتها فى الغزارة . واستبحرت فى فنون العلم الأسفار . ودنت لمقتطفه مباحثه الكبار وصار المعوّل فى بثه عليها . والملجأ فى تعرف حقائقه عليها . وتنوّعت فى كل فنّ مصنفاته . وزخرت من كل بحث مؤلفاته . حتى حار طالبه فى انتقاء الأحسن . واستوقف كثرتها نظره فى تخيّر الأتقن . وأصبح التبصر فى أجودها عنوان الذكاء . والوقوف على أنفعها آية النباهة والارتقاء . ولما كانت

عظة العوام . بايقافهم على جواهر دين الاسلام . وإعلامهم محاسن الدين وواجباته . ونوافله ومحظوراته . وما يأمر به من الأخلاق الكريمة . ويزجر عنه من المساوئ الذميمة . ليرتقوا الى ما فيه صلاحهم ونجاحهم . فيفوزوا بما في الاعتصام به سعادتهم وفلاحهم . من أوجب الواجبات . وآكد المفروضات . لما أخذ الله على العلماء من الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فيقف المدعوُّون على شرائعه تعالى فيما أمر وزجر ووعد وأوعد وبشّر وأنذر . فلزم الداعى الى الله تعالى أن يجتهد بفطنته لما يعينه في دعوته . فينتخب من المدوّنات أنفعها . وينتقى من لباب لبابها أرفعها . اذ كثير مما اعتيد في المحافل تدريسه . لم يكن على بناء إفادة العامّة تأسيسه . ولا برهان . بعد عيان *

موضوع ذكرى العامّة موضوع جليل . لا يصلح له الا كل حكيم نبيل . أتدرى من المذكر . أو الواعظ . أو المرشد . هو انسان حافظ لحدود الله . قائم على إرشاد العقول . وتهذيب النفوس . وتثقيف الأذهان . وتنوير المدارك . وتصحيح المعتقدات . وإبانة سرّ العبادات . وإماطة ما غشى الأفهام القاصرة من غياهب الجهالة . وتراث الضلالة *

المذكر وارث محمدىّ . واقف على مقاصد التشريع وحكمته . عالم مواضع الخلاف والوفاق . سائس لسامعيه بما يلائمهم من الأحكام . لا يصعد بهم قمم الشدّة والتعسير . ولا يهبط بهم الى حضيض الترخيص غلوًّا في التيسير بل يسير بهم على جادّة الحقّ وسواء الطريق *

المذكر ينشر العلم النافع بين الناس . ويحثهم على العمل به . ويخاطبهم على قدر عقولهم . ويتنزّل لارشادهم الى لغتهم . يعاشرهم بالنصح . ويخالطهم لتأليف قلوبهم *

المذكر هو العامل الأكبر في إخراج النـاس من ظلمات الجهالة الى نور العلم . وتحريرهم من رقّ الخرافات والوهم . وهو كالسراج فاذا لم ينتفع بضوئه فلا فائدة في وجوده . وحقّ ما قيل « لا يكون العالم عالماً حتى يظهر أثر علمه في قومه » اذ ليس مسئولا عن نفسه وحدها بل عنها وعن عشيرته وأمته فمن الواجب عليه أن يعلّم ويعظ ويبلّغ كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الجملة فالمذكر لابد أن يكون كاملا فى علمه . كاملا في تعليمه . كاملا فى إرشاده . كاملا في أخلاقه *

وغير خاف أن مذكر العامّة على قوّة ملـكته . وسعة مداركه . يضطر الى مادّة تعينه على ذكراه . وتمدّ ذاكرته اذا أمّ مبتغاه . ولـكن أين تلك المادّة الممدّة . فانى لم أرَ بين المصنفات على كثرتها ما ألف لذكرى العامّة مستوفياً للشروط التـامّة . بأن يفقهوا معنـاه . ويدركوا منطوقه ومغزاه ويكون وافياً بحاجياتهم . آتياً على جميع كمالياتهم . مجرّداً عن دقائق المسائل قريب الأخذ للمتناول . فيستعين به المذكر . ويهتـدى به المستبصر . ولم أزل أترقب من نفحات التوفيق ما يهدّئ البال . الى أن رأيت بعد ما بلوت فى عامّ التدريس . كل كتاب نفيس . الأعوام الطوال . أنّ من أنفع ما يقتبس منه عظة المؤمنين . مواضيع تنتخب (من إحياء علوم الدين) للعلاّمة الامام

حجة الاسلام . أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى عليه الرحمة والرضوان . ثم اتفق أن تذاكرت مع حكيم إمام[1] . واستطلعت رأيه الصائب فى هذا المرام . فقال متأسفاً « إن هذا الموضوع لم يصنف فيه إلا ان أحسن ما لدينا لذلك هو الاحياء بعد تجريده » فعددت ذلك من بدائع الموافقات وأتذكرالآن ان أحد الأعلام فى دمشق أشار على من استشاره من المدرسين بالاحياء . فأخذ المدرس فى قراءته بالحرف . عملا بالأمر الصرف . ثم شكي له ضيق صدره من مباحث لا تفقهها العوام . ولا ينتفع بهـا الا خاصة الأنام فأجابه بأن أمره كان لفصول تنتخب منـه . وقد تحققت بذلك كمال حذقه رحمه الله ورضى عنه . لذلك عزمت سنة (١٣٢٣) على اختصاره فى جزئين موجزين على الشريطة السالفة . أسايرفيهما ترتيب أصله بلامخالفة . والمأمول أن تحظى بالغاية الموخاة . والضالة المنشودة . وبالله المستعان . وعليه التكلان *

كتاب العلم

﴿ فضيلة العلم ﴾

شواهده من القرآن آيات كثيرة منها قوله عز وجل ﴿ شَهِدَ اللّٰهُ أَنَّهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ والمَلاَئِكَةُ واُولُوا العِلْمِ قائِمًا بالقِسْطِ ﴾ فانظر كيف بدأ سبحانه

---

(١) هو الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية أيام كنا فى ضيافته بمصر عام (١٣٢١) واستشرناه فأشار به عليه الرحمة والرضوان*

وتعالي بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم . وناهيك بهذا شرفا وفضلا وقال الله تعالى ﴿ يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجاتٍ ﴾ وقال الله عز وجل ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ ردّ حكمه فى الوقائع الى استنباطهم وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله تعالى *

وأما الأخبار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خيرًا يُفَقِّهْهُ فى الدِّينِ ويُلْهِمْهُ رُشْدَهُ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ العُلَماءُ وَرَثَةُ الأَنْبِياءِ ﴾ ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوّة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة . وقال صلوات الله عليه ﴿ إذا أَتَى عَلَيَّ يَوْمٌ لا أَزْدادُ فيهِ عِلْماً يُقَرِّبُنِى إِلَى اللهِ عز وجلَّ فَلاَ بُورِكَ لِى فى طُلُوعِ شَمْسِ ذَلِكَ اليَوْمِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم فى تفضيل العلم على العبادة والشهادة ﴿ فَضْلُ العالِمِ عَلَى العابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحابِى ﴾ فانظر كيف جعل العلم مقارناً لدرجة النبوّة وكيف حطّ رتبة العمل المجرّد عن العلم وان كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التى يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَضْلُ العالِمِ عَلَى العابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَى سائِرِ الكَواكِبِ ﴾ ومن وصايا لقمان لابنه

﴿ يا بنيّ جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فان الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء ﴾

﴿ فضيلة التعلم ﴾

أما الآيات فقوله تعالى ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فى الدِّينِ ﴾ وقوله عز وجل ﴿ فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَطْلُبُ فيهِ عِلْماً سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الجَنَّةِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لَأَنْ تَغْدُوَ فَتَتَعَلَّمَ باباً مِنَ العِلْمِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ مِائَةَ رَكْعَةٍ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ﴾ وقال أبو الدرداء لأن أتعلم مسئلة أحبّ إليّ من قيام ليلة . وقال أيضاً العالم والمتعلم شريكان فى الخير وسائر الناس همج لاخير فيهم .وقال الشافعى رضى الله عنه طلب العلم أفضل من النافلة . وقال فتح الموصلى رحمه الله أليس المريض اذا منع الطعام والشراب والدواء يموت قالوا بلى قال كذلك القلب اذا منع عنه الحكمة والعلم ثلاثة أيام يموت . ولقد صدق فان غذاء القلب العلم والحكمة وبهما حياته كما أن غذاء الجسد الطعام ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم ولكنه لا يشعر به اذ حب الدنيا وشغله بها أبطل احساسه فنعوذ بالله من يوم كشف الغطاء فان الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا وقال ابن مسعود رضي الله عنه عليكم بالعلم قبل أن يرفع ورفعه موت رواته وان أحدًا

لم يولد عالما وانما العلم بالتعلم *

﴿ فضيلة التعليم ﴾

أما الآيات فقوله عزّ وجلّ ﴿ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ والمراد هو التعليم والارشاد . وقوله تعالى (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ) وهو إيجاب للتعليم وقوله تعالى (وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) وهو تحريم للكتمان كما قال تعالى فى الشهادة (وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ) وقال تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا) وقال تعالى (أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) وقال تعالى (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) وأما الاخبار فقوله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذا الى اليمن (لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) وقال صلى الله عليه وسلم (مَنْ عَلِمَ عِلْمًا فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ) وقال صلى الله عليه وسلم (إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِى جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ فِى الْبَحْرِ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ) وقال صلى الله عليه وسلم (إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ) وقال صلى الله عليه وسلم (الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ) وقال صلى الله عليه وسلم (رَحْمَةُ اللهِ عَلَى خُلَفَائِى) قيل ومن خلفاؤك . قال الَّذِينَ يُحْيُونَ سُنَّتِى

وَيُعَلِّمُونَهَا عِبادَ اللهِ) *

ومن الآثار ما روى عن معاذ أنه قال تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية وطلبه عبادة . ومدارسته تسبيح . والبحث عنه جهاد . وتعليمه من لا يعلمه صدقة . وبذله لأهله قربة . وهو الأنيس فى الوحدة . والصاحب فى الخلوة والدليل على الدين . والمصبّر على البأساء والضرّاء . يرفع الله به أقواما فيجعلهم فى الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم . أدلة فى الخير . تقتصّ آثارهم . وترمق أفعالهم . يبلغ العبد به منازل الأبرار والدرجات العلى . والتفكر فيه يعدل بالصيام . ومدارسته بالقيام . به يطاع الله عز وجل . وبه يعبد . وبه يوحد ويمجد . وبه يتورّع . وبه توصل الأرحام . وبه يعرف الحلال والحرام وهو إمام والعمل تابعه . يلهمه السعداء . ويحرمه الاشقياء . وقال الحسن رحمه الله لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم . أى انهم بالتعليم يخرجون الناس من حدّ البهيمية الى حدّ الانسانية *

﴿ بيان العلم الذى هو فرض عين ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ) فمنه ما يدرك به التوحيد ويعلم به ذات الله تعالى وصفاته . ومنه ما تعرف به العبادات والحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحل ومنه ما تعلم به أحوال القلب ما يحمد منها كالصبر والشكر والسخاء وحسن الخلق وحسن المعاشرة والصدق والاخلاص ـ وما يذمّ كالحقد والحسد والغش والكبر والرياء والغضب والعداوة والبغضاء والبخل . فمعرفة ما

تكتسب به الأولى وماتجتنب به الثانية فرض عين كتصحيح المعتقدات والعبادات والمعاملات *

كتاب عقيدة أهل السنة

﴿ في كلمتي الشهادة التي هي أحد مباني الاسلام ﴾

عقيدتهم فى ذاته تعالى وتقدس انه إله واحد لا شريك له . قديم لا أوّل له . مستمرّ الوجود لا آخر له . أبديّ لانهاية له : دائم لاانصرام له لم يزل ولايزال . موصوفابنعوت الجلال . لايقضى عليه بالانقضاء والانفصال بتصرّم الآباد وانقراض الآجال . بل هوالأول والآخر . والظاهر والباطن وهو بكلّ شيء عليم . وانه ليس بجسم مصوّر . ولا يماثل موجودا . ولا يماثله موجود . ولا تحيط به الجهات . ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات وانه مستو على العرش على الوجه الذى قاله وبالمعنى الذى أراده . وهو فوق العرش والسماء . وفوق كل شيء الى تخوم الثرى . فوقية لا تزيده قربا الى العرش والسماء كما لا تزيده بعدا عن الأرض والثرى ، بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء كما انه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى . وهومع ذلك قريب من كل موجود . وهو أقرب الى العبد من حبل الوريد . اذلايماثل قربه قرب الاجسام . كما لا تماثل ذاته ذات الاجسام . وانه لايحل فى شيء ولا يحل فيه شيء . تعالى عن أن يحويه مكان . كما تقدس عن أن يحدّه

زمان ، بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان . وهو الآن على ماعليه كان
وانه فى ذاته معلوم الوجود بالعقول ، مرئىّ الذات بالابصار . فى دار القرار
نعمة منه ولطفا بالابرار . واتماما منه للنعيم . بالنظر الى وجهه الكريم . وانه
تعالي حىّ قادر جبار قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز . ولا تأخذه سنة ولا
نوم . ولا يعارضه فناء ولا موت . وانه المنفرد بالخلق والاختراع . المتوحد
بالايجاد والابداع . وانه عالم بجميع المعلومات . محيط بما يجرى من تخوم
الارضين الى أعلى السموات . لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة فى الارض ولا
فى السماء . بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء
ويدرك حركة الذرّ فى جوّ الهواء . ويعلم السرّ وأخفي . ويطلع على هواجس
الضمائر . وحركات الخواطر . وخفيات السرائر . بعلم قديم أزلي . لم يزل
موصوفا به فى أزل الآزال . وانه تعالى مريد للكائنات . مدبر للحادثات
فلا يجرى فى الملك والملكوت أمر الا بقضائه وقدره وحكمته ومشيئته فما
شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا رادّ لأمره . ولا معقب لحكمه . وانه تعالى
سميع بصير . لا يعزب عن سمعه مسموع وان خفى . ولا يغيب عن رؤيته
مرئىّ وان دقّ . ولا يحجب سمعه بعد . ولا يدفع رؤيته ظلام لايشبه
سمعه وبصره سمع وبصر الخلق . كما لا تشبه ذاته ذات الخلق . وانه تعالى
متكلم آمر ناه . واعد متوعد . وان القرآن والتوراة والانجيل والزبور كتبه
المنزلة على رسله عليهم السلام . وانه تعالى كلم موسى عليه السلام بكلامه
الذى هو صفة ذاته لا خلق من خلقه . وان القرآن كلام الله ليس بمخلوق

فيبيدولاصفة لمخلوق فينفد . وانه سبحانه وتعالى لاموجودسواه الاوهوحادث بفعله . وفائض من عدله . على أحسن الوجوه وأكملها . وأتمها وأعدلها. وانه حكيم فى أفعاله عادل فى أقضيته . فكل ما سواه من انس وجن وملك وسماء وأرض وحيوان ونبات وجماد ومدرك ومحسوس حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعا وانشأه انشاء بعد ان لم يكن شيأ . اذ كان فى الازل موجودا وحده ولم يكن معه غيره . فاحدث الخلق بعد ذلك اظهارا لقدرته . وتحقيقا لما سبق من ارادته ولما حق في الازل من كلمته . لا لافتقاره اليه وحاجته . وانه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لاعن وجوب . ومتطول بالانعام والاصلاح لاعن لزوم . فله الفضل والاحسان . والنعمة والامتنان . وانه عز وجل يثيب عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد لا بحكم اللزوم له . اذ لا يجب عليه لاحد فعل . ولا يتصور منه ظلم . ولايجب لاحد عليه حق . وان حقه فى الطاعات واجب على الخلق بايجابه على السنة أنبيائه عليهم السلام لا بمجرد العقل . ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاؤا به . وانه بعث النبى الأمّى القرشى محمدا صلى الله عليه وسلم برسالته الى العرب والعجم والجن والانس . وانه ختم الرسالة والنبوة ببعثته . فجعله آخر المرسلين بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا . وأنزل عليه كتابه الحكيم وشرح به دينه القويم وهدى به الصراط المستقيم . وألزم الخلق تصديقه فى جميع ما أخبر به وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من يموت كما بدأهم يعودون

وانه تعالى قد خلق الجنة فأعدها دار خلود لأوليائه وأكرمهم فيها بالنظر الى وجهه الكريم . وخلق النار فأعدّها دار خلود لمن كفر به وألحد فى آياته وكتبه ورسله وجعلهم محجوبين عن رؤيته[١] *

وندين بأن لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه كالزنا والسرقة وشرب الخمور . وندين بأن لا ننزل أحداً من أهل التوحيد والمتمسكين بالايمان جنة ولا ناراً إلا من شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة . ونرجو الجنة للمذنبين . ونخاف عليهم أن يكونوا بالنار معذبين . ونقول ان الله عز وجل يخرج قوما من النار بعد ان امتحشوا [٢] بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم تصديقا لما جاءت به الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونؤمن بعذاب القبر وان الله عز وجل يوقف العباد فى الموقف ويحاسب المؤمنين . وندين بحب السلف الذين اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه عليه السلام ونثنى عليهم بما أثنى الله به عليهم ونتولاهم أجمعين . ونقول ان الامام الفاضل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق رضوان الله عليه وان الله أعز به الدين . وأظهره على المرتدين . وقدمه المسلمون بالامامة كما قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة وسموه بأجمعهم خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ثم عثمان بن

---

(١) الى هنا من كلام الغزالى وما بعده من كتاب الابانة للامام الاشعرى

(٢) أى احترقوا والمحش احتراق الجلد وظهور العظم ويروى امتحشوا لما لم يسم فاعله اهـ نهاية

عفان رضي الله عنه وان الذين قاتلوه قاتلوه ظلما وعدوانا . ثم علىّ بن أبي طالب رضى الله عنه فهولاء الأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافتهم خلافة النبوة . ونتولى سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونكف عما شجر بينهم . ونعول فيما اختلفنا فيه على كتاب ربنا وسنة نبينا واجماع المسلمين وما كان فى معناه . ولا نبتدع فى دين الله مالم يأذن لنا ولا نقول على الله مالا نعلم . ونرى الصدقة عن موتى المسلمين والدعاء لهم ونؤمن بأن الله ينفعهم بذلك (١) ونقول ان الصالحين يجوز أن يخصهم الله بآيات يظهرها عليهم

كتاب أسرار الطهارة

قال تعالى ﴿ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ وقال تعالى ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ

---

(١) فى الاقناع وشرحه ــ من كتب الحنابلة ــ وكل قربة فعلها المسلم وجعل ثوابها لمسلم حىّ أو ميت جاز ونفعه لحصول الثواب له حتى لرسول الله صلى الله عليه وسلم من تطوع وواجب تدخله النيابة كحج وصوم نذر أو لا كصلاة وكدعاء واستغفار وصدقة وعتق وأضحية وأداء دين وصوم وكذا قراءة وغيرها . قال الامام احمد : الميت يصل اليه كل شيء من الخير للنصوص الواردة فيه ولان المسلمين يجتمعون فى كل مصر ويقرؤن ويهدون لموتاهم من غير نكير فكان اجماعا اه

الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم (مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ) وعنه
(بُنِيَ الدِّينُ عَلَى النَّظَافَةِ) ففطن ذو والبصائر بهذه الظواهر ان أهم الامور
تطهير السرائر اذ يبعد أن يكون المراد بقوله صلى الله عليه وسلم (الطُهُورُ
نِصفُ الْإِيمانِ) عمارة الظاهر بالتنظيف بافاضة الماء والقائه وتخريب الباطن
وابقائه مشحونا بالاخباث والاقذار هيهات هيهات . والطهارة لها أربع مراتب
(المرتبة الأولى) تطهير الظاهر عن الاحداث وعن الاخباث والفضلات .
(المرتبة الثانية) تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام (المرتبة الثالثة) تطهير القلب
عن الاخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة (المرتبة الرابعة) تطهير السر عما سوى
الله تعالى وهو طهارة الانبياء صلوات الله عليهم والصديقين ولن ينال العبد
الطبقة العالية الا أن يجاوز الطبقة السافلة فلا يصل الى طهارة السر عن الصفات
المذمومة وعمارته بالمحمودة ما لم يفرغ من طهارة القلب عن الخلق المذموم
وعمارته بالخلق المحمود ولن يصل الى ذلك من لم يفرغ عن طهارة الجوارح
عن المناهى وعمارتها بالطاعات وكلما عز المطلوب وشرف صعب مسلكه
وكثرت عقباته فلا تظن ان هذا الامر يدرك بالمنى وينال بالهوينا * نعم من
عميت بصيرته عن تفاوت هذه الطبقات لم يفهم من مراتب الطهارة الا
الدرجة الاخيرة التى هى كالقشرة الأخيرة الظاهرة بالاضافة الى اللب
المطلوب فصار يمعن فيها ويستوعب جميع أوقاته فى الاستنجاء وغسل الثياب
وتنظيف الظاهر وطلب المياه الجارية الكثيرة ظنا منه بحكم الوسوسة وتخبل
العقل ان الطهارة المطلوبة الشريفة هى هذه فقط وجهالة بسيرة الاولين

واستغراقهم جميع الهمّ والفكر فى تطهير القلب وتساهلهم فى أمر الظاهر حتى ان عمر رضى الله عنه مع علوّ منصبه توضأ من ماء فى جرة نصرانية . ولقد كانوا يصلون على الارض فى المساجد وكانوا يقتصرون على الحجارة فى الاستنجاء . فكانت عنايتهم كلهم بنظافة الباطن . ولم ينقل عن أحد منهم سؤال عن دقائق النجاسات . وقد انتهت النوبة الى طائفة يسمون الرعونة نظافة فأكثر أوقاتهم فى تزيينهم الظواهر كفعل الماشطة بعروسها والباطن خراب مشحون بخبائث الكبر والعجب والجهل والرياء والنفاق ولا يستنكرون ذلك ولا يتعجبون منه . ولو اقتصر مقتصر على الاستنجاء بالحجر أو صلى على الارض من غير سجادة مفروشة أو توضأ من آنية كافر أقاموا عليه القيامة وشدوا عليه النكير ولقبوه بالقذر . فانظر كيف صار المنكر معروفا والمعروف منكرا وكيف اندرس من الدين رسمه كما اندرس حقيقته وعلمه اذا عرفت هذه المقدمة فلنتكلم الآن من مراتب الطهارة على الرابعة وهى نظافة الظاهر فنقول طهارة الظاهر ثلاثة أقسام . طهارة عن الخبث . وطهارة عن الحدث . وطهارة عن فضلات البدن وهى التى تحصل بالقلم والاستحمام واستعمال النورة والختان وغيرها *

﴿ القسم الاول فى طهارة الخبث ﴾

« والنظر فيه يتعلق بالمزال والمزال به والازالة »

﴿ الطرف الاول فى المزال وهى النجاسة ﴾

الاعيان ثلاثة جمادات . وحيوانات . وأجزاء حيوانات . أما الجمادات

فطاهرة كلهــا الا الخمر . وكل منتبذ مسكر . والحيوانات طاهرة كلها الا الـكلب والخنزير . فاذا ماتت فـكلها نجسة الا خمسة (١) الآدمى (٢) والسمك (٣) والجراد (٤) ودود التفاح وفى معناه كل مايستحيل من الاطعمة (٥) وكل ماليس له نفس سائلة كالذباب والخنفساء وغيرهما فلا ينجس المـاء بوقوع شئ منها فيه . وأما أجزاء الحيوانات فقسمان (أحدهما) مايقطع منـه وحكمه حكم الميت والشعر لا ينجس بالجز والموت . والعظم ينجس (الثانى) الرطوبات الخارجـة من باطنه فـكل ماليس مستحيلا ولا له مقرّ فهو طاهر كالدمع والعرق واللعاب والمخاط . وماله مقر وهو مستحيل فنجس الا ما هو مادة الحيوان كالمنىّ والبيض والقيح والدم والروث . والبول نجس من الحيوانات كلها . ولا يعفى عن شئ من هذه النجاسات قليلها وكثيرها الا عن خمسة . (الاول) أثر النجو بعد الاستجمار بالأحجار يعفى عنه مالم يَعْدُ المخرج (والثانى) طين الشوارع وغبار الروث فى الطريق يعفى عنـه مع تيقن النجاسة بقدر ما يتعذر الاحتراز عنـه وهو الذى لا ينسب المتلطخ به الى تفريط أو سقطة . (الثالث) ما على أسفل الخف من نجاسة لا يخلو الطريق عنها فيعفى عنه بعد الدلك للحاجة (الرابع) دم البراغيث ماقل منه أو كثر الا اذا جاوز حدّ العادة سواء كان فى ثوبك أو فى ثوب غيرك فلبسته (الخامس) دم البثرات وما ينفصل منها من قيح وصديد . ودلك ابن عمر رضى الله عنه بثرة على وجهه فخرج منها الدم وصلى ولم يغسل وفى معناه مايترشح من لطخات الدماميل التى تدوم غالبـا ــ وكذلك أثر الفصد إلا ما يقع نادرا من جراح أو غيره

فيلحق بدم الاستحاضة ولا يكون فى معنى البثرات التى لا يخلو الانسان عنها فى أحواله . ومسامحة الشرع فى هذه النجاسات الخمس تعرفك أن أمر الطهارة على التساهل وما أبدع فيها وسوسة لا أصل لها *

﴿ الطرف الثانى فى المزال به ﴾

وهو إما جامد وإما مائع أما الجامد فحجر الاستنجاء وهو مطهر تطهير تخفيف بشرط أن يكون صلبا طاهرا منشفا غير محترم وأما المائعات فلا تزال النجاسات بشئ منها إلا الماء ولا كل ماء بل الطاهر الذى لم يتفاحش تغيره بمخالطة مايستغنى عنه ويخرج الماء عن الطهارة بأن يتغير بملاقاة النجاسة طعمه أو لونه أو ريحه فان لم يتغير بملاقاة النجاسة طعمه أو لونه أو ريحه لم ينجس لقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ خَلَقَ ٱللّٰهُ ٱلْمَاءَ طَهُورًا لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ إِلَّا مَا غَيَّرَ طَعْمَهُ أَوْ لَوْنَهُ أَوْ رِيحَهُ ﴾

﴿ الطرف الثالث فى كيفية الازالة ﴾

النجاسة ان كانت حكمية وهى التى ليس لها جرم محسوس فيكفى اجراء الماء على جميع مواردها . وان كانت عينية فلا بد من إزالة العين . وبقاء اللون بعد الحت والقرص معفو عنه . ويعفى عن الرائحة إذا عسر إزالتها . والعصر مرات متواليات يقوم مقام الحت والقرص فى اللون . والمزيل للوسواس أن يعلم أن الأشياء خلقت طاهرة بيقين فما لا يشاهد عليه نجاسة ولا يعلمها يقينا يصلى معها *

﴿ القسم الثانى طهارة الأحداث ﴾

ومنها الوضوء والغسل والتيمم ويتقدمها الاستنجاء فلنورد كيفيتها على الترتيب مع آدابها وسننها مبتدئين بسبب الوضوء . وآداب قاضي الحاجة ان شاء الله تعالى *

﴿ آداب قضاء الحاجة ﴾

ينبغي أن يبعد عن أعين الناظرين فى الصحراء وان يستتر بشئ ان وجده وأن لا يكشف عورته قبل الانتهاء إلى موضع الجلوس وأن لا يستقبل القبلة ولا يستدبرها وان يتقى الجلوس فى متحدث الناس وأن لا يبول فى الماء الراكد وتحت الشجرة المثمرة وفي الثقب وأن يتقى الموضع الصلب ومهبات الرياح فى البول إستنزاهاً من رشاشه وان يتكئ فى جلوسه على الرجل اليسرى وان كان فى بنيان يقدّم الرجل اليسرى فى الدخول واليمنى فى الخروج ولا يستصحب شيأ عليه اسم الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم وأن يقول عند الدخول . بسم الله أعوذ بالله من الخبث والخبائث وعند الخروج الحمد لله الذى أذهب عنى ما يؤذينى وأبقى علىّ ماينفعنى وأن يستبرئ من البول بالنتر ثلاثا ولا يكثر التفكر فى الاستبراء فيتوسوس ويشق عليه الأمر وما يحس به من بلل فيقدّر أنه بقية الماء . وقد كان أخفهم استبراء أفقههم فتدل الوسوسة على قلة الفقه . ومن الرخصة أن يبول الانسان قريبا من صاحبه مستتراً عنه فعل ذلك رسول الله صلوات الله عليه

مع شدة حيائه ليبيّن للناس ذلك *

﴿ كيفية الاستنجاء ﴾

ثم يستنجى لمقعدته بثلاثة أحجار . ومثلها كل خشن طاهر . ثم يستنجى بالماء بأن يفيضه باليمنى على محل النجو ويدلك باليسرى حتى لا يبقى أثر يدركه الكف بحسّ اللمس ويترك الاستقصاء فيه بالتعرض للباطن فان ذلك منبع الوسواس وليعلم أن كل مالا يصل اليه الماء فهو باطن ولا يثبت حكم النجاسة للفضلات الباطنة مالم تظهر . وكل ماهو ظاهر وثبت له حكم النجاسة فحدّ طهوره أن يصل الماء اليه فيزيله ولا معنى للوسواس *

﴿ كيفية الوضوء ﴾

إذا فرغ من الاستنجاء . وأراد القيام الى الصلاة . اشتغل بالوضوء ويبتدئ بالسواك ثم يجلس للوضوء مستقبل القبلة ويسمّى ثم يغسل يديه ثلاثا قبل أن يدخلهما الاناء ثم يأخذ غرفة لفيه فيتمضمض بها ثلاثا ويغرغر الا أن يكون صائما ثم يأخذ غرفة لأنفه ويستنشق ثلاثا ويصعد الماء بالنفس الى خياشيمه ويستنثر مافيها ثم يغرف غرفة لوجهه فيغسله من مبتدأ سطح الجبهة الى منتهى مايقبل من الذقن فى الطول ومن الاذن الى الاذن فى العرض ويوصل الماء الى منابت الشعور الأربعة الحاجبان والشاربان والعذاران والأهداب لأنها خفيفة فى الغالب . والى منابت اللحية الخفيفة وأما الكثيفة فيفيض الماء على ظاهرها ويندب تخليلها ويدخل الاصابع فى

محاجر العينين وموضع الرمص ومجتمع الكحل وينقيهما ثم يغسل يديه الى مرفقيه ثلاثا ويحرّك الخاتم ويبدأ باليمين ثم يستوعب رأسه بالمسح بأن يبل يديه ويلصق رؤس أصابع يده اليمنى باليسرى ويضعهما على مقدمة الرأس ويمرها الى القفا ثم يردها الى المقدمة ثم يمسح أذنيه ظاهرهما و باطنهما بماء جديد ثم يمسح رقبته بماء جديد ثم يغسل رجليه الى الكعبين ويخلل أصابعهما فاذا فرغ رفع رأسه الى السماء وقال ﴿ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين واجعلنى من عبادك الصالحين ﴾

﴿ مايكره فى الوضوء ﴾

يكره فى الوضوء أن يزيد على الثلاث وأن يسرف فى الماء * توضأ عليه الصلاة والسلام ثلاثا وقال ﴿ مَنْ زَادَ فَقَدْ أَسَاءَ وَظَلَمَ ﴾ وقال ﴿ سَيَكُونُ قَوْمٌ مِنْ هَذِهِ ٱلامَّةِ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَالطُّهُورِ ﴾ ويقال من وهن علم الرجل ولوعه بالماء فى الطهور ويكره أن ينفض اليد فيرش الماء وان يلطم وجهه بالماء لطما *

﴿ الاعتبار بالطهارة ﴾

متى فرغ من وضوئه وأقبل على الصلاة فينبغى أن يخطر بباله أنه طهر ظاهره وهو موضع نظر الخلق فينبغى أن يستحيى من مناجاة الله تعالى من غير تطهر قلبه وهو موضع نظر الرب سبحانه وليتحقق أن طهارة القلب

بالتوبة والخلوّ عن الأخلاق المذمومة والتخلّق بالأخلاق الحميدة أولى من أن يقتصر على طهارة الظاهر كمن أراد أن يدعو ملكا الى بيته فتركه مشحونا بالقاذورات واشتغل بتجصيص ظاهر الباب البرّانى من الدار وما أجدره بالتعرض للمقت والبوار *

﴿ كيفية الغسل ﴾

يغسل يديه ثلاثا ثم يستنجى ويزيل ما على بدنه من نجاسة ان كانت ثم يتوضأ وضوءه للصلاة كما وصفنا إلاّ غسل القدمين فانه يؤخرهما ثم يصب الماء على رأسه ثم على شقه الأيمن ثم الأيسر ثم يدلك ما أقبل من بدنه وما أدبر ويخلل شعر الرأس واللحية ويوصل الماء الى منابت ما كثف منه وما خف وليس على المرأة نقض الضفائر إلا إذا علمت أن الماء لا يصل الى خلال الشعور ويتعهد معاطف البدن والغسل الواجبُ بأربعة بخروج المنىّ والتقاء الختانين والحيض والنفاس وما عداه من الأغسال سنة كغسل العيدين والجمعة والاحرام والوقوف بعرفة ولدخول مكة ولمن غسل ميتا *

﴿ كيفية التيمم ﴾

من تعذر عليه استعمال الماء لفقده من بعد الطلب أو لمانع له عن الوصول اليه من سبع أو حابس أو كان الماء الحاضر يحتاج اليه لعطشه أو لعطش رفيقه أو كان ملكا لغيره ولم يبعه الا بأكثر من ثمن المثل أو كان به جراحة

أو مرض وخاف من استعماله فساد العضو أو شـدة الضنا فينبغي أن يصبر حتى يدخل عليـه وقت الفريضة ثم يقصد صعيدا طيبا عليـه تراب طاهر بحيث يثور منـه غبار ويضرب عليه كفيه ضاما بين أصابعـه ويمسح بهما جميع وجهه مرة واحدة ولا يكلف ايصال الغبار الى ما تحت الشعور خف أو كثف ثم ينزع خاتمه ويضرب ضربة ثانيـة ويفرج فيها بين أصابعـه ويمسح بكفه اليسرى يده اليمنى وبكفه اليمنى يده اليسرى واذا صلى به الفرض فله أن يتنفل كيف شاء ويعيد التيمم لفرض ثان *

﴿ القسم الثالث من النظافة التنظيف عن الفضلات الطاهرة ﴾

(وهي نوعان أوساخ وأجزاء)

﴿ النوع الأول الأوساخ والرطوبات المترشحة وهي ثمانية ﴾

(الأول) مايجتمع في شـعر الرأس من الدرن والقمل فالتنظيف عنـه مستحب بالغسل والترجيل والتدهين إزالة للشعث عنه وكان صلى الله عليه وسلم يدهن الشعر ويرجله غبا ويأمر به (الثاني) مايجتمع من الوسخ في معاطف الاذن . والمسح يزيل مايظهر منه وما يجتمع في قعر صماخي أذنيـه فينبغي أن ينظف برفق عند الخروج من الحمام (الثالث) ما يجتمع في داخل الأنف ويزيله بالاستنشاق والاستنثار (الرابع) ما يجتمع على الأسنان وطرف اللسان فيزيله السواك والمضمضة (الخامس) مايجتمع في اللحية من الوسـخ والقمل اذا لم يتعهد ويستحب إزالة ذلك بالغسـل

والتسريح بالمشط . وترك الشعث فى اللحية اظهارا للزهد وقلة المبالاة بالنفس محذور وتركه شغلا بما هو أهم منه محبوب . وهذه أحوال باطنة بين العبد وبين الله عزّ وجل . والناقد بصير والتلبيس غير رائج عليه بحال (السادس) وسخ البراجم وهى معاطف ظهور الأنامل كانت العرب لا تكثر غسل ذلك لتركها غسل اليد عقيب الطعام فيجتمع فى تلك الغضون وسخ فأمرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بغسل البراجم (السابع) تنظيف الرواجب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العرب بتنظيفها وهى رؤس الأنامل وما تحت الأظفار من الوسخ لأنها كانت لا يحضرها المقراض فى كل وقت فتجتمع فيها أوساخ (الثامن) الدرن الذى يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق وذلك يزيله الحمام *

﴿ آداب الحمّام ﴾

لا بأس بدخول الحمام * دخل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حمامات الشام وقال بعضهم . نِعْمَ البيت بيت الحمّام يطهر البدن ويذكر النار * روى ذلك عن أبى الدرداء وأبى أيوب الأنصاري رضى الله عنهما وقال بعضهم بِئسَ البيت بيت الحمام يبدى العورة ويذهب الحياء . فهذا تعرض لآفته . وذاك تعرض لفائدته . ولا بأس بطلب فائدته عند الاحتراز من آفته . ولكن على داخل الحمام وظائف من السنن والواجبات . فعليه واجبان فى عورته وواجبان فى عورة غيره أما الواجبان فى عورته فهو أن يصونها عن نظر الغير ويصونها عن مسّ الغير فلا يتعاطى أمرها وازالة

وسخها الا بيـده ويمنع الدلاك من مسّ الفخذ وما بين السرة الى العانة والواجبان فى عورة الغير أن يغض بصره نفسه عنها وأن ينهى عن كشفها . لان النهى عن الـكشف واجب وعليـه ذكر ذلك وليس عليـه القبول . وأما السنن فمنها النيـة وهو أن لايدخـل لعاجل دُنيا ولا عابثا لاجـل هوى بل يقصد به التنظف المحبوب تزينا للصلاة ويقـدم رجله اليسرى عنـد الدخول ولا يعجل بدخول البيت الحار حتى يعرق فى الأول وأن لا يكثر صب الماء بل يقتصر على قدر الحاجة فانه المأذون فيه بقرينة الحال والزيادة عليـه لو علمه الحمامى لـكرهه لاسيما الماء الحارّ فله مؤنة وفيـه تعب وأن يتذكر حر النار بحر الحمام ويقـدر نفسه محبوسا فى البيت الحارّ ساعة ويقيسه الى جهنم فانه أشبه بيت بجهنم . النار من تحت والظلام من فوق نعوذ بالله من ذلك . ولا بأس بأن يصافح الداخل ويقول عافاك الله ولا بأس بأن يدلـكه غيره ويغمز ظهره وأطرافه ثم مهما فرغ من الحمام شكر الله عزّ وجل على هـذه النعمة ويكره طبّا صب الماء البارد على الرأس عند الخروج وكذا شربه ويكره للمرأة دخوله الا لضرورة بمئزر سابغ *

﴿ النوع الثانى فيما يحدث فى البدن من الأجزاء وهى ثمانية ﴾

(الاول شعر الرأس) ولا بأس بحلقه لمن أراد التنظيف ولا بأس بتركه لمن يدهنه ويرجله (الثاني شعر الشارب) يندب قص ما طال عن الشفة منه ولا بأس بترك السّبالين (الثالث شـعر الابط) تستحب ازالته فى كل أربعين يوما فأقل (الرابع شعر العانة) تستحب ازالتـه بالحلق أو بالنورة فى

المدة المتقدمة (الخامس الأظفار) وتقليمها مستحب لشناعة صورتها اذا طالت ولما يجتمع فيها من الوسخ وليس في ترتيب قلمها مروىّ صحيح (السادس والسابع) زيادة السرّة وقلفة الحشفة أما السرة فتقطع فى أول الولادة وأما التطهير بالختان فلا بأس به فى اليوم السابع من الولادة وان خيف منه خطر فالاولى تأخيره (الثامن) ماطال من اللحية روى عن بعض الصحابة والتابعين أخذ ما زاد عن القبضة وقال آخرون تركها عافية أحب . والامر فى هذا قريب ان لم ينته الى الطول المفرط فانه قد يشوه الخلقة ويطلق ألسنة المغتابين بالنبز اليه فلا بأس بالاحتراز عنه على هذه النية وفى اللّحية عشر خصال مكروهة وبعضها أشد كراهة من بعض . خضابها بالسواد وتبييضها بالكبريت ونتفها.ونتف الشيب منها والنقصان والزيادة فيها وتسريحها تصنعا لأجل الرياء وتركها شعثة اظهارا للزهد والنظر الى سوادها عجبا بالشباب والى بياضها تكبرا بعلوّ السن وخضابها بالحمرة من غير نية تشبها بالصالحين . فأما الخضاب بالسواد فقد روى فيه نهى لأنه قد يفضي الى الغرور والتلبيس . وأما تبييضها بالكبريت فقد يكون استعجالا لاظهار علوّ السن توصلا الى التوقير . وترفعا عن الشباب واظهارًا لكثرة العلم ظنا بأن كثرة الايام تعطيه فضلا وهيهات فلا يزيد كبر السن الجاهل الا جهلا . فالعلم ثمرة العقل وهى غريزة ولا يؤثر الشيب فيها . ومن كانت غريزته الحمق فطول المدة يؤكد حماقته . وقد كان الشيوخ يقدمون الشباب بالعلم . كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقدم ابن عباس وهو حديث السن

على أكابر الصحابة ويسأله دونهم . وقال ابن عباس رضي الله عنه ما آتى الله عز وجل عبده علما الا شابا والخير كله في الشباب ثم تلا قوله عز وجل ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ وقوله تعالى ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ وقال أيوب السختياني. أدركت الشيخ ابن ثمانين سنة يتبع الغلام يتعلم منه . وقيل لابي عمرو بن العلاء أيحسن من الشيخ أن يتعلم من الصغير فقال ان كان الجهل يقبح به فالتعلم يحسن به *

﴿ باب أسرار الصلاة ومهماتها ﴾

الصلاة عماد الدين وعصام اليقين وسيدة القربات وغرة الطاعات وقد استقصيت أصولها وفروعها في فن الفقه فنقتصر هنا على مالابد منه للمريد من أعمالها الظاهرة وأسرارها الباطنة *

﴿ فضيلة الأذان ﴾

قال صلى الله عليه وسلم ﴿ لاَ يَسْمَعُ نِدَاءَ الْمُؤَذِّنِ جِنٌّ وَلاَ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ إِلاَّ شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إِذَا سَمِعْتُمُ النِّدَاءَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ الْمُؤَذِّنُ ﴾ وذلك محبوب مستحب الا في الحيعلتين فانه يقول فيهما لا حول ولا قوة الا بالله وفي قوله قد قامت الصلاة . أقامها الله وأدامها . وفي التثويب أي قول مؤذن الفجر الصلاة خير من النوم ـ صدقت وبررت وعند الفراغ يقول ﴿ اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة

القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته ﴾

﴿ فضيلة المكتوبة ﴾

قال الله تعالى (إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ ﴾ وسئل صلى الله عليه وسلم أيّ الاعمال أفضل فقال ﴿ الصَّلَاةُ لِمَوَاقِيتِهَا ﴾ وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول اذا حضرت الصلاة قوموا الى ناركم التى أوقدتموها فاطفئوها *

﴿ فضيلة اتمام الاركان ﴾

قال صلى الله عليه وسلم ﴿ مَنْ صَلَّى صَلَاةً لِوَقْتِهَا وَأَسْبَغَ وُضُوءَهَا وَأَتَمَّ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا وَخُشُوعَهَا عَرَجَتْ وَهِيَ بَيْضَاءُ مُسْفِرَةٌ تَقُولُ حَفِظَكَ اللهُ كَمَا حَفِظْتَنِي وَمَنْ صَلَّى لِغَيْرِ وَقْتِهَا وَلَمْ يُسْبِغْ وُضُوءَهَا وَلَمْ يُتِمَّ رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا وَلَا خُشُوعَهَا عَرَجَتْ وَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ تَقُولُ ضَيَّعَكَ اللهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي حَتَّى إِذَا كَانَتْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ لُفَّتْ كَمَا يُلَفُّ الثَّوْبُ الْخَلِقُ فَيُضْرَبُ بِهَا وَجْهُهُ ﴾ *

﴿ فضيلة الجماعة ﴾

قال صلى الله عليه وسلم ﴿ صَلَاةُ الْجَمْعِ تَفْضُلُ صَلَاةَ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً ﴾ وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم فقد ناسا فى

فى بعض الصلوات فقال ﴿ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ رَجُلاً يُصَلِّي بِالنَّاسِ ثُمَّ اخَالِفُ إِلَى رِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنْهَا فَأُحَرِّقُ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ ﴾ . وقال عثمان رضى الله عنه مرفوعا من شهد العشاء فكأنما قام نصف ليلة ومن شهد الصبح فكانما قام ليلة وقال محمد بن واسع . ما اشتهى من الدنيا الا ثلاثة أخا ان تعوّجت قوّمنى . وقوتا من الرزق عفوا بغير تبعة . وصلاة في جماعة يرفع عنى سهوها ويكتب لى فضلها وقال الحسن . لا تصلوا خلف رجل لا يختلف الى العلماء وقال ابن عباس رضي الله عنه . من سمع المنادى فلم يجب لم يرد خيرا ولم يرد به *

﴿ فضيلة السجود ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلاَّ رَفَعَهُ اللهُ بِهَا دَرَجَةً وحَطَّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاء ﴾ وقال تعالى ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ يعنى نور الخشوع فانه يشرق من الباطن على الظاهر *

﴿ وجوب الخشوع ﴾

قال الله تعالى ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى ﴾ ـ ظاهر الأمر الوجوب . والغفلة تضاد الذكر فمن غفل فى صلاته كيف يكون مقيما لها لذكره تعالى وقال سبحانه ﴿ وَلاَ تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ وقال تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ

فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ جعل أول مراتب الفلاح الخشوع في الصلاة اعلاما بان من فقده فهو بمراحل عن الفوز والنجاح الذى هو معنى الفلاح . وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّمَا الصَّلَاةُ تَمَسْكُنٌ وَتَوَاضُعٌ وَتَضَرُّعٌ وَتَضَعُ يَدَيْكَ تَقُولُ اللَّهُمَّ اللَّهُمَّ فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَهِيَ خِدَاجٌ ﴾ وروى من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا . وحكى عن مسلم بن يسار انه كان يصلى فى مسجد البصرة فسقط حائط المسجد ففزع أهل السوق لهدته فما التفت ولماهنئ بسلامته عجب وقال ما شعرت بها. وقال ابن عباس ركعتان فى تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه *

﴿ فضيلة المسجد وموضع الصلاة ﴾

قال الله عز وجل ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ مَنْ بَنَى لِلهِ مَسْجِدًا وَلَوْ كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ[1] بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتاً فِى الْجَنَّةِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إِذَا دَخَلَ احَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَجْلِسَ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لاَ صَلَاةَ لِجَارِ الْمَسْجِدِ إِلاَّ فِى الْمَسْجِدِ ﴾ وقال صلى الله عليه

---

(١) أى مجتمعها لتضع فيه بيضها وترقد عليه كأنها تفحص عنه التراب أى تكشفه وحمله الأكثر على المبالغة وقيل بان يزيد فى المسجد قدرا يحتاج اليه كمفحصها أو على الاشتراك من جماعة فى بنائه فتقع حصة كل واحد كذلك القدر اه

وسلم ﴿ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَتَحَلَّقُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ وَلَيْسَ هَمُّهُمْ إِلاَّ الدُّنْيَا وَلَيْسَ للهِ فِيهِمْ حَاجَةٌ فَلاَ تُجَالِسُوهُمْ ﴾

﴿ أعمال الصلاة الظاهرة ﴾

اذا فرغ المصلى من الوضوء والطهارة من الخبث فى البدن والمكان والثياب وستر العورة من السرة الى الركبة فعليه أن ينتصب قائما متوجها الى القبلة وليقرب من جدار الحائط. فان ذلك يقصر مسافة البصر ويمنع تفرق الفكر وليحجر على بصره أن يجاوز موضع سجوده . وليدم هذا القيام كذلك الى الركوع من غير التفات ثم ينوى أداء الصلاة بقلبه ويرفع يديه الى حذو منكبيه مقبلا بكفيه الى القبلة ويبسط الاصابع ولا يقبضها ولا يتكلف فيها تفريجا ولا ضما بل يتركها على مقتضى طبعها ويكبر ثم يضع اليدين على صدره ويضع اليمنى على اليسرى ولا ينفض يديه اذا فرغ من التكبير بل يرسلهما ارسالا خفيفا رفيقا وينبغى أن يضم الهاء من قوله (اللهُ) ضمة خفيفة من غير مبالغة . ولا يدخل بين الهاء والالف شبه الواو ولا بين باء أكبر وراءه ألفا كانه يقول (اكبار) ويجزم راء التكبير ولا يضمها *

﴿ القراءة ﴾

ثم يبتدئ بدعاء الاستفتاح عقب التكبير قائلا : الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلا . أو ﴿ وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا مسلما وما أنا من المشركين ان صلاتى ونسكى

ومحياي ومماتي لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين﴾ أو : سبحانك اللهم . وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وجل ثناؤك ولا إله غيرك . ثم يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم يقرأ الفاتحة ويقول بعدها آمين ولا يصلها بقوله (ولا الضالين) ويجهر بالقراءة في الصبح والمغرب والعشاء الا أن يكون مأموما ويجهر بالتأمين ثم يقرأ السورة أو قدر ثلاث آيات من القرآن فما فوقها . ولا يصل آخر السورة بتكبيرة الهوىّ بل يفصل بينهما بقدر قوله سبحان الله ويقرأ في الصبح من السور الطوال من المفصل وفي المغرب من قصاره وفي الظهر والعصر والعشاء من أوساطه . وفي الصبح في السفر قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد . وكذلك في ركعتي الفجر والطواف والتحية *

﴿ الركوع ولواحقه ﴾

ثم يركع ويراعي فيه أموراً وهو أن يكبر للركوع * وان يرفع يديه مع تكبيرة الركوع * وأن يمد التكبير الى تمام الركوع * وأن يضع راحتيه على ركبتيه في الركوع وأصابعه منشورة موجهة نحو القبلة على طول الساق * وأن ينصب ركبتيه ولا يثنيهما * وأن يمد ظهره مستويا لايكون رأسه أخفض ولا أرفع وأن يجافي مرفقيه عن جنبيه * وتضم المرأة مرفقيها الى جنبيها * وأن يقول (سبحان ربي العظيم) ثلاثا والزيادة الى السبعة والى العشرة حسن ان لم يكن إماما ثم يرتفع من الركوع الى القيام ويرفع يديه ويقول (سمع الله لمن حمده) ويطمئن في الاعتدال ويقول (ربنا لك الحمد ملء السموات

والارض وملء ما بينهما وملء ماشئت من شئ بعد) ويقنت فى الصبح فى الركعة الثانية بالكلمات المأثورة *

﴿ السجود ﴾

ثم يهوى الى السجود مكبراً فيضع ركبتيه على الارض ويضع جبهته وكفيه مكشوفة ويكبر عند الهوى ولا يرفع يديه مع غير الركوع ويجافى مرفقيه عن جنبيه ولا تفعل المرأة ذلك ويفرج بين رجليه ولا تفعل المرأة ذلك ويرفع بطنه عن فخذيه ولا تفعل المرأة ذلك ويضع يديه على الأرض حذاء منكبيه ولا يفرج بين أصابعهما بل يضمهما ولا يفترش ذراعيه على الأرض وان يقول (سبحان ربي الاعلى) ثلاثا فان زاد فحسن إلا أن يكون إماما ثم يرفع من السجود فيطمئن جالسا معتدلا فيرفع رأسه مكبراً ويجلس على رجله اليسرى وينصب قدمه اليمنى ويضع يديه على فخذيه والاصابع منشورة ولا يتكلف ضمها ولا تفريجها ويقول : رب اغفر لي وارحمنى وارزقنى واهدنى واجبرنى وعافنى واعف عنى ويأتى بالسجدة الثانية كذلك ويصلى الركعة الثانية كالاولى ويعيد التعوذ فى الابتداء *

﴿ التشهد ﴾

ثم يتشهد فى الركعة الثانية التشهد الاول ثم يصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى ويقبض أصابعه اليمنى الا المسبحة ويشير بها عند قوله (إلا الله) ويجلس فى هذا التشهد على رجله

اليسرى كما بين السجدتين وفى التشهد الاخير يستكمل الدعاء المأثور بعد الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ويجلس فيه على وركه الايسر لانه ليس مستوفزاً للقيام بل هو مستقر ويضع رجله اليسرى خارجة من تحته وينصب اليمنى ثم يقول (السلام عليكم ورحمة الله) ويلتفت يمينا بحيث يُرى خده الايمن وشمالا كذلك وينوى بالسلام من على يمينه من الملائكة والمسلمين فى الاولى وينوى مثل ذلك فى الثانية ولا يرفع صوته إلا بقدر مايسمع روحه *

﴿ المنهيات ﴾

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة الحاقن والحاقب والحازق وعن صلاة الجائع والمتلثم فأما الحاقن فمن البول والحاقب من الغائط والحازق صاحب الخف الضيق فان كل ذلك يمنع الخشوع وفى معناه الجائع والمهتم وفهم نهى الجائع من قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِذَا حَضَرَ ٱلْعَشَاءُ وَأُقِيمَتِ ٱلصَّلَاةُ فَٱبْدَؤُوا بِالعشاء ﴾ والنهى عن التلثم من حديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغطى الرجل فاه في الصلاة . وقال الحسن كل صلاة لايحضر فيها القلب فهى الى العقوبة أسرع ويكره أيضا أن ينفخ فى الارض عند السجود وأن يسوى الحصا بيده وأن يستند فى قيامه الي حائط وقال بعض السلف أربعة فى الصلاة من الجفاء الالتفات ومسح الوجه وتسوية الحصا وأن تصلى بطريق من يمر بين يديك *

﴿ تمييز الفرائض والسنن ﴾

ماتقدم يشتمل على فرائض وسنن وهيئات فالسنن من الافعال رفع اليدين في تكبيرة الاحرام وعند الهوى الى الركوع وعند الرفع منه والجلسة للتشهد الاول والتورك والافتراش هيئات تابعة للجلسة . وترك الالتفات هيئة للقيام وتحسين لصورته . والسنن من الاذكار دعاء الاستفتاح والتعوذ وقول آمين وقراءة السورة وتكبيرات الانتقالات والذكر فى الركوع والسجود والاعتدال والتشهد الاول والصلاة فيه على النبى صلوات الله عليه والدعاء فى التشهد الاخير والتسليمة الثانية ــ هذه السنن وما عداها فهو واجب * واعلم أن الصلاة كالانسان فروحها وحياتها أعنى الخشوع وحضور القلب والاخلاص كروح الانسان وحياته وأركانها تجرى منها مجرى قلبه ورأسه وكبده اذ يفوت وجود الصلاة بفواتها كما ينعدم الانسان بعدمها . والسنن تجرى منها مجرى اليدين والعينين والرجلين منه فهى لا تفوت الحياة بفواتها ولكن يصير المرء بفقدها مشوه الخلقة مذموما والهيئات تجرى مجرى أسباب الحسن من الحاجبين واللحية والاهداب وحسن اللون ونحوها فمن اقتصر على أقل مايجزئ من الصلاة كان كمن أهدى الى ملك من الملوك عبدا مقطوع الاطراف فالصلاة قربة وتحفة تتقرب بها الى حضرة ملك الملوك كوصيفة يهديها طالب القربة من السلاطين اليهم وهذه التحفة تعرض على الله عز وجل ثم ترد عليك يوم العرض الاكبر فاليك الخيرة فى تحسين صورتها وتقبيحها فان أحسنت فلنفسك وان أسأت فعليها *

﴿ بيان الشروط الباطنة من أعمال القلب ﴾

(اشتراط الخشوع وحضور القلب)

اعلم أن أدلة ذلك كثيرة فمن ذلك قوله تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ وظاهر الامر الوجوب. والغفلة تضاد الذكر فمن غفل فى جميع صلاته كيف يكون مقيما للصلاة لذكره وقوله تعالى ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ نهى وظاهره التحريم وقوله تعالى ﴿ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ تعليل لنهى السكران وهو مطرد فى الغافل المستغرق الهم بالوسواس وأفكار الدنيا وقوله صلى الله عليه وسلم (إِنَّمَا الصَّلَاةُ تَمَسْكُنٌ وَتَوَاضُعٌ) حصر بالالف واللام وكلمة انما للتحقيق والتوكيد * وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا ﴾ وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء والمنكر . وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ كَمْ مِنْ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صَلَاتِهِ التَّعَبُ وَالنَّصَبُ ﴾ وما أراد به الا الغافل . وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لَيْسَ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا مَا عَقَلَ مِنْهَا ﴾ والتحقيق فيه أن المصلى مناج ربه عز وجل ـ كما ورد به الخبر ـ والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة ولو حلف الانسان وقال لاشكرن فلانا وأثنى عليه وأسأله حاجة ثم جرت الالفاظ الدالة على هذه المعانى على لسانه فى النوم لم يبر فى يمينه ولو جرت على لسانه فى ظلمة وذلك الانسان حاضر وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لا يصير باراً فى يمينه اذ لا يكون كلامه خطابا ونطقا معه ما لم يكن هو حاضرا

فى قلبه فلو كان تجرى هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر الا انه في بياض النهار غافل لكونه مستغرق الهمّ بفكر من الافكار ولم يكن له قصد يوجه الخطاب اليه عند نطقه لم يصر بارا فى يمينه ولا شك فى أن المقصود من القراءة والاذكار الحمد والثناء والتضرع والدعاء والمخاطب هو الله عز وجل والقلب بحجاب الغفلة محجوب عنه فلا يراه ولا يشاهده بل هو غافل عن المخاطب واللسان يتحرك بحكم العادة فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التى شرعت لتصقيل القلب وتجديد ذكر الله عز وجل ورسوخ عقد الأيمان به . وبالجملة فحضور القلب هو روح الصلاة . ومن عرف سرّ الصلاة علم أن الغفلة تضادّها *

﴿ بيان المعانى الباطنة التى بها تتميز حياة الصلاة ﴾

يجمع تلك المعانى على كثرتها ستة جمل . حضور القلب . والتفهم والتعظيم . والهيبة . والرجاء . والحياء . فلنذكر تفاصيلها ثم أسبابها ثم العلاج فى اكتسابها*

(أما التفاصيل) فالأول حضور القلب ونعنى به أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به فيكون العلم بالفعل والقول مقرونا بهما ولا يكون الفكر جائلا فى غيرهما . والتفهم لمعنى الكلام أمر وراء حضور القلب وهو اشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ . وكم من معان لطيفة يفهمها المصلى فى أثناء الصلاة تمنعه عن الفحشاء والمنكر . والتعظيم وراء الحضور والفهم زائد عليهما . والهيبة زائدة على التعظيم وهى عبارة عن خوف منشؤه التعظيم

والاجلال . والرجاء الطمع بمثوبتـه تعالى ويقابله الخوف من عقـابه تعالى بتقصيره . والحياء استشعار تقصيره وتوهم ذنب *

(وأما أسباب هذه المعانى الستة) فاعلم أن حضور القلب سببه الهمة فان قلبك تابع لهمتك فلا يحضر إلا فيما يهمك ومهما أهمك أمر حضر القلب فيه شاء أم أبى فهو مجبول على ذلك ومسخر فيه والقلب اذا لم يحضر فى الصلاة لم يكن متعطلا بل جائلا فيما الهمة مصروفة اليه من أمور الدنيا فلا حيلة ولا علاج لاحضار القلب إلا بصرف الهمة الى الصلاة والهمة لا تنصرف اليها ما لم يتبين أن الغرض المطلوب منوط بها وذلك هو الايمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى وأن الصلاة وسيلة اليها *

(وأما التفهم) فسببه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن الى إدراك المعنى وعلاجه ما تقدم مع الاقبال على الفكر والتشمر لدفع الخواطر وعلاج دفعها قطع موادّها أعنى النزوع عن تلك الاسباب التى تنجذب الخواطر اليها *

(وأما التعظيم) فهى حالة للقلب تتولد من معرفتين * إحداهما معرفة جلال الله عز وجل وعظمته وهو من أصول الايمان * الثانية معرفة حقـارة النفس وخستها وكونها عبدا مسخرا مربوبا حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه فيعبر عنه بالتعظيم *

(وأما الهيبة والخوف) فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيئته فيـه مع قلة المبـالاة به وإنه لو أهلك الأولين والآخرين لم

ينقص من ملـكه ذرّة وكلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة *

(وأما الرجاء) فسببه معرفة لطف الله عزوجل وكرمـه وعميم إنعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه فى وعده الجنة بالصلاة فاذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعهما الرجاء لا محالة *

(وأما الحياء) فباستشعاره التقصير فى العبادة وعلمه بالعجز عن القيام بعظم حق الله عز وجل ويقوى ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها وقلة إخلاصها وميلها الى الحظ العاجل فى جميع أفعالهـا مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله عز وجـل والعلم بأنه مطلع على السرّ وخطرات القلب وإن دقت وخفيت وهـذه المعارف إذا حصلت يقينا انبعث منهـا بالضرورة حالة تسمى الحياء فهذه أسـباب هذه الصفات وكل ما طلب تحصيله فعلاجه إحضار سببه ففى معرفة السبب معرفة العلاج . ورابطة جميع هذه الاسباب الايمان واليقين *

﴿ بيان الدواء النافع فى حضور القلب ﴾

إعلم أن المؤمن لابد أن يكون معظما لله عز وجل وخائفا منه وراجيا له ومستحيا من تقصيره فلا ينفك عن هذه الاحوال بعد إيمـانه وإن كانت قوّتها بقدر قوّة يقينه فانفكاكه عنها فى الصلاة لا سبب له إلا تفرق الفـكر وتقسيم الخاطر وغيبة القلب عن المنـاجاة والغفلة عن الصلاة ولا ينهى عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة فالدواء فى إحضـار القلب هو دفع تلك الخواطر ولا يدفع الشىء إلا بدفع سببه فلتعلم سببه *

وسبب موارد الخواطر إما أن يكون أمرا خارجا أو أمرا باطنا * أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر فان ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه و ينصرف فيه ثم تنجرّ منه الفكرة الى غيره و يتسلسل ويكون الابصار سببا للافتكار ومن قويت نيته وعلت همته لم يلهه ما جرى على حواسه ولكن الضعيف لا بدّ وأن يتفرّق به فكره وعلاجه قطع هذه الاسباب بأن يغض بصره أو لا يترك بين يديه ما يشغل حسه ويقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره ويحترز من الصلاة على الشوارع وفى المواضع المنقوشة المصنوعة وعلى الفرش المصبوغة . وأما الأسباب الباطنة فهى أشدّ فان من تشعبت به الهموم فى أودية الدنيا لم ينحصر فكره فى فن واحد بل لا يزال يطير من جانب الى جانب فهذا طريقه ان يرد النفس قهرا الى فهم ما يقرأه في الصلاة و يشغلها به عن غيره و يعينه على ذلك أن يستعدّ له قبل التحريم بأن يجدّد على نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدى الله سبحانه وهول المُطَّلَع ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه فلا يترك لنفسه شغلا يلتفت اليه خاطره *

فان كان لا يسكن هائج أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا ينجيه إلا المسهل الذى يقمع مادة الداء من أعماق العروق وهو أن ينظر فى الأمور الصارفة عن إحضار القلب ـ ولا شك أنها تعود الى مهماته ـ وأنها إنما صارت مهمات بشهواته ـ فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق كما روى أنه صلى الله عليه وسلم لما لبس الخميصة التى أتاه بها أبو جهم

وعليها علم وصلى بها نزعها بعد صلاته وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إِذْهَبُوا بِهَا إلى أبِي جَهْمٍ فَإِنَّها أَلْهَتْنِي آنِفاً عَنْ صَلَاتِي وَآتُونِي بِإِنْبِجَانِيَّةِ أَبِي جَهْمٍ ﴾

﴿ بيان تفصيل ما ينبغي ان يحضر فى القلب عند كل ركن وشرط من اعمال الصلاة ﴾

اذا سمعت نداء المؤذن فاحضر فى قلبك هول النداء يوم القيامة وتشمر بظاهرك وباطنك للاجابة والمسارعة فان المسارعين الى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الاكبر . وأما الطهارة فاذا أتيت بها فى مكانك وهو ظرفك الأبعد ثم فى ثيابك وهو غلافك الأقرب ثم في بشرتك وهو قشرك الأدنى فلا تغفل عن لبّك الذى هو ذاتك وهو قلبك فاجتهد له تطهرا بالتوبة والندم على ما فرّطت وتصميم العزم على الترك فى المستقبل فطهّر بها باطنك فانه موقع نظر معبودك (وأما ستر العورة) فاعلم أن معناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق فان ظاهر بدنك موقع لنظر الخلق فما بالك فى عورات باطنك وفضائح سرائرك التى لا يطلع عليها إلا ربك عز وجل فاحضر تلك الفضائح ببالك وطالب نفسك بسترها وتحقق أنه لا يستر عن عين الله سبحانه ساتر وانما يكفرها الندم والحياء والخوف فتستفيد باحضارها فى قلبك انبعاث وجود الخوف والحياء من مكامنها فتذل به نفسك ويستكن تحت الخجلة قلبك وتقوم بين يدى الله عز وجل قيام العبد المجرم المسىء الآبق الذى ندم فرجع الى مولاه ناكسا رأسه من الحياء والخوف *

(وأما الاستقبال) فهو صرف لظاهر وجهك عن سائر الجهات الى جهة بيت الله تعالى . أفترى أن صرف القلب من سائر الأمور الى أمر الله عز وجل ليس مطلوبا منك هيهات . فلا مطلوب سواه . وانما هذه الظواهر تحريكات للبواطن وضبط للجوارح وتسكين لها بالاثبات فى جهة واحدة حتى لا تبغي على القلب فانها إذا بغت وظلمت فى حركاتها والتفاتها الى جهاتها استتبعت القلب وانقلبت به عن وجه الله عز وجل فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك فاعلم أنه كما لا يتوجه الوجه الى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها فلا ينصرف القلب الى الله عز وجل إلا بالتفرغ عما سواه *

(وأما الاعتدال قائما) فانما هو مثول بالشخص والقلب بين يدى الله عز وجل تنبيها على إلزام القلب التواضع والتذلل والتبرؤ عن الترؤس والتكبر مع ذكر خطر القيام بين يدى الله عز وجل فى هول المطلع عند العرض للسؤال . واعلم فى الحال أنك قائم بين يدى الله عز وجل وهو مطلع عليك فقم بين يديه قيامك بين يدى بعض ملوك الزمان إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله *

(وأما النية) فعزم على إجابة الله عز وجل فى امتثال أمره بالصلاة وإتمامها رجاء لثوابه وخوفا من عقابه وطلبا للقربة منه متقلدا للمنة منه باذنه لك فى المناجاة مع كثرة عصيانك . فعظّم فى نفسك قدر مناجاته وانظر من تناجي وكيف تناجي وبماذا تناجي . وعند هذا ينبغى أن يعرق جبينك من الخجل وترتعد فرائصك من الهيبة ويصفرّ وجهك من الخوف *

(وأما التكبير) فاذا نطق به لسانك فينبغى أن لا يكذبه قلبك فان كان فى قلبك شيء هو أكبر من الله سبحانه أو كان هواك أغلب عليك من أمر الله عز وجل وأنت أطوع له منك لله تعالى فقد اتخذته إلهك وكبرته فيكون قولك (الله أكبر) كلاماً باللسان المجرد وقد تخلف القلب عن مساعدته. وما أعظم الخطر فى ذلك لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرمه سبحانه وعفوه

(وأما دعاء الاستفتاح) فأول كلماته قولك (وجَّهتُ وجهى للذى فطر السموات والأرض) وليس المراد بالوجه الوجه الظاهر فانك انما وجهته الى جهة القبلة . والله سبحانه يتقدس عن أن تحده الجهات حتى تقبل بوجه بدنك عليه . وانمــا وجه القلب هو الذى تتوجه به الى فاطر السموات والأرض فانظر اليه أمتوجه الى أمانيه وهمه فى البيت والسوق متبع للشهوات أو مقبــل على فاطر السموات . وإياك أن تكون أوّل مفاتحتك للمناجاة بالكذب ولن ينصرف الوجه الى الله تعالى إلا بانصرافه عما سواه فاجتهد فى الحال فى صرفه اليه وإن عجزت عنه على الدوام فليكن قولك في الحال صادقا . واذا قلت (حَنيفاً مُسلما) فينبغي أن يخطر ببالك أن المسلم هو الذى سلم المسلمون من لسانه ويده فان لم تكن كذلك كنت كاذبا فاجتهد فى أن تعزم عليه فى الاستقبال وتندم على ما سبق من الاحوال . واذا قلت (وما أنا من المشركين) فأخطر ببالك الشرك الخفى كمن يقصد بعبادته وجه الله وحمد الناس . فكن حذرا متقيا من هذا الشرك واستشعر الخجلة فى قلبك إن وصفت نفسك بأنك لست من المشركين من غير براءة عن هذا الشرك فان اسم الشرك يقع على القليل والكثير

منه . واذا قلت (محياى ومماتى لله) فاعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه موجود لسيده وانه ان صدر ممن رضاه وغضبه وقيامه وقعوده ورغبته فى الحياة ورهبته من الموت لامور الدنيا لم يكن ملائما للحال . واذا قلت (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) فاعلم انه عدوك ومترصد لصرف قلبك عن الله عز وجل حسداً لك على مناجاتك مع الله عز وجل وسجودك له مع انه لعن بسبب سجدة واحدة تركها . وأنّ استعاذتك بالله سبحانه منه بترك مايحبه وتبديله بما يحب الله عز وجل لا بمجرد قولك . فان من قصده سبع أو عدوّ ليفترسه أو ليقتله فقال أعوذ منك بهذا الحصن الحصين وهو ثابت على مكانه ذلك لاينفعه بل لايفيده الا بتبديل المكان فكذلك من يتبع الشهوات التى هى محابّ الشيطان ومكاره الرحمن فلا يغنيه مجرد القول ، ومن اتّخذ إلهه هواه فهو فى ميدان الشيطان لافى حصن الله تعالى . واعلم ان من مكايده أن يشغلك فى صلاتك بذكر الآخرة وتدبير فعل الخيرات ليمنعك عن فهم ماتقرأ . فاعلم ان كل مايشغلك عن فهم معانى قراءتك فهو وسواس فان حركة اللسان غير مقصودة بل المقصود معانيها . فاذا قلت (بسم الله الرحمن الرحيم) فانو به التبرك لابتداء القراءة لكلام الله سبحانه وافهم ان معناها ان الامور كلها بالله سبحانه . واذا كانت الامور به تعالى فلا جرم كان (الحمد لله) ومعناه ان الشكر لله اذ النعم من الله ومن يرى من غير الله نعمة أو يقصد غير الله سبحانه بشكره لا من حيث انه مسخر من الله عز وجل ففى تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته الى غير الله تعالى . فاذا قلت (الرحمن الرحيم) فاحضر

فى قلبك جميع أنواع لطفه لتتضح لك رحمتـه فينبعث به رجاؤك . ثم استثر من قلبك التعظيم والخوف بقولك (مالك يوم الدين) أما العظمة فلانه لا ملك إلا له وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذى هو مالـكه . ثم جـدد الاخلاص بقولك (اياك نعبد) وجدد العجز والاحتياج والتبرئ من الحول والقوة بقولك (واياك نستعين) وتحقق انه ما تيسرت طاعتك الا باعانته وأن له المنة اذ وفقك لطاعته . ثم عين سؤالك ولا تطلب الا أهمّ حاجتك وقل (اهدنا الصراط المستقيم) الذى يسوقنا الى جوارك ويفضي بنا الى مرضاتك وزده شرحا وتفصيلا وتأكيدا واستشهادا بالذين أفاض عليهم نعمة الهداية من النبيين والصـديقين والشهداء والصالحين دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين . ثم التمس الاجابة وقل (آمين) ولو لم يكن لك من صلاتك حظ سوى ذكر الله فى جلاله وعظمته فناهيك بذلك غنيمة فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله ـ وكذلك ينبغى أن تفهم ما تقرأه من السور فلا تغفل عن أمره ونهيه ووعـده ووعيده ومواعظه واخبار أنبيائه وذكر منتـه واحسانه ولـكل واحد حق . فالرجاء حق الوعد . والخوف حق الوعيد . والعزم حق الأمر والنهى . والاتعاظ حق الموعظة . والشكر حق المنة . والاعتبار حق أخبار الانبياء . وتكون هذه المعانى بحسب درجات الفهم ويكون الفهم بحسب وفور العلم وصفاء القلب . ودرجات ذلك لا تنحصر . والصلاة مفتاح القلوب فيهـا تنكشف أسرار الـكلمات فهـذا حق القراءة وهو حق الأذكار والتسبيحات أيضاً * ثم يراعى الهيبة فى القراءة فيرتل ولا يسرد فان ذلك أيسر للتأمل

(وأما دوام القيام) فانه تنبيه على اقامة القلب مع الله عز وجل على نعت واحد من الحضور قال صلى الله عليه وسلم (إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مُقْبِلٌ عَلَى الْمُصَلِّى مَالَمْ يَلْتَفِتْ) وكما تجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات الى الجهات فكذلك تجب حراسة السر من الالتفات الى غير الصلاة فاذا التفت الى غيره فذكره باطلاع الله عليك و بقبح التهاون بالمناجي عند غفلة المناجى ليعود اليه . وألزم الخشوع للقلب فان الخلاص عن الالتفات باطنا وظاهرا ثمرة الخشوع . ومهما خشع الباطن خشع الظاهر قال صلى الله عليه وسلم وقد رأى رجلا مصليا يعبث بلحيته (أَمَا هٰذَا لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ فَانَّ الرَّعِيَّةَ بِحُكْمِ الرَّاعِى) ولهذا ورد فى الدعاء اللهم اصلح الراعى والرعية وهو القلب والجوارح *

(وأما الركوع والسجود) فينبغى أن تجدّد عندهما ذكر كبرياء الله سبحانه وترفع يديك مستجيراً بعفو الله عزّ وجلّ من عقابه ثم تستأنف له ذلا وتواضعا بركوعك . وتجتهد فى ترقيق قلبك وتجديد خشوعك وتستشعر ذلك وعزّ مولاك واتضاعك وعلوّ ربك وتستعين على تقرير ذلك فى قلبك بلسانك فتسبح ربك وتشهد له بالعظمة وانه أعظم من كل شئ عظيم وتكرر ذلك على قلبك لتؤكده بالتكرار . ثم ترتفع من ركوعك مؤكداً للرجاء فى نفسك بقولك (سمع الله لمن حمده) أى أجاب لمن شكره ثم تردف ذلك بالشكر المتقاضى للمزيد فتقول (ربنا لك الحمد) وتكثر الحمد بقولك (ملء السموات وملء الأرض) ثم تهوى الى السجود وهو أعلى درجات الاستكانة فتمكن أعزّ أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب.

وان أمكنك أن لاتجعل بينهما حائلا فتسجد على الأرض فافعل فانه أجلب للخشوع وأدلّ على الذل واذا وضعت نفسك موضع الذل فاعلم انك وضعتها موضعها ورددت الفرع الى أصله وانك من التراب خلقت واليه تعود . فعند هذا جدّد على قلبك عظمة الله وقل (سبحان ربى الأعلى) وأكده بالتكرار فان الكرة الواحدة ضعيفة الآثار فاذا رق قلبك وظهر ذلك فلتصدق رجاءك فى رحمة الله فان رحمته تسارع الى الضعف والذل لا الى التكبر والبطر فارفع رأسك مكبرا وسائلا حاجتك وقائلا (رب اغفر وارحم) ثم أكد التواضع بالتكرار فعد الى السجود ثانيا كذلك *

(وأما التشهد) فاذا جلست له فاجلس متأدبا وصرح بأن جميع ما تدلى به من الصلوات والطيبات أى من الأخلاق الطاهرة لله وكذلك الملك لله وهو معنى التحيات . واحضر فى قلبك النبى صلى الله عليه وسلم وقل (سلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) وليصدق أملك فى أنه يبلغه ويرد عليك ماهو أوفى منه . ثم تسلم على نفسك وعلى عباد الله الصالحين ثم تأمل أن يرد الله سبحانه عليك سلاما وافيا بعدد عباده الصالحين . ثم تشهد له تعالى بالوحدانية ولمحمد نبيه صلى الله عليه وسلم بالرسالة : مجددا عهد الله سبحانه باعادة كلمتى الشهادة ومستأنفا للتحصن بها . ثم ادع فى آخر صلاتك بالدعاء المأثور مع التواضع والخشوع والضراعة والابتهال وصدق الرجاء بالاجابة . واشرك فى دعائك أبويك وسائر المؤمنين واقصد عند التسليم السلام على الملائكة والحاضرين وانو ختم الصلاة به واستشعر شكر الله

سبحانه على توفيقه لاتمام هذه الطاعة . ثم اشعر قلبك الوجل والحياء من التقصير في الصلاة . وخف أن لا تقبل صلاتك وأن تكون ممقوتا بذنب ظاهر أو باطن فترد صلاتك في وجهك وترجو مع ذلك أن يقبلها بكرمه وفضله *

هذا تفصيل صلاة الخاشعين (الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . والذين هم على صلاتهم دائمون) والذين هم يناجون الله على قدر استطاعتهم فى العبودية فليعرض الانسان نفسه على هــذه الصلوات فبالقدر الذى يُسِّرَ له منه ينبغى أن يفرح . وعلى ما يفوته ينبغى أن يتحسر . وفى مداواة ذلك ينبغى أن يجتهد وأما صــلاة الغافلين فهى مخطرة إلا أن يتغمده الله تعالى برحمتــه نسأله تعالى أن يتغمدنا برحمتــه ومغفرته إذ لا وسيلة لنا إلا الاعتراف بالعجز عن القيام بطاعته *

ومفتاح مزيد الدرجات هى الصلوات قال الله عزّ وجل (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِين هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خاشِعُونَ) فمدحهم بعد الايمان بصلاة مخصوصة وهى المقرونة بالخشوع . ثم ختم أوصاف المفلحين بالصلاة أيضا فقال (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحافِظُونَ) ثم قال تعالى فى ثمرة تلك الصفات (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ) فوصفهم بالفلاح أولا وبوراثة الفردوس آخرا . وما عندى ان هذرمة اللسان مع غفلة القلب تنتهى الى هــذا الحدّ ولذلك قال الله عز وجل فى أضدادهم (مَاسَلَــكَكُمْ فِى سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ) فالمصلون هم ورثة الفردوس وهم المشاهــدون لنور الله تعالى والمتمتعون بقربه ودنوّه

من قلوبهم فنسأل الله أن يجعلنا منهم *

﴿ الامامة ﴾

على الامام وظائف قبل الصلاة وفى القراءة وفى أركان الصلاة وبعد السلام . أما الوظائف التى هى قبل الصلاة فستة (أولها) أن لا يتقدم للامامة على قوم يكرهونه . وأن لا يتقدم ووراءه من هو أفقه منه إلا اذا امتنع من هو أولى منه فله التقدم ويكره عند ذلك المدافعة (ثانيها) أن يراعى الامام أوقات الصلوات فيصلى فى أوائلها ليدرك رضوان الله تعالى ففضل أوّل الوقت على آخره كفضل الآخرة على الأولى . ولا ينبغى أن يؤخر الصلاة لانتظار كثرة الجمع بل عليهم المبادرة لحيازة فضيلة أوّل الوقت فهى أفضل من كثرة الجماعة ومن تطويل السورة . وقد تأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة الفجر وكانوا فى سفر وانما تأخر للطهارة فلم يُنْتَظَر وقُدِّم عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم حتى فاتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعة فقام يقضيها فأشفقوا من ذلك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أحسنتم هكذا فافعلوا . وذهب مرة يصلح بين قوم فتأخر عن صلاة الظهر فقدموا أبا بكر رضى الله عنه حتى جاء صلوات الله عليه وهو فى الصلاة فقام إلى جانبه . وليس على الامام انتظار المؤذن وانما على المؤذن انتظار الامام (ثالثها) أن يؤم مخلصاً لله عزّ وجلّ ومؤديا أمانة الله تعالى فى طهارته وجميع شروط صلاته . أما الاخلاص فبأن لا يأخذ عليها أجرة

(قال الشيخ [1] تقي الدين ابن تيمية عليه الرحمة : ما يؤخذ من بيت المال فليس عوضا وأجرة بل رزق للاعانة على الطاعة وكذلك المال الموقوف على أعمال البر والموصى به أو المنذور له ليس كالأجرة والجعل انتهى * قال الحارثي فالقائل بالمنع من أخذ الأجرة على نوع القرب لا يمنع من أخذ المشروط في الوقف) وأما الأمانة فهى الطهارة باطناً عن الفسق والكبائر والاصرار على الصغائر فالمترشح للامامة ينبغي أن يحترز عن ذلك بجهده فانه كالوفد والشفيع للقوم فينبغي أن يكون خير القوم ـ وكذا الطهارة ظاهراً عن الحدث والخبث فانه لا يطلع عليه سواه فان تذكر في أثناء صلاته حدثا أو خرج منه ريح فلا ينبغي أن يستحي بل يأخذ بيد من يقرب منه ويستخلفه (رابعها) أن لا يكبر حتى تستوى الصفوف فليلتفت يمينا وشمالا فان رأى خللا أمر بالتسوية قيل كانوا يتحاذون بالمناكب ويتضامون بالكعاب ولا يكبر حتى يفرغ المؤذن من الاقامة . والمؤذن يؤخر الاقامة عن الأذان بقدر استعداد الناس للصلاة (خامسها) أن يرفع صوته بتكبيرة الاحرام وسائر التكبيرات ولا يرفع المأموم صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه وليأخر المأموم تكبيره عن تكبير الامام فيبتدئ بعد فراغه *

(وأما وظائف القراءة فثلاثة) أولها : أن يسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمنفرد ويجهر بالفاتحة والسورة بعدها في جميع الصبح وأولتي العشاء والمغرب

---

(١) ما بين الهلالين من النقل عن الامام ابن تيمية رحمه الله من زيادتنا على الأصل اهـ جمال الدين القاسمي *

وكذلك المنفرد ويجهر بقوله آمين في الصلاة الجهرية وكذا المأموم ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الامام معالا تعقيبا (الثانية) أن يكون للامام في القيام ثلاث سكتات أولاهن إذا كبر لدعاء الاستفتاح والثانية إذا فرغ من الفاتحة الثالثة إذا فرغ من السورة قبل أن يركع وهي أخفها وذلك بقدر ما تنفصل القراءة عن التكبير فقد نهي عن التعجيل فيه . ولا يقرأ المأموم وراء الامام إلا الفاتحة . وان لم يسمع المأموم في الجهرية لبعده أو كان في السرية فلا بأس بقراءته السورة (الثالثة) التخفيف أولى سيما اذا كثر الجمع لقوله صلى الله عليه وسلم (إذا صَلى أحَدُكُمْ بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ وَإذا صَلَّى لِنَفْسِهِ فَلْيُطَوِّلْ مَا شاء) وقال صلوات الله عليه لمعاذ (إقْرَأْ سُورَةَ سَبِّحْ وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ وَالشَّمْسِ وَضُحاها)

(وأما وظائف الاركان فثلاثة) أولها : أن يخفف الركوع والسجود فلا يزيد في التسبيحات على ثلاث (الثانية) في المأموم ينبغي أن لا يسابق الامام في الركوع والسجود بل يتأخر فلا يهوى للسجود الا اذا وصلت جبهة الامام الى الارض ولا يهوى للركوع حتى يستوى الامام راكعا (الثالثة) لا يزيد في دعاء التشهد على مقدار التشهد حذرا من التطويل ولا يخص نفسه بالدعاء بل يأتي بصيغة الجمع فيقول اللهم اغفر لنا *

(وأما وظائف التحلل فثلاثة) أولها : ان ينوي بالتسليمتين السلام على القوم والملائكة (الثانية) أن يثبت عقب السلام سيما اذا كان خلفه نسوة فلا يقوم حتى ينصرفن (الثالثة) اذا وثب فينبغي أن يقبل بوجهه على الناس *

﴿ فضل الجمعة وآدابها ﴾

اعلم أن هذا يوم عظيم عظم الله به الاسلام وخص به المسلمين قال الله تعالى (إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ)فحرم الاشتغال بأمور الدنيا وبكل صارف عن السعي الى الجمعة وقال صلى الله عليه وسلم (خيرُ يومٍ طَلَعَتْ عليهِ الشمسُ يومُ الجمعةِ) وقال صلى الله عليه وسلم (مَنْ تَرَكَ الجمعةَ ثلاثاً مِنَ غيرِ عُذرٍ طَبعَ اللهُ على قلبِهِ) والعذر مثل المطر والوحل والفزع والمرض والتمريض اذا لم يكن للمريض قيم ونحوها . ويستحب الغسل فيه ولا بأس من تقريبه من الرواح ليكون أقرب عهداً بالنظافة ويستحب فيه أخذ الشعر وقلم الظفر وقص الشارب وتطييب الرائحة ولبس أحسن الثياب ويستحب البكور الى الجامع وأن يكون فى سعيه خاشعا متواضعا مبادراً الى ندائه تعالى الى الجمعة وينبغى أن لا يتخطى رقاب الناس ولا يمرّ بين أيديهم . والبكور يسهل عليه ذلك فقد ورد وعيد شديد في تخطى الرقاب ومهما كان الصف الاول متروكا خاليا فله أن يتخطى رقاب الناس لانهم ضيعوا حقهم وتركوا مواضع الفضيلة * قال الحسن البصرى (رضي الله عنه) تخطوا رقاب الذين يقعدون على أبواب الجامع يوم الجمعة فانه لا حرمة لهم واذا دخل المسجد فليركع ركعتين وان كان الامام يخطب ولا يمر بين يدى الناس بل يجلس الى أقرب اسطوانة أو حائط حتى لا يمروا بين يديه أعنى بين يدى المصلى فان ذلك منهىّ عنه ومن اجتاز به فينبغى أن يدفعه . فان لم يجد اسطوانة فلينصب بين يديه شيأ طوله قدر ذراع

ليكون ذلك علامة لحدّه و يندب طلب الصف الاول فان فضله كثير . والقرب من الخطيب ليستمع الخطبة . وتكره الصلاة فى الأسواق والرحاب الخارجة عن المسجد . وعليه أن يقطع الكلام عند خروج الخطيب بل يشتغل بجواب المؤذن ثم باستماع الخطبة وقال صلى الله عليه وسلم (مَنْ قالَ لِصاحِبِهِ وَالإمامُ يَخْطُبُ أنصِتْ فَقَدْ لَغا وَمَنْ لَغا وَالْإمامُ يَخْطُبُ فَلاَ جُمُعَةَ لهُ) وهذا يدل على أن الاسكات ينبغى أن يكون باشارة أو رمى حصاة لا بالنطق . فاذا قضيت الصلاة فليرجع الى شأنه ذا كرا لله عزّ وجل مفكرا فى آلائه شا كرا لله تعالى على توفيقه خائفا من تقصيره . وكان صلى الله عليه وسلم يصلى بعد الجمعة ركعتين فى بيته ويستحب أن يكثر الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا اليوم وفي ليلته وأن يتصدق فيه إلا على من سأل والامام يخطب . قال ابن مسعود : إذا سأل الرجل فى المسجد فقد استحق أن لا يعطى : يعنى هؤلاء السؤّال فى الجامع الذين يتخطون رقاب الناس إلا أن يسأل قائما أو قاعدا فى مكانه من غير تخطى . وكره بعض السلف شراء الماء فى المسجد من السقاء ليشرب به أو يسبّله حتى لا يكون مبتاعا فى المسجد فان البيع والشراء فى المسجد مكروه وقالوا لا بأس لو أعطى الفضة خارج المسجد ثم شرب أو سبل فى المسجد وينبغي أن يزيد فى الجمعة فى أنواع خيراته فان الله سبحانه إذا أحب عبدا استعمله فى الأوقات الفاضلة بفواضل الاعمال *

﴿ مسائل متفرقة يُحتاج الي معرفتها ﴾

(مسئلة)

الفعل القليل وان كان لا يبطل الصلاة فهو مكروه إلا لحاجة ـ وذلك في دفع المارّ وقتل العقرب وحاجته إلى الحكّ الذى يشوش عليه الخشوع . ومهما تثاءب فلا بأس أن يضع يده على فيه . وان عطس حمد الله عزّ وجل في نفسه ولم يحرّك لسانه . وان تجشى فينبغى أن لا يرفع رأسه إلى السماء *

﴿ مسئلة ﴾

يسن أن يقف الواحد عن يمين الامام متأخرا عنه قليلا . والمرأة الواحدة تقف خلف الامام . فان كان معها رجل وقف الرجل عن يمين الامام وهى خلف الرجل *

﴿ مسئلة ﴾

المسبوق إذا أدرك آخر صلاة الامام فهو أوّل صلاته فليوافق الامام وليبن عليه وليقنت فى الصبح فى آخر صلاة نفسه وان قنت مع الامام . وان أدرك مع الامام بعض القيام فلا يشتغل بالدعاء وليبدأ بالفاتحة وليخففها فان ركع الامام قبل تمامها وقدر على لحوقه فى اعتداله عن الركوع فليتم . فان عجز وافق الامام وركع وكان لبعض الفاتحة حكم جميعها فتسقط عنه بالسبق . وان ركع الامام وهو فى السورة فليقطعها . وان أدرك الامام فى السجود أو التشهد كبّر للاحرام ثم جلس ولم يكبر بخلاف ما إذا أدركه

فى الركوع فانه يكبر ثانيا فى الهوى لان ذلك انتقال محسوب له . ولا يكون مدركا للركعة مالم يطمئن راكعا فى الركوع والامام بعدُ فى حدّ الراكعين . فان لم يتم طمأنينته إلا بعد مجاوزة الامام حدّ الراكعين فاتته الركعة *

﴿ مسئلة ﴾

من فاتته الظهر إلى وقت العصر فليصل الظهر أولا ثم العصر . فان وجد جماعة فليصل العصر ثم ليصل الظهر بعده فان الجماعة بالاداء أولى *

﴿ مسئلة ﴾

من صلّى ثم رأى على ثوبه نجاسة فالاحب قضاء الصلاة ولا يلزمه . ولو رأى النجاسة فى أثناء الصلاة رمي بالثوب وأتم . وأصل هذا قصة خلع النعلين حيث أخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن عليهما نجاسة فخلعهما ولم يستأنف الصلاة له *

﴿ مسئلة ﴾

من ترك التشهّد الاول أو شكّ فلم يدر أصلّى ثلاثا أو أربعا أخذ باليقين وسجد سجدتى السهو قبل السلام فان نسي فبعد السلام مهما تذكر على القرب *

﴿ مسئلة ﴾

الوسوسة فى نية الصلاة سببها خبل فى العقل أو جهل بالشرع . لان امتثال أمر الله عزّ وجل مثل امتثال أمر غيره وتعظيمه كتعظيم غيره فى حق القصد . ومن دخل عليه عالم فقام له فلو قال نويت أن أنتصب قائما تعظيما

لدخول زيد الفاضل لاجل فضله متصلا بدخوله مقبلا عليه بوجهى كان سفيها عقله . بل كما يراه و يعلم فضله تنبعث داعية التعظيم فتقيمه ويكون معظما إلا إذا قام لشغل آخر أو فى غفلة . واشتراط كون الصلاة ظهرا أداء فرضا فى كونه امتثالا كاشتراط كون القيام مقرونا بالدخول مع الاقبال بالوجه على الداخل وانتفاء باعث آخر سواه وقصد التعظيم به ليكون تعظيما فانه لوقام مدبرا عنه أو صبر فقام بعد ذلك بمدة لم يكن معظما . ثم هذه الصفات لا بد وان تكون معلومة وان تكون مقصودة ثم لا يطول حضورها فى النفس فى لحظة واحدة . وانما يطول نظم الالفاظ الدالة عليها إما تلفظا باللسان واما تفكرا بالقلب . فمن لم يفهم نية الصلاة على هذا الوجه فكأنه لم يفهم النية . فليس فيه إلا أنك دعيت الى أن تصلى فى وقت فأجبت وقمت . فالوسوسة محض الجهل *

(مسئلة)

لا ينبغي أن يتقدم المأموم على الامام فى الركوع والسجود والرفع منهما ولا فى سائر الاعمال ولا ينبغى أن يساويه بل يتبعه ويقفو أثره فهذا معنى الاقتداء . فان تقدم عليه ففى بطلان صلاته خلاف وقد شدد رسول الله صلى الله عليه وسلم النكير فيه وقال (أَمَا يَخْشَى الَّذِى يَرْفَعُ رَاسَهُ قَبْلَ الامامِ أَنْ يُحَوِّلَ اللهُ رَاسَهُ رَاسَ حِمارٍ) *

(مسئلة)

حق على من حضر الصلاة اذا رأى من غيره اساءة فى صلاته أن

يغيره وينكر عليه وان صدر من جاهل رفق بالجاهل وعلمه . فمن ذلك الامر بتسوية الصفوف ومنع المنفرد بالوقوف خارج الصف . والانكار على من يرفع رأسه قبل الامام الى غير ذلك من الامور . وعن عمر رضى الله عنه قال تفقدوا اخوانكم فى الصلاة فاذا فقدتموهم فان كانوا مرضى فعودوهم وان كانوا أصحاء فعاتبوهم . والعتاب انكار على من ترك الجماعة . ولا ينبغى أن يتساهل فيه . وقد كان الاولون يبالغون فيه *

﴿ بيان نوافل العبادات ﴾

اعلم ان ماعدا الفرائض من الصلوات يسمى نافلة وتطوعا . فمنه مايتعلق بأسباب كالكسوف والاستسقاء . ومنه ما يتعلق بأوقات كرواتب الصلاة ونحوها فمن الثانى (راتبة الصبح) وهي ركعتان يدخل وقتها بطلوع الفجر . فان دخل المسجد وقد قامت الصلاة فليشتغل بالمكتوبة فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ﴿ إذا أُقيمَتِ الصَّلاةُ فَلا صَلَاةَ إلاَّ المكتُوبَةُ ﴾ ثم اذا فرغ من المكتوبة قام اليهما وصلاهما (وراتبة الظهر) أربع قبلها وأربع بعدها وله الاقتصار على ركعتين قبل وبعد (وراتبة العصر) وهى أربع ركعات قبلها ولم تكن مواظبته صلوات الله عليه عليها كمواظبته على نافلة الظهر (وراتبة المغرب) وهما ركعتان بعد الفريضة وأما ركعتان قبلها بين أذان المؤذن واقامته على سبيل المبادرة فكان يفعله كثير من الصحب وصح أمر النبى صلوات الله عليه بها على سبيل التخيير (وراتبة العشاء) بعدها ركعتان أو أربع (وأما الوتر) فوقته بعد العشاء وأ كثره

احدى عشرة ركعة وله أن يوتر بتسع وسبع وخمس وثلاث موصولة بتسليمة
واحدة أو مفصولة بتسليمتين . وجعله بعد التهجد فى آخر الليل أفضل (وأما
صلاة الضحى) فأ كثر ما نقل فى عدد ركعاتها ثمان وأقله ركعتان ووقتها
بعد اشراق الشمس وارتفاعها (وأما صلاة العيدين) فهى سنة مؤكدة وشعار
من شعائر الدين ويستحب يوم العيد الاغتسال والتزين والتطيب (وأما
صلاة التراويح) فهي عشرون ركعة وكيفيتها معروفة (وأما صلاة الخسوف)
فركعتان ينادى لهما ويصليهما الامام بالناس جماعة فى المسجد وفى كل منهما
ركوعان وسجودان ثم يخطب بعدهما ويأمر الناس بالصدقة والتوبة . ووقتها
عند ابتداء الخسوف الى تمام الانجلاء (وأما صلاة الاستسقاء) فاذا غارت
الانهار وانقطعت الامطار فيستحب للامام أن يأمر الناس أولا بصيام ثلاثة
أيام وما أطاقوا من الصدقة والخروج من المظالم والتوبة من المعاصى ثم يخرج
بهم يوم الرابع وبالعجائز والصبيان فى ثياب بذلة واستكانة متواضعين ولو
خرج أهل الذمة أيضا متميزين لم يمنعوا فاذا اجتمعوا فى المصلى الواسع من
الصحراء نودى (الصلاة جامعة) فصلى بهم الامام ركعتين مثل صلاة العيد بغير
تكبير ثم يخطب خطبتين ويكثر من الاستغفار والدعاء (وأما صلاة الجنائز)
فكيفيتها معروفة وهى من فرائض الكفايات وانما تصير نفلا فى حق من لم
تتعين عليه بحضور غيره (وأما تحية المسجد) فركعتان وهى سنة مؤكدة
وان اشتغل بفرض أو قضاء تأدى به التحية وحصل الفضل اذ المقصود أن
لا يخلو ابتداء دخوله عن العبادة الخاصة بالمسجد (وأما ركعتا الوضوء) بعده

فمستحبتان لأن الوضوء قربة ومقصودها الصلاة (وأما صلاة الاستخارة) فمن همّ بأمر فقد أمر النبي صلوات الله عليه أن يصلى ركعتين يقرأ فى الاولى فاتحة الكتاب وقل يا أيها الكافرون وفى الثانية الفاتحة وقل هو الله أحد فاذا فرغ دعا وقال : اللهم انى أستخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فانك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علاّم الغيوب . اللهم ان كنت تعلم ان هذا الامر خير لى فى دينى ودنياى وعاقبة أمري وعاجله وآجله فقدره لى وبارك لى فيه ثم يسره لى وان كنت تعلم ان هذا الأمر شرّ لى فى دينى ودنياى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله فاصرفنى عنه واصرفه عنى واقدِرْ لى الخيرَ حيث كان ثم رضّنى به . ويسمى حاجته *

﴿ الاوقات التى تكره فيها الصلاة ﴾

هى خمسة بعد العصر . وبعد الصبح . ووقت الزوال . ووقت الطلوع والغروب تكره فيها صلاة لاسبب لها . أما ما له سبب كقضاء راتبة وكسوف وجنازة فلا تكره فيها . وسرّ النهى التوقى من مضاهاة عبدة الشمس وبعث الداعية والنشاط ففى تعطيل هذه الأوقات زيادة تحريض وبعث على انتظار قضاء الوقت *

﴿ ما يقضي من النوافل ﴾

روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين بعد العصر فقيل له أما نهيتنا عن هذا ! فقال هما ركعتان كنت أصليهما بعد الظهر فشغلنى عنهما الوفد

وقالت عائشة رضى الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غلبه نوم أو مرض فلم يقم تلك الليـلة صلّى من أول النهار اثنتى عشرة ركعة . فمن كان له وِرْدٌ فعاقه عن ذلك عذر فينبغى أن لا يرخص لنفسه فى تركه بل يتداركه فى وقت آخر حتى لا تميل نفسه الى الدّعـة والرفاهية ، فتداركه حسن على سبيل مجاهدة النفس فيقصد به أن لا يفتر فى دوام عمله *

كتاب أسرار الزكاة

جعل الله تعالى الزكاة إحدى مبانى الاسلام وأردف بذكرها الصلاة التى هى أعلى الاعلام فقال تعالى (وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) وقال صلى الله عليه وسلم (بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ) وشـدد الوعيد على المقصرين فيها فقال (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) ومعنى الانفاق فى سبيل الله إخراج الزكاة . قال الاحنف بن قيس كنت فى نفر من قريش فمرّ أبو ذر فقال بشر الـكانزين بكيّ فى ظهورهم يخرج من جنوبهم وبكيّ فى اقفائهم يخرج من جباههم . ولهذا التشديد صار من مهمات الدين الـكشف عن أسرار الزكاة ومعانيها الظاهرة والباطنة ـ وفى ذلك فصول *

﴿ أداء الزكاة وشروطها ﴾

إعلم أنه يجب على مؤدى الزكاة مراعاة أمور (الأول) البدار عقيب الحول . وفى زكاة الفطر لا يؤخرها عن يوم الفطر . ويدخل وقت وجوبها بغروب الشمس من آخر يوم من رمضان . ووقت تعجيلها شهر رمضان كله ومن أخّر زكاة ماله مع التمكن عصي ولم يسقط عنه بتلف ماله وتمكنه بمصادفة المستحق . وتعجيل الزكاة جائز (الثاني) أن لا ينقل الصدقة إلى بلد آخر فان أعين المساكين فى كل بلدة تمتدّ إلى أموالها . وفي النقل تخييب للظنون فان فعل ذلك أجزاه فى قول ولكن الخروج عن شبهة الخلاف أولى فليخرج زكاة كل مال فى تلك البلدة ثم لا بأس أن يصرف إلى الغرباء فى تلك البلدة (الثالث) أن يقسم ماله بعدد الموجودين من الأصناف الثمانية فى بلده ويوجد فى جميع البلاد أربعة أصناف (الفقراء والمساكين والغارمون والمسافرون) أعنى أبناء السبيل وليس عليه التسوية بين آحاد الصنف *

﴿ سرّ كون الزكاة من مباني الاسلام ﴾

فى ذلك ثلاث معانى (الأول) أن التلفظ بكلمتى الشهادة التزام للتوحيد وشهادة بأفراد المعبود . وشرط تمام الوفاء به أن لا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد . فان المحبة لاتقبل الشركة . والتوحيد باللسان قليل الجدوى . وانما يمتحن به درجة الحب بمفارقة المحبوب والاموال محبوبة عند الخلائق لانها آلة تمتعهم بالدنيا و بسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن

الموت مع أن فيه لقاء المحبوب فامتحنوا بتصديق دعواهم فى المحبوب واستنزلوا عن المال الذى هو مرموقهم ومعشوقهم ـ ولذلك قال الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ وذلك بالجهاد، وهو مسامحة بالمهجة شوقا إلى لقاء الله عزّ وجل والمسامحة بالمال أهون . ولما فهم هذا المعنى فى بذل الاموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام . قسم صدقوا التوحيد ونزلوا عن جميع أموالهم فلم يدّخروا دينارا ولا درهما كما جاء أبو بكر رضى الله عنه إلى رسول الله بجميع ماله . وقسم دون هؤلاء وهم الممسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات . فيكون قصدهم فى الادخار الانفاق على قدر الحاجة دون التنعم وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر مهما ظهر وجوهها . وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة . وقد ذهب جماعة من التابعين الى أن فى المال حقوقا سوى الزكاة كالنخعى والشعبى وعطاء ومجاهد . قال الشعبى بعد أن قيل له هل فى المال حق سوى الزكاة قال نعم أما سمعت قوله عزّ وجل (وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى) الآية واستدلوا بقوله عزّ وجل (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) وبقوله تعالى (وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ) فهو داخلٌ فى حق المسلم على المسلم ومعناه أنه يجب على الموسر مهما وجد محتاجا أن يزيل حاجته عدا عن مال الزكاة والقسم الثالث الذين يقتصرون على أداء الوجوب فلا يزيدون عليه ولا ينتقصون منه وهى أقل الرتب . وقد اقتصر جميع العوام عليه لبخلهم بالمال وميلهم اليه وضعف حبهم للآخرة *

(المعنى الثانى) التطهير من صفة البخل فانه من المهلكات قال تعالى (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئكَ هُمُ المُفْلِحُونَ) وانما تزول صفة البخل بأن تتعود بذل المال فحب الشئ لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير اعتياداً . والزكاة بهذا المعنى طهرة أى تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك وانما طهارته بقدر بذله و بقدر فرحه باخراجه واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى *

(المعنى الثالث) شكر النعمة . فان لله عزّ وجل على عبده نعمة فى نفسه وماله فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن والمالية شكر لنعمة المال . وما أخسّ من ينظر إلى الفقير وقد ضيق عليه الرزق وأحوج اليه ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدى شكر الله تعالى على اغنائه عن السؤال واحواج غيره اليه بربع العشر أو العشر من ماله *

﴿ وظائف المزكّى ﴾

(الأولى) التعجيل عن وقت الوجوب إظهاراً للرغبة فى الامتثال بايصال السرور إلى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان أن يعوّق عن الخيرات وعلما بأن فى التأخير آفات مع مايتعرض العبد له من العصيان لو أخر عن وقت الوجوب ومهما ظهرت داعية الخير من الباطن فينبغى أن يغتنم فان ذلك لمة الملك وما أسرع تقلب المؤمن و (الشَّيطانُ يعد الفقر وَيأمرَ بالفحشاء والمنكر) وله لمة عقيب لمة الملك فليغتنم الفرصة فيه *

(الوظيفة الثانية) الاسرار فان ذلك أبعد عن الرياء والسمعة قال تعالى (وَإن تُخفُوها وَتؤتوها الفقراء فَهُوَ خَيرٌ لَكُمْ) وقد بالغ فى فضل الاخفاء

جماعة حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطى فكان بعضهم يوصل الى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطى . وكان يستكتم المتوسط شأنه ويوصيه بأن لا يفشيه كل ذلك توصلا الى رضاء الرب واحترازا من الرياء والسمعة . ومهما كانت الشهرة مقصودة له حبط عمله *

(الثالثة) أن يظهر حيث يعلم أن فى اظهاره ترغيبا للناس فى الاقتداء ويحرس سره من داعية الرياء فقد قال تعالى (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ) وذلك حيث يقتضى الحال الابداء اما للاقتداء واما لان السائل انما سأل على ملأ من الناس فلا ينبغى أن يترك التصدق خيفة من الرياء فى الاظهار بل ينبغى أن يتصدق ويحفظ سره عن الرياء بقدر الامكان . وهذا لأن فى الاظهار محذورا ثالثا سوى المنّ والرياء وهو هتك ستر الفقير فانه ربما يتأذى بأن يرى فى صورة المحتاج فمن أظهر السؤال فهو الذى هتك ستر نفسه فلا يحذر هذا المعنى فى اظهاره . وقد قال الله تعالى (وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) ندب إلى العلانية أيضا لما فيه من فائدة الترغيب فليكن العبد دقيق التأمل فى وزن هذه الفائدة بالمحذور الذى فيه . ومن عرف الفوائد والغوائل ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له الأولى والأليق بكل حال *

(الرابعة) أن لا يفسد صدقته بالمنّ والاذى قال الله تعالى (لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى) والمنّ ان يذكرها ويتحدث بها أو يستخدمه بالعطاء أو يتكبر عليه لاجل عطائه والاذى أن يظهرها . أو يعيره بالفقر .

أو ينتهره أو يوبخه بالمسئلة وأصل المنّ أن يرى نفسه محسناً إلى الفقير ومنعما عليه . وحقه أن يرى الفقير محسناً اليه بقبول حق الله عزّ وجل منه الذى هو طهرته ونجاته من النار وأنه لو لم يقبله لبقى مرتهنا به فحقه أن يتقلد منة الفقير ومهما عرف المعانى الثلاثة ـ التى ذكرها فى الفصل قبل ـ لم ير نفسه محسناً إلا إلى نفسه إما يبذل ماله اظهاراً لحب الله تعالى أو تطهيراً لنفسه عن رذيلة البخل أو شكراً على نعمة المال طلبا للمزيد *

وأما الأذى فمنبعه رؤيته أنه خير من الفقير ـ وهــذا جهل لأنه لو عرف فضل الفقر وخطر الأغنياء لما استحقر الفقير بل تمنى درجته كيف وقد جعله الله تعالى متجرة له حتى يخلصه من عهدته بقبوله منه *

(الخامسة) أن يستصغر العطية فانه ان استعظمها أعجب بها والعُجب من المهلكات وهو محبط للأعمال قيل لايتم المعروف الا بثلاث تصغيره وتعجيله وستره *

(السادسة) أن ينتقى من ماله أجوده وأحبه اليه وأجلّه وأطيبه . فان الله تعالى طيب ولا يتقبل إلا طيبا . واذا لم يكن المخرَج من جيد المال فهو من سوء الأدب . إذ قد يمسك الجيد لنفسه أو لعبده أو أهله فيكون قد آثر على الله عزّ وجل غيره . ولو فعل هذا بضيفه وقدم اليه أردأ طعام فى بيته لأوغر بذلك صدره . وقد قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ أى لاتأخذوه إلا مع كراهية وحياء وهو

معنى الاغماض *

(السابعة) أن يطلب بصدقته من تزكو به الصدقة ولا يكتفى بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية فان فى عمومهم خصوص صفات فليراع خصوصها وهى ستة (الأولى) أن يطلب الأتقياء لأنهم يستعينون بالمال على التقوى فيكون شريكا لهم فى طاعتهم باعانته إياهم (الثانية) أن يكون من أهل العلم خاصة فان ذلك اعانة له على العلم . والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النية . وكان ابن المبارك يخصص بمعروفه أهل العلم فقيل له لو عممت فقال انى لا أعرف بعد مقام النبوّة أفضل من مقام العلماء فاذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم فتفريغهم للعلم أفضل (الثالثة) أن يكون صادقا فى تقواه وعلمه بالتوحيد ـ وتوحيده أنه اذا أخذ العطاء حمد الله عزّ وجل وشكره ورأى أن النعمة منه وأن الواسطة مسخر بتسخير الله إذ سلط عليه دواعى الفعل ويسّر له الأسباب فأعطى ـ ومن لم يصف باطنه عن رؤية الوسائط إلا من حيث أنهم وسائط فكأنه لم ينفك عن الشرك الخفىّ . فليتق الله سبحانه فى تصفية توحيده عن كدورات الشرك وشوائبه (الرابعة) أن يكون مخفيا حاجته لا يكثر البث والشكوى أو يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته فهو يتعيش فى جلباب التحمل . قال الله تعالى ﴿ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ أى لا يلحون فى السؤال لأنهم أغنياء بيقينهم أعزة بصبرهم ـ وهذا ينبغى أن يطلب بالفحص عن أهل الدين في

كل محلة ويستكشف عن بواطن أحوال أهل الخير والتجمل . فثواب صرف المعروف اليهم أضعاف مايصرف إلي المجاهرين بالسؤال (الخامسة) أن يكون معيلا أو محبوسا بمرض أو بسبب من الأسباب فيوجد فيه معنى قوله عزّ وجل ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ أى حبسوا فى طريق الآخرة بعيلة أو ضيق معيشة أو اصلاح قلب ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ ﴾ لأنهم مقصوصو الجناح مقيدو الأطراف ـ فبهذه الأسباب

كان عمر رضي الله عنه يعطى أهل البيت القطيع من الغنم العشرة فما فوقها. وكان صلى الله عليه وسلم يعطى العطاء على مقدار العيلة . وسئل عمر رضى الله عنه عن جهد البلاء فقال كثرة العيال . وقلة المال (السادسة) أن يكون من الأقارب وذوى الأرحام فتكون صدقة وصلة رحم . وفى صلة الرحم من الثواب مالايحصى ـ قال علىّ رضي الله عنه لان أصل أخا من إخوانى بدرهم أحبّ الىّ من أن أتصدق بعشرين درهما ـ والاصدقاء واخوان الخير أيضاً يقدمون على المعارف كما يتقدم الاقارب على الأجانب فليراع هذه الدقائق ـ فهذه هى الصفات المطلوبة . وفى كل صفة درجات فينبغى أن يطلب أعلاها . فان وجد من جمع جملة من هذه الصفات فهى الذخيرة الكبرى والغنيمة العظمى *

﴿ مصارف الزكاة وأصناف قابضيها ﴾

إعلم أنه لا يستحق الزكاة الا مسلم اتصف بصفة من صفات الاصناف الثمانية المذكورين في كتاب الله تعالى *

(الصنف الأوّل الفقراء) والفقير هو الذى ليس له مال ولا قدرة على الكسب . فمن قدر على كسب فان ذلك يخرجه عن الفقر . وان كان متفقها ويمنعه الاشتغال بالكسب عن التفقه فهو فقير ولا تعتبر قدرته . وان كان متعبداً يمنعه الكسب من وظائف العبادات وأوراد الأوقات فليكتسب لان الكسب أولى من ذلك *

(الصنف الثاني المساكين) والمسكين هو الذى لا يفى دخله بخرجه فقد يملك ألف درهم وهو مسكين وقد لا يملك الا فأسا وحبلا وهو غنىّ والدويرة التى يسكنها والثوب الذى يستره على قدرحاله لا يسلبه اسم المسكين وكذا أثاث البيت أعنى مايحتاج اليه وذلك مايليق به وكذا كتب الفقه لاتخرجه عن المسكنة فانه محتاج اليها *

(الصنف الثالث العاملون) وهم السعاة الذين يجمعون الزكوات ويدخل فيه الكاتب والمستوفى والحافظ والنقال *

(الصنف الرابع المؤلفة قلوبهم على الاسلام) وهو الشريف الذى أسلم وهو مطاع فى قومه . وفي إعطائه تقريره على الاسلام وترغيب نظائره واتباعه *

(الصنف الخامس) الأرقّاء يدفع الى السيد مايفك به رقبة العبد ويدفع للعبد أيضا مايفك به رقبته *

(الصنف السادس الغارمون) والغارم هو الذى استقرض فى طاعة أو مباح وهو فقير فان استقرض فى معصية فلا يعطي الا اذا تاب ـ وان كان

غنيا لم يقض دينه الا اذا كان قد استقرض لمصلحة واطفاء فتنة *

(الصنف السابع الغزاة [١]) الذين ليس لهم مرسوم في ديوان المرتزقة فيصرف اليهم سهم وان كانوا أغنياء إعانة لهم على الغزو *

(الصنف الثامن ابن السبيل) وهو الذى شخص من بلده ليسافر فى غير معصية أو اجتاز فيه فيعطى ان كان فقيراً وان كان له مال ببلد آخر أعطى بقدر بلغته *

﴿ وظائف القابض — وهى أربعة ﴾

(الأولى) أن يفهم أن الله عزّ وجل أوجب صرفه اليه ليكفى همّه

---

(١) هذا مما فسر به الفقهاء قوله تعالى (وفى سبيل الله) فجعلوا هذا الصنف للغزاة المجاهدين خاصة وقوفا مع آثار فى ذلك رويت عن السلف وعندى أن هذا القصر من حصر العام فى أهم أفراده لامن حصره فى مدلوله وموضوعه اللغوى لأن سبيل الله ـ كما قال ابن الأثير فى النهاية ـ كل عمل خالص سلك به طريق التقرّب إلى الله تعالى بأنواع التطوّعات والقربات على أن سبيل الله ليس نصاً فى الجهاد ولا ظاهرا فيه كمالا يخفى على من له إلمام بالأصول ولا يقدر أحد أن يأتى بنص من كتاب أو سنة أن سبيل الله هو الانفاق على المجاهدين دون غيرهم أبدا الا من آثار موقوفة على السلف مما ليس بحجة ولا قاطع .وقد تقرر أن العام يجب ابقاؤه على عمومه حتى يرد ما يخصصه واذ لامخصص فهو عام فى كل ما يتقرّب به إلى الله ويؤيد دينه وشرعه كبناء مدرسة وشراء كتب للعلماء واعانة فى مشروع خير وموضوع برّ مما لاتحصى أفراده فاحفظ هذه الفائدة اهـ

ويكون عونا له على الطاعة . فان استعان به على المعصية كان كافراً لأنعم الله عزّ وجل مستحقا للبعد والمقت من الله سبحانه *

(الثانية) أن يشكر المعطي ويدعو له ويثنى عليه ــ ويكون شكره ودعاؤه بحيث لا يخرج عن كونه واسطة ولكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه اليه ــ وللطريق حق من حيث جعله الله طريقاً وواسطة وذلك لاينافى رؤية النعمة من الله سبحانه فقد قال صلى الله عليه وسلم ﴿ مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ ﴾ وقد أثنى الله عزّ وجل على عباده فى مواضع على أعمالهم وهو خالقها نحو قوله تعالى ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ إلى غير ذلك . وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ مَنْ أَسْدَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعوا فَادْعُوا لَهُ حَتى تَعْلَمُوا أَنْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ ﴾ ومن تمام الشكر أن يستر عيوب العطاء ان كان فيه عيب ولا يحقره ولا يذمه ولا يعيره بالمنع إذا منع ويفخم عنده نفسه وعند الناس صنيعه . فوظيفة المعطى الاستصغار . ووظيفة القابض تقلد المنة والاستعظام . وعلى كل عبد القيام بحقه . وكل ذلك لايناقض رؤية النعمة من الله عزّ وجل فان من لايرى الواسطة واسطة فقد جهل . وانما المنكر أن يرى الواسطة أصلا *

(الثالثة) أن ينظر فيما يأخذه فان لم يكن من حله تورع عنه فلايأخذ ممن أكثر كسبه من الحرام إلا إذا ضاق الأمر عليه وكان مايسلم له لايعرف له مالكا معينا فله أن يأخذ بقدر الحاجة فان فتوى الشرع فى مثل هذا أن يتصدق به ــ وذلك إذا عجز عن الحلال *

(الرابعة) أن يتوقى مواقع الريبة والاشتباه فى مقدار ما يأخذه فلا يأخذ إلا المقدار المباح ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق - ثم إذا تحققت حاجتـه فلا يأخـذنّ مالا كثيراً بل ما يتمم كفايته من وقت أخذه الى سنة - فهذا أقصى ما يرخص فيه من حيث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ادّخر لعياله قوت سنة . ومن العلماء من ذهب الى أن للفقير أن يأخذ مقدار ما يشترى به ضيعة فيستغنى به طول عمره أو يهيئ بضاعة ليتجر بها ويستغنى لأن هذا هو الغنى. وقد قال عمر رضى الله عنه إذا أعطيتم فاغنوا حتى ذهب قوم إلى أن من افتقر فله أن يأخذ بقدر ما يعود به إلى مثل حاله ولو عشرة آلاف درهم . ولما تبرع أبو طلحة رضى الله عنه ببستانه قال له صلى الله عليه وسلم ﴿ إِجْعَلْهُ فِى قَرابَتِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ ﴾ فأعطاه حسّان وأبا قتادة . فحائط من نخل لرجلين كثير مُغنٍ *

﴿ صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها واعطائها ﴾

(فضيلة الصدقة)

من الاخبار قوله صلى الله عليه وسلم (تَصَدَّقوا وَلَوْ بِتَمْرَةٍ) وفى رواية (إتَّقُوا النّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ) وقال صلى الله عليه وسلم (كُلُّ امْرِئٍ فِى ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتى يَقْضِىَ بَيْنَ النّاسِ) وقال صلى الله عليه وسلم (صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ) وسئل صلى الله عليه وسلم أىّ الصدقة أفضل قال (أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ

شَحِيحٌ تَأْمَلُ الغِنَى وَتَخْشَى الْفَاقَةَ وَلاَ تُمْهِلُ حَتى إذا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ قُلْتَ لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ) وقال صلى الله عليه وسلم (لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِى تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ واللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ إِنَّمَا المِسكِينُ المُتَعَفِّفُ اقْرَؤُا إنْ شِئْتُمْ لايَسأَلونَ النَّاسَ إلحافاً) وقال صلى الله عليه وسلم (مَا مِنْ مُسلِمٍ يَكْسُو مُسلِماً إلاّ كانَ فِي حِفْظِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ ما دَامَتْ عليهِ مِنهُ رُقْعَةٌ) *

ومن الآثار قول عروة لقد تصدقت عائشة رضى الله عنها بخمسين ألفا وان درعها لمرقع . وكان عمر رضى الله عنه يقول اللهم اجعل الفضل عند خيارنا لعلهم يعودون به على اولى الحاجة منا . وقال ابن أبى الجعد ان الصدقة لتدفع سبعين بابا من السوء وفضل سرها على علانيتها بسبعين ضعفا

﴿ وجوب فضل اخفاء الصدقة ﴾

قال الله تعالى (إن تُبدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمّاهِيَ وَإنْ تُخفُوها وَتُؤْتُوها الفُقَرَاءَ فَهُوَ خيرٌ لَكُمْ) وفى الاخفاء خمسة معان *

(الأول) انه أبقى للستر على الآخذ . فان أخذه ظاهراً هتك ستر المروءة وكشف عن الحاجة وخروج عن هيئة التعفف والتصوّن المحبوب الذى يحسب الجاهل أهله أغنياء من التعفف *

(الثاني) انه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم فانهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه ويظنون انه أخذ مع الاستغناء والحسد وسوء الظن والغيبة من الذنوب

الكبائر وصيانتهم عن هذه الجرائم أولى * قال أيوب السختيانى انى لاترك لبس الثوب الجديد خشية أن يحدث فى جيرانى حسد وقال آخر خشية أن يقول اخوانى من أين له هذا *

(الثالث) اعانة المعطى على أسرار العمل فان فضل السر على الجهر فى الاعطاء أكثر والاعانة على اتمام المعروف معروف دفع رجل الى بعض العلماء شيأ ظاهراً فرده ودفع اليه آخر شيأ فى السر فقبله فقيل له فى ذلك فقال ان هذا عمل بالادب فى اخفاء معروفه فقبلته وذلك أساء أدبه فى عمله فرددته عليه . ورد بعضهم ما دفع اليه علانية وقال له انك أشركت غير الله سبحانه فيما كان لله تعالى ولم تقنع بالله عز وجل فرددت عليك شركك *

(الرابع) أن فى اظهار الاخذ ذلا وامتهانا وليس للمؤمن أن يذل نفسه

(الخامس) الاحتراز عن شبهة الشركة لحديث (مَنْ أُهْدِيَ لَهُ هَدِيَّةٌ وَعِنْدَهُ قَوْمٌ فَهُمْ شُرَكَاؤُهُ فِيهَا) والأعمال بالنيات فينبغى للمخلص أن يكون مراقبا لنفسه حتى لا يتدلى بحبل الغرور ولا ينخدع بمكر الشيطان نسأل الله الكريم حسن العون والتوفيق *

كتاب أسرار الصوم (١)

أعظم الله على عباده المنّه بما دفع عنهم كيد الشيطان وخيب ظنه اذ

(١) قال حكيم صيام الابد لا يطاق وجعله شهرا من السنة فى نهاية الحسن وأما كون هذا الشهر رمضان فلا يسأل عنه عند العقل لانه لو لم يكن هو

جعل الصوم حصنا لاوليائه وجنه وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم (الصَّوْمُ نِصفُ الصَّبرِ) وقال تعالى (إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيرِ حِسابٍ) فقد جاز ثواب الصوم قانون التقدير والحساب . وناهيك فى معرفة فضله قوله صلى الله عليه وسلم (وَالَّذى نَفسى بِيَدِهِ لَخَلوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ . يَقولُ اللهُ عزَّ وَجَلَّ إِنَّما يَذَرُ شَهْوَتَهُ وَطَعامَهُ وَشَرابَهُ لِأَجْلِي فالصَّومُ لِي وَأَنا الذى أَجزِى بِهِ) وهوموعود بلقاء الله تعالى فى جزاء صومه قال صلى الله عليه وسلم (لِلصَّائِمِ فَرْحَتان فَرحَةٌ عِنْدَ إِفطارِهِ وَفَرحَةٌ عِنـدَ لِقاءِ رَبِّهِ) وقيل فى قوله تعـالى (فَلاَ تَعلَمُ نَفسٌ مَا أُخفِيَ لَهم مِنْ قُرَّةِ أَعيُنٍ جَزاءً بِما كانوا يَعمَلونَ) كان عملهم الصيام لانه قال إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أجرَهم بِغَـيرِ حِسابٍ) فيفرغ للصائم جزاؤه افراغا ويجازف جزافا . فلا يدخل تحت وهم وتقدير ـ وجدير بأن يكون كذلك لان الصوم انما كان له ومُشرّفا بالنسـبة اليـه وان كانت العبادات كلها له لمعنيين (أحدهما) ان الصوم كفٌّ وترك وهو فى نفسه سر ليس فيه عمل يشاهـد وجميع الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى والصوم لا يراه الا الله عز وجل فانه عمل فى الباطن بالصبر المجرد (والثانى) انه قهر لعدو الله عز وجل

لـكان غيره ولوسئل فى غيره هذا السؤال لادى الى معاجزة للفكر يفزع لمثلها السوفسطائية ثم ان شكر المحسن الأعظم يجب أن لا نغفل عنه ولا يذكرنا به شئ مثل العبادات المرتبة في الأوقات المعلومة على وجه موافق للطاقة وتتيسر به الطاعة

فان وسيلة الشيطان الشهوات وانما تقوى بالا كل والشرب وفى قمع عدو الله
نصرة الله سبحانه . ونصر الله تعالى موقوف على النصرة له قال تعالى (إن
تَنصرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكمْ) فمن هذا الوجه صار الصوم باب
العبادة وصار جنة ـ واذا عظمت فضيلته الى هذا الحد فلا بدمن بيان شروطه
الظاهرة والباطنة بذكر أركانه وسننه وشروطه الباطنة *

﴿ الواجبات والسنن الظاهرة واللوازم بافساده ﴾

(أما الواجبات الظاهرة فستة)

(الأول) مراقبة أول شهر رمضان وذلك برؤية الهلال فان غم
فاستكمال ثلاثين يوما من شعبان . ونعنى بالرؤية العلم ويحصل ذلك بقول
عدل واحد . ولا يثبت هلال شوال إلا بقول عدلين احتياطا للعبادة . ومن
سمع عدلا ووثق بقوله وغلب على ظنه صدقه لزمه الصوم وان لم يقض
القاضي به *

(الثانى) النية ولا بد لكل ليلة من نية معينة جازمة ينوى فريضة
صوم رمضان لله تعالى * .

(الثالث) الامساك عن ايصال شئ الى الجوف عمدا مع ذكر الصوم .
فيفسد صومه بالأكل والشرب والسعوط والحقنة . ولا يفسد بالفصد والحجامة
والاكتحال وادخال الميل فى الاذن والاحليل وما يصل بغير قصد من
غبار الطريق أو ذبابة تسبق إلى جوفه أو مايسبق إلى جوفه فى المضمضة .
فلا يفطر إلا إذا بالغ فى المضمضة فيفطر لانه مقصر ـ وهو الذى أردنا بقولنا

عمداً ـ فأما ذكر الصوم فأردنا به الاحتراز عن الناسى فانه لا يفطر *

(الرابع) الامساك عن الجماع فان جامع ناسيا لم يفطر . وان جامع ليلا أو احتلم فأصبح جنبا لم يفطر *

(الخامس) الامساك عن الاستمناء وهو إخراج المنىّ قصداً بجماع أو بغير جماع فان ذلك يفطر ـ ولا يفطر بقبلة زوجته ولا بمضاجعتها ما لم ينزل لكن يكره ذلك الا أن يكون شيخا أو مالكا لاربه فلا بأس بالتقبيل وتركه أولى *

(السادس) الامساك عن اخراج القيء فالاستقاء يفسد الصوم وان ذرعه القيء لم يفسد صومه . واذا ابتلع نخامة من حلقه أو صدره لم يفسد صومه رخصة لعموم البلوى به إلا أن يبتلعه بعد وصوله إلى فيه فانه يفطر عند ذلك *

﴿ وأما لوازم الافطار فأربعة ﴾

(القضاء . والكفارة . والفدية . وامساك بقية النهار تشبها بالصائمين)

أما القضاء فوجوبه عام على كل مسلم مكلف ترك الصوم بعذر أو بغير عذر فالحائض تقضي الصوم وكذا المرتد . أما الكافر والصبي والمجنون فلا قضاء عليهم . ولا يشترط التتابع في قضاء رمضان ولكن يقضى كيف شاء متفرقا ومجموعا . وأما الكفارة فلا تجب إلا بالجماع وما عداه لا تجب به كفارة . والكفارة عتق رقبة فان أعسر فصوم شهرين متتابعين وان عجز فاطعام ستين مسكينا مدا مدا *

وأما امساك بقية النهار فيجب على من عصى بالفطر أو قصّر فيه .

ويجب الامساك إذا شهد بالهلال عدل واحد يوم الشك . والصوم فى السفر أفضل من الفطر إلا إذا لم يطق *

وأما الفدية فتجب على الحامل والمرضع اذا أفطرتا خوفا على ولديهما لكل يوم مد حنطة لمسكين واحد مع القضاء والشيخ الهرم إذا لم يصم تصدق عن كل يوم مدا *

﴿ سنن الصيام ﴾

تأخير السحور تعجيل الفطر بالتمر أو الماء قبل الصلاة الجود فى شهر رمضان مدارسة القرآن الاعتكاف فى العشر الأخير ولا يخرج المعتكف إلا لحاجة الانسان . ولا بأس فى المسجد بالطيب وعقد النكاح وبالاكل والنوم وغسل اليد فى الطشت فكل ذلك قد يحتاج اليه *

﴿ أنواع الصوم ودرجاته ﴾

إعلم أن الصوم ثلاث درجات صوم العموم وصوم الخصوص وصوم خصوص الخصوص أما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة كما سبق وأما صوم الخصوص فهو كفُّ السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية والافكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عزّ وجل بالكلية *

﴿ أسرار الصوم وشروطه الباطنة ﴾

هي ستة أمور (الاول) غضّ البصر وكفه عن الاتساع فى النظر الى كل مايذم ويكره والى كل مايشغل القلب ويلهى عن ذكر الله تعالى *

(الثانى) حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء *

(الثالث) كف السمع عن الاصغاء الى كل مكروه لان كل ما حرم قوله حرم الاصغاء اليه ولذلك سوى الله عزّ وجل بين السمع وأكل السحت فقال تعالى ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ *

(الرابع) كف بقية الجوارح عن الآثام من اليدوالرجل وعن المكاره وكف البطن عن الشبهات وقت الافطار فلا معنى للصوم عن الطعام الحلال ثم الافطار على الحرام . فمثال هذا الصائم مثال من يبنى قصرا ويهدم مصرا وقد قال صلى الله عليه وسلم (كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِن صَوْمِهِ إلاّ الجُوعُ وَالعَطَشُ) فقيل هو الذى يفطر على الحرام . وقيل هو الذى يمسك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس بالغيبة وهو حرام وقيل هو الذى لايحفظ جوارحه عن الآثام *

(الخامس) أن لايستكثر من الطعام الحلال وقت الافطار بحيث يمتلئ فما من وعاء أبغض الى الله عزّ وجل من بطن ملئ من حلال - وكيف يستفاد من الصوم قهر عدوّ الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره مافاته ضحوة نهاره وربما يزيد عليه فى ألوان الطعام حتى استمرت العادات بأن يدخر جميع الاطعمة لرمضان فيؤكل من الطعام فيه مالايؤكل فى عدة

أشـهر . ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى ، واذا دفعت المعدة من ضحوة نهار الى العشاء حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها ثم أطعمت من اللذات وأشبعت زادت لذتها . وتضاعفت قوتها وانبعث من الشهوات ماعساها كانت راكدة لو تركت على عادتها . فروح الصوم وسره تضعيف القوى التى هى وسائل الشيطان فى العود الى الشرور . ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل . ومن جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام فهو عن الملكوت محجوب *

(السادس) أن يكون قلبه بعد الافطار مضطربا بين الخوف والرجاء إذ ليس يدرى أيقبل صومه فهو من المقربين أو يرد عليه فهو من الممقوتين وليكن كذلك فى آخر كل عبادة يفرغ منها *

﴿ التطوع بالصيام ﴾

اعلم أن استحباب الصوم يتأكد فى الايام الفاضلة . وفواضل الايام بعضها يوجد فى كل سنة وبعضها يوجد فى كل شهر وبعضها فى كل أسبوع أما السنة فبعد أيام رمضان فيوم عرفة ويوم عاشوراء والعشر الاول من ذى الحجة وكان صلى الله عليه وسلم يكثر صوم شعبان وفى الخبر (أَفضَلُ الصِّيامِ بعد شهرِ رَمضانَ شهرُ اللهِ المحرم) لانه ابتداء السنة فبناؤها على الخير أحب وأرجى لدوام بركته . وفى الخبر (إذا كانَ النِّصفُ مِن شعبَانَ فَلاَ صَومَ حتَّى رَمضانَ) ولهذا يستحب أن يفطر قبل رمضان أياما فان وصل شعبان برمضان فجائز . ولا يجوز أن يقصد استقبال رمضان

بيومين أو ثلاثة الا أن يوافق ورداً له . وكره بعض الصحابة أن يصام رجب كله حتى لا يضاهي بشهر رمضان *

وأما ما يتكرر فى الشهر فأول الشهر وأوسطه وآخره . ووسطه الايام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر *

وأما فى الاسبوع فالاثنين والخميس والجمعة فيستحب فيها الصيام وتكثير الخيرات لتضاعف أجورها ببركة هذه الاوقات *

واذا ظهرت أوقات الفضيلة فالكمال فى أن يفهم الانسان معنى الصوم وان سره تصفية القلب وتفريغ الهمّ لله عز وجل *

كتاب أسرار الحج

جعل الله البيت العتيق مثابة للناس وأمنا وأكرمه بالنسبة الى نفسه تشريفا وتحصينا ومنا وجعل زيارته والطواف به حجابا بين العبد وبين العذاب ومجنا والحج من بين أركان الاسلام ومبانيه عبادة العمر وتمام الاسلام وكمال الدين . وأجدر بها أن تصرف العناية الى شرحها وتفصيل أركانها وسننها وآدابها وفضائلها وأسرارها *

﴿ فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة ﴾
(وشدُّ الرحال الى المساجد)

قال الله عز وجل (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلَى كُل

ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَميقٍ) قال قتادة لما أمر الله عز وجل ابراهيم عليه السلام أن يؤذن فى الناس بالحج نادى يا أيها الناس ان الله عزّ وجل بنى بيتا فحجوه وقال صلى الله عليه وسلم (مَنْ حَجَّ البَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ خَرَجَ مِنْ ذُنوبِهِ كَيَومِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ) ويروى : أن الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة وكل من حجها متعلق بأستارها يسعون حولها حتى تدخل الجنة . وعن الحسن البصرى رضى الله عنه ان صدقة درهم فيها بمائة ألف وكذلك كل حسنة بمائة ألف . ويقال ان السيئات تضاعف بها كما تضاعف الحسنات ولما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة استقبل الكعبة وقال (إنَّكِ لخيرُ أرضِ اللهِ عزّ وَجلّ وَأحبُّ بِلادِ اللهِ تَعالى إلىَّ وَلَوْلاَ أنِّى أُخرِجتُ مِنْكِ لَمَا خَرَجْتُ) *

وما بعد مكة بقعة أفضل من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فالأعمال فيها أيضا مضاعفة قال صلى الله عليه وسلم (صَلاَةٌ فِى مَسْجِدِى هَذَا خيرٌ مِنْ ألفِ صَلاَةٍ فِيما سِواهُ إلاَّ المسجِدَ الحرَامَ) وبعد مدينته الأرض المقدسة فان الصلاة فيها بخمسمائة صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام. وما بعد هذه البقاع الثلاث فالمواضع فيها متساوية . إلا الثغور فان المقام بها للمرابطة فيها فيه فضل عظيم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (لاَ تُشَدُّ الرِّحالُ إلاَّ إلى ثَلاَثَةِ مساجِدَ المسجِدِ الحرَامِ وَمسجِدى هذا والمسجد الأقصى) لأن المساجد بعد المساجد الثلاثة متماثلة ولا بلد إلا وفيه مسجد فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر *

﴿ شروط وجوب الحج ﴾

(وصحة أركانه وواجباته ومحظوراته)

(أما الشرائط) فشرط صحة الحج اثنان الوقت والاسلام . فيصح حج الصبيّ ويحرم بنفسه ان كان مميزا ويحرم عنه وليّه ان كان صغيرا . ويفعل به مايفعل فى الحج من الطواف والسعي وغيره . وأما الوقت فهو شوال وذو القعدة وتسع من ذى الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر . فمن أحرم بالحج فى غير هذه المدة فهى عمرة . وجميع السنة وقت العمرة * وأما شروط وقوعه عن حجة الاسلام فالبلوغ والعقل والوقت *

(وأما شرط لزومه) فالاستطاعة . وهى نوعان (أحدهما) المباشرة وذلك له أسباب إما فى نفسه فبالصحة . وإما فى الطريق فبأن تكون خصبة آمنة بلا بحر مخطر ولا عدوّ قاهر . وأما فى المال فبأن يجد نفقة ذهابه وايابه الى وطنه . وأن يملك نفقة من تلزمه نفقته فى هذه المدة . وان يملك مايقضى به ديونه ، وأن يقدر على راحلة أو كرائها بمحمل أو زاملة ان استمسك على الزاملة (وأما النوع الثانى) فاستطاعة المعضوب بماله وهو أن يستأجر من يحج عنه بعد فراغ الأجير عن حجة الاسلام لنفسه . ومن استطاع لزمه الحج وله التأخير ولكنه فيه على خطر . فان تيسر له ولو فى آخر عمره سقط عنه . وان مات قبل الحج لقى الله عزّ وجل عاصيا بترك الحج وكان الحج فى تركته يحج عنه وان لم يوص كسائر ديونه . ومن مات ولم يحج مع اليسار فأمره شديد عند الله تعالى . قال عمر رضى الله عنه لقد هممت أن أكتب

فى الامصار بضرب الجزية على من لم يحج ممن يستطيع اليه سبيلا . وعن سعيد بن جبير وابراهيم النخعى ومجاهد وطاوس . لو علمت رجلا غنيا وجب عليه الحج ثم مات قبل أن يحج ماصليت عليه . وبعضهم كان له جار موسر فمات ولم يحج فلم يصل عليه *

وأما الاركان التى لايصح الحج دونها فخمسة . الاحرام . والطواف . والسعى بعده . والوقوف بعرفة . والحلق على قول ـ وأركان العمرة كذلك إلا الوقوف *

وأما وجوه أداء الحج والعمرة فثلاثة (الأوّل) الافراد وذلك أن يقدم الحج وحده فاذا فرغ خرج الى الحل فأحرم واعتمر *

(الثانى) القِران وهو أن يجمع فيقول لبيك بحجة وعمرة فيصير محرما بهما ويكفيه أعمال الحج وتندرج العمرة تحت الحج وعلى القارن دم شاة الا المكىّ (الثالث) التمتع وهو أن يجاوز الميقات محرما بعمرة ويتحلل بمكة ويتمتع بمحظورات الاحرام الى وقت الحج ثم يحرم بالحج . ويلزمه دم شاة فان لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج قبل يوم النحر متفرقة أو متتابعة وسبعة اذا رجع الى الوطن *

وأما محظورات الحج والعمرة فستة (الأوّل) اللبس للقميص والسراويل والخف والعمامة بل ينبغي أن يلبس إزارا ورداء ونعلين . ولا بأس بالمنطقة والاستظلال فى المحمل ولكن لاينبغي أن يغطى رأسه، وللمرأة أن تلبس كل مخيط بعد أن لاتستر وجهها بما يماسه فان احرامها فى وجهها ،

(الثانى) الطيب فليجتنب كل مايعده العقلاء طيبا . فان تطيب أولبس فعليه دم شاة *

(الثالث) الحلق والقلم وفيهما الفدية أعنى دم شاة . ولا بأس بالكحل ودخول الحمام والفصد والحجامة وترجيل الشعر (الرابع) الجماع . وهو مفسد قبل التحلل الاول وفيه بدنة أو بقرة أو سبع شياه . وان كان بعد التحلل الاول لزمه البدنة ولم يفسد حجّه (الخامس) مقدمات الجماع كالقبلة والملامسة فهو محرم وفيه شاة . ويحرم النكاح والانكاح ولا دم فيه لأنه لاينعقد (السادس) قتل صيد البر أعنى ما يؤكل . فان قتل صيداً فعليه مثله من النعم يراعى فيه التقارب في الخلقة . وصيد البحر حلال. ولا جزاء فيه*

* ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر الى الرجوع *

(وهى عشر جمل)

(الجملة الأولى) فى السير من أوّل الخروج الى الاحرام. وفيها مسائل:

(الأولى فى المال) ينبغى أن يبدأ بالتوبة ورد المظالم وقضاء الديون واعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته الى وقت الرجوع ويردّ ماعنده من الودائع ويستصحب من المال الحلال الطيب ما يكفيه لذهابه وايابه من غير تقتير بل على وجه يمكنه معه التوسع فى الزاد والرّفق بالضعفاء والفقراء . ويتصدق بشئ قبل خروجه . فان اكترى فليظهر للمكاري كل مايريد أن يحمله من قليل أو كثير ليحصل رضاه فيه *

(الثانية فى الرفيق) ينبغي أن يلتمس رفيقا صالحا محبا للخير معينا عليه

ان نسى ذكره وان ذكر أعانه وان جبن شجعه وان عجز قواه وان ضاق صدره صبره . ويودع رفقاءه المقيمين واخوانه وجيرانه فيودّعهم ويلتمس أدعيتهم والسنة فى الوداع أن يقول أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك . وكان صلى الله عليه وسلم يقول لمن أراد السفر (فى حِفظِ اللهِ وكَنَفِهِ زَوَّدَكَ اللهُ التقوَى وغَفرَ ذَنبَكَ وَوَجَّهَكَ الخيرَ أينَما كنتَ) *

(الثالثة فى الخروج من الدار) ينبغى اذا هم بالخروج أن يصلى ركعتين فاذا فرغ رفع يديه ودعا الله عن اخلاص وقال : اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل والمال والولد والأصحاب إحفظنا وإياهم من كل آفة وعاهة اللهم انا نسألك في مسيرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ماترضى اللهم انا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد *

(الرابعة اذا حصل على باب الدار) قال بسم الله توكلت على الله لاحول ولا قوة الا بالله رب أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أذِل أو أذَل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل علىّ اللهم انى لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة بل خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك وقضاء فرضك واتباع سنة نبيّك *

(الخامسة في الركوب) فاذا ركب قال سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وانا الى ربنا لمنقلبون *

﴿ الجملة الثانية فى آداب الاحرام ﴾

(من الميقات الى دخول مكة)

(الأدب الأوّل) أن يغتسل وينوى به غسل الاحرام أعنى اذا انتهى الى الميقات الذى يحرم الناس منه ويتم غسله بالتنظيف ويسرح لحيته ورأسه ويقلم أظفاره ويقص شاربه ويستكمل النظافة التى ذكرناها فى الطهارة *

(الثانى) أن يفارق الثياب المخيطة ويلبس ثوبى الاحرام فيرتدى ويتزر بثوبين أبيضين ويتطيب فى ثيابه وبدنه *

(الثالث) أن يصبر بعد لبس الثياب حتى تنبعث به راحلته ان كان راكبا أو يبدأ بالسير ان كان راجلا فعند ذلك ينوى الاحرام بالحج أو بالعمرة قرانا أو أفرادا كما أراد ويقول : لبيك اللهم لبيك لاشريك لك لبيك أن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك لبيك بحجة حقا تعبداً ورقا اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد *

(الرابع) يستحب تجديد التلبية فى دوام الاحرام خصوصا عند اصطدام الرفاق وعند اجتماع الناس وعند كل صعود وهبوط وعند كل ركوب ونزول رافعا بها صوته بحيث لايبح حلقه فانه لاينادى أصم ولا غائبا ـ كما ورد فى الخبر ـ وكان صلوات الله عليه اذا أعجبه شئ قال (لَبَّيْكَ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخِرَةِ) *

﴿ الجملة الثالثة فى آداب دخول مكة الى الطواف ﴾

يستحب أن يغتسل بذى طوى . واذا وقع بصره على البيت فليقل

لا إله إلا الله والله أكبر اللهم أنت السلام ومنك السلام ودارك دار السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام اللهم هذا بيتك عظّمته وكرّمته وشرفته اللهم فزده تعظيما وزده تشريفا وتكريما وزده مهابة وزد من حجّه براً وكرامة اللهم افتح لى أبواب رحمتك وأدخلنى جنتك وأعذنى من الشيطان الرجيم . ثم لايعرج على شئ دون الطواف ـ وهو طواف القدوم ـ الا أن يجد الناس فى المكتوبة فيصلى معهم ثم يطوف *

* (الجملة الرابعة فى الطواف) *

فاذا أراد افتتاح الطواف اما للقدوم واما لغيره فينبغى أن يراعى أموراً ستة (الأوّل) أن يراعى شروط الصلاة من طهارة الحدث والخبث فى الثوب والبدن والمطاف وستر العورة . فالطواف بالبيت صلاة ولكن الله سبحانه أباح فيه الكلام . وليضطبع قبل ابتداء الطواف وهوأن يجعل وسط ردائه تحت ابطه اليمنى ويجمع طرفيه على منكبه الأيسر فيرخي طرفا وراء ظهره وطرفا على صدره . ويقطع التلبية عند ابتداء الطواف ويشتغل بالادعية المروية *

(الثانى) اذا فرغ من الاضطباع فليجعل البيت على يساره وليقف عند الحجر الاسود ، وليتنحّ عنه قليلا ليكون الحجر قدامه فيمرّ بجميع الحجر بجميع بدنه فى ابتداء طوافه . وليجعل بينه و بين البيت قدر ثلاث خطوات ليكون قريبا من البيت فانه أفضل *

(الثالث) أن يقول قبل مجاوزة الحجر بل فى ابتداء الطواف بسم الله

والله أكبر اللهم ايمانا بك وتصديقا بكتابك ووفاء بعهدك واتباعا لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ويطوف *

(الرابع) أن يرمل فى ثلاثة أشواط ويمشي فى الأربعة الأخر على الهيئة المعتادة . ومعنى الرمل الاسراع فى المشى مع تقارب الخطا . وهو دون العدو وفوق المشى المعتاد . والمقصود منه ومن الاضطباع اظهار الشطارة والجلادة والقوة ـ هكذا كان القصد أوّلا قطعاً لطمع الكفار وبقيت تلك السنة . والأفضل الرمل مع الدنوّ من البيت فان لم يمكنه للزحمة فالرمل مع البعد أفضل . فليخرج الى حاشية المطاف وليرمل ثلاثا ثم ليقرب الى البيت فى المزدحم وليمش أربعاً . وان أمكنه استلام الحجر فى كل شوط فهو الأحب . وان منعه الزحمة أشار باليد وقبل . وكذلك استلام الركن اليمانى يستحب من سائر الأركان *

(الخامس) اذا تمّ الطواف سبعاً فليأت الملتزم وهو بين الحجر والباب وهو موضع استجابة الدّعوة وليلزق بالبيت وليتعلق بالأستار وليلصق بطنه بالبيت وليضع عليه خده الأيمن وليبسط عليه ذراعيه وكفيه وليقل اللهم يارب البيت العتيق أعتق رقبتى من النار اللهم هذا مقام العائذ بك من النار وليدع بحوائجه الخاصة ويستغفر من ذنوبه *

(السادس) اذا فرغ من ذلك ينبغي أن يصلى خلف المقام ركعتين . وهما ركعتا الطواف . وليدع بعد ركعتى الطواف وليقل اللهم يسر لى اليسرى وجنبنى العسرى واغفر لى فى الأخرى والأولى *

﴿ الجملة الخامسة فى السعى ﴾

فاذا فرغ من الطواف فليخرج من باب الصفا فاذا انتهى الى الصفا وهو جبل فيرقى فيه درجا فى حضيض الجبل ثم يسعى بينه و بين المروة سبع مرات ـ والطهارة مستحبة للسعى وليست بواجبة بخلاف الطواف *

﴿ الجملة السادسة فى الوقوف وما قبله ﴾

الحاج اذا انتهى يوم عرفة الى عرفات فلا يتفرغ لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف . واذا وصل قبل ذلك بأيام فطاف طواف القدوم فيمكث محرماً الى اليوم السابع من ذى الحجة . فيخطب الامام بمكة خطبة بعد الظهر عند الكعبة ويأمر الناس بالاستعداد للخروج الى منى يوم التروية والمبيت بها وبالغدوّ منها الى عرفة لاقامة فرض الوقوف بعد الزوال اذوقت الوقوف من الزوال الى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر ، فينبغي أن يخرج الى منى ملبيا ويمكث هذه الليلة بمنى فاذا أصبح يوم عرفة صلى الصبح فاذا طلعت الشمس على ثبير ـ جبل ـ سار الى عرفات . وليغتسل للوقوف ويجمع بين الظهر والعصر بأذان واقامتين وقصر الصلاة . وليكثر من أنواع التحميد والتسبيح والتهليل والثناء على الله عزّ وجل والدعاء والتوبة ولا يصوم فى هذا اليوم ليقوى على المواظبة على الدعاء ولا يقطع التلبية يوم عرفة بل الأحب أن يلبى تارة ويكب على الدعاء أخرى . وليدع بما بدا له وليستغفر له ولوالديه ولجميع المؤمنين والمؤمنات وليلحّ فى الدعاء وليعظم المسئلة فان الله لا يتعاظمه شئ *

﴿ الجملة السابعة فى بقية أعمال الحج ﴾

إذا أفاض من عرفة بعد غروب الشمس فينبغي أن يكون على السكينة والوقار فاذا بلغ المزدلفة جمع بين المغرب والعشاء قاصراً لها بأذان واقامتين ثم يمكث تلك الليلة بمزدلفة . ويتزوّد الحصا منها ففيها أحجار رخوة فيأخذ سبعين حصاة فانها بقدر الحاجة ثم ليغلس بصلاة الصبح وليأخذ في المسير حتى اذا انتهى الى المشعر الحرام ـ وهو آخر المزدلفة ـ فيقف و يدعو الى الاسفار ثم يدفع منها قبل طلوع الشمس حتى ينتهى الى موضع يقال له وادى محسّر فيستحب له أن يحرّك دابته حتى يقطع عرض الوادى ـ وان كان راجلا أسرع فى المشي ثم اذا أصبح يوم النحر خلط التلبية بالتكبير فيلبى تارة ويكبر أخرى فينتهى الى منى ومواضع الجمرات وهى ثلاثة فيتجاوز الأولى والثانيـة فلا شغل له معهما يوم النحر حتى ينتهى الى جمرة العقبة ويرمى بعد طلوع الشمس سبع حصيات رافعا يده مستقبلا القبلة أو الجمرة ـ قائلا مع كل حصاة الله أكبر على طاعة الرحمن ورغم الشيطان اللهـم تصديقا بكتابك واتباعا لسنة نبيك . ثم ليذبح الهدى ان كان معه ـ والأولى أن يذبح بنفسه وليقل بسم الله والله أكبر اللهم منك وبك واليك تقبل منى كما تقبلت من خليلك ابراهيم ـ والتضحية بالبدن أفضل ثم بالبقر ثم بالشاة والضأن أفضل من المعز . والبيضاء أفضل من الغبراء والسوداء . وليأ كل منه ان كان من هدى التطوّع . ولا يضحين بالعرجاء والجدعاء [١] والعجفاء [٢]

---

(١) أى المقطوعة الاذن (٢) المهزولة

ثم ليحلق بعد ذلك . ومهما حلق بعد رمى الجمرة فقد حصل له التحلل الأول وحل له كل المحظورات الا النساء والصيد . ثم يفيض الى مكة ويطوف كما وصفناه ـ وهذا الطواف طواف ركن فى الحج ويسمى طواف الزيارة وأول وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر . وأفضل وقته يوم النحر ولا تحل له النساء الى أن يطوف فاذا طاف تم التحلل وحل الجماع وارتفع الاحرام بالكلية ولم يبق الا رمى أيام التشريق والمبيت بمنى . وهى واجبات بعد زوال الاحرام على سبيل الاتباع للحج *

وأسباب التحلل ثلاثة الرمى والحلق والطواف الذى هو ركن ومهما أتى باثنين من هذه الثلاثة فقد تحلل أحد التحللين . ولا حرج عليه فى التقديم والتأخير بهذه الثلاث مع الذبح . ولكن الأحسن أن يرمى ثم يذبح ثم يحلق ثم يطوف *

ثم اذا فرغ من الطواف عاد الى منى للمبيت والرمى فيبيت تلك الليلة بمنى . فاذا أصبح اليومَ الثانىَ من العيد وزالت الشمس اغتسل للرمي وقصد الجمرة الأولى ورمي اليها بسبع حصيات . فاذا تعداها وقف مستقبل القبلة وحمد الله تعالى وهلل وكبر ودعا مع حضور القلب وخشوع الجوارح ثم يتقدم الى الجمرة الوسطى ويرمي كما رمى الأولى ويقف كما وقف للأولى ثم يتقدم الى جمرة العقبة ويرمي سبعا . ويرجع الى منزله ويبيت تلك الليلة بمنى ويصبح فاذا صلى الظهر في اليوم الثانى من أيام التشريق رمى فى هذا اليوم احدى وعشرين حصاة كاليوم الذى قبله ـ ثم هو مخير بين المقام بمنى

وبين العود الى مكة ـ فان خرج من منى قبل غروب الشمس فلاشئ عليه وان صبر الى الليل فلا يجوز له الخروج بل لزمه المبيت حتى يرمى يوم النفر الثانى احدى وعشرين حجرا كما سبق . وفى ترك المبيت والرمى إراقة دم وله أن يزور البيت فى ليالى منى بشرط أن لا يبيت إلا بمنى . ولا يتركن حضور الفرائض مع الامام فى مسجد الخيف فان فضله عظيم *

﴿ الجملة الثامنة فى صفة العمرة وما بعدها الى طواف الوداع ﴾

من أراد أن يعتمر قبل حجه أو بعده فليغتسل ويلبس ثياب الاحرام ـ كما سبق فى الحج ـ ويحرم بالعمرة من ميقاتها وينوى العمرة ويلبى ويصلى ركعتين ويدعو بما شاء ثم يعود الى مكة وهو يلبى حتى يدخل المسجد الحرام فاذا دخل المسجد ترك التلبية وطاف سبعا وسعى سبعا كما وصفنا فاذا فرغ حلق رأسه . وقد تمت عمرته ـ والمقيم بمكة ينبغي أن يكثر الاعتمار والطواف . وليكثر شرب ماء زمزم وليرتو منه حتى يتضلع *

﴿ الجملة التاسعة فى طواف الوداع ﴾

مهما عنّ له الرجوع الى الوطن بعد الفراغ من اتمام الحج والعمرة فلينجز أوّلا أشغاله وليشدّ رحاله وليجعل آخر أشغاله وداع البيت .. ووداعه بأن يطوف به سبعا كما سبق ولكن من غير رمل واضطباع . فاذا فرغ منه صلى ركعتين خلف المقام وشرب من ماء زمزم ثم يأتى الملتزم ويدعو ويتضرّع قائلا : اللهم أصبحنى العافية فى بدنى والعصمة فى دينى . وأحسن

منقلبى . وارزقنى طاعتك أبدا ما أبقيتنى . واجمع لى خـير الدنيا والآخرة انك على كل شئ قدير *

﴿ الجملة العاشرة فى زيارة المدينة وآدابها ﴾

من قصد زيارة المدينة فليصلّ على رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى طريقه كثيرا . وليغتسل قبل الدخول . وليتطيب وليلبس أنظف ثيابه . فاذا دخلها فليدخلها متواضعا معظما ويقصد المسجد ويصلى فيه بجنب المنبر ركعتين ثم يأتى قبر النبيّ صلى الله عليه وسـلم فيقف عند وجهه . وذلك بأن يستدبر القبلة ويستقبل جدار القبر على نحو من أربعة أذرع من السارية التى فى زاوية جدار القبر . وليس من السنة أن يمس الجدار ولا أن يقبله فان المسّ والتقبيل للمشاهد عادة النصارى واليهود بل الوقوف من بعـد أقرب للاحترام فيقف ويقول : السلام عليك يارسول الله السلام عليك يانبىّ الله السلام عليك يا أمين الله السلام عليك ياحبيب الله السلام عليك ياصفوة الله السلام عليك يا أبا القاسم السلام عليك ياسيد المرسلين السلام عليك ياخاتم النبيين السلام عليك يارسول رب العالمين السلام عليك ياقائد الخير السلام عليك يافاتح البر السلام عليك يانبىّ الرحمة السلام عليك ياهادى الأمة السلام عليك وعلى أهل بيتك وأصحابك الطيبين . جزاك الله عنا أفضل ماجزى نبياً عن قومه ورسولا عن أمته وصلى عليك أفضل وأكمل ما صلى على أحد من خلقه كما استنقذنا بك من الضلالة وبصرنا بك من العماية وهدانا بك من الجهالة أشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة

وجاهدت عدوّك وهديت أمتك وعبدت ربك حتى أتاك اليقين فصلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيبين وسلم وشرف وكرّم وعظم . ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه ثم يتأخر قدر ذراع أيضا ويسلم على الفاروق عمر رضى الله عنه . ويقول السلام عليكما ياوزيرى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعاونين له على القيام بالدين مادام حيا والقائمين فى أمته بعده بأمور الدين تتبعان فى ذلك آثاره وتعملان بسنته فجزاكما الله خير ماجزى وزيرى نبيّ عن دينه . ثم يأتي الروضة فيصلى فيها ركعتين ويكثر من الدعاء ما استطاع . ويستحب له أن يأتى أحدا ويزور قبور الشهداء وأن يأتى البقيع ويزور خياره . وأن يأتى مسجد قباء فى كل سبت ويصلى فيه . وان أمكنه الاقامة بالمدينة مع مراعاة الخدمة فلها فضل عظيم . ثم إذا عزم على الخروج من المدينة فيستحب أن يأتى القبر الشريف ويعيد دعاء الزيارة ويسأل الله تعالى أن يرزقه العودة اليه ثم يصلى ركعتين فى الروضة فاذا خرج فليخرج رجله اليسرى ثم اليمنى وليتصدق على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قدر عليه *

﴿ سنن الرجوع من السفر ﴾

يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون . فاذا أشرف على مدينته يحرّك الدابة . ويرسل الى أهله من يخبرهم بقدومه كيلا يقدم عليهم بغتة ولا ينبغى أن

يطرق أهله ليلا . واذا دخل البلد فليقصد المسجد أوّلا وليصل ركعتين .
واذا استقرّ فى منزله فلا ينبغى أن ينسى ما أنعم الله به عليه من زيارة حرمه
وقبر نبيه صلى الله عليه وسلم فيكفر تلك النعمة بأن يعود الى الغفلة واللهو
والخوض فى المعاصي فما ذلك علامة الحج المبرور بل علامته أن يعود راغبا
فى الآخرة متأهباً للقاء رب البيت بعد لقاء البيت *

﴿ الباب الثالث فى الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة ﴾

(دقائق الآداب وهى سبعة)

(الأوّل) أن تكون النفقة حلالا والهمّ مجردا لله تعالى وتعظيم شعائره.
ومن حج عن غيره فينبغى أن يكون قصده زيارة بيت الله تعالى ومعاونة
أخيه المسلم باسقاط الفرض عنه لا ان يتخذ ذلك مكسبه ومتجره ليتوصل
بالدين الى الدنيا فيطلب الدنيا بعمل الآخرة بل ليتوصل بالدنيا الى الدين
أى التمكن من الحج والزيارة فيه *

(الثانى) التوسع فى الزاد وطيب النفس بالبذل والانفاق من غير تقتير
ولا اسراف بل على الاقتصاد . و بذل الزاد فى طريق الحج نفقة فى سبيل
الله عزّ وجل * قال ابن عمر من كرَمِ الرجل طيبُ زاده فى سفره *

(الثالث) ترك الرفث والفسوق والجدال كما نطق به القرآن (والرفث)
اسم جامع لكل لغو وفحش من الكلام ويدخل فيه مغازلة النساء ومداعبتهن
والتحدث بشأن الجماع ومقدماته فان ذلك يهيج داعية الجماع المحظور والداعى
الى المحظور محظور (والفسق) اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله

عزّ وجل (والجدال) هو المبالغة فى الخصومة والمماراة بما يورث الضغائن ويناقض حسن الخلق . فلا ينبغى أن يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجماله وعلى غيرهم من أصحابه بل يلين جانبه ويخفض جناحه للسائرين الى بيت الله عزّ وجل . ويلزم حسن الخلق . وليس حسن الخلق كف الأذى بل احتمال الأذى *

(الرابع) أن يجتنب ذى المترفين المتكبرين فلا يميل الى أسباب التفاخر والتكاثر فيكتب فى ديوان المتكبرين ويخرج عن حزب الصالحين وفى الحديث (إنما الحاجُ الشَّعِثُ التَّفِثُ) يقول الله تعالى (ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ) والتفث الشعث والاغبرار . وقضاؤه بالحلق وقص الشارب والاظفار

(الخامس) أن يرفق بالدابة فلا يحملها مالا تطيق ولا يقف عليها الوقوف الطويل . وينزل أحيانا عنها احسانا اليها *

(السادس) أن يتقرب باراقة دم وان لم يكن واجبا عليه ويجتهد أن يكون من سمين النعم ونفيسه وليأكل منه ان كان تطوعا . وليس المقصود اللحم انما المقصود تزكية النفس وتطهيرها عن صفة البخل وتزيينها بجمال التعظيم لله عزّ وجل (لَنْ يَنَالَ اللهَ لحومُها وَلاَ دِماؤُها وَلكِنْ يَنالهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ) *

(السابع) أن يكون طيب النفس بما أنفقه من نفقة وهدى وبما أصابه من خسران ومصيبة في مال أو بدن ان أصابه ذلك . فله بكل أذى احتمله وخسران أصابه ثواب . فلا يضيع منه شيء عند الله عز وجل . ويقال من

علامة قبول الحج ترك ما كان عليه من المعاصى . وان يتبدل باخوانه البطالين اخوانا صالحين وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة *

﴿ طريق الاعتبار بأعمال الحج الباطنة ﴾

(والتذكر لأسرارها ومعانيها)

فى كل واحد من أعمال المناسك تذكرة للمتذكر وعبرة للمعتبر إذا انفتح بابها انكشف لكل خارج من أسرارها مايقتضيه صفاء قلبه وغزارة فهمه . وقد شرّف الله البيت العتيق بالاضافة الى نفسه ونصبه مقصدا لعباده وجعل ماحواليه حرما لبيته تفخيما لأمره وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره . ووضعه على مثال حضرة الملوك يقصده الزوّار من كل فج عميق ومن كل أوب سحيق شعثا غبرا متواضعين لرب البيت خضوعا لجلاله . مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد ليكون ذلك أبلغ فى رقهم وعبوديتهم وأتم فى اذعانهم وانقيادهم . وفى الاحرام والتلبية اجابة نداء الله عزّ وجل . وفى دخول مكة تذكر الانتهاء إلى حرم الله فليخش أن لا يكون أهلا للقرب وليرج الرحمة . وفي مشاهدة البيت احضار عظمة البيت فى القلب وتقدير مشاهدته لرب البيت لشدة تعظيمه اياه . وفى الطواف بالبيت تشبه بالملائكة المقرّبين الحافين حول العرش الطائفين حوله وما القصد طواف الجسم بل طواف القلب بذكر الرب . وفى التعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم طلب القرب حبا وشوقا للبيت ولرب البيت وتبركا بالمماسة والالحاح فى طلب المغفرة وسؤال الأمان كالمذنب المتعلق بثياب

من أذنب اليه المتضرع اليه فى عفوه عنه المظهر له أنه لاملجأ له منه إلا اليه وأنه لايفارق ذيله إلا بالعفو عنه . وفى السعى بين الصفا والمروة مضاهاة تردد العبد بفناء الملك جائيا وذاهبا مرة بعد أخرى اظهاراً للخلوص في الخدمة ورجاء للملاحظة بعين الرحمة كالذي دخل على الملك وخرج وهو لا يدرى ما الذى يقضى به الملك فى حقه من قبول أو رد فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد أخرى يرجو أن يرحم في الثانية ان لم يرحم فى الأولى . وفى الوقوف بعرفة ورؤية ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات باختلاف اللغات تذكر اجتماع الأمم فى عرصات القيامة . وتحيرهم فى ذلك الصعيدالواحد بين الرد والقبول وفى تذكر ذلك الزام القلب الضراعة والابتهال الى الله عز وجل ورجاء الحشر فى زمرة الفائزين المرحومين . وتحقيق الرجاء بالاجابة فالموقف شريف . والرحمة انما تصل من حضرة الجلال الى كافة الخلق بواسطة القلوب النقية . ولا ينفك الموقف عن طبقات من الصالحين وأرباب القلوب فاذا اجتمعت هممهم وتجردت للضراعة والابتهال قلوبهم وارتفعت الى الله سبحانه أيديهم وامتدت اليه أعناقهم وشخصت نحو السماء أبصارهم مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة فلا تظنن أنه يخيب أملهم ويضيع سعيهم ويدخر عنهم رحمة تغمرهم . وفى رمى الجمار انقياد للأمر اظهاراً للرق والعبودية وقصد رمى وجه الشيطان وقصم ظهره . وفى زيارة المدينة ومشاهدتها تذكر أنها البلدة التى اختارها الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم وجعل اليها هجرته وأنها داره التى شرع فيها فرائض ربه عز وجل

وسنته وجاهد عدوّه وأظهر بها دينه الى أن توفاه الله عز وجل. وأنها العرصة التى اختارها الله سبحانه لنبيه ولأول المسلمين وأفضلهم عصابة . وأن فرائض الله سبحانه أول ما أقيمت فى تلك العرصة . وأنها جمعت أفضل خلق الله حيا وميتا صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم *

كتاب آداب تلاوة القرآن

قد امتن الله على عباده بنبيه المرسل . وكتابه المنزل . الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه حتى اتسع على أهل الأفكار . طريق الاعتبار . بما فيه من القصص والأخبار . واتضح به سلوك المنهج القويم . والصراط المستقيم . بما فصل فيه من الأحكام . وفرق بين الحلال والحرام فهو الضياء والنور . وبه النجاة من الغرور . وفيه شفاء لما فى الصدور . من تمسك به فقد هُدِى . ومن عمل به فقد فاز قال تعالى (إنا نحنُ نزّلنا الذكرَ وإنا له لحافِظونَ) ومن أسباب حفظه فى القلوب والمصاحف استدامة تلاوته والمواظبة على دراسته مع القيام بآدابه وشروطه . والمحافظة على ما فيه من الأعمال الباطنة والآداب الظاهرة . وذلك مالابد من بيانه وتفصيله *

﴿ فضل القرآن وأهله وذم المقصرين فى تلاوته ﴾

قال صلى الله عليه وسلم (مَن قرأَ القرآنَ ثمّ رأى أنّ أحداً أُوتِيَ أفضلَ ممّا أُوتِيَ فقدِ استصغرَ ما عظّمهُ اللهُ تعالى) وقال صلى الله عليه

وسلم (أفضلُ عبادةِ أُمتى تِلاوةُ القرآنِ) وقال صلى الله عليه وسلم (خيرُكم مَن تعلّمَ القرآنَ وعلّمَهُ) وقال ابن مسعود : إذا أردتم العلم فانثروا القرآن فان فيه علم الأولين والآخرين . وقال عمرو بن العاص : من قرأ القرآن فقد أدرجت النبوّة بين جنبيه إلا أنه لايوحى اليه *

وقد جاء فى ذم تلاوة الغافلين قوله صلى الله عليه وسلم (ما آمَنَ بالقرآنِ مَنِ استحلَّ محارِمَهُ) وقوله صلى الله عليه وسلم (إقرَأ القرآنَ مانهاكَ فإنْ لمْ ينهَكَ فلَستَ تقرَؤهُ) وقال أنس (رُبَّ تالٍ للقرآنِ والقرآن يلعنهُ) وقال ابن مسعود : أنزل القرآن ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملا ان أحدهم ليقرأ القرآن من فاتحته الى خاتمته مايسقط منه حرفا وقد أسقط العمل به) وقال بعض العلماء ان العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم يقول (ألا لعنة الله على الظالمين) وهو ظالم نفسه (ألا لعنة الله على الكاذبين) وهو منهم *

﴿ ظاهر آداب التلاوة ﴾

(الأدب الأوّل فى حال القارئ) وهو أن يكون على الوضوء واقفا على هيئة الأدب والسكون إما قائما وإما جالسا مستقبل القبلة مطرقا رأسه غير متربع ولا متكئ ولا جالسا على هيئة التكبر . فان قرأ على غير وضوء أو كان مضطجعاً في الفراش فله أيضاً فضل ولكنه دون ذلك قال الله تعالى (الذينَ يَذكرُونَ اللهَ قِياماً وقُعوداً وعلى جُنوبِهِم ويَتفكّرُونَ فى خَلْقِ السّمواتِ والأرضِ) فأثنى على الكل ولكن قدّم القيام فى الذكر

ثم القعود ثم الذكر مضطجعا *

(الثانى فى مقدار القراءة) وللقرّاء عادات مختلفة فى الاستكثار والاختصار والمأثور عن عثمان وزيد بن ثابت وابن مسعود وأبى بن كعب رضى الله عنهم انهم كانوا يختمون القرآن فى كل جمعة يقسمونه سبعة أحزاب *

(الثالث الترتيل) هو المستحب فى هيئة القرآن لأنا سنبين أن المقصود من القراءة التفكر . والترتيل معين عليه ولذلك نعتت أم سلمة رضى الله عنها قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هى تنعت قراءته مفسرة حرفا حرفا . قال ابن عباس رضى الله عنهما لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحبّ الىّ من أن أقرأ القرآن كله هذرمة . وجلىّ أن الترتيل والتؤدة أقرب الى التوقير والاحترام وأشد تأثيراً فى القلب من الهذرمة والاستعجال *

(الرابع البكاء) وهو مستحب مع القراءة ومنشؤه الحزن وذلك أن يتأمل مافيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود ثم يتأمل تقصيره فى أوامره وزواجره فيحزن لامحالة ويبكى *

(الخامس) أن يراعى حق الآيات فاذا مرّ بآية سجدة سجد وكذلك اذا سمع من غيره سجدة سجد اذا سجد التالى . ولا يسجد إلا إذا كان على طهارة . وقد قيل فى كمالها إنه يكبّر رافعا يديه لتحريمه ثم يكبر للهوى للسجود ثم يكبر للارتفاع ثم يسلم *

(السادس) أن يقول فى مبتدأ قراءته أعوذ بالله السميع العليم من

الشيطان الرجيم . وفى أثناء القراءة إذا مرّ بآية تسبيح سبّح وكبر . واذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر . وان مرّ بمرجوّ سأل أو بمخوف استعاذ يفعل ذلك بلسانه أو بقلبه *

(السابع) الاسرار بالقراءة أبعد عن الرياء والتصنع فهو أفضل فى حق من يخاف ذلك على نفسه . فان لم يخف ولم يكن فى الجهر ما يشوش على مصل فالجهر أفضل لأن العمل فيه أكثر . ولأنه يوقظ قلب القارئ ويجمع همه إلى الفكر فيه . ولأنه يطرد النوم فى رفع الصوت ويزيد فى نشاطه للقراءة ويقلل من كسله . فمتى حضره شيءٌ من هذه النيات فالجهر أفضل *

(الثامن) تحسين القراءة وترتيبها من غير تمطيط مفرط يغيّر النظم . فذلك سنة . وفى الحديث (زَيِّنوا القرآنَ بِأصواتِكُمْ) وفى آخر (ليس منّا مَن لَمْ يَتغَنَّ بِالقرآنِ) فقيل أراد به الاستغناء وقيل أراد به الترنم وترديد الألحان به وهو أقرب عند أهل اللغة . واستمع صلى الله عليه وسلم إلى قراءة أبي موسي فقال(لَقد أُوتىَ هذا من مَزاميرِ آلِ داودَ) ويروى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن *

﴿ أعمال الباطن فى التلاوة — وهى سبعة ﴾

(الأوّل) فهم عظمة الكلام وعلوه وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه فى إيصال كلامه الى أفهام خلقه *

(الثانى) التعظيم للمتكلم فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغى أن

يحضر فى قلبه عظمة المتكلم ويعلم أن مايقرؤه ليس من كلام البشر . ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله . فاذا حضر بباله العرش والكرسي والسموات والارض وما بينهما من الجنّ والانس والدواب والاشجار وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد . وأن الكل فى قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته . وبين نقمته وسطوته . ان أنعم فبفضله . وان عاقب فبعدله . فبالتفكر فى أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام *

(الثالث) حضور القلب وترك حديث النفس والتجرد له عند قراءته وصرف الهم اليه عن غيره . كان بعض السلف إذا قرأ سورة لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية . وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم فان المعظم للكلام الذى يتلوه ويستبشر به ويستأنس لا يغفل عنه . وفى القرآن ما يستأنس به القلب ان كان التالى أهلا له فكيف يطلب الانس بالفكر فى غيره *

(الرابع) التدبر وهو وراء حضور القلب فانه قد لا يتفكر فى غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره . والمقصود من القراءة التدبر ولذلك سنّ فيه الترتيل لان الترتيل فى الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن قال علىّ رضى الله عنه لاخير فى عبادة لافقه فيها ولا في قراءة لاتدبر فيها واذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد إلا أن يكون خلف امام . وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قام ليلة بآية يرددها *

(الخامس) التفهم وهو أن يستوضح عن كل آية مايليق بها إذ القرآن

يشتمل على ذكر صفات الله عزّ وجل وذكر أفعاله . وذكر أحوال الأنبياء وأحوال المكذبين لهم وانهم كيف أهلكوا . وذكر أوامره وزواجره . وذكر الجنة والنار . أما صفات الله عزّ وجل فكقوله (ليسَ كمثلِهِ شيءٌ وهوَ السَّميعُ البَصيرُ) وكقوله تعالى (المَلِكُ القدُّوسُ السَّلامُ المؤمنُ المُهيمِنُ العزيزُ الجبَّارُ المتكبِّرُ) فليتأمل معانى هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها . وأما أفعاله تعالى فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها فليفهم التالى منها صفات الله عزّ وجل وجلاله إذ الفعل يدل على الفاعل فتدل عظمته على عظمته . فينبغى أن يشهد فى الفعل الفاعل دون الفعل فمن عرف الحق رآه فى كل شئ . ولهذا ينبغى إذا قرأ التالى قوله عزّ وجل (أفرَأيتم مَا تحرُثونَ . أفرَأيتم ما تُمنونَ . أفرأيتمُ الماءَ الَّذى تَشرَبونَ . أفرأيتم النَّارَ الَّتى تُورُون) فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرث والمنىّ بل يتأمل فى المنىّ وهو نطفة متشابهة الأجزاء ثم ينظر فى كيفية انقسامها الى اللحم والعظم والعروق والعصب وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها ثم الى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها . ثم الى ماظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والتكذيب والمجادلة كما قال تعالى (أوَلَمْ يَرَ الانسانُ أنَّا خلقناهُ مِن نُطفَةٍ فإذا هوَ خصيمٌ مُبينٌ) فيتأمل هذه العجائب ليترقى منها الى أعجب العجائب وهو الصنعة التى منها صدرت هذه الأعاجيب فلا يزال ينظر الى الصنعة

ويرى الصانع . وأما أحوال الانبياء عليهم السلام فاذا سمع منها أنهم كذّبوا وضربوا وقتل بعضهم ثم سمع نصرتهم فى آخر الأمر فهم قدرة الله عزّ وجل وارادته لنصرة الحق . وأما أحوال المكذبين كعاد وثمود وما جرى عليهم فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته وليكن حظه منه الاعتبار فى نفسه *

(السادس) التخلى عن موانع الفهم فان أكثر الناس منعوا عن فهم القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن . ومن حجب الفهم أن يكون الهم منصرفا إلى تحقيق الحروف باخراجها عن مخارجها وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معانى كلام الله عزّ وجل . فلا يزال يحملهم على ترديد الحروف يخيل اليهم أنه لم يخرج من مخرجه . فهذا يكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف فأنّى تنكشف له المعاني . وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعاً لمثل هذا التلبيس *

(السابع التخصيص) وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب فى القرآن فان سمع أمراً أو نهياً قدّر أنه المنهىّ والمأمور وان سمع وعداً أو وعيداً فكذلك وان سمع قصص الاولين والانبياء وعلم أن السمر غير مقصود . وانما المقصود أن تعتبر به وتأخذ من بضاعته ماتحتاج اليه . فما من قصة فى القرآن إلا وسياقها لفائدة فى حق النبيّ صلى الله عليه وسلم وأمته . ولذلك قال تعالى (ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) فليقدر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه

عليه من أحوال الانبياء وصبرهم عل الايذاء وثباتهم فى الدين لانتظار نصر الله تعالى . وكيف لايقدر هذا والقرآن ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم لرسول الله خاصة بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين. ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب فقال تعالى (واذكُروا نِعمةَ اللهِ عليكمْ وَما أنزلَ عليكم مِنَ الكِتابِ والحكمةِ يعظُكم بهِ) واذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد كما قال تعالى (لِأُنْذِرَكم بهِ وَمن بَلَغَ) قال محمد القرظى : من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله : واذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله بل يقرأه كمايقرأ العبد كتاب مولاه الذى كتبه اليه ليتأمله و يعمل بمقتضاه . ولذلك قال بعض العلماء : هذا القرآن رسائل أتتنا من قِبَلِ ربنا عزّ وجل بعهوده نتدبرها فى الصلوات وننفذها فى الطاعات *

(الثامن التأثر) وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره . ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الاحوال على قلبه فان التضييق غالب على آيات القرآن . فلا ترى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقرونا بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله عزّ وجل (وَإِنّي لغفّارٌ) ثم اتبع ذلك بأربعة شروط (لِمنْ تابَ وآمَنَ وعمِل صالِحًا ثمّ اهتَدَى) وقوله تعالى (والعَصرِ إنّ الإنسانَ لَفى خُسرٍ إلاّ الّذينَ آمنوا وعمِلوا الصّالحاتِ وَتَواصَوْا بالحقّ وتوَاصوْا بالصّبرِ) ذكر أربعة شروط . وحيث اقتصر ذكر شرطا جامعا فقال تعالى (إنّ رَحمَةَ اللهِ قريبٌ مِنَ المحسنينَ)

فالاحسان يجمع الكل . وهكذا من يتصفح القرآن من أوله الى آخره ومن فهم ذلك فجدير بأن يكون حاله الخشية والحزن . والا كان حظه من التلاوة حركة لسان مع صريح اللعن على نفسه فى قوله تعالى (أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ على الظَّالمينَ) وفى قوله تعالى (كَبُرَ مَقتاً عِندَ الله أن تقولوا مالاَ تفعَلونَ) وفى قوله (فأعرِضْ عَمَّنْ توَلَّى عَن ذِكْرِنا ولم يُرِدْ إلاّ الحياةَ الدُّنيا) وفى قوله تعالى (وَمن لم يَتُبْ فأُولئكَ هُمُ الظَّالمونَ) إلى غير ذلك من الآيات . فالقرآن يراد للعمل به وأما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى . وتلاوة القرآن حق تلاوته — هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل — وحظ العقل تفسير المعانى — وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار . فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ *.

كتاب الأذكار والدعوات

﴿ فضيلة الذكر ﴾

من الآيات قوله سبحانه تعالى (فاذكُرُونى أذكُرْكُم) وقال تعالى (أذكُرُوا اللهَ ذِكراً كثيرًا) وقال تعالى (الَّذينَ يذكُرُونَ اللهَ قِياماً وقعُوداً وعلى جُنوبِهِمْ) وقال تعالى (فإذا قَضَيتُمُ الصَّلاةَ فاذكُرُوا اللهَ قياماً وقعُوداً وعلى جُنوبِكم) وقال ابن عباس أى بالليل والنهار فى البر والبحر والسفر والحضر والغنى والفقر والمرض والصحة والسر والعلانية وقال تعالى

(واذكُرْ رَبَّكَ في نفسِكَ تضرُّعاً وخيفةً ودونَ الجهرِ منَ القَوْلِ بالغُدُوِّ والآصالِ ولاَ تَكُنْ منَ الغافِلينَ) وقال تعالى فى ذم المنافقين (ولا يَذكرُونَ اللهَ إلاّ قليلاً) *

ومن الاخبار قوله صلى الله عليه وسلم (يقولُ اللهُ عزّ وجلّ أنا مَعَ عبدِي ما ذَكَرَنِي وتحرَّكتْ بِي شفَتَاهُ) وقال صلى الله عليه وسلم (مَنْ أحبَّ أن يَرتَعَ في رياضِ الجنَّةِ فلْيُكثِرْ ذِكْرَ اللهِ عزّ وجلّ) وسئل صلى الله عليه وسلم * أى الاعمال أفضل فقال (أن تَمُوتَ وَلِسانُكَ رَطْبٌ بِذِكرِ اللهِ عزّ وجلّ) وقال صلى الله عليه وسلم (قال اللهُ تباركَ وتعالى إذا ذكَرَني عبدِي فى نفسِهِ ذكرْتُهُ فى نَفسي وإذا ذكَرَني فى مَلأٍ ذكرتُهُ فى مَلأٍ خيرٍ مِنْ مَلائِهِ وإذا تقرَّبَ مِنّي شِبراً تقرَّبْتُ مِنهُ ذِراعاً) الحديث*

ومن الآثار قول الحسن : الذكر ذكران ذكر الله عزّ وجل بين نفسك وبين الله عزّ وجل ما أحسنه وأعظم أجره وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عند ماحرم الله عزّ وجل *

﴿ فضيلة مجالس الذكر ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما جَلَسَ قومٌ مجلِساً يذكُرُونَ اللهَ عزّ وجلّ إلاّ حفّتْ بهِمْ الملائكةُ وغَشِيَتْهُمُ الرَّحمةُ وذكَرهمُ اللهُ تعالى فيمنْ عندَهُ) *

﴿ فضيلة التهليل ﴾

قال صلى الله عليه وسلم (أفضلُ ما قلتُ أنا والنَّبيُّونَ مِنْ قَبلي لا إلهَ

إلاّ اللهُ وَحدَهُ لاشريكَ لهُ) وقال صلى الله عليه وسلم (منْ قال لاإلهَ إلاّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ له المُلكُ ولهُ الحمدُ وهوَ على كلّ شيء قديرٌ كلَّ يوم مائةَ مرَّةٍ كانت لهُ عِدلَ عشرِ رِقابٍ وكتبتْ لهُ مائةُ حسنةٍ ومُحيَتْ عنهُ مائةُ سيئةٍ) الحديث *

﴿ فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الاذ كار ﴾

قال صلى الله عليه وسلم (مَنْ سبَّحَ دُبُرَ كلِّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثينَ وحَمِدَ ثلاثاً وثلاثينَ وكبَّرَ ثلاثاً وثلاثينَ وختَمَ المائةَ بلاإلهَ إلاّ اللهُ وحدَه لاشريكَ لهُ لهُ المُلكُ ولهُ الحمدُ وهوَ على كلّ شيء قديرٌ غُفرَتْ ذُنوبُهُ) وقال صلى الله عليه وسلم (مَنْ قالَ سبحانَ اللهِ وَبحمدِهِ فى اليومِ مائةَ مرَّة حُطَّتْ خطاياهُ) وقال صلى الله عليه وسلم (أحبُّ الكلامِ إلى اللهِ تعالى أربعٌ سبُحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولاإلهَ إلاّ اللهُ واللهُ أكبرُ لايَضُرُّكَ بأيّهِنَّ بدَأْتَ) وقال صلى الله عليه وسلم (كلمتانِ خفيفتانِ على اللّسانِ ثقيلَتانِ في الميزانِ حبيبتانِ إلى الرّحمنِ سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ * سبحانَ اللهِ العظيمِ) *

﴿ سر فضيلة الذكر ﴾

ان قلت مابال ذكر الله سبحانه مع خفته عل اللسان وقلة التعب فيه صار أفضل وأنفع من جملة العبادات مع كثرة المشقة فيها فاعلم أن تحقيق هذا لايليق إلا بعلم المكاشفة . والقدر الذى يسمح بذكره في علم المعاملة

أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب فأما الذكر باللسان والقلب لاهٍ فهو قليل الجدوى . بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أو فى أكثر الأوقات هو المقدم على العبادات بل به تشرف سائر العبادات وهو غاية ثمرة العبادات العملية . وللذكر أول وآخر فأوله يوجب الانس والحب . وآخره يوجب الانس والحب ويصدر عنه والمطلوب ذلك الأنس والحب *

﴿ فضيلة الدعاء ﴾

قال الله تعالى (وإذا سألَكَ عِبادى عنّى فإنّى قريبٌ أُجيبُ دَعوةَ الدّاعِ إذا دعانِ فليستَجيبوا لِى) وقال تعالى (أُدعُوا ربَّكمْ تضرُّعاً وخُفْيَةً إنّهُ لاَ يُحِبُّ المُعتدين) وقال تعالى (وقال ربُّكمُ ادْعونى أستَجِبْ لكمْ) وقال تعالى (قُلِ ادْعُوا اللهَ أوِ ادْعُوا الرّحمنَ أيّاَمَا تَدْعُوا فلهُ الأسماءُ الحُسنى) وقال صلى الله عليه وسلم (الدُّعاء مُخُّ العبادَةِ) وقال صلى الله عليه وسلم (سلُوا اللهَ تعالى مِنْ فضلِهِ فإنهُ تعالى يحبُّ أنْ يُسألَ وأفضلُ العبادةِ انتظارُ الفرَجِ)

﴿ آداب الدعاء ﴾

(الاول) أن يترصد لدعائه الاوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة ورمضان من الاشهر ويوم الجمعة من الاسبوع ووقت السحر من الليل قال تعالى (وَبالأسْحارِ هُمْ يَستغفِرُونَ) *

(الثانى) أن يغتنم الأحوال الشريفة كحال زحف الصفوف فى سبيل

الله تعالى وعند نزول الغيث وعند إقامة الصلوات المكتوبة وخلف الصلوات وبين الأذان والاقامة وحالة السجود . وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات الى شرف الحالات أيضا إذ وقت السحر وقت صفاء القلب واخلاصه وفراغه من المشوشات . ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عزّ وجل *

(الثالث) أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يرى بياض ابطيه ثم ينبغي أن يمسح بهما وجهه فى آخر الدعاء قال عمر رضى الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مدّ يديه فى الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه . وقال ابن عباس : كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا ضمّ كفيه وجعل بطونهما مما يلى وجهه . فهذه هيآت اليد . ولا يرفع بصره الى السماء *

(الرابع) خفض الصوت بين المخافتة والجهر قالت عائشة فى قوله تعالى (ولا تَجهَرْ بِصلاتِكَ ولا تُخافِتْ بِها) أى بدعائك وقد أثنى تعالى على نبيه زكريا عليه السلام حيث قال (إذْ نادَى رَبهُ نِداءً خفِيًّا) وقال تعالى (اُدعُوا رَبكُمْ تَضرُّعاً وخُفْيَةً) *

(الخامس) أن لا يتكلف السجع فى الدعاء والأولى أن لا يجاوز الدعوات المأثورة فانه قد يعتدى فى دعائه فيسأل مالاتقتضيه مصلحته فما كل أحد يحسن الدعاء *

(السادس) التضرع والخشوع والرغبة والرهبة قال تعالى (اُدعوا رَبَّكُمْ تَضرُّعاً وخُفْيَةً) *

(السابع) أن يجزم الدعاء ويوقن بالاجابة ويصدّق رجاءه فيه قال صلى الله عليه وسلم (لاَ يَقُلْ أحدكم إذا دعا اللهُمَّ اغفِرْلى إنْ شِئْتَ اللهمّ ارْحمني إنْ شِئْتَ لِيَعزِمِ المسألةَ فانَّهُ لا مُكرِهَ لهُ) وقال صلى الله عليه وسلم (إذادَعا أحدُكم فليُعظِّمِ الرَّغبةَ فإنّ اللهَ لاَ يَتعاظَمُهُ شيءٌ) وقال صلى الله عليه وسلم (اُدعوا اللهَ وأنتمْ موقِنونَ بالإِجابةِ واعلموا أنّ الله عزّ وجلّ لاَ يستَجيبُ دَعاءً من قلْبٍ غافِلٍ) *

(الثامن) أن يلحّ فى الدعاء ويكرره ثلاثا وأن لا يستبطئ الاجابة

(التاسع) أن يفتتح الدعاء بذكر الله تعالى (ولا يبدأ بالسؤال) ثم يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ويختم بها أيضاً *

(العاشر) وهو الأدب الباطن وهو الأصل فى الاجابة — التوبة ورد المظالم والاقبال على الله عزّ وجل بكنه الهمة فذلك هو السبب القريب فى الاجابة *

﴿ فضيلة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ﴾

قال الله تعالى (إنّ اللهَ وملائكتَهُ يُصلونَ على النَّبيّ ياأيُّها الّذينَ آمنوا صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليماً) وقال صلى الله عليه وسلم (مَنْ صلَّى عَليّ مِنْ أُمّتي كُتِبَ لهُ عَشْرُ حَسناتٍ) وقيل يارسول الله كيف نصلى عليك فقال قولوا (اللهمّ صلّ على مُحمّدٍ عبدِكَ وعلى آلهِ وأزواجِهِ وذرّيّتِه كما صلّيتَ على إبراهيمَ وآلِ إبراهيمَ وبارِكْ على محمدٍ وأزواجِهِ وذرّيّتِه كما باركْتَ على إبراهيمَ وآلِ إبراهيمَ إنّكَ حَميدٌ مجيدٌ) وروى أن عمر

رضى الله عنه سمع بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكى ويقول بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند ربك ان جعل طاعتك طاعته فقال عزّ وجل (مَنْ يُطِعِ الرَّسولَ فقد أطاعَ اللهَ) . بأبى أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بالذنب فقال تعالى (عَفا اللهُ عَنكَ لِمَ أذِنتَ لهمْ) بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودّون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان موسى أعطاه الله حجراً تتفجر منه الأنهار فماذا بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء صلى الله عليك بأبي أنت وأمى يارسول الله لئن كان سليمان أعطاه الله الريح غدوّها شهر ورواحها شهر فماذا بأعجب من البراق حين سرت عليه الى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح صلى الله عليك بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله إحياء الموتى فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلّمتك وهى مشوية فقالت الذراع لاتأ كلنى فانى مسمومة بأبى أنت وأمي يارسول الله لقد اتبعك فى قلةسنك وقصرعمرك مالم يتبع نوحا فى كثرة سنه وطول عمره ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل ولقد لبست الصوف وركبت الحمار وأردفت خلفك ووضعت طعامك على الأرض ولعقت أصابعك تواضعا منك فصلى الله عليك وسلم *

﴿ فضيلة الاستغفار ﴾

قال الله عزّ وجل (والَّذِينَ إذا فَعلوا فاحِشةً أو ظلمُوا أنفُسَهُمْ ذكَرُوا اللهَ فاستَغفَرُوا لِذنوبِهمْ) وقال تعالى (ومَنْ يَعملْ سُوأً أو يَظلِمْ نَفسَهُ ثمَّ يَستَغفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفوراً رَحِيما) وقال تعالى (فَسبِّحْ بِحَمدِ رَبِّكَ واستَغفِرْهُ إنّهُ كانَ توّابا) وقال تعالى (والمستَغفِرِينَ بالأسحَارِ) وقال تعالى (كانوا قَليلاً منَ اللّيل ما يهجعُونَ وبالاسحارِ هم يستغفِرُونَ) وكان صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول (سُبحانكَ اللهمَّ وبحمدِكَ اللهمَّ اغفرْ لي إنّكَ أنت التّوّابُ الرَّحيمُ) وقال صلى الله عليه وسلم (مَن أكثرَ مِنَ الاستغفارِ جعلَ اللهُ لهُ مِن كلّ هَمٍ فرَجاً وَمِن كلّ ضِيقٍ مخرَجاًورزَقَهُ مِن حيثُ لا يَحتَسبُ) وقال صلى الله عليه وسلم (إنّى لأستغفِرُ اللهَ تعالى وأتوبُ اليهِ في اليومِ سبعينَ مرّةً) وكان صلى الله عليه وسلم يقول فى الاستغفار (اللهمَّ اغفرْ لى ماقدّمتُ وما أخّرْتُ وما أسررْتُ وما أعلنت وما أنتَ أعلمُ بهِ مِنّى أنتَ المقدّمُ وأنتَ المؤخّرُ وأنتْ على كلّ شيءٍ قديرٌ) وعن الفضيل رحمه الله : استغفار بلا اقلاع توبة الكذّابين وعن رابعة العدوية رحمها الله : استغفارنا يحتاج الى استغفار كثير *

وأما أوراد الصباح والمساء وخلف الصلوات وفي السحر فلنا فيها كتاب مستقل فليرجع اليه من أحبّ ذلك *

﴿ آداب النوم ﴾

(الأوّل) الطهارة والسواك (الثانى) أن يعد طهوره وسواكه وينوي القيام للعبادة عند التيقظ (الثالث) أن لا يبيت من له وصية إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه فانه لا يأمن القبض من النوم (الرابع) أن ينام تائبا من كل ذنب سليمَ القلب لجميع المسلمين لا يحدث نفسه بظلم أحد ولا يعزم على معصية إن استيقظ (الخامس) أن يقتصد فى تمهيد الفرش الناعمة (السادس) أن لا ينام مالم يغلبه النوم ولا يتكلف استجلابه إلا اذا قصد به الاستعانة على القيام فى آخر الليل (السابع) أن ينام مستقبل القبلة (الثامن) الدعاء عند النوم بما ورد ومنه قراءة الاخلاص والمعوّذتين وينفث بهن فى يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده وآية الكرسى والتسبيح ثلاثا وثلاثين والتحميد كذلك والتكبير كذلك (التاسع) أن يتذكر عند النوم أن النوم نوع وفاة والتيقظ نوع بعث وليتحقق أنه يتوفى على ماهو الغالب عليه من حبّ الله وحبّ لقائه أو حبّ الدنيا ويحشر على مايتوفى عليه (العاشر) الدعاء عند التنبه وليقل أوّلا الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور ثم ليقرأ خواتم آل عمران ـ إن فى خلق السموات والأرض . الآيات وليسبّح عشراً وليحمد كذلك وليكبّر كذلك وليهلّل كذلك . قالت عائشة رضي الله عنها : كان صلى الله عليه وسلم اذا قام من الليل افتتح صلاته قال (اللّهمَّ رَبَّ جِبرِيلَ وَميكائِيلَ وَاسرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوات وَالأَرض عالِمَ الغيبِ وَالشَّهادَةِ أنتَ تحكُمُ بينَ

عبادِكَ فيما كانُوا فيهِ يختلفُونَ اهدِنى لِما اختُلِفَ فيهِ منَ الحقّ باذنِكَ إنّك تهدِى مَنْ تشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ) ثم يفتتح الصلاة ويصلى ركعتين خفيفتين ثم يصلى مثنى مثنى ما تيسر له ويختم بالوتر ان لم يكن قد صلى الوتر . وكان ربما جهر بالقراءة وربما أسر . وأكثر ما صح عنه فى قيام الليل ثلاث عشرة ركعة *

* بيان أن الأوراد للمتجرد للعبادة *

إعلم أن الأوراد والأذكار المروية والوظائف الليلية والنهارية انما تستحب للمتجرد للعبادة الذى لا شغل له غيرها أصلا بحيث لو ترك العبادة لجلس بطّالا . وأما العالم الذى ينفع الناس بعلمه فى فتوى أو تدريس أو تصنيف فترتيبه الأوراد يخالف ترتيب العابد فانه يحتاج الى المطالعة للكتب والى التصنيف والافادة ويحتاج الى مدة لها لامحالة فان أمكنه استغراق الأوقات فيه فهو أفضل مايشتغل به بعد المكتوبات ورواتبها . ويدل على ذلك ماذكرناه فى فضيلة التعليم والتعلم فى كتاب العلم وكيف لا يكون كذلك وفى العلم المواظبة على ذكر الله تعالى . وتأملُ ما قال الله تعالى وقال رسوله . وفيه منفعة الخلق وهدايتهم الى طريق الآخرة وربّ مسألة واحدة يتعلمها المتعلم فيصلح بها عبادة عمره ولو لم يتعلمها لكان سعيه ضائعاً . وأما العامىّ والمتعلم فحضوره مجالس العلم والوعظ أفضل من اشتغاله بالأوراد . وكذلك المحترف الذى يحتاج الى الكسب لعياله فليس له أن يضيع العيال ويستغرق الأوقات فى العبادات بل ورده فى وقت الصناعة

حضور السوق والاشتغال بالكسب ولكن ينبغى أن لاينسى ذكر الله تعالى فى صناعته *

﴿ فضيلة قيام الليل ﴾

من الآيات قوله تعالى (تَتجافَى جُنوبُهُمْ عَنِ المَضاجِعِ يدْعُونَ ربَّهُمْ خوفاً وطَمَعاً ومِمَّا رَزَقناهُمْ يُنفِقونَ) وقوله تعالى (أمَّنْ هو قانِتٌ آناءَ اللَّيلِ) وقوله عزّ وجلّ (والَّذينَ يَبيتُونَ لِربِّهِمْ سُجَّدًا وقِيامًا) وقوله سبحانه (كانوا قليلاً مِنَ اللَّيلِ ما يَهجَعونَ وبالأَسحارِ هُمْ يَستغفِرُونَ . وفى أموالِهِمْ حقٌّ مَعلومٌ للسَّائِلِ والمَحرُومِ) ومن الاخبار قوله صلى الله عليه وسلم (ركعتانِ يَركَعُهُما العبدُ فى جَوْفِ اللَّيلِ خيرٌ له مِنَ الدُّنيا وما فيها) وقوله صلى الله عليه وسلم (إنَّ مِنَ اللَّيل ساعَةً لا يُوافِقُها عبدٌ مُسلِمٌ يَسألُ اللهَ تعالى خيراً إلاَّ أعطاهُ إيَّاهُ) وقوله صلوات الله عليه (عَليكُمْ بِقِيامِ اللَّيلِ فإنهُ دَأْبُ الصَّالحِينَ قبلَكُمْ) *

﴿ الأسباب المسهلة لقيام الليل ﴾

منها أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام ومنها أن لايترك القيلولة بالنهار فانها سنة الاستعانة على قيام الليل ومنها أن يعرف فضل قيام الليل بسماع هذه الآيات والأخبار حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه إلى ثوابه فيهيجه الشوق لطلب المزيد والرغبة فى درجات الجنان ومنها ـ وهو أشرف البواعث ـ الحبّ لله وقوة الايمان بأنه فى قيامه لايتكلم

بحرف إلا وهو مناج به ربه وهو مطلع عليه مع مشاهدة ما يخطر بقلبه وأن تلك الخطرات من الله تعالى خطاب معه فاذا أحب الله تعالى أحب لامحالة الخلوة به وتلذذ بالمناجاة فتحمله لذة المناجاة بالحبيب على طول القيام *

﴿ بيان لذة المناجاة عقلاً ونقلاً ﴾

لا ينبغي أن تستبعد هذه اللذة إذ يشهد لها العقل والنقل فأما العقل فليعتبر حال المحب لشخص بسبب جماله أو لملك بسبب انعامه وأمواله أنه كيف يتلذذ به فى الخلوة ومناجاته حتى لا يأتيه النوم طول ليله فان قلت إن الجميل يتلذذ بالنظر اليه وأن الله تعالى لا يرى فاعلم أنه لو كان الجميل المحبوب وراء ستر أو كان فى بيت مظلم لكان المحب يتلذذ بمجاورته المجردة دون النظر ودون الطمع فى أمر آخر سواه وكان يتنعم باظهار حبه عليه وذكره بلسانه بمسمع منه وان كان ذلك أيضاً معلوما عنده فان قلت إنه ينتظر جوابه فيتلذذ بسماع جوابه وليس يسمع كلام الله تعالى فاعلم أنه ان كان يعلم أنه لا يجيبه ويسكت عنه فقد بقيت أيضاً لذة فى عرض أحواله عليه ورفع سريرته اليه كيف والموقن يسمع من الله تعالى كل ما يرد على خاطره فى أثناء مناجاته فيتلذذ به وكذا الذى يخلو بالملك ويعرض عليه حاجاته فى جنح الليل يتلذذ به فى رجاء انعامه . والرجاء فى حق الله تعالى أصدق وما عند الله أبقى وأنفع مما عند غيره وكيف لا يتلذذ بعرض الحاجات عليه فى الخلوات وأما النقل فيشهد له أحوال قوّام الليل فى تلذذهم بقيام الليل واستقصارهم له كما يستقصر المحب ليلة وصال الحبيب حتى قيل

لبعضهم كيف أنت والليـل قال ماراعيته قط يريني وجهه ثم ينصرف وما تأملته بعد وقال عليّ بن بكار منذ أربعين سنة ما أحزنني شئ سوى طلوع الفجر وقال الفضيل بن عياض اذا غربت الشمس فرحت بالظلام لخلوتي بربيّ واذا طلعت حزنت لدخول الناس عليّ وقال أبو سليمان أهل الليل في ليلهم ألذّ من أهل اللهو في لهوهم ولولا الليـل ما أحببت البقاء في الدنيا وقال بعضهم ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة الا مايجده أهل التملق في قلوبهم بالليـل من حلاوة المناجاة . وقال بعضهم لذة المناجاة ليست من الدنيا انما هي من الجنـة أظهرها الله تعالى لأوليائه لا يجدها سواهم . وقال ابن المنكدر ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث قيام الليل ولقاء الاخوان والصلاة في الجماعة وقيـل لبعضهم كيف الليـل عليك فقال ساعة أنا فيها بين حالتين أفرح بظلمته اذا جاء وأغتم بفجره اذا طلع ماتم فرحي به قط(١)

(١) ولتأييد هذا البحث الذي كان يتحدث به المؤلف في دروسه العامة نذكر ما كان نقـله المؤلف أيضا في تأليف آخر عن الشمس ابن القيم الدمشقي في اغاثة اللهفان وصورته : قال ابن القيم حقيقة المرء قلبه وروحه ولا صلاح له الا بتوحيد ربه وعبادته وخوفه ورجائه وفي ذلك أعظم لذة المرء وسعادته ونعيمه اذ ليس في الـكائنات شئ غير الله عزّ وجل يسكن القلب اليه ويطمئن به ويأنس به ويتنعم بالتوجه اليه فنفس الايمان به ومحبته وعبادته واجلاله وذكره هو غذاء الانسان وقوته وصلاحه وقوامه كما دلت عليه السنة والقرآن وشهدت به الفطرة لا كما يقوله من قل نصيبه من

﴿ طرق القسمة لأجزاء الليل ﴾

احياء الليل له سبع مراتب (الأولى) احياء كل الليل وهو شأن الأقوياء الذين تجردوا لعبادة الله تعالى وتلذذوا بمناجاته وصار ذلك غــذاء لهم وحياة لقلوبهم فلم يتعبوا بطول القيام وردوا المنام الى النهار . اشتهر ذلك عن أربعين من التابعين (الثانية) أن يقوم نصف الليل *

التحقيق أن عبادته وذكره تكليف ومشقة لمجرد الامتحان أولأجل مجرد التعويض بالثواب أو لمجرد رياضة النفس وتهــذيبها ليرتفع عن درجة البهيم بل عبادته ومعرفته وتوحيــده وشكره قرة عين الانسان وأفضل لذة الروح والجنان وليس المقصود بالعبادات والأوامر المشقة والـكلفة بالقصد الأول وان وقع ذلك ضمنا فى بعضها لأسباب اقتضته لابد منها هي من لوازم هذه النشأة فأوامره سبحانه وحقه الذى أوجبه على عباده وشرائعه لهم هى قرة العيون ولذة القلوب ونعيم الارواح وسرورها وبه سعادتها وفلاحها وكمالها فى معاشها ومعادها بل لاسرور لها ولا لذة فى الحقيقة الا بذلك كما قال تعالى (ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وهدى وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) قال أبو سعيد الخدري فضل الله القرآن ورحمته أن جعلـكم من أهله وكذا قال غير واحد ولا يقال قد وقع تسمية ذلك تكليفا فى القرآن كقوله لايكلف الله نفسا الا وسعها لانا نقول انما جاء ذلك فى جانب النفي ولم يسم سبحانه أوامره ووصاياه وشرائعه تكليفا قط بل سماها روحا ونورا وشفاء وهدى ورحمة وحياة وعهدا ووصية ونحو هذا انتهى

(الثالثة) أن يقوم ثلث الليل من النصف الأخير (الرابعة) أن يقوم سدس الليل الأخير أو خمسه (الخامسة) أن لا يراعى التقدير فينام ويقوم فى أجزاء الليل مطلقا (السادسة) أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين . وحيث يتعذر عليه القيام فى وسط الليل فلا ينبغى أن يهمل القيام قبل الصبح وقت السحر ولا يدركه الصبح نائما . وهذه هى الرتبة السابعة *

وأما قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث المقدار فلم يكن على ترتيب واحد بل ربما كان يقوم نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه أو سدسه يختلف ذلك فى الليالى . ودل عليه قوله تعالى فى الموضعين (إِنَّ رَبَّكَ يَعلمُ أنكَ تَقومُ أدنى مِن ثُلُثَيِ اللّيلِ وَنِصفَهُ وثُلثَهُ) فأدنى من ثلثى الليل كانه نصفه ونصف سدسه . فان كسر قوله (ونصفه وثلثه) كان نصف الثلثين وثلثه فيقرب من الثلث والربع . وان نصب كان نصف الليل وثلثه . وقالت عائشة رضى الله عنها كان صلى الله عليه وسلم يقوم اذا سمع الصارخ يعنى الديك . وهذا يكون السدس فما دونه *

كتاب اداب الاكل

﴿ والدعوة والضيافة ﴾

ان الله تعالى أحسن تدبير الكائنات ، فخلق الأرض والسموات ، وأنزل الماء الفرات من المعصرات ، فأخرج به الحب والنبات ، وقدّر

الأرزاق والأقوات ، وحفظ بالمأكولات قوى الحيوانات ، وأعان على الطاعات والاعمال الصالحات بأكل الطيبات ، فشكراً له على ممرّ الأوقات *

ولما كان مقصد ذوى الألباب لقاء الله تعالى فى دار الثواب ولا طريق الى الوصول للقائه إلا بالعلم والعمل ولا يمكن المواظبة عليهما الا بسلامة البدن ولا تصفو سلامة البدن الا بالأطعمة والأقوات والتناول منها بقدر الحاجة على تكرر الاوقات فمن هذا الوجه قال بعض السلف : إن الاكل من الدين : وعليه نبه قوله تعالى (كُلوا مِنَ الطيباتِ واعمَلُوا صالِحاً) وهانحن نرشد الى وظائف الدين فى الاكل فرائضها وسننها وآدابها *

﴿ بيان مالابد للآكل من مراعاته — وهو ثلاثة أقسام ﴾

(القسم الأوّل فى الآداب المتقدمة على الأكل ـ وهي خمسة)

(الأوّل) أن يكون الطعام بعد كونه حلالاً فى نفسه طيبا فى جهة مكسبه موافقا للسنة والورع لم يكتسب بسبب مكروه فى الشرع ولا بحكم هوى ومداهنة فى دين . وقد أمر الله تعالى بأكل الطيب وهو الحلال . وقدم النهى عن الأكل بالباطل على القتل تفخيما لأمر الحرام وتعظيما لبركة الحلال فقال تعالى (يَا أيُّها الَّذِينَ آمنُوا لاتأكُلوا أموالَكُمْ بَينكُمْ بالباطِلِ) الى قوله (ولا تَقتُلُوا أنفُسكُمْ) فالأصل فى الطعام كونه طيبا وهو من الفرائض وأصول الدين (الثانى) غسل اليد لأنها لا تخلو عن لوث فى تعاطى الأعمال فغسلها أقرب الى النظافة والنزاهة (الثالث) أن ينوى بأكله أن يتقوى به على طاعة الله تعالى ليكون مطيعا بالأكل . ومن ضرورة هذه

النية أن لايمد اليد الى الطعام إلا وهو جائع فيكون الجوع أحد مالا بد من تقديمه على الأكل ثم ينبغي أن يرفع اليد قبل الشبع ومن فعل ذلك استغنى عن الطبيب (الرابع) أن يرضى بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام (الخامس) أن يجتهد فى تكثير الأيدى على الطعام ولو من أهله وولده فان خير الطعام ما كثرت عليه الأيدى وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم لايأكل وحده *

﴿ القسم الثانى فى آدابه حالة الأكل ﴾

وهو أن يبدأ بسم الله فى أوّله وبالحمد لله فى آخره ويجهر به ليذكّر غيره ويأكل باليمنى ويصغر اللقمة ويجوّد مضغها وما لم يبتلعها لا يمد اليد الى الاخرى فان ذلك عجلة فى الاكل وأن لا يذم مأكولا كان صلى الله عليه وسلم لا يعيب مأكولا كان اذا أعجبه أكله والا تركه وأن يأكل مما يليه إلا الفاكهة فله أن يجيل يده فيها ولا يضع على الخبز قصعة ولا غيرها الا مايؤكل به ولا يمسح يده بالخبز ولا ينفخ فى الطعام الحار بل يصبر الى أن يسهل أكله ولا يجمع بين التمر والنوى فى طبق ولا يجمع فى كفه بل يضع النواة من فيه على ظهر كفه ثم يلقيها وكذا كل ماله عجم وثفل وأن لايترك ما استرذله من الطعام ويطرحه في القصعة بل يتركه مع الثفل حتى لا يلتبس على غيره فيأكله وأن لا يكثر الشرب فى أثناء الطعام الا اذا غصّ بلقمة أو صدق عطشه *

(وأما الشرب) فأدبه أن يأخذ الكوز بيمينه ويقول بسم الله ويشربه

مصًّا لا عَبًّا ولا يشرب قائما ولا مضطجعا وينظر فى الكوز قبل الشرب ولا يتجشى ولا يتنفس فى الكوز بل ينحيه عن فمه بالحمد ويردّه بالتسمية والكوز وكل مايدار على القوم يدار يمنة (وقد شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنا وأبو بكر رضى الله عنه عن شماله واعرابى عن يمينه فناول الاعرابى وقال الأيمن فالايمن . ويشرب فى ثلاثة أنفاس يحمد الله فى أواخرها ويسمى الله فى أوائلها *

﴿ القسم الثالث مايستحب بعد الطعام ﴾

وهو أن يمسك قبل الشبع ثم يغسل يده ويتخلل ويرمى المخرج بالخلال وأن يشكر الله تعالى بقلبه على ما أطعمه فيرى الطعام نعمة منه قال الله تعالى (كُلوا مِن طَيِّباتِ مارَزَقْناكُم واشكُرُوا للهَ) فان أكل طعام الغير فليدع له وليقل اللهم أكثر خيره وبارك له فيما رزقته واجعلنا واياه من الشاكرين وان أفطر عند قوم فليقل أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الابرار وصلت عليكم الملائكة وليكثر الاستغفار والحزن على ما أكل من شبهة ويستحب عقيب الطعام أن يقول . الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا *

﴿ آداب الاجتماع على الأكل — وهى سبعة ﴾

(الاول) أن لايبتدئ بالطعام ومعه من يستحق التقديم بكبر سنّ أو زيادة فضل الا أن يكون هو المتبوع والمقتدى به فحينئذ ينبغي أن لا يطوّل

عليهم الانتظار اذا اشرأبوا للاكل واجتمعوا له (الثانى) أن لا يسكتوا على الطعام ولكن يتكلمون بالمعروف (الثالث) أن يرفق برفيقه في القصعة فلا يقصد أن يأكل زيادة عما يأكله فان ذلك حرام ان لم يكن موافقا لرضا رفيقه مهما كان الطعام مشتركا بل ينبغي أن يقصد الايثار . ولا يأكل تمرتين فى دفعة الا اذا فعلوا ذلك أو استأذنهم . فان قلل رفيقه نشطه ورغبه فى الاكل وقال له كل ولا يزيد فى قوله كل على ثلاث فان ذلك الحاح واضجار . فأما الحلف عليه بالاكل فممنوع قال الحسن بن على رضى الله عنهما : الطعام أهون من أن يحلف عليه (الرابع) أن لايحوج رفيقه الى أن يقول له كل أو يتفقده في الاكل بل يحمل عن أخيه مؤنة ذلك . ولا ينبغي أن يدع شيأ مما يشتهيه لاجل نظر الغير اليه فان ذلك تصنع بل يجرى على المعتاد ولا ينقص من عادته شيأ فى الوحدة ولكن يعوّد نفسه حسن الادب في الوحدة حتى لايحتاج الى التصنع عند الاجتماع * نعم لو قلل من أكله ايثاراً لاخوانه ونظراً لهم عند الحاجة الى ذلك فهو حسن وان زاد فى الاكل على نية المساعدة وتحريك نشاط القوم في الاكل فهو حسن (الخامس) أن غسل اليد في الطست لابأس به قال أنس اذا أكرمك أخوك فاقبل كرامته ولا تردها . روي أن هارون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير فصبّ الرشيد على يده فى الطست فلمافرغ قال ياأبامعاوية أتدرى من صب على يدك فقال لا قال صبه أمير المؤمنين فقال ياأمير المؤمنين انما أكرمت العلم وأجللته فأجلك الله وأكرمك كما أجللت العلم وأهله .

وليصب صاحب المنزل بنفسه الماء على يد ضيفه هكذا فعل مالك بالشافعى رضى الله عنهما فى أوّل نزوله عليه وقال لا يروعك ما رأيت منى فخدمة الضيف فرض (السادس) أن لاينظر الى أصحابه ولا يراقب أكلهم فيستحيون بل يغض بصره عنهم ويشتغل بنفسه ولا يمسك قبل إخوانه إذا كانوا يحتشمون الأكل بعده بل يمد اليد ويقبضها ويتناول قليلا قليلا إلى أن يستوفوا فان امتنع لسبب فليعتذر اليهم دفعا للخجلة عنهم *

(السابع) أن لايفعل مايستقذره غيره فلا ينفض يده فى القصعة ولا يقدّم اليها رأسه عند وضع اللقمة فى فيه واذا أخرج شيأمن فيه صرف وجهه عن الطعام وأخذ بيساره . ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخل فقد يكرهه غيره واللقمة التى قطعها بسنه لايغمس في المرقة والخل . ولا يتكلم بما يُذكر المستقذرات *

﴿ فضل تقديم الطعام الى الزائرين وآدابه ﴾

تقديم الطعام الى الاخوان فيه فضل كثير . قال الحسن كل نفقة ينفقها الرجل يحاسب عليها إلا نفقته على اخوانه فى الطعام فان الله أكرم من أن يسأله عن ذلك وقال علىّ رضى الله عنه لأن أجمع اخواني على صاع من طعام أحب إلىّ من أن أعتق رقبة . وكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول من كرم المرء طيبُ زاده فى سفره وبذله لأصحابه وكانوا رضي الله عنهم يجتمعون على قراءة القرآن ولا يتفرّقون إلا عن ذواق *

(وأما آدابه) فبعضها فى الدخول وبعضها فى تقديم الطعام . أما الدخول

فليس من السنة أن يقصد قوما متربصا لوقت طعامهم فيدخل عليهم وقت الأكل فان ذلك من المفاجأة وقد نهى عنه قال الله تعالى (لا تَدْخُلوا بُيوتَ النَّبيّ إلاّ أن يُؤْذَنَ لَكُمْ إلى طَعامٍ غَيرَ ناظِرِينَ إناهُ) يعنى منتظرين حينه ونضجه . أما إذا كان جائعا فقصد بعض اخوانه ليطعمه ولم يتربص به وقت أكله فلا بأس به وفيه اعانة لأخيه على حيازة ثواب الاطعام وهى عادة السلف . فان دخل ولم يجد صاحب الدار وكان واثقا بصداقته عالما بفرحه اذا أكل من طعامه فله أن يأكل بغير إذنه إذ المراد من الاذن الرضا، لاسيما فى الأطعمة وأمرها على السعة فرب رجل يصرح بالاذن ويحلف وهو غير راض فأكل طعامه مكروه ورب غائب لم يأذن وأكل طعامه محبوب وقد قال تعالى (أوْ صَدِيقِكُمْ)قال الحسن الصديق من استروحت اليه النفس واطمأن اليه القلب . كان محمد بن واسع وأصحابه يدخلون منزل الحسن فيأكلون مايجدون بغير اذن فكان الحسن يدخل ويرى ذلك فيسر به ويقول هكذا كنا . ومشي قوم الى منزل سفيان الثورى فلم يجدوه ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وجعلوا يأكلون فدخل الثورى وجعل يقول ذكرتمونى أخلاق السلف هكذا كانوا *

(وأما آداب التقديم) فترك التكلف أولا وتقديم ماحضر . كان الفضيل يقول انما تقاطع الناس بالتكلف يدعو أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه عن الرجوع اليه ومن التكلف أن يقدّم جميع ما عنده فيجحف بعياله ويؤذي قلوبهم قال بعضهم دخلنا على جابر رضى الله عنه فقدم لنا خبزاً

وخلا وقال لولا انا نهينا عن التكلف لتكلفت لكم *

(الأدب الثانى) وهو للزائر أن لا يقترح ولا يتحكم بشيء بعينه فربما يشق على المزور احضاره فان خيّره أخوه بين طعامين فليختر أيسرهما عليه فان علم أنه يسر باقتراحه ويتيسر عليه ذلك فلا يكره له الاقتراح . قال بعضهم الأكل على ثلاثة أنواع مع الفقراء بالايثار ومع الاخوان بالانبساط ومع أبناء الدنيا بالأدب *

(الأدب الثالث) أن يشهّى المزور أخاه الزائر ويلتمس منه الاقتراح مهما كانت نفسه طيبة بفعل مايقترح فذلك حسن وفيه أجر وفضل جزيل *

(الأدب الرابع) أن لا يقول له هل أقدم لك طعاما بل ينبغى أن يقدم ان كان فان أكل والا فيرفعه *

﴿ مسائل ﴾

(الأولى) رفع الطعام على المائدة فيه تيسير للأكل فلا كراهة فيه بل هو مباح مالم ينته الى الكبر والتعاظم . وما يقال انه بدعة فجوابه أنه ليس كل ما أبدع منهيا بل المنهيّ بدعة تضاد سنة ثابتة وترفع أمراً من الشرع مع بقاء علته وليس فى المائدة إلا رفع الطعام عن الأرض لتيسير الاكل ونحوه مما لا كراهة فيه (الثانية) الاكل والشرب متكئا مكروه مضر للمعدة ومثله الاكل مضطجعا ومنبطحا (الثالثة) السنة البداءة بالطعام قبل الصلاة وفى الحديث (اذا حَضَرَ العَشاء والعِشاء فابدؤا بالعَشاء) وكان ابن عمر رضى الله عنهما ربما سمع قراءة الامام ولا يقوم من عشائه . نعم

ان كانت النفس لاتتوق الى الطعام ولم يكن فى تأخير الطعام ضرر فالأولى تقديم الصلاة *

﴿ بيان مايخص الدعوة والضيافة ﴾

(فضيلة الضيافة)

قال صلى الله عليه وسلم (مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضيفَهُ) . وفى أثر : لاخير فيمن لا يضيف : وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الايمان قال (إطْعامُ الطَّعامِ وَبذْلُ السَّلاَمِ) وقال صلى الله عليه وسلم فى الكفارات والدرجات (إطْعامُ الطّعامِ والصّلاةُ باللّيلِ والنّاسُ نِيامٌ) .

(أما الدعوة) فينبغى للداعى أن يعمد بدعوته الاتقياء دون الفساق قال صلى الله عليه وسلم (أ كَلَ طَعامَكَ الأ برارُ) وفى أثر : لاتأ كل الا طعام تقى ولا يأ كل طعامك إلا تقى : ولا يقتصر على الاغنياء خاصة بل يضم معهم الفقراء . قال صلى الله عليه وسلم (شَرُّ الطّعامِ طَعامُ الوَليمَةِ يُدْعى إليْها الأغنِياءُ وَيُحرَمُ مِنها الفقراءُ) . وينبغى أن لا يهمل أقاربه فى ضيافته فان اهمالهم ايحاش وقطع رحم . وكذلك يراعى الترتيب فى أصدقائه ومعارفه فان فى تخصيص البعض ايحاشا لقلوب الباقين . وينبغى أن لايقصد بدعوته المباهاة والتفاخر بل استمالة قلوب الاخوان وادخال السرور على قلوب المؤمنين . وينبغى أن لايدعو من يعلم أنه يشق عليه الاجابة واذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الاسباب . وينبغى أن لايدعو الا من يحب اجابته *

(وأما الاجابة) فهى سنة مؤكدة وقد قيل بوجوبها فى بعض المواضع

ولها خمسة آداب (الأوّل) أن لا يميز الغنيّ بالاجابة عن الفقير فذلك هو التكبر المنهيّ عنه (الثانى) أن لا يمتنع عن الاجابة لبعد المسافة كما لا يمتنع لفقر الداعى وعدم جاهه بل كل مسافة يمكن احتمالها فى العادة لا ينبغى أن يمتنع لأجلها (الثالث) أن لا يمتنع لكونه صائماً بل يحضر فان كان يَسُرُّ أخاه افطارُه فليفطر . وليحتسب فى افطاره بنية ادخال السرور على قلب أخيه مايحتسب في الصوم وأفضل . وذلك فى صوم التطوع . وان تحقق أنه متكلف فليتعلّل . وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما من أفضل الحسنات إكرام الجلساء بالافطار . فالافطار عبادة بهذه النية وحسن خلق فثوابه فوق ثواب الصوم . ومهما لم يفطر فضيافته الطيب والمجمرة والحديث الطيب *

(الرابع) أن يمتنع عن الاجابة ان كان الطعام طعام شبهة أو كان يقام فى الموضع منكر[1] أو كان الداعى ظالما أو فاسقا أو متكلفا طلبا للمباهاة والفخر

---

(١) عد الغزالى من المنكر فرش الحرير والتصوير على الحيطان وسماع المزامير . وعندى أن المنكر الذى يحظر الحضور معه ويتعين انكاره هو ما اتفق على انكاره وأجمع عليه فما لم يطبق الفقهاء على تحريمه فلا يكون منكرا ولا ينسب مقره الى الفسق . هذا فرش الحرير جوز الحنفية الجلوس عليه . والتصوير على الحيطان سوغه المالكية . وسماع المزامير ذهب اليه ابن حزم وكثير من أتباع الأئمة المشهورين وصنفت فيه مؤلفات معروفة فأنى يكون هذا من المنكر ، فالذى أراه فى المنكر أنه المجمع على تحريمه حتى شرط الفقهاء فى انكار المنكر أن يكون مجمعا عليه . نعم التورع والاحتياط وترك ما يريب الى ما لا يريب باب آخر فيه حسم للشبهة اهـ جمال الدين

(الخامس) أن لا يقصد بالاجابة قضاء شهوة البطن فيكون عاملا فى أبواب الدنيا بل يحسن نيته ليصير بالاجابة عاملا للآخرة فينوى الاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم واكرام أخيه المؤمن وزيارته ليكون من المتحابين فى الله وينوى صيانة نفسه عن أن يساء به الظن فى امتناعه ويطلق اللسان فيه بأن يحمل على تكبر أو سوء خلق أو استحقار أخ مسلم أو ما يجرى مجراه . وكان بعض السلف يقول: أنا أحب أن يكون لى فى كل عمل نية حتى فى الطعام والشراب. فان المباح يلتحق بوجوه الخيرات بالنية *

(وأما الحضور) فأدبه أن يدخل الدار ولا يتصدر فيأخذ أحسن الأماكن بل يتواضع ، ولا يطوّل الانتظار عليهم ، ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد ، ولا يضيق المكان على الحاضرين بالزحمة بل ان أشار اليه صاحب المكان بموضع لايخالفه البتة فانه قد يكون رتب فى نفسه موضع كل واحد فمخالفته تشوش عليه ، ولا يجلس فى مقابلة باب الحجرة الذى للنساء وسترهم ، ولا يكثر النظر الى الموضع الذى يخرج منه الطعام فانه دليل على الشره ، ويخص بالتحية والسؤال من يقرب منه إذا جلس ، واذا دخل ضيف للمبيت فليعرّفه صاحب المنزل عند دخوله القبلة وبيت الماء وموضع الوضوء ، وأن يغسل صاحب المنزل يده قبل القوم قبل الطعام لأنه يدعو الناس الى كرمه ويتأخر فى آخر الطعام عنهم ، وعلى الضيف إذا دخل فرأى منكراً أن يغيّره ان قدر والا أنكر بلسانه وانصرف *

(وأما احضار الطعام فله آداب خمسة) (الأوّل تعجيل الطعام) فذلك

من اكرام الضيف . ومهما حضر الأكثرون وغاب واحد أواثنان وتأخروا عن الوقت الموعود فحق الحاضرين فى التعجيل أولى من حق أولئك فى التأخير . وأحدُ المعنيين فى قوله تعالى (هَلْ أتاكَ حَدِيثُ ضَيفِ إبراهيمَ المُكْرَمينَ) أنهم أكرموا بتعجيل الطعام اليهم . دل عليه قوله تعالى (فما لبِثَ أن جاء بِعِجلٍ حَنيذٍ) وقوله (فَرَاغَ إلى أهلِهِ فجاء بِعجلٍ سَمينٍ) والروغان الذهاب بسرعة وقيل في خفية . قال حاتم الأصم : العجلة من الشيطان إلا فى خمسة فانها من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم اطعام الضيف . وتجهيز الميت . وتزويج البكر . وقضاء الدين . والتوبة من الذنب *

(الثانى) ترتيب الأطعمة بتقديم الفاكهة أولا ان كانت فذلك أوفق فى الطب فانها أسرع استحالة فينبغى أن تقع فى أسفل المعدة . وفى القرآن تنبيه على تقديم الفاكهة فى قوله تعالى (وفاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ) ثم قال (ولَحْمِ طيْرٍ مِما يَشْتَهُونَ) ثم أفضل مايقدم بعد الفاكهة اللحم والثريد . فان جمع اليه حلاوة بعده فقد جمع الطيبات . ودل على حصول الاكرام باللحم قوله تعالى فى ضيف ابراهيم اذا حضر العجل الحنيذ أى المحنوذ وهو الذى أجيد نضجه وهو أحد معنى الاكرام أعنى تقديم اللحم . قال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه : أكل الطيبات تورث الرضاء عن الله . وتتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد وصب الماء الفاتر على اليد عند الغسل . قال المأمون : شرب الماء بثلج يخلص الشكر . وقال بعضهم الحلاوة بعد الطعام خير من كثرة الالوان والتمكن على المائدة خير من زيادة لونين ، وتزيين

المائدة بالبقول مستحب أيضا (الثالث) أن يقدم من الألوان ألطفها حتى يستوفى منها من يريد ولا يكثر الأكل بعده وعادة المترفين تقديم الغليظ ليستأنف حركة الشهوة بمصادفة اللطيف بعده وهو خلاف السنة فانه حيلة فى استكثار الأكل ويستحب أن يقدم جميع الألوان دفعة أو يخبر بما عنده (الرابع) أن لا يبادر الى رفع الألوان قبل تمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا الأيدي عنها فلعل منهم من يكون بقية ذلك اللون أشهى عنده مما استحضروه أو بقيت فيه حاجة الى الأكل فيتنغص عليه بالمبادرة *

(الخامس) أن يقدم من الطعام قدر الكفاية فان التقليل عن الكفاية نقص فى المروءة والزيادة عليه تصنّع قال ابن مسعود رضى الله عنه نهينا أن نجيب دعوة من يباهي بطعامه وكره جماعة من الصحابة أكل طعام المباهاة . وينبغى أن يعزل أولا نصيب أهل البيت حتى لا تكون أعينهم طامحة الى رجوع شيء منه فلعله لا يرجع فتضيق صدورهم وتنطلق فى الضيفان ألسنتهم *

(فأما الانصراف فله ثلاثة آداب) (الأوّل) أن يخرج مع الضيف الى باب الدار وهو سنة وذلك من اكرام الضيف . وتمام الاكرام طلاقة الوجه وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة *

(الثانى) أن ينصرف الضيف طيب النفس وان جرى فى حقه تقصير فذلك من حسن الخلق والتواضع (الثالث) أن لا يخرج إلا برضاء صاحب المنزل واذنه ويراعى قلبه فى قدر الاقامة . واذا نزل ضيفا فلا

يزيد على ثلاثة أيام فربما يتبرم به ويحتاج الى اخراجه . نعم لو ألحّ ربُّ البيت عليه عن خلوص قلب فله المقام إذ ذاك . ويستحب أن يكون عنده فراش لضيف ينزل به *

﴿ آداب متفرقة ﴾

(الأوّل) حكى عن ابراهيم النخعى أنه قال الأكل فى السوق دناءة ونقل عن بعض السلف فعله ووجه الجمع أنه يختلف بعادات البلادوأحوال الأشخاص فمن لايليق ذلك به لحاله أو عادة بلاده كان شرها وقلة مروءة ومن لا فلا حرج (الثانى) قال بعض الأطباء لا تنكح من النساء إلا فتاة ولا تأكل من اللحم إلا فتيا ولا تأكل المطبوخ حتى ينعم نضجه ولا تشربن دواء إلا من علة ولا تأكل من الفاكهة إلا نضيجها ولا تأكلن طعاما إلا أجدت مضغه ولا تشربن فوق الطعام ولاتحبس البول والغائط وإذا أكلت بالنهار فنم وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة (الثالث) يستحب أن يحمل الطعام الى أهل الميت ولما جاء نعى جعفر بن أبى طالب قال عليه الصلاة والسلام ان آل جعفر شغلوا بميتهم عن صنع طعامهم فاحملوا اليهم مايأكلون فذلك سنة . واذا قدم ذلك الى الجمع حلّ الاكل منه (الرابع) لا ينبغى أن يحضر طعام ظالم فان أكرِهَ فليقلل الاكل *

﴿ تتمة ﴾

حكي أن بعضهم كان يمتنع عن اجابة الدعوة ويقول انتظار المرقة ذل وقال آخر إذا وضعت يدى فى قصعة غيرى فقد ذلت له رقبتى . وقد أنكر بعضهم هذا الكلام وقال هذا خلاف السنة * قال الغزالى وليس كذلك فانه ذل اذا كان الداعى لايفرح بالاجابة ولا يتقلد بهامنة وكان يرى ذلك يداً له على المدعوّ . ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحضر لعلمه أن الداعى له يتقلد منة ويرى ذلك شرفا وذخراً لنفسه في الدنيا والآخرة . فهذا يختلف باختلاف الحال فمن ظن به أنه يستثقل الاطعام وأنه يفعل ذلك مباهاة أو تكلفا فليس من السنة اجابته بل الاولى التعلل . ولذلك قال بعض الصوفية لاتجب الا دعوة من يرى أنك أكلت رزقك وأنه سلم اليك وديعة كانت لك عنده ويرى لك الفضل عليه فى قبول تلك الوديعة منه فاذا علم المدعو أنه لامنة فى ذلك فلا ينبغى أن يرد *

كتاب اداب النكاح

﴿ الترغيب فيه ﴾

قال الله تعالى (وانكِحُوا الأيامى مِنكُمْ) وهذا أمر . وقال تعالى (فلا تَعضُلوهُنَّ أنْ يَنكِحْنَ أزواجَهُنَّ) وهذا منع من العضل ونهى عنه وقال تعالى فى وصف الرسل ومدحهم (ولقد أرسلنا رُسُلاً مِنْ قَبلِكَ وَجعلنا

لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً) فذكر ذلك فى معرض الامتنان واظهار الفضل ومدح أولياءه بسؤال ذلك فى الدعاء فقال (والذينَ يقولونَ ربَّنا هَبْ لنا مِنْ أزواجِنا وذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أعيُنٍ) الآية . وأما الاخبار فقوله صلى الله عليه وسلم (النِّكاحُ سُنَّتِى فمن رَغِبَ عَنْ سُنَّتِى فقد رَغِبَ عنِّى) وقال (مَنِ استطاعَ مِنكم الباءَةَ فليتزوَّجْ فانَّهُ أغضُّ لِلبصَرِ وأحصَنُ لِلفرجِ ومنْ لم يستطِع فعليهِ بالصَّومِ فانَّه له وِجاء) هذا يدل على ان سبب الترغيب فيه خوف الفساد فى العين والفرج . والوجاء هو عبارة عن رضِّ الخصيتين للفحل حتى تزول فحولته فهو مستعار للضعف عن الوقاع بالصوم . وقال صلى الله عليه وسلم (إذا أتاكُم مَن ترضَونَ دِينَهُ وأمانَتَهُ فزَوِّجُوهُ إلاَّ تفعلوهُ تكُن فِتنَةٌ فى الأرضِ وفسادٌ كبيرٌ) وهذا أيضا تعليل الترغيب لخوف الفساد . وقال صلى الله عليه وسلم (كُلُّ عملِ ابنِ آدمَ يَنقَطِعُ إلاَّ ثلاثٌ ولدٌ صالِحٌ يَدعُو لهُ [1]) الحديث ولا يوصل الى هذا الا بالنكاح *

(وأما الآثار) فقال ابن عباس رضى الله عنه لايتم نسك الناسك حتى يتزوّج يحتمل أنه جعله من النسك أو تتمة له أو أراد أنه لايسلم قلبه لغلبة الشهوة الا بالتزوّج ولا يتمّ النسك الا بفراغ القلب وكان يجمع غلمانه لما أدركوا ويقول ان أردتم النكاح أنكحتكم فان العبد اذا زنى نزع الايمان

---

(١) قوله كل عمل الخ هكذا بالاصل والذى أحفظه أن نص الحديث هذا . اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث علم ينتفع به أو صدقة جارية أو ولد صالح يدعو له اهـ مصححه (اـع)

من قلبه *

(وأما فوائد النكاح) فخمسة الولد وكسر الشهوة وتدبير المنزل وكثرة العشيرة ومجاهدة النفس بالقيام بهن *

(مايراعى من أحوال المرأة)

الخصال المطيبة للعيش التى لابد من مراعاتها فى المرأة ليدوم العقد وتتوفر مقاصده ثمانية . الدين . والخلق . والحسن . وخفة المهر . والولادة . والبكارة . والنسب . وأن لاتكون قرابة قريبة *

(الاولى) أن تكون صالحة ذات دين فهذا هو الاصل وبه ينبغى أن يقع الاعتناء فانها ان كانت ضعيفة الدين فى صيانة نفسها وفرجها أزرت بزوجها وسودت بين الناس وجهه وشوشت بالغيرة قلبه وتنغص بذلك عيشه . فان سلك سبيل الحمية والغيرة لم يزل فى بلاء وان سلك سبيل التساهل كان متهاونا بدينه وعرضه ومنسوبا الى قلة الحمية والانفة . وان كانت فاسدة الدين باستهلاك ماله أو بوجه آخر لم يزل العيش مشوشا معه فان سكت ولم ينكره كان شريكا في المعصية مخالفا لقوله تعالى (قوا أَنفُسَكُمْ وَأَهلِيكُمْ نَاراً) وان أنكر وخاصم تنغص العمر ولهذا بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التحريض على ذات الدين فقال (تُنكَحُ المَرأةُ لِمالِها وَجَمالِها وَحَسَبِها ودِينِها فَعليكَ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ)*

(الثانية) حسن الخلق فانها اذا كانت سليطة بذيئة اللسان كافرة للنعم كان الضرر منها أكثر من النفع والصبر على لسان النساء مما يمتحن به الاولياء

(الثالثة) حسن الوجه فذلك أيضاً مطلوب اذ به يحصل التحصن والطبع لا يكتفى بالدميمة غالبا . وما نقلناه من الحث على الدين ليس زجراً عن رعاية الجمال بل هو زجر عن النكاح لاجل الجمال المحض مع الفساد فى الدين فان الجمال وحده فى غالب الامر يرغّب فى النكاح ويهوّن أمر الدين ويدل على الالتفات الى معنى الجمال أن الالف والمودة تحصل به غالبا وقد ندب الشرع الى مراعاة أسباب الالفة ولذلك استحب النظر فقال (إذا أوقَعَ اللهُ فى نَفس أحدِكُمْ مِنَ امْرَأةٍ فَلْينظُرْ إلَيهافإنَّهُ أحْرَى أن يُؤْدَمَ بَينهُما) أى يؤلف بينهما ، وكان بعض الورعين لا ينكحون كرائمهم إلا بعد النظر احترازاً من الغرور . وقال الاعمش كل تزويج يقع على غير نظر فآخره همّ وغمّ . وروى أن رجلا تزوّج على عهد عمر رضى الله عنه وكان قد خضب فنصل خضابه فاستعدى عليه أهل المرأة الى عمر وقالوا حسبناه شابا فأوجعه عمر ضربا وقال غررت القوم . والغرور يقع فى الجمال والخلق جميعا فيستحب إزالة الغرور فى الجمال بالنظر وفى الخلق بالوصف والاستيصاف . ولا يستوصف فى أخلاقها وجمالها إلا من هو بصير صادق خبير بالظاهر والباطن لا يميل اليها فيفرط فى الثناء .. ولا يحسدها فيقصر وقلّ من يصدق فيه بل الخداع والاغراء أغلب والاحتياط فيه مهم *

(الرابعة) أن تكون خفيفة المهر فقد نهى عن المغالاة فى المهر وتزوّج بعض الصحابة على نواة من ذهب يقال قيمتها خمسة دراهم . وزوّج سعيد ابن المسيب ابنته من أبي هريرة رضى الله عنه على درهمين ثم حملها هو اليه

ليلا فأدخلها من الباب ثم انصرف ثم جاءها بعد سبعة أيام فسلم عليها . وفى خبر : من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رحمها أى الولادة ويسر مهرها وكما تكره المغالاة فى المهر من جهة المرأة فيكره السؤال عن مالها من جهة الرجل ولا ينبغى أن ينكح طمعا في المال . واذا أهدى اليهم فلا ينبغى أن يهدى ليضطرهم الى المقابلة بأكثر منه وكذلك إذا أهدوا اليه فنية طلب الزيادة نية فاسدة وداخل فى قوله تعالى (ولا تَمْنُنْ تَستكثِرُ) أى تعطى لتطلب أكثر *

(الخامسة) أن تكونَ المرأة ولوداً فان عرفت بالعقر فليمتنع عن تزويجها

(السادسة) أن تكون بكراً قال عليه الصلاة والسلام لجابر وقد نكح ثيبا (هَلاَّ بِكراً تُلاَعِبُها وتُلاَعِبُكَ) *

(السابعة) أن تكون نسيبة أعنى أن تكون من أهل بيت الدين والصلاح فانها سترب بناتها وبنيها فاذا لم تكن مؤدبة لم تحسن التأديب والتربية . وفى خبر (تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ فإِنَّ العِرْقَ نزاعٌ) *

(الثامنة) أن لا تكون من القرابة القريبة فان ذلك يقلل الشهوة . فهذه هى الخصال المرغبة فى النساء *

(ويجب) على الولىّ أيضا أن يراعي خصال الزوج ولينظر لكريمته فلا يزوّجها ممن ساء خُلقه أو خَلقه أو ضعف دينه أو قصُر عن القيام بحقها أو كان لا يكافئها في نسبها ومهما زوّج ابنته ظالما أو فاسقا أو مبتدعا أو شارب خمر فقد جنى على دينه وتعرض لسخط الله لما قطع من حق الرحم

وسوء الاختيار قال رجل للحسن : قد خطب ابنتي جماعة فمن أزوّجها قال ممن يتقي الله فان أحبّها أكرمها . وان أبغضها لم يظلمها *

﴿ آداب المعاشرة بعد العقد الى الفراق ﴾

(والنظر فيما على الزوج والزوجة)

(أما الزوج) فعليه مراعاة الاعتدال والأدب فى اثنى عشر أمراً في الوليمة ، والمعاشرة ، والدعابة ، والسياسة ، والغيرة ، والنفقة ، والتعليم ، والقسم ، والتأديب في النشوز ، والوقاع ، والولادة ، والمفارقة بالطلاق *

(الأدب الأوّل الوليمة) وهي مستحبة قال أنس رضي الله عنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أثر صفرة فقال ماهذا فقال تزوّجت امرأة على وزن نواة من ذهب فقال بارك الله لك أوْلِمْ ولو بشاة . وأوْلَمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على صفية بتمر وسويق . وتستحب تهنئته فيقول من دخل على الزوج بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما فى خير . ويستحب إظهار النكاح قال عليه السلام (فَصلُ ما بَينَ الحَلالِ والحرامِ الدّفُ والصّوتُ) *

(الأدب الثانى حسن الخلق معهن) واحتمال الأذى منهن ترحما عليهن قال تعالى (وَعاشِرُوهُنّ بالمعرُوفِ) وقال فى تعظيم حقهن (وأَخذنَ مِنكُمْ ميثاقاً غليظاً) وقال (والصّاحِبِ بالجنبِ) قيل هى المرأة . وليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها بل احتمال الاذى منها والحلم عند طيشها وغضبها اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام

وتهجره الواحدة منهن يوماً الى الليل *

(الثالث) أن يزيد على احتمال الاذى بالمداعبة والمزح والملاعبة فهى التى تطيب قلوب النساء وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح معهن وينزل الى درجات عقولهنّ فى الأعمال والأخلاق . وأرى عائشة لعب الحبشة بالمسجد واستوقفته طويلا وهو يقول لها حسبك . وقال صلى الله عليه وسلم (خَيرُكُمْ خَيرُكُمْ لِأَهلِهِ وَأَنا خَيرُكمْ لِأَهلِي) . وقال عمر رضي الله عنه : ينبغى للرجل أن يكون مع أهله مثل الصبيّ . وقال صلى الله عليه وسلم لجابر : (هَلاّ بِكراً تُلاعِبُها وتُلاعِبُكَ) . ووصفت اعرابية زوجها وقد مات فقالت والله لقد كان ضحوكا إذا ولج . سكيتا اذا خرج . آكلا ماوجد . غير سائل عما فقد *

(الرابع) أن لاينبسط فى الدعابة وحسن الخلق والموافقة باتباع هواها الى حدّ يفسد خلقها ويسقط بالكلية هيبته عندها بل يراعى الاعتدال فيه فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكراً ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتة بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمّر وامتعض . فبالعدل قامت السموات والأرض فكل ماجاوز حده انعكس على ضده فينبغى أن يسلك سبيل الاقتصاد فى المخالفة والموافقة وتتبع الحق فى جميع ذلك ليسلم من شرّهن فان الغالب عليهن سوء الخلق ولا يعتدل ذلك منهنّ إلاّ بنوع لطف ممزوج بسياسة . وعليه أن ينظر إلى أخلاقها أوّلا بالتجربة ثم ليعاملها بما يصلحها كما يقتضيه حالها *

(الخامس) الاعتدال فى الغيرة وهو أن لا يتغافل عن مبادئ الأمور التى تخشى غوائلها ولا يبالغ فى إساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتبع عورات النساء وفى رواية ان تبغت النساء . ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره قال قبل دخول المدينة (لا تَطرقُوا النّساء ليلاً) فخالفه رجلان فسبقا فرأى كل واحد فى منزله مايكره . وفى الحديث : أن من الغيرة غيرة يبغضها الله عزّ وجل وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة لأن ذلك من سوء الظن الذى نهينا عنه وأما الغيرة فى محلها فلا بد منها وهى محمودة وذلك فى الريبة . وكان قد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء فى حضور المسجد سيما في العيدين فالخروج للمسجد مباح للمرأة العفيفة برضاء زوجها ولكن القعود أسلم . وينبغى أن لا تخرج إلا لمهمّ فان الخروج للنظارات والأمور التى ليست مهمة تقدح فى المروءة وربما تفضى الى الفساد فاذا خرجت فينبغي أن تغض بصرها عن الرجال . ولسنا نقول أن وجه الرجل فى حقها عورة كوجه المرأة فى حقه بل هو كوجه الصبيّ الأمرد فى حق الرجل فيحرم النظر عند خوف الفتنة فقط فان لم تكن فتنة فلا إذ لم يزل الرجال على ممرّ الزمان مكشوفى الوجوه والنساء يخرجن متنقبات ولو كان وجوه الرجال عورة فى حق النساء لأمروا بالتنقيب أو منعن من الخروج إلا لضرورة *

(السادس) الاعتدال فى النفقة فلا ينبغي أن يقتر عليهن فى الانفاق ولا ينبغى أن يسرف بل يقتصد قال تعالى (كلوا وَاشرَبوا وَلا تُسْرِفوا)

قال ابن سيرين يستحب للرجل أن يعمل لأهله فى كل جمعة حلاوة .
وينبغى أن يأمرها بالتصدق ببقايا الطعام وما يفسد لوترك فهذا أقل درجات
الخير . وللمرأة أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير تصريح إذن من الزوج
ولا ينبغى أن يستأثر عن أهله بمأكول طيب فلا يطعمهم منه فان ذلك مما
يوغر الصدور ويبعد عن المعاشرة بالمعروف . ولا ينبغى أن يصف عندهم
طعاما ليس يريد إطعامهم اياه . واذا أكل فيقعد العيال كلهم على مائدته .
وأهم مايجب عليه مراعاته فى الانفاق أن يطعمها من الحلال ولا يدخل
مداخل السوء لأجلها فان ذلك جناية عليها لا مراعاة لها *

(السابع) أن يتعلم المتزوّج من علم الحيض وأحكامه ما يحترز به
الاحتراز الواجب ويعلم زوجته أحكام الصلاة ويخوفها من الله ان
تساهلت فى أمر الدين فان كان الرجل قائما بتعليمها فليس لها الخروج
لسؤال العلماء . وان قَصُر علم الرجل ولكن ناب عنها فى السؤال فأخبرها
بجواب المفتى فليس لها الخروج . فان لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال
بل عليها ذلك ويعصى الرجل بمنعها *

(الثامن) اذا كان له نسوة فينبغى أن يعدل بينهن ولا يميل الى بعضهن
فان خرج الى سفر وأراد استصحاب واحدة أقرع بينهن . فان ظلم امرأة
بليلتها قضي لها فان القضاء واجب عليه . وانما عليه العدل فى العطاء والمبيت
وأما فى الحب والوقاع فذلك لا يدخل تحت الاختيار . وكان صلى الله عليه
وسلم يطاف به محمولا فى مرضه فى كل يوم وكل ليلة فيبيت عند كل واحدة

منهن . ومهما وهبت واحدة ليلتها لصاحبتها ثبت الحق لها *

(التاسع) التأديب فى النشوز ومهما وقع بينهما خصام ولم يلتئم أمرهما فان كان من جانبهما جميعا أو من الرجل فلا تسلط الزوجة على زوجها ولا يقدر على اصلاحها فلا بد من حكمين أحدهما من أهله والآخر من أهلها لينظرا بينهما ويصلحا أمرهما (إنْ يُرِيدَا إصلاَحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا) وأما اذا كان النشوز من المرأة خاصة فالرجال قوّامون على النساء فله أن يؤدّبها ويحملها على الطاعة قهراً ولكن ينبغى أن يتدرّج فى تأديبها وهو أن يقدّم أولا الوعظ والتحذير والتخويف فان لم ينجع ولاّها ظهره فى المضجع أو انفرد عنها بالفراش وهجرها وهو فى البيت معها من ليلة الى ثلاث ليال فان لم ينجع ذلك فيها ضربها ضربا غير مبرح ولا يضرب وجهها فذلك منهىّ عنه *

(العاشر فى آداب الجماع) يستحب أن يقدم عليه الحديث والمؤانسة وأن يغطى رأسه ويغض صوته ثم اذا قضى وطره فليتمهل على أهله حتى تقضى هى أيضاً نهمتها ولا يأتيها فى المحيض حتى تطهر . وله أن يستمتع بجميع بدن الحائض ولا يأتيها فى غير المأتى إذ حرم غشيان الحائض لأجل الأذى والأذى فى غير المأتى دائم فهو أشد تحريماً من اتيان الحائض . وقوله تعالى (فَأْتوا حَرثَكم أنّى شِئتُم) أى فى أىّ وقت شئتم . وله أن يستمنى بيديها وأن يستمتع بما تحت الازار بما يشتهى سوى الوقاع . وله أن يؤاكل الحائض ويخالطها فى المضاجعة وغيرها ومن الآداب أن لا يعزل فما من نسمة قدّر الله كونها الا وهى كائنة . فان عزل فمن العلماء من أباحه ومنهم من أحله

برضاها وحرّمه بدون رضاها لئلايؤذيها والصحيح الأوّل وفي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أنه قال كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ينزل . وفي لفظ آخر كنا نعزل فبلغ ذلك نبيّ الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا . وقد يبعث على العزل استبقاء جمال المرأة وسمنها لدوام التمتع واستبقاء حياتها خوفا من خطر الطلق أو الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد والاحتراز من الحاجة إلى التعب في الكسب ودخول مداخل السوء فان قلة الحرج معين على الدين *

(الحادى عشر في آداب الولادة) وهى خمسة (الأوّل) أن لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى فانه لا يدرى الخير له في أيّهما. فكم من صاحب ابن يتمنى أن لا يكون له أو يتمنى أن تكون بنتا بل الثواب فيهن أكثر قال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (مَنْ كانَتْ لهُ ابنتانِ أو أختانِ فأحْسَنَ إليهِما ماصَحِبتَاهُ كُنتُ أنا وَهُوَ فى الجنَّةِ كهاتَينِ) *

(الثانى) أن يؤذن في أذن المولود حين ولادته (الثالث) أن يسميه اسما حسناً . ومن كان له اسم مكروه يستحب تبديله (الرابع) العقيقة عن الذكر بشاتين وعن الأنثى بشاة وأن يتصدق بوزن شعره ذهبا أو فضة*

(الخامس) أن يحنكه بتمر أو حلاوة روى ذلك من فعله صلى الله عليه وسلم *

(الثانى عشر في الطلاق) وهو أبغض المباحات الى الله تعالى . وانما يكون مباحا اذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل . ومهما طلقها فقد آذاها ولا يباح

ايذاء الغير الا بجناية من جانبها أو بضرورة من جانبه قال تعالى (فإن أطَعنَكم فلا تَبغُوا عَليهِنّ سَبيلا) أى لا تطلبوا حيلة للفراق . وان كرهها أبوه لا لغرض فاسد فليطلقها براً به . ومهما آذت زوجها وبذت على أهله فهى جانية وكذلك مهما كانت سيئة الخلق أو فاسدة الدين . وان كان الأذى من الزوج فلها أن تفتدى ببذل مال . ويكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى فان ذلك اجحاف بها وتحامل عليها وتجارة على البضع . قال تعالى (لا جُناحَ عَليهِما فِيما افتَدَتْ بِهِ) فردّ ما أخذته فما دونه لائق بالفداء . فان سألت الطلاق بغير ما بأس فهى آثمة . ثم ليراع الزوج فى الطلاق أربعة أمور (الأول) أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه فان الطلاق فى الحيض أو الطهر الذى جامع فيه بدعىّ حرام وان كان واقعاً لما فيه من تطويل العدة عليها فان فعل ذلك فليراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم ان شاء طلقها وان شاء أمسكها (الثانى) أن يقتصر على طلقة واحدة لأنها تفيد المقصود ويستفيد بها الرجعة ان ندم فى العدة . واذا طلق ثلاثا ربما ندم فيحتاج الى أن يتزوجها محلل والى الصبر مدة وعقد المحلل منهىّ عنه ويكون هو الساعى فيه (الثالث) أن يتلطف فى التعلل بتطليقها من غير تعنيف واستخفاف وتطييب قلبها بهدية على سبيل الامتاع والجبر لما فجعها به من أذى الفراق قال تعالى (وَمَتِّعُوهُنّ) وجّه الحسن بن علىّ رضى الله عنهما بعض أصحابه لطلاق امرأتين من نسائه وقال قل لهما اعتدّا وأمره أن يدفع الى كل واحدة عشرة آلاف درهم (الرابع) أن لا يفشى

سرّها لا فى الطلاق ولا عند النكاح فقد ورد فى إفشاء سرّ النساء وعيد عظيم *

* حقوق الزوج على الزوجة *

على الزوجة طاعة الزوج فى كل ماطلب منها مما لا معصية فيه . وقد ورد فى تعظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة قال صلى الله عليه وسلم (أيّما امرأةٍ ماتَتْ وزوجُها عنها راضٍ دخلتِ الجنّةَ) وقال صلى الله عليه وسلم (إذا صلّتِ المرأةُ خمسَها وصامَتْ شهرَها وحفِظتْ فرجَها وأطاعَتْ زوجَها دخلتْ جنّةَ ربّها) قال ابن عباس أتت امرأة من خثعم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت إنى امرأة أيّم وأريد أن أتزوّج فما حق الزوج قال (إنّ مِن حقّ الزّوجِ على الزّوجةِ إذا أرادها فراودَها عن نفسِها وهيَ على ظهرِ بعيرٍ لاتمنعهُ) ومن حقه أن لاتعطى شيأ من بيته إلا باذنه فان فعلت ذلك كان الوزر عليها والأجر له . ومن حقه أن لا تصوم تطوّعا إلا باذنه فان فعلت ذلك جاعت وعطشت ولم يتقبل منها وان خرجت من بيتها بغير اذنه لعنتها الملائكة حتى ترجع الى بيته أو تتوب : فحقوق الزوج على الزوجة كثيرة وأهمها أمران أحدهما الصيانة والستر والآخر ترك المطالبة مما وراء الحاجة والتعفف عن كسبه إذا كان حراما . ومن حقها على الوالدين تعليمها حسن المعاشرة وآداب العشرة مع الزوج كما روى ان أسماء بنت خارجة الفزاري قالت لابنته عند التزوج (انك خرجت من العش الذى فيه درجت فصرت الى فراش لاتعرفيه . وقرين لاتألفيه .

فكوني له أرضاً يكن لك سماء . وكوني له مهاداً . يكن لك عماداً . وكوني له أمة يكن لك عبداً . لاتلحفي به فيقلاك . ولا تباعدي عنه فينساك . ان دنا منك فاقربي منه . وان نأى فابعدي عنه . واحفظي أنفه وسمعه وعينه فلا يشمن منك الا طيباً ولا يسمع الا حسنا ولا ينظر الا جميلا) فالقول الجامع في آداب المرأة من غير تطويل أن تكون قاعدة في قعر بيتها . لازمة لمغزلها . لا يكثر صعودها واطلاعها . قليلة الكلام لجيرانها . لاتدخل عليهم الا في حال يوجب الدخول . تحفظ بعلها في غيبته وحضرته . وتطلب مسرته في جميع أمورها . ولا تخونه في نفسها وماله . ولا تخرج من بيتها إلا باذنه . فان خرجت باذنه فمختفية في هيئة رثة تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق . محترزة من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها لا تتعرف الى صديق بعلها في حاجاتها بل تتنكر على من تظن أنه يعرفها أو تعرفه . همها صلاح شأنها وتدبير بيتها . مقبلة على صلاتها وصيامها . واذا استأذن صديق لبعلها على الباب وليس البعل حاضرا لم تستفهم ولم تعاوده في الكلام غيرة على نفسها وبعلها . وتكون قانعة من زوجها بمارزق الله . وتقدم حقه على حق نفسها وحق سائر أقاربها . متنظفة في نفسها مستعدة في الاحوال كلها للتمتع بها ان شاء . مشفقة على أولادها . حافظة للستر عليهم . قصيرة اللسان عن سب الأولاد ومراجعة الأزواج (ومن آدابها) أن لاتتفاخر على الزوج بجمالها ولا تزدري زوجها لقبحه (ومن آدابها) ملازمة الصلاح والانقباض في غيبة زوجها والرجوع الى اللعب والانبساط وأسباب

اللذة فى حضور زوجها (ومما يجب عليها) من حقوق النكاح اذا مات عنها زوجها أن لاتحدّ عليه أكثر من أربعة أشهر وعشر وتجتنب الطيب والزينة فى هذه المدة وقال صلى الله عليه وسلم (لايحِلُّ لِامرأةٍ تُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ أن تُحِدَّ على ميّتٍ أكثرَ مِن ثلاثةِ أيّامٍ إلاّ على زوجٍ أربعةَ أشهُرٍ وعشراً) ويلزمها لزومُ مسكن النكاح الى آخر العدة وليس لها الانتقال الى أهلها ولا الخروج إلا لضرورة (ومن آدابها) أن تقوم بكل خدمة فى الدار تقدر عليها كما كان عليه نساء الصحابة رضى الله عنهم أجمعين *

كتاب اداب الكسب والمعاش

﴿ فضل الكسب والحث عليه ﴾

أما من الكتاب فقوله تعالى (وجعلنا النَّهارَ معاشاً) فذكره فى معرض الامتنان وقال تعالى (وجَعلنا لكم فيهامعايِشَ قليلاً ماتشكُرُون) فجعلها ربك نعمة وطلب الشكر عليها وقال تعالى (فانتشِرُوا فى الأرضِ وابتغوا مِن فضلِ اللهِ) وأما الأخبار فمنها قوله صلى الله عليه وسلم (لأن يأخُذَ أحدُكم حبلَهُ فيحتطِبَ على ظهرِهِ خيرٌ مِن أن يأتى رجُلاً أعطاهُ اللهُ مِن فضلِهِ فيسألُهُ أعطاهُ أو منعَهُ) وكان صلى الله عليه وسلم جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظروا الى شاب ذى جلد وقوة وقد بكّر يسعى فقالوا ويح هذا لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله تعالى فقال صلى الله عليه

وسلم (لا تقولوا هذا فإنه إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو فى سبيل الله وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان) وقيل يارسول الله أى الكسب أطيب قال (عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور) وقال صلى الله عليه وسلم (خير الكسب كسب العامل إذا نصح) أى بأن أتقن وتجنب الغش وقام بحق الصنعة. وقال عمر رضى الله عنه لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة. وقال ابن مسعود رضى الله عنه انى لأكره أن أرى الرجل فارغا لا فى أمر دنياه ولا فى أمر آخرته. وقيل لأحمد بن حنبل رضى الله عنه ما تقول فيمن جلس فى بيته أو مسجده وقال لا أعمل شيأ حتى يأتينى رزقى فقال أحمد هذا رجل جهل العلم أما سمع قول النبى صلى الله عليه وسلم (إن الله جعل رزقى تحت ظل رمحى) وقوله عليه السلام حين ذكر الطير فقال (تغدوا خماصاً وتروح بطاناً) فذكر أنها تغدوا فى طلب الرزق. وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجرون فى البر والبحر ويعملون فى نخيلهم. والقدوة بهم. ومن ليس له مال موروث فلا ينجيه من ذلك إلا الكسب والتجارة. نعم ترك الكسب أفضل لعالم مشتغل بتربية علم الظاهر مما ينتفع الناس به فى دينهم كالمفتى - أى الفقيه - والمفسر والمحدث وأمثالهم أو رجل مشتغل بمصالح المسلمين كالسلطان والقاضى والشاهد فهؤلاء اذا كانوا يكفون من

الاموال المرصدة للمصالح أو الأوقاف المسبلة على الفقراء أو العلماء . فاقبالهم على ماهم فيه أفضل من اشتغالهم بالكسب . ولهذا أشار الصحابة على أبي بكر رضى الله عنهم بترك التجارة لما ولّى الخلافة إذ كان ذلك يشغله عن المصالح وكان يأخذ كفايته من مال المصالح ورأي ذلك أولى ثم لما توفى أوصى برده الى بيت المال ولكنه رآه فى الابتداء أولى *

﴿ بيان العدل واجتناب الظلم فى المعاملة ﴾

إعلم أن المعاملة قد تجرى على وجه يشتمل على ظلم يتعرّض به المعامل لسخط الله تعالى . وهذا الظلم يُعنَى به ما استضرّ به الغير وهو منقسم الى مايعم ضرره والى مايخص المعامل *

﴿ القسم الأول فيما يعم ضرره — وهو أنواع ﴾

(الأوّل الاحتكار) فادّخار بائع الطعام له ينتظر به غلاء الأسعار هو ظلم عام صاحبه مذموم فى الشرع . وذلك فى وقت قلة الأطعمة وحاجة الناس اليه حتى يكون فى تأخير بيعه ضرر مّا أما اذا اتسعت الأطعمة وكثرت واستغنى الناس عنها ولم يرغبوا فيها الا بقيمة قليلة فانتظر صاحب الطعام ذلك ولم ينتظر قحطا فليس فى هذا اضرار وأما اذا كان الزمان زمان قحط كان فى ادخاره اضرار فلا ريب في تحريمه *

ومع عدم الضرار لايخلو احتكار الأقوات عن كراهية فانه ينتظر مبادئ الضرار وهو ارتفاع الأسعار . وانتظار مبادئ الضرار محذور

كانتظار عين الضرار ولكنه دونه . وانتظار عين الضرار أيضاً هو دون الأضرار فبقدر درجات الاضرار تتفاوت درجات الكراهية والتحريم *

(الثانى) ترويج الزيف من الدراهم فى أثناء النقد فهو ظلم اذ يستضر به المعامل ان لم يعرف وان عرف فسيروّجه على غيره فيتردّد فى الأيدى ويعم الضرر ويتسع الفساد ويكون وزر الكل ووباله راجعا اليه لانه هو الذى فتح هذا الباب قال بعضهم انفاق درهم زيّف أشد من سرقة مائة درهم لأن السرقة معصية واحدة وقدتمت وانقطعت ومعصية انفاق الزيف قد يكون عليه وزرها بعد موته الى مائة سنة أو مائتى سنة الى أن يفنى ذلك الدرهم ويكون عليه مافسد من نقص أموال الناس وطوبى لمن اذا مات ماتت معه ذنوبه والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة أوأكثر يعذب بها فى قبره ويسأل عنها الى آخر انقراضها قال تعالى (وَنكتُبُ ماقَدَّمُوا وآثارَهُمْ) أى نكتب أيضا ما أخروه من آثار أعمالهم كما نكتب ما قدموه . وفي مثله قوله تعالى (يُنبَّأُ الإنسانُ يَومئِذٍ بما قَدَّمَ وأخرَ) وانما أخر آثار أعماله من سنة سيئة عمل بها غيره . وفى الزيف أمور ، منها أنه اذا رد عليه شئ منه فينبغي أن يطرحه في بئر بحيث لا تمتد اليه اليد واياه أن يروجه في بيع آخر فان أفسده بحيث لا يمكن التعامل جاز ، ومنها أنه يجب على التاجر تعلم النقد لئلا يسلم الى أحد زيّفا وهو لا يدرى فيكون آثما بتقصيره فى تعلم ذلك العلم . فلكل عمل علمٌ به يتم نصح المسلمين فيجب تحصيله ومنها أنه ان كان في ماله قطعة نقرتها ناقصة عن نقد البلد فعليه أن يخبر بها

معامله وأن لا يعامل بها إلا من لا يستحل الترويج فى جملة النقد بطريق التلبيس فأما من يستحل ذلك فتسليمه اليه تسليط له على الفساد فهو كبيع العنب ممن يعلم أنه يتخذه خمراً وذلك محظور واعانة على الشر ومشاركة فيه. وسلوك طريق الحق بمثال هذا فى التجارة أشد من المواظبة على نوافل العبادات والتخلى لها *

﴿ القسم الثانى ما يخص ضرره المعامل ﴾

فكل ما يستضر به المعامل فهو ظلم وانما العدل بأن لا يضر بأخيه المسلم والضابط الكلى فيه أن لا يحب لأخيه إلا ما يحب لنفسه . فكل ماعومل به وشق عليه وثقل على قلبه فينبغى أن لا يعامل غيره به بل ينبغى أن يستوى عنده درهمه ودرهم غيره . هذه جملته. وأما تفصيله ففى أربعة أمور*

(الأوّل) أن لا يثنى على السلعة بما ليس فيها لأنه كذب فان قبل المشترى ذلك فهو تلبيس وظلم وان لم يقبل فهو كذب واسقاط مروءة وأما الثناء على السلعة بذكر القدر الموجود فيها من غير مبالغة واطناب فلا بأس به . ولا ينبغي أن يحلف عليها البتة فانه ان كان كاذبا فقد جاء باليمين الغموس وهى من الكبائر وان كان صادقا فقد جعل الله تعالى عرضة لأيمانه وقد أساء فيه إذ الدنيا أخسّ من أن يقصد ترويجها بذكر اسم الله من غير ضرورة . وفى الخبر (وَيلٌ لِلتَّاجِرِ من بَلَى والله ولا والله وَوَيلٌ للصَّانِعِ مِنْ غَدٍ وَبَعْدَ غَدٍ) وفى الخبر (اليمينُ الكاذِبَةُ منفقةٌ لِلسِّلعَةِ مُمحقةٌ لِلكَسبِ) (الثانى) أن يظهر جميع عيوب المبيع خفيّها وجليّها

ولا يكتم منها شيأ فذلك واجب فان أخفاه كان ظالماغاشاً والغش حرام. وكان تاركا للنصح فى المعاملة والنصح واجب . ومهما أظهر أحسن وجهى الثوب وأخفى الثانى كان غاشا . وكذلك إذا عرض الثياب فى المواضع المظلمة . وكذلك اذا عرض أحسن فردي الخف أو النعل وأمثاله . ويدل على تحريم الغش ماروى أنه مرّ عليه السلام برجل يبيع طعاماً فأعجبه فأدخل يده فرأى بللا فقال ماهـذا قال أصابته السماء فقال (فَهلاّ جَعلْتَهُ فَوْقَ الطَّعامِ حتّي يرَاهُ النّاسُ مَن غَشَّنا فَليسَ مِنّا) ويدل على وجوب النصح باظهار العيوب ما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما بايع جريراً على الاسلام ذهب لينصرف فجذب ثوبه واشترط عليه النصح لكل مسلم فكان جرير إذا قام الى السلعة يبيعها بَصّر عيوبها ثم خيّره وقال ان شئت فخذ وان شئت فاترك فقيل له انك اذا فعلت مثل هذا لم ينفذ لك بيع فقال إنا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم (وكان) واثلة بن الأسقع واقفا فباع رجلٌ ناقةً له بثلثمائة درهم فغفل واثلة . وقد ذهب الرجل بالناقة فسعى وراءه وجعل يصيح به ياهـذا اشتريتها للحم أو للظهر فقال بل للظهر فقال ان بخفها نقبا قد رأيته وأنها لا تتابع السير فعاد فردها فنقصها البائع مائة درهم وقال لواثلة رحمك الله أفسدت علىّ بيعى فقال إنا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (لا يَحِلُّ لِأحدٍ يَبيعُ بَيعاً إلاّ أن يُبَيِّنَ آفتَهُ ولا يَحِلُّ لِمن يَعلمُ ذَلِكَ إلاّ تَبْيِينُهُ) فقد فهموا من النصح

أن لايرضي لأخيه الا مايرضاه لنفسه ولم يعتقدوا أن ذلك من الفضائل وزيادة المقامات بل اعتقدوا أنه من شروط الاسلام الداخلة تحت بيعتهم. وهذا الأمر وان كان يشق على النفس الا أنه يتيسر على العبد باعتقاد أمرين أحدهما أن تلبيسه العيوب وترويجه السلع لايزيد فى رزقه بل يمحقه ويذهب ببركته . وقد يهلك الله مايجمعه من التلبيسات دفعة واحدة فقد حكى أن واحداً كان له بقرة يحلبها ويخلط بلبنها الماء ويبيع فجاء سيل فغرق البقرة فقال بعض أولاده ان تلك المياه المتفرقة التى صببناها فى اللبن اجتمعت دفعة واحدة وأخذت البقرة كيف وقد قال صلى الله عليه وسلم (البَيِّعانِ إذا صدَقا ونَصحا بُورِكَ لهُما فى بَيْعهِما وَإذا كَتَما وكذَبا نُزِعَتْ بَرَكةُ بَيْعهِما) وفى الحديث (يدُ اللهِ على الشَّريكيْنِ ما لمْ يَتخاونافإذاتَخاوَنا رَفعَ يدَهُ عنهُما) فاذالايزيدمال من خيانة كما لاينقص من صدقة . والمعنى الثانى الذى لا بدمن اعتقاده ليتم له النصح ويتيسر عليه أن يعلم أن ربح الآخرة وغناها خير من ربح الدنيا وان فوائد أموال الدنيا تنقضى بانقضاء العمر وتبقى مظالمها وأوزارها فكيف يستخير العاقل أن يستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير والخير كله فى سلامة الدين وفي الحديث (ما آمنَ بالقُرآنِ مَن استحَلَّ محارِمَهُ) ومن علم أن هذه الأمور قادحة في ايمانه وأن ايمانه رأس ماله فى تجارته فى الآخرة لم يضيع رأس ماله المعد لعمر لا آخر له بسبب ربح ينتفع به أياما معدودة . وعن بعض التابعين أنه قال لو دخلت الجامع وهو غاص بأهله وقيل لى من خير هؤلاء ومن شرهم لقلت خيرهم أنصحهم وشرهم

أغشهم لهم . والغش حرام في البيوع والصنائع جميعاً . ولا ينبغي أن يتهاون الصانع بعمله على وجه لو عامله به غيره لما ارتضاه لنفسه بل ينبغي أن يحسن الصنعة ويحكمها ثم يبين عيبها ان كان فيها عيب فبذلك يتخلص . وسأل رجل حذاء ابنَ سالم فقال كيف لى أن أسلم فى بيع النعال فقال . أجعل الوجهين سواء . ولا تفضل اليمنى على الأخرى . وجوّد الحشو . وليكن شيأ واحداً تاماً ، وقارب بين الخرز . ولا تطبق احدى النعلين على الأخرى

* ومن ذلك ماسئل عنه أحمد بن حنبل رحمه الله من الرفو بحيث لا يتبين قال لايجوز لمن يبيعه أن يخفيه وانما يحل للرفاء اذا علم أنه يظهره أو أنه لا يريده للبيع (فان قلت) فلا تتم المعاملة مهما وجب على الانسان أن يذكر عيوب المبيع فأقول ليس كذلك إذ شرط التاجر أن لا يشترى للبيع الا الجيد الذى يرتضيه لنفسه لو أمسكه ولا يحتاج الى تلبيس فمن تعوّد هذا لم يشتر المعيب فان وقع في يده معيب نادراً فليذكره وليقنع بقيمته . باع ابن سيرين شاة فقال للمشترى أبرأ اليك من عيب فيها أنها تقلب العلف برجلها فهكذا كانت سيرة أهل الدين (الثالث) أن لا يكتم فى المعيار وذلك بتعديل الميزان والاحتياط فيه وفى الكيل فينبغي أن يكيل كما يكتال قال الله تعالى (وَيلٌ لِلمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذا اكتَالُوا عَلى النَّاسِ يَستَوفُونَ وإِذا كالُوهُم أَو وَزَنُوهُم يُخسِرُونَ) ولا يخلص من هذا إلا بأن يرجح اذا أعطى وينقص اذا أخذ إذ العدل الحقيقى قلما يتصوز فليستظهر بظهور الزيادة والنقصان فان من استقصى حقه بكماله يوشك أن يتعداه . وكان

بعضهم يقول لا أشترى الويل من الله بحبة . وكل من خلط بالطعام ترابا أو غيره ثم كاله فهو من المطففين فى الكيل . وكل قصاب وزن مع اللحم عظما لم تجر العادة بمثله فهو من المطففين فى الوزن . وقس على هذا سائر التقديرات حتى فى الذرع الذى يتعاطاه البزاز فانه اذا اشترى أرسل الثوب فى وقت الذرع ولم يمده مداً . واذا باعه مده فى الذرع ليظهر تفاوتا فى القدر . فكل ذلك من التطفيف المعرض صاحبه للويل (الرابع) أن يصدق فى سعر الوقت ولا يخفى منه شيأ فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تلقى الركبان . ونهى عن النجش أما تلقى الركبان فهو أن يستقبل الرفقة و يتلقى المتاع ويكذب فى سعر البلد فقد قال صلى الله عليه وسلم (لاتَتَلَقَّوا الرُّكبانَ) ومن تلقاها فصاحب السلعة بالخيار بعد أن يقدم السوق (ونهى أيضاً) أن يبيع حاضر لباد وهو أن يقدم البدوى البلد ومعه قوت يريد أن يتسارع الى بيعه فيقول له الحضرى اتركه عندى حتى أغالى فى ثمنه وأنتظر ارتفاع سعره (ونهى أيضاً) عن النجش وهو أن يتقدم الى البائع بين يدى الراغب المشترى ويطلب السلعة بزيادة وهو لا يريدها وانما يريد تحريك رغبة المشترى فيها . فهذه المناهى تدل على أنه لا يجوز أن يلبس على البائع والمشترى فى سعر الوقت ويكتم منه أمراً لو علمه لما أقدم على العقد ففعل هذا من الغش الحرام المضاد للنصح الواجب . ومن ذلك أنه ليس له أن يغتنم فرصة وينتهز غفلة صاحب المتاع ويخفى من البائع غلاء السعر أو من المشترى تراجع الأسعار فان فعل ذلك كان ظالما تاركا للعدل

والنصح للمسلمين . ومهما باع مرابحة بأن يقول بعت بما قام عليّ أو بما اشتريته فعليه أن يصدق ثم يجب عليه أن يخبر بما حدث بعد العقد من عيب أو نقصان *

﴿ الاحسان فى المعاملة ﴾

قد أمر الله تعالى بالعدل والاحسان جميعا والعدل سبب النجاة فقط وهو يجرى من التجارة مجرى سلامة رأس المال. والاحسان سبب الفوز ونيل السعادة وهو يجرى من التجارة مجرى الربح ولا يعد من العقلاء من قنع فى معاملات الدنيا برأس ماله فكذا فى معاملات الآخرة. ولا ينبغى للمتديّن أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الاحسان وقد قال الله تعالى (وأحسِنْ كما أحسنَ اللهُ إليكَ) وقال عز وجل (إنّ اللهَ يأمرُ بالعدْلِ والإحسانِ) وقال سبحانه (إنّ رَحمَةَ اللهِ قَريبٌ مِنَ المُحسنِينَ) وينال المعامل رتبة الاحسان بواحد من ستة أمور (الأول) فى المغابنة فينبغى أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به فى العادة فأما أصل المغابنة فمأذون فيه لان البيع للربح ولا يمكن ذلك الا بغبن مّا ولكن يراعى فيه التقريب ومن قنع بربح قليل كثرت معاملاته. واستفاد من تكررها ربحا كثيرا وبه تظهر البركة (الثاني) فى احتمال الغبن والمشترى ان اشترى طعاماً من ضعيف أو شيئا من فقير. فلا بأس أن يحتمل الغبن ويتساهل ويكون به محسنا وداخلا فى قوله عليه السلام (رَحِمَ اللهُ سَهْلَ البَيعِ وسَهلَ الشّرَاءِ) وأما احتمال الغبن من الغنيّ فليس محموداً بل هو تضييع مال من غير أجر

ولا حمد وكان كثير من السلف يستقصون فى الشراء ويهبون مع ذلك الجزيل من المال فقيل لبعضهم فى ذلك فقال ان الواهب يعطى فضله وان المغبون يغبن عقله (الثالث) فى استيفاء الثمن وسائر الديون والاحسان فيه مرة بالمسامحة وحط البعض ومرة بالامهال والتأخير ومرة بالمساهلة في طلب جودة النقد وكل ذلك مندوب اليه ومحثوث عليه وفى الخبر (مَنْ أقْرَضَ ديناراً إلى أجلٍ فَلَهُ بِكلّ يومٍ صدَقةٌ إلى أجلِهِ فإذا حلّ الأجلُ فأنظَرَهُ بَعدَهُ فلهُ بكلّ يومٍ مثلُ ذلِكَ الدّينِ صدَقةً) ونظر النبىّ صلى الله عليه وسلم الى رجل يلازم رجلا بدين فأومأ الى صاحب الدين بيده أى ضع الشطر ففعل فقال للمديون قم فاعطه (الرابع في توفية الدين) ومن الاحسان فيه حسن القضاء وذلك بأن يمشى الى صاحب الحق ولا يكلفه أن يمشى اليه يتقاضاه فقد قال صلى الله عليه وسلم (خيرُكُمْ أحسَنُكمْ قضاءً) ومهما قدر على قضاء الدين فليبادر اليه ولو قبل وقته وان عجز فلينو قضاءه مهما قدر. ومهما كلمه مستحق الحق بكلام خشن فليتحمله وليقابله باللطف اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم لما ردد عليه كلامه صاحب الدين فهمّ به أصحابه فقال دعوه فان لصاحب الحق مقالا . ومن الاحسان أن يميل الحكمَ الى من عليه الدين لعسره (الخامس) أن يقيل من يستقيله فانه لا يستقيل الا متندم مستضر بالبيع ولا ينبغى أن يرضى لنفسه أن يكون سبب استضرار أخيه وفي الخبر (مَنْ أقالَ نادِماً صفقَتَهُ أقالَ اللهُ عثرَتَهُ يومَ القيامَةِ) (السادس) أن يقصد فى معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة

وهو فى الحال عازم على أن لا يطالبهم إن لم يظهر لهم ميسرة وكان من السلف من يقول لفقير خذ ما تريد فان يسر لك فاقض والا فأنت فى حلّ منه وسعة فهذه طرق تجارات السلف وبالجملة فالتجارة محك الرجال وبها يمتحن دين الرجل وورعه *

﴿ شفقة التاجر على دينه ﴾

لا ينبغى للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده فيكون عمره ضائعا وصفقته خاسرة وما يفوته من الربح فى الآخرة لا يفى به ما ينال فى الدنيا فيكون ممن اشترى الحياة الدنيا بالآخرة . بل العاقل ينبغى أن يشفق على نفسه وشفقته على نفسه بحفظ رأس ماله ورأس ماله دينه وتجارته فيه وانما تتم شفقته على دينه بمراعاة سبعة أمور (الأول) حسن النية فى ابتداء التجارة فلينو بها الاستعفاف عن السؤال وكف الطمع عن الناس استغناء بالحلال عنهم واستعانة بما يكسبه على الدين وقياما بكفاية العيال ليكون من جملة المجاهدين به . ولينو النصح للمسلمين وأن يحب لسائر الخلق ما يحب لنفسه ولينو اتباع طريق العدل والاحسان فى معاملته كما ذكرناه . ولينو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى كل ما يراه فى السوق فاذا أضمر هذه النيات كان عاملا فى طريق الآخرة فان استفاد مالا فهو مزيد وان خسر فى الدنيا ربح فى الآخرة (الثانى) أن يقصد القيام فى صنعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات فان الصناعات والتجارات لو تركت بطلت المعايش وهلك أكثر الخلق فانتظام أمر الكل بتعاون الكل وتكفل

كل فريق بعمل . ومن الصناعات ماهى مهمة ومنها ما يستغنى عنها لرجوعها الى طلب التنعم والتزين فى الدنيا فليشتغل بصناعة مهمة ليكون بقيامه بها كافيا عن المسلمين مهما فى الدين (الثالث) أن لايمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة وأسواق الآخرة المساجد قال الله تعالى (رِجالٌ لاَ تُلهِيهِمْ تِجارَةٌ ولا بَيعٌ عَنْ ذِكرِ اللهِ وَإقامِ الصَّلاةِ وَإيتاءِ الزكاةِ) وكان السلف يبتدرون عند الاذان . ويخلون الاسواق لاهل الذمة والصبيان *

(الرابع) أن لايقتصر على هـذا بل يلازم ذكر الله سبحانه فى السوق ويشتغل بالتهليل والتسبيح فذكر الله فى السوق بين الغافلين أفضل *

(الخامس) أن لايكون شديد الحرص على السوق والتجارة وذلك بأن يكون أول داخل وآخر خارج (السادس) أن لايقتصر على اجتناب الحرام بل يتقى مواقع الشبهات ومظان الريب ويستفتى قلبه فاذا وجد فيه حزازة اجتنبه واذا حمل اليه سلعة رابه أمرها سأل عنها . وكل منسوب الى ظلم أو خيانة أو سرقة أو ربا فلا يعامله (السابع) ينبغي أن يراقب جميع مجارى معاملته مع كل واحد من معامليه فانه مراقب ومحاسب فليعد الجواب ليوم الحساب *

كتاب الحلال والحرام

﴿ فضيلة الحلال ومذمة الحرام ﴾

قال الله تعالى (كُلوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَاعْمَلوا صالِحاً) أمر بالاكل من الطيبات قبل العمل وقيل ان المراد به الحلال وقال تعالى (ولاَ تأكُلوا

أموالكُمْ بَينَكُمْ بِالباطِلِ) وقال تعالى (إنَّ الذينَ يأكُلونَ أموالَ اليتامى ظُلماً إنّما يأكُلونَ في بُطونِهِمْ ناراً وسَيَصلَوْنَ سَعيرًا) وقال تعالى (يا أيُّها الذينَ آمَنوا اتَّقوا اللهَ وذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إن كنتُمْ مُؤْمنينَ) ثم قال (فإنْ لمْ تفعَلوا فأْذَنوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ) ثم قال (وَإنْ تُبتُمْ فلكم رُؤُسُ أموالِكُمْ) ثم قال (ومَنْ عادَ فأُولئِكَ أصحابُ النارِ هُم فِيها خالِدُونَ) جعل أكل الربا فى أول الامر مؤذنا بمحاربة الله وفى آخره متعرضا للنار والآيات الواردة فى الحلال والحرام لا تحصي وروى ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال (طَلبُ الحلالِ فريضَةٌ على كل مُسلِمٍ) وقال بعض العلماء فى قوله صلى الله عليه وسلم (طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلّ مُسلمٍ) المراد به طلب علم الحلال والحرام وجعل المراد بالحديثين واحدا ولما ذكر صلى الله عليه وسلم الحريص على الدنيا قال (رُبَّ أشعَثَ أغبَرَ مُشرَّدٍ فى الأسفارِ مَطعَمُهُ حرامٌ وملبَسُهُ حرامٌ وغُذِّىَ بالحرامِ يَرفَعُ يدَيهِ فيقول يارَبِّ يارَبِّ فأنَّى يُستَجابُ لذلكَ) وقال صلى الله عليه وسلم (كلُّ لحمٍ نبَتَ مِن حرامٍ فالنّارُ أولَى بهِ) وأما الآثار فقد ورد أن الصديق رضى الله عنه شرب لبنا من كسب عبده ثم سأل عبده فقال تكهنت لقوم فاعطونى فأدخل أصابعه فى فيه وجعل يقيء حتى ظننت أن نفسه ستخرج ثم قال اللهم انى اعتذر اليك مما حملت العروق وخالط الامعاء .
وكذلك شرب عمر رضي الله عنه من لبن إبل الصدقة غلطا فأدخل أصابعه وتقيأ . وقال سهل التسترى لايبلغ العبد حقيقة الايمان حتى يكون فيه أربع

خصال اداء الفرائض بالسنة وأ كل الحلال بالورع واجتناب النهى ظاهرا وباطنا . والصبر على ذلك الى الموت.وكان بشر الحافي رحمه اللهمن الورعين فقيل له من أين تأ كل فقال من حيث تأ كلون ولكن ليس.من يأ كل وهو يبكى كمن يأ كل وهو يضحك وقال يدٌ أقصر من يد ولقمة أصغر من لقمة . وهكذا كانوا يحترزون من الشبهات *

﴿ أصناف الحلال ومداخله ﴾

إعلم أن تفصيل الحلال والحرام انما يتولى بيانه كتب الفقه ويستغنى المريد عن تطويله بأن يكون له طعمة معينة يعرف بالفتوى حلها وكان لايأكل من غيرها . فأما من يتوسع فى الأ كل من وجوه متفرقة فيفتقر إلى علم الحلال والحرام كله . ونحن الآن نشير الى مجامعه فى سياق تقسيم وذلك أن المال انما يحرم اما لمعنى فى عينه .أو لخلل فى جهة اكتسابه *

(القسم الأوّل) الحرام لصفة في عينه كالخمر والخنزير وغيرهما .وتفصيله أن الأعيان المأ كولة على وجه الأرض لا تعدو ثلاثةَ أقسام فانها اما أن تكون من المعادن كالملح والطين وغيرهما . أو من النبات . أومن الحيوانات فأما المعادن فهى أجزاء الأرض وجميع مايخرج منها فلا يحرم أكله إلامن حيث أنه يضر بالآ كل أو فى بعضها مايجرى مجرى السمّ . والخبزُ لو كان مضراً لحرم أ كله . والطين الذى يعتاد أ كله لايحرم الا من حيث الضرر *

(وأما النبات) فلا يحرم منه إلا مايزيل العقل أو يزيل الحياة أوالصحة فمزيل العقل البنج والخمر وسائر المسكرات . ومزيل الحياة السموم ومزيل

الصحة الأدوية فى غير وقتها . وكأنّ مجموع هذا يرجع الى الضرر الا الخمر والمسكرات فان الذى لا يسكر منها أيضا حرام مع قلته *

(وأما الحيوانات) فتنقسم الى ما يؤكل والى ما لا يؤكل . وتفصيله في كتب الفقه وما يحل أكله فانما يحل اذا ذبح ذبحا شرعيا روعى فيه شروط الذابح والآلة والمذبح على مايذكر في كتب الفقه وما لم يذبح ذبحا شرعيا أو مات فهو حرام ولا يحل الا ميتتان السمك والجراد *

(القسم الثانى) مايحرم لخلل فى جهة اثبات اليد عليه ويتحصل منه أقسام (الأوّل) مايؤخذ من غير مالك كنيل المعادن واحياء الموات والاصطياد والاحتطاب والاستقاء من الأنهار والاحتشاش فهذا حلال وشرطه أن لا يكون المأخوذ مختصا بذى حرمة من الآدميين *

(الثانى) المأخوذ قهراً ممن لاحرمة له وهو الفىء والغنيمة وسائر أملاك الكفار المحاربين وذلك حلال للمسلمين اذا أخرجوا منها الخمس وقسموها بين المستحقين بالعدل ولم يأخذوها من كافر له حرمة وأمان وعهد *

(الثالث) مايؤخذ تراضيا بمعاوضة وذلك حلال اذا روعى فيه الشروط المصححة مع ماتعبد الشرع به من اجتناب الشروط المفسدة *

(الرابع) مايحصل بغير اختيار كالميراث وهو حلال اذا كان الموروث قد اكتسب من وجه حلال ثم كان ذلك بعد قضاء الدين وتنفيذ الوصايا وتعديل القسمة بين الورثة واخراج الحج والزكاة والكفارة ان كان واجبا وبقى أقسام أخر ونحن أشرنا الى جملتها ليعلم المريد أن كل مايأكله من جهتها

ينبغى أن يستفتى فيه أهل العلم ولا يقدم عليه بالجهل فانه كما يقال للعالم لِمَ خالفت علمك يقال للجاهل لم لازمت جهلك ولم تتعلم بعد أن قيل لك طلب العلم فريضة على كل مسلم *

﴿ درجات الحلال والحرام ﴾

اعلم أن الحرام كله خبيث لكن بعضه أخبث من بعض . والحلال كله طيب ولكن بعضه أطيب من بعض وأصفى من بعض . ولذا كان الورع عن الحرام على درجات . فمنه الورع عن كل ما تحرّمه فتاوى الفقهاء . ومنه الورع عما يتطرق اليه احتمال التحريم . ومنه مالاشبهة فى حله ولكن يخاف منه أداؤه الى محرّم وهو ترك مالا بأس به مخافة مما به بأس. ومنه مالا يخاف منه أن يؤدى الى ما به بأس ولكنه يتناول لغير الله ولا على نية التقوّى به على عبادة الله أو تتطرق الى أسبابه المسهّلة له كراهية أو معصية *

وقد حكى عن ابن سيرين أنه ترك لشريكه أربعة آلاف درهم لأنه حاك فى قلبه شئ مع اتفاق العلماء على أنه لا بأس به . وكان لبعضهم مائة درهم على انسان فحملها اليه فأخذ تسعة وتسعين وتورع عن استيفاء الكل خيفة الزيادة . وكان بعضهم يتجر فكلّ مايستوفيه يأخذه بنقصان حبة وما يعطيه يزنه بزيادة حبة . ومن ذلك الاحتراز عما يتسامح به الناس فان ذلك حلال فى الفتوى ولكن يخاف من فتح بابه أن ينجرّ الى غيره وتألف النفس الاسترسال وتترك الورع كما تورع بعضهم من أخذ تراب من حائط بيت كان يسكنه بكراء وكما روى أن عمر بن عبد العزيز كان يوزن بين يديه

مسك للمسلمين فأخذ بأنفه حتى لاتصيبه الرائحة وقال لما استبعد ذلك منه وهل ينتفع منه إلا بريحه ومنه أن بعضهم كان عند محتضر فمات ليلا فقال اطفئوا السراج فقد حدث للورثة حق فى الدهن . وأخذ الحسن رضى الله عنه تمرة من تمر الصدقة وكان صغيراً فقال صلى الله عليه وسلم (كخ كخ) أى ألقها . وتقيأ الصديق رضى الله عنه من اللبن الذى سقاه اياه رقيقه وكان تكهن فأعطى اللبن أجرة له ـ وذلك خيفة من أن يحدث الحرام فيه قوة مع أنه شربه عن جهل وكان لا يجب إخراجه ولكن تخلية البطن عن الخبيث من ورع الصديقين . وبالجملة فكلما كان العبد أشد تشديداً على نفسه كان أخف ظهراً يوم القيامة وأبعد عن أن تترجح كفة سيآته على كفة حسناته واذا علمت حقيقة الأمر فاليك الخيار فان شئت فاستكثر من الاحتياط وان شئت فرخص فلنفسك تحتاط وعلى نفسك ترخص والسلام *

﴿ مراتب الشبهات ﴾

قال صلى الله عليه وسلم (الحَلَالُ بَيِّنٌ وَالحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُور مُشْتَبِهاتٌ لاَ يَعلمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَي الشُّبُهاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِعِرْضِهِ ودينهِ وَمَنْ وَقَعَ فى الشُّبُهاتِ وَقَعَ فى الحَرَامِ كالرَّاعِي حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أن يقَعَ فِيهِ) فهذا الحديث نص فى اثبات الأقسام الثلاثة والمشكل منها القسم المتوسط الذى لايعرفه كثير من الناس وهو الشبهة فلا بد من بيانها فان مالا يعرفه الكثير فقد يعرفه القليل فنقول (الحلال المطلق) ماخلا

عن ذاته الصفات الموجبة للتحريم فى عينه والحل عن أسبابه تحريم أو كراهة
(والحرام المحض) هو ما فيه صفة محرمة لا يشك فيها كالخمر لشدته
المطربة . والبول لنجاسته أو حصل بسبب منهى عنه قطعاً كالمحصل بالظلم
والربا ونظائره . وهذان طرفان ظاهران ويلتحق بالطرفين ما تحقق أمره
ولكنه احتمل تغيره ولم يكن لذلك الاحتمال سبب يدل عليه (والاحتمال
المعدوم دلالته كالاحتمال المعدوم فى نفسه) وأما الشبهة فما اشتبه علينا أمره
بأن تعارض لنا فيه اعتقاد ان صدرا عن سببين مقتضيين للاعتقادين والشبهة
مثارات (المثار الأول) الشك فى السبب المحلل والمحرم فان تعادل
الاحتمالان كان الحكم لما عرف قبله فيستصحب ولا يترك بالشك . وان
غلب أحد الاحتمالين عليه بأن صدر عن دلالة معتبرة كان الحكم للغالب .
ولا يتبين هذا إلا بالأمثال والشواهد فلنقسمه الى أقسام أربعة (القسم الأول)
أن يكون التحريم معلوما من قبل ثم يقع الشك فى المحلل فهذه شبهة يجب
اجتنابها ويحرم الاقدام عليها (القسم الثانى) أن يعرف الحل ويشك
فى المحرم فالأصل الحل وله الحكم (القسم الثالث) أن يكون الأصل
التحريم ولكن طرأ ما أوجب تحليله بظن غالب فهو مشكوك فيه والغالب
حله فهذا ينظر فيه فان استند غلبة الظن الى سبب معتبر شرعا فالذى
يختار فيه أنه يحل وان اجتنابه من الورع مثاله أن يرمي الى صيد فيغيب
ثم يدركه ميتاً وليس عليه أثر سوى سهمه ولكن يحتمل أنه مات بسقطة
أو بسبب آخر فالمختار أنه حلال لأن الجرح سبب ظاهر وقد تحقق

والأصل أنه لم يطرأ عليه غيره فطريانه مشكوك فيه فلا يدفع اليقين بالشك

(القسم الرابع) أن يكون الحل معلوما ولكن يغلب على الظن طريان محرم بسبب معتبر فى غلبة الظن شرعا فيرفع الاستصحاب ويقضى بالتحريم مثاله أن يؤدى اجتهاده الى نجاسة أحد الاناءين بالاعتماد على علامة معينة توجب غلبة الظن فتوجب تحريم شربه كما توجب منع الوضوء به *

﴿ المثار الثانى للشبهة شك منشؤه الاختلاط ﴾

وذلك بأن يختلط الحرام بالحلال ويشتبه الأمر ولا يتميز. والخلط أنواع نوع يقع بعدد محصور كما لو اختلطت ميتة بذكية أو بعشر مذكاة أو اختلطت رضيعة بعشر نسوة فهذه شبهة يجب اجتنابها بالاجماع لأنه لا مجال للاجتهاد والعلامات فى هذا . واذا اختلطت بعدد محصور صارت الجملة كالشئ الواحد فتقابل فيه يقين التحريم والتحليل فضعف الاستصحاب وجانب الحظر أغلب فى نظر الشرع فلذلك ترجح *

ونوع يقع فيه حرام محصور بحلال غير محصور كما لو اختلطت رضيعة أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح أهل البلد بل له أن ينكح من شاء منهن . وذلك لغلبة الحلّ والحاجة جميعاً إذ كل من ضاع له رضيع أو قريب أو محرم بمصاهرة أو سبب من الأسباب فلا يمكن أن يسد عليه باب النكاح وكذلك من علم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعا لا يلزمه ترك الشراء والأكل فان ذلك حرج (وَما فى الدّين مِن حرَج) ويعلم هذا بأنه لما سرق فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم مِجَنٌّ وغل

واحد فى الغنيمة عباءة لم يمتنع أحد من شراء المجان والعباء فى الدنيا وكذلك كل ماسرق وكذلك كان يعرف أن فى الناس من يرابى فى الدراهم والدنانير وما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الناس الدراهم والدنانير بالكلية وأما اذا اختلط حرام لايحصر بحلال لايحصر كحكم الأموال فى زماننا هـذا فانه لايحرم بهذا الاختلاط أن يتناول شئ بعينه احتمل أنه حرام وأنه حلال إلا أن يقترن بتلك العين علامة تدل على أنه من الحرام وقول القائل أكثر الأموال حرام فى زماننا غلط . منشؤه استكثار النفوس الفسادواستعظامها له وان كان نادراً حتى ربما يظن أن الزناة وشرّاب الخمر قد شاعوا كما شاع الحرام فيتخيل أنهم الأكثرون وهو خطأ فانهم الأقلون وان كان فيهم كثرة . وبالجملة فالأصل الحل . ولا يرفع الا بعلامة معينة *

* المثار الثالث للشبهة أن يتصل بالسبب المحلّل معصية *

كالبيع فى وقت النـداء يوم الجمعة والذبح بالسكين المغصوبة والبيع على بيع الغـير والسوم على سومه فـكل نهي ورد فى العقود ولم يدل على فساد العـقد فان الامتناع من جميع ذلك ورع لأن تناول الحاصل من هذه الأمور مكروه والكراهة تشبه التحريم . ومثله كل تصرف يفضي فى سياقه الى معصية كبيع العنب من الخمار وبيع السلاح من قطاع الطريق وقد اختلف العلماء فى صحة ذلك وفى حل الثمن المأخوذ منـه والأقيس أن ذلك صحيح والمأخوذ حلال والرجل عاص بعقده كما يعصي بالذبح بالسكين المغصوب والذبيحة حلال فانه يعصى عصيان الاعانة على

المعصية ولا يتعلق ذلك بعين العقد والمأخوذ من هـذا مكروه كراهية شديدة وتركه من الورع المهم *

﴿ تنبيه ﴾

لاينبغي للانسان أن يشتغل بدقائق الورع إلا بحضرة عالم متقن فانه اذا جاوز مارسم له وتصرف بذهنه من غير سماع كان مايفسده أكثر ممايصلحه والمتنطعون هم الذين يخشى عليهم أن يكونوا ممن قيل فيهم (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وهُم يَحْسَبُونَ أَنَّهُم يُحسِنونَ صُنعا) ولهذا قال صلى الله عليه وسلم (فَضلُ العالِمِ عَلى العابِدِ كَفَضلِي عَلى أدنى رجُلٍ مِن أصحابي) *

﴿ البحث والسؤال فى الحرام والحلال ﴾

اعلم أن كل من قدّم اليك طعاما أو هدية أو أردت أن تشترى منه أو تتهب فليس لك أن تفتش عنه وتسأل وتقول هـذا مما لا أتحقق حله فلا آخذه بل أفتش عنه وليس لك أيضا أن تترك البحث مطلقا بل السؤال لا بد منه فى مواقع الريبة ومنشأ الريبة بالنسبة لصاحب المال أن يكون مشكوكا فيه أو معلوما بنوع ظنى يستند الى دلالة . وبالنسبة للمال أن يختلط حرامه بحلاله ويكون الحرام أكثر مع يقين وجوده . فاذا كان الحرام هو الأقل واحتمل أن لا يكون موجوداً فى الحال لم يكن الأكل حراما ولكن السؤال احتياط والامتناع عنـه ورعٌ . وانما يسئل من صاحب اليـد إذا لم يكن متهما فان كان متهما بأنه ليس يدرى طريق كسب الحلال أو بأنه

لاثقة فى اخباره وأمانته فليسأل من غيره فاذا أخبره عدل واحد قبله وان أخبره فاسق علم من قرينة حاله أنه لا يكذب حيث لاغرض له فيه جاز قبوله لأن المطلوب ثقة النفس . والمفتى هو القلب فى مثل هذا الموضع . وللقلب التفاتات الى قرائن خفية يضيق عنها نطاق النطق فليتأمل فيه فاذا اطمأن القلب كان الاحتراز حتما واجبا *

﴿ كيفية خروج التائب من المظالم المالية ﴾

إعلم أن كل من تاب وفى يده مال مختلط فعليه وظيفة فى تمييز الحرام واخراجه . ووظيفة أخرى فى مصرف المخرج فلينظر فيهما *

(النظر الأول) فى كيفية التمييز والاخراج من تاب وفى يده ماهو حرام معلوم العين من غصب أو وديعة أو غيره فأمره سهل فعليه تمييز الحرام وان كان ملتبسا مختلطا فاما أن يكون من ذوات الأمثال كالحبوب والنقود والادهان أو يكون فى أعيان متمايزة كالدور والثياب فان كان فى المتماثلات أو كان شائعا فى المال كله كمن اكتسب المال بتجارة كذبَ فى بعضها وكمن غصب دهنا وخلطه بدهن نفسه وفعل ذلك في الحبوب أو الدراهم والدنانير فان كان معلوم القدر مثل أن يعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام فعليه تمييز النصف . وان أشكل فله طريقان الأخذ باليقين والأخرى الأخذ بغالب الظن . والورع فى الطريق الأولى فلا يستبقى الا القدر الذى يتيقن أنه حلال *

فأما اذا اشتبه دار أو ثوب بأمثالها وكان فيهما تفاوت أخذ الحاكم من

طالب بيعها قيمة الانفس وصرف الى الممتنع منه مقدار قيمة الأقل ويوقف قدر التفاوت الى البيان والاصطلاح (مسئلة) من ورث مالا ولم يدر أن مورّثه من أين اكتسبه أمِنْ حلال أم من حرام ولم يكن ثمّ علامة فهو حلال باتفاق العلماء . وان علم أن فيه حراماً وشك في قدره أخرج مقدار الحرام بالتحرّى . وان علم أن بعض ماله كان من الظلم فيلزمه اخراج ذلك القدر بالاجتهاد وقال بعض العلماء لايلزمه والاثم على المورّث *

(النظر الثاني في المصرف) فاذا أخرج الحرام فله ثلاثة أحوال إما أن يكون له مالك معيّن فيجب الصرف اليه أو الى وارثه . وان كان غائبا فينتظر حضوره أو الايصال اليه . وان كانت له زيادة ومنفعة فلتجمع فوائده الى وقت حضوره واما أن يكون لمالك غير معين وقع اليأس من الوقوف على عينه ولا يدرى أنه مات عن وارث أم لا فهذا لايمكن الرد فيه للمالك ويوقف حتى يتضح الأمر فيه . وربما لا يمكن الرد لكثرة الملاك فهذا ينبغي أن يتصدق به لئلا يضيع وتفوت المنفعة على المالك وعلى غيره ، وله أن يتصدق على نفسه وعياله اذا كان فقيراً *

كتاب آداب الالفة

﴿ والأخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق ﴾

(فضيلة الألفة والأخوّة)

إعلم أن الألفة ثمرة حسن الخلق والتفرّق ثمرة سوء الخلق. فحسن

الخلق يوجب التحابّ والتآلف والتوافق وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتدابر وحسن الخلق لايخفى فى الدين فضيلته وهوالذى مدح الله سبحانه به نبيّه عليه السلام إذ قال (وإنّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظيمٍ) وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم (أكثرُ مايُدخِلُ النَّاسَ الجنَّةَ تقوى اللهِ وحُسنُ الخُلُقِ) وقال صلى الله عليه وسلم (بُعِثتُ لِأُتَمِّمَ محاسِنَ الأخلاقِ) ولا يخفى أن ثمرة الخلق الحسن الألفة وانقطاع الوحشة وقد ورد فى الثناء على نفس الألفة سيما اذا كانت الرابطة هي التقوى والدين وحبّ الله من الآيات والأخبار والآثار مافيه كفاية ومقنع ، قال الله تعالى مظهراً عظيم منته على المؤمنين (فأصبَحتُم بِنعمَتِهِ إخواناً) أى بالألفة وذم التفرقة وزجر عنها فقال تعالى (واعتَصِمُوا بِحبلِ اللهِ جَميعاً ولا تفرَّقوا) وقال صلى الله عليه وسلم (إنّ أقرَبكم مِنّي مَجلِساً أحاسِنُكم أخلاقاً المُوَطَّئُونَ أكنافاً الّذينَ يألَفونَ ويُؤلَفونَ) وقال صلى الله عليه وسلم (المؤمِنُ آلِفٌ مألوفٌ ولا خيرَ فيمن لايألَفُ ولا يُؤلَفُ) وقال صلى الله عليه وسلم (مَنْ أرادَ اللهُ بِهِ خيراً رَزَقهُ خليلاً صالحاً إن نَسيَ ذَكّرَهُ وَإن ذَكَرَ أعانَهُ)وعنه (ماتحابَّ اثنانِ فى اللهِ إلاّ كان أحبُّهما إلى اللهِ أشدَّهما حبًّا لصاحِبِهِ) وعنه صلى الله عليه وسلم (إنّ اللهَ تَعالى يَقولُ حقّت مَحبّتى لِلّذينَ يَتزاوَرُونَ مِن أجلِي وَحقّت مَحبّتى لِلّذينَ يَتحابُّونَ من أجلِي وَحقّت مَحبّتِي للّذينَ يَتهاذَلونَ من أجلِي وحقت محبّتى لِلّذينَ يتناصَرُونَ من أجلِي) وعنه صلى الله عليه وسلم (إنّ أحبَّكُم إلى اللهِ الذينَ يألَفونَ ويُؤلَفون وإنّ أبغَضَكُمْ إلى اللهِ

المشاؤن بالنميمةِ المفرّقون بَين الإِخوان) ومن الآثار ماروى عن الفضيل رحمه الله تعالى أنه قال : هاه تريد أن تسكن الفردوس وتجاور الرحمن فى داره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . بأىّ عمل عملته . بأى شهوة تركتها . بأى غيظ كظمته . بأى رحم وصلتها . بأى زلة لأخيك غفرتها بأى قريب باعدته فى الله . بأى بعيد قاربته فى الله (وقال أيضاً) نظر الرجل الى وجه أخيه على المودّة والرحمة عبادة *

﴿ تحقيق المحبة فى الله ﴾

هو أن يحب المرء لا يحبه لذاته بل الى حظوظه الأخروية منه كمن يحب أستاذه لأنه يتوسل به الى تحصيل العلم وتحسين العمل ومقصوده من العلم والعمل الفوز فى الآخرة فهذا من جملة المحبين فى الله . وكذلك من يحب تلميذه لأنه يتلقف منه العلم وينال بواسطته رتبة التعليم فهو محب فى الله . بل الذى يتصدق بأمواله لله ويجمع الضيفان ويهيئ لهم الأطعمة اللذيذة الغريبة تقربا الى الله فأحب طباخا لحسن صنعته فى الطبخ فهو من جملة المحبين فى الله . وكذا لو أحب من يتولى له ايصال الصدقة إلى المستحقين فقد أحبه فى الله . أو أحب من يخدمه بنفسه فى غسل ثيابه وكنس بيته وطبخ طعامه ويفرغه بذلك للعلم أوالعمل ومقصوده من استخدامه فى هذه الأعمال الفراغ للعبادة فهو محب فى الله . أو أحب من ينفق عليه من ماله ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع أغراضه التى يقصدها فى دنياه ومقصوده من جملة ذلك الفراغ للعلم والعمل المقرب الى الله فهو

محب فى الله ـ فقد كان جماعة من السلف تكفل بكفايتهم جماعة من أولى الثروة وكان المواسِى والمواسَي جميعاً من المتحابين فى الله . وكذا من نكح امرأة صالحة ليتحصن بها عن وسواس الشيطان ويصون بها دينه أو ليولد له منها ولد صالح أو أحب زوجته لأنها آلة إلى هـذه المقاصد الدينية فهو محب فى الله . وكذا إذا اجتمع فى قلبه محبة الله والدنيا كمن أحب من يعلمه الدين ويكفيه مهمات الدنيا بالمواساة فى المال فهو محب فى الله . وليس من شرط حب الله أن لايُحَبَّ فى العاجل حظ البتة إذ الدعاء الذى أمر به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه فيه جمع بين الدنيا والآخرة (رَبَّنا آتِنا فى الدُّنيا حَسَنَةً وفى الآخِرَةِ حسنَةً) وفى المأثور (اللهم إنى أسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة) ثم إذا قوى الحب فى الله حمل على الموالاة والنصرة والذبّ بالنفس والمال واللسان وتتفاوت الناس فيه بحسب تفاوتهم في حب الله عز وجلّ الا أنه يمتحن الحب بالمقابلة بحظوظ النفس وقد يغلب بحيث لايبقى للنفس حظا إلا فيماهوحظ المحبوب وقد يكون الحب بحيث يترك به بعض الحظوظ دون بعض كما تسمح نفسه بأن يشاطر محبوبه فى نصف ماله أو فى ثلثه أو فى عشره فمقادير الاموال موازين المحبة إذ لايعرف درجة المحبوب إلا بمحبوب يترك فى مقابلته فمن استغرق الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواه فلا يمسك لنفسه شيأ مثل أبى بكر الصديق رضى الله عنه فانه سلَّم ابنته التى هى قرة عينه وبذل جميع ماله . فحصل من هـذا أن كل من أحب عالما أو عابداً أو أحب شخصاً

راغبا فى علم أو فى عبادة أو فى خير فانما أحبّه فى الله ولله وله فيه من الاجر والثواب بقدر قوّة حبه *

﴿ بيان البغض فى الله ﴾

إعلم أن كل من يحب فى الله لابد أن يبغض فى الله فانك ان أحببت انسانا لانه مطيع لله ومحبوب عند الله فان عصاه فلا بد أن تبغضه لانه عاص لله وممقوت عند الله . ومن أحب لسبب فبالضرورة يبغض لضده . واظهار البغض يكون بكف اللسان عن مكالمته ومحادثته والإعراض والتباعد عنه وقلة الالتفات اليه أو بالاستخفاف والتغليظ فى القول وذلك بحسب درجات الفسق والمعصية الصادرة منه . أما مايجرى مجرى الهفوة التى يعلم أنه متندم عليها ولا يصرّ عليها فالأولى فيه الستر والاغماض *

﴿ الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته ﴾

إعلم أنه لايصلح للصحبة كل انسان قال صلى الله عليه وسلم (المَرْءُ على دِينِ خَليلِهِ فَليَنْظُرْ أَحَدُكم مَنْ يُخالِلُ) ولا بد أن يتميز بخصال وصفات يرغب بسببها فى صحبته . وجملتها أن يكون عاقلا حسن الخلق غير فاسق ولا حريص على الدنيا . أما العقل فهو رأس المال وهو الأصل فلاخير فى صحبة الأحمق فالى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتهما وان طالت . وقد قيل مقاطعة الأحمق قربان الى الله . وأما حسن الخلق فلا بد منه فان من غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن وأطاع هواه فلا خير فى صحبته . وأما

الفاسق المصر على فسقه فلا فائدة فى صحبته بل مشاهدته تهوّن أمر المعصية على النفس وتبطل نفرة القلب عنها ولأن من لايخاف الله لا تؤمن غائلته ولا يوثق بصداقته بل يتغير بتغير الأعراض قال الله تعالى (ولاَ تُطِعْ مَنْ أغفَلنا قَلبَهُ عَن ذِكْرِنا واتَّبَعَ هَواهُ) وقال تعالى (فأعرِضْ عَمَّن تَولَّى عَن ذِكْرِنا ولم يُرِدْ إلاّ الحَياةَ الدُّنيا) وقال تعالى (واتَّبِع سَبيلَ مَن أنابَ إلىَّ) وفى مفهوم ذلك زجر عن الفاسق وأوصى علقمة ابنه . فقال : (يا بُنيَّ إذا عَرَضَتْ لكَ إلى صُحبةِ الرِّجالِ حاجةٌ فأَصْحَبْ مَن إذا خَدَمتَهُ صانكَ وإن صحبتَهُ زانكَ وإن قَعدَتْ بكَ مؤُونةٌ مانكَ إصحَبْ من إذا مَددتَ يدَكَ بخيرٍ مَدَّها وان رأى منك حسنة عدّها وان رأى سيئة سدّها إصحب من اذا سألته أعطاك وان سكتّ ابتداك وان نزلت بك نازلة واساك إصحب من اذا قلت صدّق قولك وان حاولت أمراً آمرك وان تنازعتما آثرك) قال عليّ رضى الله عنه *

ان أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن اذا ريب زمان صدّعك شتت فيه شمله ليجمعك

وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : لاتصحب إلا أحد رجلين رجلا ترتفق به فى أمر دنياك أو رجلا تزيد معه وتنتفع به فى أمر آخرتك والاشتغال بغير هذين حمق كبير . وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لايدري صاحبه فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص ومجالسة الزاهد

تزهد فى الدنيا . فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا وتطلب صحبة العلماء والحكماء . قال لقمان لابنه : يابنىّ جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فان القلوب لتحيا بالحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر *

﴿ حقوقُ الأخوة والصحبة ﴾

إعلم أن لأخيك عليك حقاً فى المال . وفى الاعانة بالنفس . وفى اللسان والقلب ، وفى العفو . وفي الدعاء . وفى الوفاء والاخلاص . وفى التخفيف . وفى ترك التكلف والتكليف . وذلك يجعلها ثمانية جمل *

﴿ الحق الأول فى المال ﴾

روى أن مثل الأخوين مثل اليدين تغسل احداهما الأخرى وذلك لأنهما يتعاونان على غرض واحد وكذلك الاخوان انما تتم أخوتهما اذا ترافقا في مقصد واحد فهما من وجه كالشخص الواحد . وهذا يقتضى المساهمة فى السراء والضراء والمشاركة فى المآل والحال وارتفاع الاختصاص والاستئثار والمواساةُ بالمال مع الأخوة على ثلاث مراتب . أدناها أن تنزله منزلة خادمك فتقوم بحاجته من فضلة مالك فاذا سنحت له حاجة وكانت عندك فضلة عن حاجتك أعطيته ابتداء ولم تحوجه الى السؤال فان أحوجته الى السؤال فهو غاية التقصير فى حق الأخوة (الثانية) أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته اياك فى مالك ونزوله منزلتك حتى تسمح بمشاطرته على المال . (والثالثة) هى العليا أن تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك

وهذه رتبة الصديقين ومنتهى رتبة المتحابين ومنتهى هـذه الرتبة الايثار بالنفس أيضاً . فان لم تصادف نفسك فى رتبة من هذه الرتب مع أخيك فاعلم أن عقد الاخوة لم ينعقد بعـد فى الباطن وانما الجاري بينكما مخالطة رسميـة لاوقع لها في العـقل والدين . فقد قال ميمون بن مهران من رضى من الاخوان بترك الافضال فليؤاخ أهل القبور . وأما الدرجة الأولى فليست أيضا مرضية عند ذوى الدين روى أن عتبة الغلام رحمه الله جاء الى منزل رجل كان قد آخاه فقال أحتاج من مالك الى أربعة آلاف فقال خـذ ألفين فأعرض عنـه وقال آثرت الدنيا على الله أما استحييت أن تدّعى الاخوّة في الله وتقول هـذا . وأما الرتبة العليا فهى التى وصف الله تعالى المؤمنين بها في قوله (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) أى كانوا خلطاء فى الأموال لايميز بعضهم رحله عن بعض وكان منهـم من لايصحب من قال نعلى لأنه أضافه الى نفسه . ومنهم من كان يعتق أمتـه اذا حدثته بمجيء أخيه وأخذه من ماله حاجته فى غيبته سروراً بما فعـل . وقال زين العابدين علىّ بن الحسين رضى الله عنهما لرجل هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه أو كيسه فيأخذ منه مايريد بغير اذن قال لا قال فلستم باخوان وقال ابن عمر رضى الله عنهما أهدى لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم رأس شاة فقال أخي فلان أحوج منى اليه فبعث به اليه فبعثه ذلك الانسان الى آخر فلم يزل يبعث به واحـد الى آخر حتى رجع الى الأول بعـد أن تداوله سبعة . وقال أبو سليمان الدارانى لو أن الدنيا كلها لى

فجعلتها فى فم أخ من اخوانى لاستقلالها له . ولما كان الانفاق على الاخوان أفضل من الصدقات على الفقراء قال علىّ رضى الله عنه لعشرون درهما أعطيها أخي فى الله أحب الىّ من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين . ومن الصفاء فى الاخوة الانبساط فى بيوت الاخوان كما كان عليه كثير من السلف وقد قال الله تعالى (أو صديقكم) وقال (أو ماملكتم مفاتحه) اذ كان الأخ يدفع مفاتيح بيته الى أخيه ويفوض اليه التصرف كما يريد وكان يتحرج عن الأكل بحكم التقوى حتى أنزل الله هذه الآية وأذن لهم فى الانبساط فى طعام الاخوان والاصدقاء *

﴿ الحق الثانى فى الاعانة بالنفس ﴾

وذلك فى قضاء الحاجات والقيام بها قبل السؤال وتقديمها على الحاجات الخاصة . وهذه أيضا لها درجات فأدناها القيام بالحاجة عندالسؤال والقدرة ولكن مع البشاشة والاستبشار واظهار الفرح وقبول المنة . قال بعضهم اذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكره ثانية فلعله أن يكون قد نسي فان لم يقضها فكبّر عليه واقرأ هذه الآية (والموتى يبعثهم الله) وكان في السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة يقوم بحاجتهم يتردد كل يوم اليهم ويمونهم من ماله فكانوا لا يفقدون من أبيهم الا عينه بل كانوا يرون منهم مالم يروا من أبيهم في حياته وكان أحدهم يتردد الى باب دار أخيه يقوم بحاجته من حيث لايعرفه أخوه وبهذا تظهر الشفقة والاخوة اذا لم تثمر الشفقة حتى يشفق على أخيه كما يشفق على نفسه

فلا خير فيها قال ميمون بن مهران من لم تنتفع بصداقته لم تضرك عداوته وبالجملة فينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك أو أهمّ من حاجتك وأن تكون متفقداً لأوقات الحاجة غير غافل عن أحواله كما لا تغفل عن أحوال نفسك وتغنيه عن السؤال الى الاستعانة ولا ترى لنفسك حقاً بسبب قيامك بها بل تتقلد منة بقبوله سعيك في حقه وقيامك بأمره . وقال عطاء تفقدوا اخوانكم بعد ثلاث فان كانوا مرضى فعودوهم أو مشاغيل فأعينوهم أو كانوا نسوا فذكروهم . وقال سعيد بن العاص لجليسى علىّ ثلاث اذا دنا رحبت به واذا حدّث أقبلت عليه واذا جلس أوسعت له . وقد قال تعالى (رُحَماءُ بَيْنَهُمْ) اشارة الى الشفقة والاكرام . ومن تمام الشفقة أن لا ينفرد بطعام لذيذ أو بحضور في مسرة دونه بل يتنغص لفراقه ويستوحش بانفراده عن أخيه *

﴿ الحق الثالث على اللسان ﴾

وذلك بالسكوت مرّة وبالنطق أخرى أما السكوت فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه فى غيبته وحضرته بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به ولا يماريه ولا يناقشه . وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله . واذا رآه في طريق أو حاجة لم يفاتحه بذكر غرضه من مصدره ومورده ولا يسأل فربما يثقل عليه ذكره أو يحتاج الى أن يكذب فيه . وليسكت عن أسراره التى بثها اليه ولا يبثها الى غيره البتة ولا الى أخصّ أصدقائه ولا يكشف شيأ منها ولو بعد القطيعة والوحشة فان ذلك من

لؤم الطبع وخبث الباطن . وأن يسكت عن القدح فى أحبابه وأهله وولده وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه فان الذى سبّك مَن بلّغك . ولا ينبغي أن يخفى مايسمع من الثناء عليه فان السرور أولا به يحصل من المبلغ للمدح ثم من القائل واخفاء ذلك من الحسد . وبالجملة فليسكت عن كل كلام يكرهه جملة وتفصيلا الا اذا وجب عليه النطق فى أمر بمعروف أو نهى عن منكر ولم يجد رخصة فى السكوت فاذ ذاك لايبالى بكراهته فان ذلك احسان اليه فى التحقيق وان كان يظن أنها اساءة فى الظاهر . أماذكر مساوئه وعيوبه ومساوئ أهله فهو من الغيبة وذلك حرام فى حق كل مسلم. ويزجرك عنه أمران (أحدهما) أن تطالع أحوال نفسك فان وجدت فيها شيأ واحداً مذموماً فهوّن على نفسك ماتراه من أخيك وقدر أنه عاجز عن قهر نفسه في تلك الخصلة الواحدة كما أنك عاجز عما أنت مبتلى به ولا تستثقله بخصلة واحدة مذمومة فأى الرجال المهذب (والأمر الثانى) أن تعلم أنك لو طلبت منزهاً عن كل عيب اعتزلت عن الخلق كافة ولن تجد من تصاحبه أصلا فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساوئ فاذا غلبت المحاسن المساوئ فهو الغاية والمنتهى . فالمؤمن الكريم أبداً يحضر فى نفسه محاسن أخيه لينبعث من قلبه التوقير والود والاحترام . وأما المنافق اللئيم فانه أبداً يلاحظ المساوئ والعيوب . قال ابن المبارك المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات . وقال الفضيل الفتوة العفو عن زلات الاخوان . ولذلك قال عليه السلام (إستَعيذُوا باللهِ مِنْ جارِ السُّوءِ الَّذِى إن رأى خيراً

سترَهُ وَإن رَأى شرًّا أظهَرَهُ) وكما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساوئه يجب عليك السكوت بقلبك وذلك بترك اساءة الظن . فسوء الظن غيبة بالقلب وهو منهى عنه أيضاً . وحدُّه أن لا تحمل فعله على وجه فاسد ما أمكن أن يحمل على وجه خير . فأما ما انكشف بيقين ومشاهدة . فاحمله على سهو ونسيان ان أمكن . وسوء الظن يدعو الى التجسس والتحسس وقد قال صلى الله عليه وسلم (لا تَحَسَّسُوا ولا تَجسَّسُوا ولا تَقاطَعُوا ولا تدَابَرُوا وكونوا عِبادَ اللهِ إخوَاناً) والتجسس فى تطلع الأخبار . والتحسس بالمراقبة بالعين . فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين . واعلم أنه لا يتم ايمان المرء مالم يحب لأخيه مايحب لنفسه وأقل درجات الاخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به . ومنشأ التقصير فى ستر العورة أو السعى فى كشفها الداء الدفين وهو الحقد والحسد . ومَن فى قلبه سخيمة على مسلم فايمانه ضعيف . وأمره مخطر . وقلبه خبيث لا يصلح للقاء الله (ومن ذلك) أن يسكت عن افشاء سره الذى استودعه وله أن ينكره وان كان كاذبا فليس الصدق واجباً في كل مقام . فانه كما يجوز للرجل أن يخفى عيوب نفسه وأسراره وان احتاج الى الكذب فله أن يفعل ذلك فى حق أخيه فان أخاه نازل منزلته وهما كشخص واحد لا يختلفان الا بالبدن هذا حقيقة الأخوة وقد قال عليه السلام (مَنْ سترَ عَورَةَ أخيهِ سَترَهُ اللهُ تعالى فى الدُّنيا والآخِرَةِ) وقال عليه السلام (إذا حدَّثَ الرَّجلُ بِحديثٍ ثمَّ الْتفَتَ فهُوَ أمانَةٌ) وقال (المُجالِسُ بالأمانَةِ) وفى رواية (إنَّما يَتجالَسُ المُتجالِسانِ بالأمانَةِ ولا

يحلُّ لِأحدِهما أن يُفشِيَ على صاحِبهِ ما يَكرَهُ) قيل لبعضهم كيف حفظك السرّ قال أنا قبره . فان صدور الأحرار قبور الأسرار . وأفشى بعضهم سرًّا له الى أخيه ثم قال له حفظت فقال بل نسيت . وقال العباس لابنه عبد الله انى أرى هذا الرجل - يعنى عمر رضي الله عنه - يقدمك على الأشياخ فاحفظ منى خمساً (لاتُفشِيَنَّ لهُ سِرًّا ، ولا تَغتابَنَّ عِندَهُ أحداً ، ولا يُجرِّبَنّ عَليكَ كذِباً ، ولا تَعصِيَنَّ لهُ أمراً ، ولا يَطَّلِعَنّ مِنكَ على خِيانةٍ) فقال الشعبى كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف (ومن ذلك) السكوت عن المماراة والمدافعة فى كل مايتكلم به أخوك . قال ابن عباس لاتمار سفيها فيؤذيك ولا حليما فيقليك . وقد قال صلى الله عليه وسلم (مَنْ تركَ المِراءَ وهُوَ مُبطِلٌ بُنِيَ لهُ بَيتٌ فى رَبَضِ الجَنّةِ . ومَنْ تركَ المِراءَ وهُوَ مُحِقٌّ بُنِيَ لهُ بَيتٌ فى أعلَى الجَنَّةِ) هذا مع أن تركه مبطلا واجب . وقد جعل ثواب النفل أعظم لأن السكوت عن الحق أشدّ على النفس من السكوت على الباطل . وانما الأجر على قدر النصب . وأشد الأسباب لاثارة نار الحقد بين الاخوان المماراة والمناقشة فانها عين التدابر والتقاطع فان التقاطع يقع أوّلا بالآراء ثم بالأقوال ثم بالأبدان وقال عليه السلام (لاتَدَابرُوا وَلا تَباغضُوا وَلا تَحاسَدُوا وَلا تقاطَعُوا وكُونوا عِبادَاللهِ إخوَاناً) وقد قال صلى الله عليه وسلم (المُسلِم أخُو المُسلِمِ لايَظلِمُهُ وَلايَحرِمهُ وَلا يَخذِلُهُ بِحَسْبِ المَرءِ مِنَ الشَّرِّ أن يُحقِّرَ أخاهُ المسلِمَ) وأشد الاحتقار المماراة فان من ردّ على غيره كلاماً فقد نسبه إلى الجهل أو الغفلة والسهو

عن فهم الشئ على ماهو عليه . وكل ذلك استحقار وايغار للصدر وايحاش.
وفى حديث أبى امامة قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن
نتمارى فغضب وقال (ذَرُوا المِراء لِقلَّةِ خَيرِهِ وذَرُوا المِراءَ فإنّ نَفْعَهُ قَليلٌ
وَإنَّهُ يُهيّجُ العَدَاوَةَ بَيْنَ الإِخْوَانِ) وقال بعض السلف من لاحى الاخوان
وماراهم قلت مروءته . وذهبت كرامتـه وقال غـيره اياك ومماراة الرجال
فانك لن تعـدم مكر حليم أو مفاجأة لئيم قال الحسن : لا تشترى عداوة
رجل بمودة ألف رجل وعلى الجملة فلا باعث على المماراة إلا إظهار التميز
بمزيد العقل والفضل واحتقار المردود عليه باظهار جهله وهذا يشتمل على
التكبر والاحتقار والايذاء والشتم بالحمق والجهل ولا معنى للمعاداة إلا هذا
فكيف تضام الأخوّة والمصافاة فقد روى ابن عباس عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم أنه قال لا تُمارِ أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه وقد
قال عليه السلام (إنَّكم لاتَسَعُونَ النَّاسَ بأَمْوَالِكُمْ وَلكِنْ يَسَعُهُمْ مِنكمْ
بَسطُ وَجْهٍ وَحُسنُ خُلُقٍ) والمماراة مُضادّةٌ لحسن الخلق واعلم أن قوام
الاخوة بالموافقة فى الـكلام والفعل والشفقة *

﴿ الحق الرابع على اللسان بالنطق ﴾

الاخوة كما تقتضي السكوت عن المكاره تقتضى أيضا النطق بالمحابّ
بل هو أخصّ بالاخوة لان من قنع بالسكوت صحب أهل القبور وانما يراد
بالاخوة ليستفاد منهم لا ليتخلص عن أذاهم والسكوت معناه كف الاذى
فعليه أن يتودد اليـه بلسانه . ويتفقده فى أحواله التى يجب أن يتفقد فيها

كالسؤال عن عارض إن عرض واظهار شغل القلب بسببه . واستبطاء العافية عنه وكذا جملة أحواله التى يكرهها ينبغى أن يظهر بلسانه وأفعاله كراهتها وجملة أحواله التى يسر بها ينبغى أن يظهر بلسانه مشاركته له فى السرور بها فمعنى الاخوة المساهمة فى السراء والضراء . وقد قال عليه السلام (إذا أَحَبَّ أَحَدُكم أخاهُ فَلْيخبِرْهُ) وانما أمر بالاخبار لان ذلك يوجب زيادة حب فان عرف انك تحبه أحبك بالطبع لامحالة فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف والتحاب بين المؤمنين مطلوب فى الشرع ومحبوب فى الدين ولذلك علّم النبى صلى الله عليه وسلم فيه الطريق فقال (تَهادُوا تَحابُّوا) ومن ذلك أن تدعوه بأحب أسمائه اليه فى غيبته وحضوره قال عمر رضى الله عنه ثلاث يصفين لك ودّ أخيك أن تسلّم عليه اذا لقيته أولا وتوسع له فى المجلس وتدعوه بأحب أسمائه اليه * ومن ذلك أن تثنى عليه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده فان ذلك من أعظم الاسباب فى جلب المحبة وكذلك الثناء على أولاده وأهله وصنعته وفعله حتى على عقله وخلقه وهيئته وخطّه وشعره وتصنيفه وجميع مايفرح به وذلك من غير كذب وافراط ولكن تحسين ما يقبل التحسين لابد منه . وآكد من ذلك أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع اظهار الفرح فان اخفاء ذلك محض الحسد * ومن ذلك أن تشكره على صنيعه فى حقك بل على نيته وان لم يتم ذلك وأعظم من ذلك تأثيراً فى جلب المحبة الذب عنه فى غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض . فحق الاخوة التشمير فى الحماية والنصرة وتبكيت

المتعنت وتغليظ القول عليه والسكوت عن ذلك موغر للصدر ومنفر للقلب وتقصير فى حق الاخوة . واهماله لتمزيق عرضه كاهماله لتمزيق لحمه . فأخسس بأخ يراك والكلاب تفترسك وتمزّق لحومك وهو ساكت لا تحركه الشفقة والحمية للدفع عنك . وتمزيق الاعراض أشد على النفوس من تمزيق اللّحوم ولذلك شبهه الله تعالى بأكل لحوم الميتة فقال (أَيُحِبُّ أَحَدُكُم أن يأكُلَ لحمَ أخيهِ مَيْتًا) فاذن حماية الاخوة بدفع ذم الاعداء وتعنت المتعنتين واجب في عقد الاخوة وقال بعضهم ماذكر أخ لى بغيب الا تصورته جالساً فقلت فيه مايحب أن يسمع لو حضر * ومن ذلك التعليم والنصيحة فليس حاجة أخيه الى العلم بأقل من حاجته الى المال فان كنت غنيا بالعلم فعليك مواساته من فضلك وارشاده الى كل ما ينفعه فى الدين والدنيا . فان علمته وأرشدته ولم يعمل بمقتضى العلم فعليك النصيحة وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل وفوائد تركه وتخوّفه بما يكرهه فى الدنيا والآخرة لينزجر عنه وتنبّهه على عيوبه . ولكن ينبغى أن يكون ذلك في سرّ لايطلع عليه أحد . فما كان على الملأ فهو فضيحة . وما كان فى السر فهو شفقة ونصيحة . قال ذو النون لاتصحب مع الله إلا بالموافقة ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ولا مع النفس إلا بالمخالفة *

ولا تظنن أن فى نصح أخيك ايحاشا لقلبه فان فى تنبيهه على مالا يعلمه عين الشفقة وهو استمالة القلوب ـ أعنى قلوب العقلاء وأما الحمقى فلا يلتفت اليهم ـ فان من ينبهك على فعل مذموم تعاطيته أو صفة مذمومة اتصفت بها

لتزكى نفسك عنها كان كمن ينبهك على حيـة أو عقرب تحت ذيلك وقد همت باهلاكك فان كنت تكره ذلك فما أشد حمقك والصفات الذميمة عقارب وحيات وهي فى الآخرة مهلـكات فانها تلدغ القلوب والأرواح وألمها أشـد مما يلدغ الظواهر والأجساد وهى مخلوقة من نار الله الموقدة . ولذلك كان عمر رضى الله عنه يستهدى ذلك من اخوانه ويقول رحم الله امرأ أهدى الى أخيـه عيوبه ومن كتاب بعض السلف لأخيه (اعلم أن من قرأ القرآن وآثر الدنيا لم آمن أن يكون بآيات الله من المستهزئين) وقد وصف الله تعالى الـكاذبين ببغضهم للناصحين . إذ قال : (ولَـكِن لاَتُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ) وهذا فى عيب هو غافل عنه فأما مايظهره فلابدمن التلطف بنصحه بالتعريض مرة والتصريح أخرى الى حد لايؤدى الى الايحاش فان علمت أن النصح غير مؤثر فيـه وأنه مضطر من طبعه الى الاصرار عليـه فالسكوت عنه أولى . وهذا كله فيما يتعلق بمصالح أخيك فى دينه أو دنياه . أما ما يتعلق بتقصيره فى حقك فالواجب فيـه الاحتمال والعفو والصفح والتعامى عنه . والتعرضُ لذلك ليس من النصح فى شيء نعم ان كان بحيث يؤدى استمراره عليـه الى القطيعة فالعتاب فى السرّ خـير من القطيعة . والتعريض به خير من التصريح . والمـكاتبة خير من المشافهة . والاحتمال خير من الـكل *

﴿ الحق الخامس العفو عن الزلات والهفوات ﴾

هفوة الصديق ان كانت فى دينه فلا بد من التلطف فى نصحه كما قدمنا

فان أصر فمن السلف من رأى مقاطعته ومنهم من رأى ادامة حق مودته وبغض عمله وأما زلته في حقه بما يوجب ايحاشه فلا خلاف فى أن الأولى العفو والاحتمال بل كل ما يحتمل تنزيله على وجه حسن ويتصور تمهيد عذر فيه قريب أو بعيد فهو واجب بحق الأخوة فقد قيل ينبغى أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذراً فان لم يقبله قلبك فرد اللوم على نفسك فتقول لقلبك ما أقساك يعتذر اليك أخوك سبعين عذراً فلا تقبله فأنت المعيب لا أخوك وقال الأحنف (حق الصديق أن تحتمل منه ثلاثا ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم الهفوة) ومهما اعتذر اليك أخوك كاذبا كان أو صادقا فاقبل عذره فالمؤمن ان غضب فهو سريع الرضاء * وينبغى أن لا يبالغ فى البغضة عند الوقيعة قال تعالى (عَسَى اللهُ أن يَجْعَلَ بَيْنكم وَبينَ الّذِينَ عادَيْتُم مِنهُمْ مَوَدَّةً) وقال عمر رضى الله عنه : لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا : وهو أن تحب تلف صاحبك *

﴿ الحق السادس الدعاء للأخ ﴾

فتدعو له فى حياته ومماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله وكل متعلق به كما تدعو لنفسك وفى الحديث : اذا دعا الرجل لأخيه فى ظهر الغيب قال الملك ولك مثل ذلك . وفى حديث آخر : دعوة الرجل لأخيه فى ظهر الغيب لا ترد . وكان أبو الدرداء يقول : انى لأدعو لسبعين من اخوانى فى سجودى أسميهم بأسمائهم : وكان محمد بن يوسف الأصفهانى يقول : وأين مثل الاخ الصالح أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون بما خلفت وهو منفرد بحزنك

مهم مما قدّمت وما صرتَ اليه يدعو لك فى ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى وعن بعض السلف : الدعاء للاموات بمنزلة الهدايا للاحيا. *

﴿ الحق السابع الوفاء والاخلاص ﴾

ومعنى الوفاء الثبات على الحب وادامته الى الموت معه و بعد الموت مع أولاده وأصدقائه فان الحب انما يراد للآخرة فان انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعى . وروي أنه صلى الله عليه وسلم أكرم عجوزاً دخلت عليه فقيل له فى ذلك فقال (إنّها كانَتْ تأتينا أيّامَ خَدِيجَةَ وَإنّ كَرَمَ العهد مِنَ الدّين) * فمن الوفاء للاخ مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به . ومراعاتهم أوقع فى قلب الصديق من مراعاة الاخ في نفسه فان فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر لدلالته على قوة الشفقة والحب ومن ثمرات المودّة فى الله أن لا تكون مع حسد فى دين ودنيا وكيف يحسده وكل ماهو لاخيه فاليه ترجع فائدته وبه وصف الله تعالى المحبين في الله تعالى فقال (ولا يَجِدُونَ في صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمّا أُوتُوا ويؤْثِرُونَ على أنفُسِهِم) ووجود الحاجة هو الحسد *

(ومن الوفاء) أن لا يتغير حاله فى التواصل مع أخيه وان ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه .والترفع على الاخوان بما يتجددمن الاحوال لؤم قال الشاعر *

ان الكرام اذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم بالمنزل الخشن

واعلم أنه ليس من الوفاء موافقة الاخ فيما يخالف الحق فى أمر يتعلق بالدين

بل من الوفاء له المخالفة والنصح لله *

ومن آثار الصدق والاخلاص وتمام الوفاء أن تكون شديد الجزع من المفارقة نفور الطبع عن أسبابها كما قيل *

وجدتُ مصيباتِ الزّمان جميعَها سوى فرقة الاحباب هينة الخطب

وأنشد ابن عيينة هذا البيت . وقال : لقد عهدت أقواما فارقتهم منذ ثلاثين سنة مايخيل إلىّ أن حسرتهم ذهبت من قلبى *

(ومن الوفاء) أن لايسمع بلاغات الناس على صديقه *

(ومن الوفاء) أن لا يصادق عدوّ صديقه قال الشافعي رحمه الله اذا أطاع صَدِيقُكَ عدوَّكَ فقد اشتركا فى عداوتك [١] *

﴿ الحق الثامن التخفيف وترك التكلف والتكليف ﴾

وذلك بأن لا يكلف أخاه ما يشق عليه بل يروح سره من مهماته وحاجاته و يرفهه عن أن يحمّله شيئا من اعبائه ، فلا يكلفه القيام بحقوقه بل

(١) أقول ما ألطف ما قاله ابن المقفع في الدرة اليتيمة فى باب الصديق فى هذا المقام ما مثاله : إن رأيت صاحبك مع عدوّك فلا يغضبنك ذلك فانما هو أحد رجلين ان كان رجلا من إخوان الثقة فأنفع مواطنه لك أقربها من عدوّك لشر يكفه عنك وعورة يسترها منك وغائبة يطلع عليها لك . فأما صديقك فما أغناك أن يحضره ذو ثقتك . وان كان رجلا من غير خاصة اخوانك فبأى حق تقطعه عن الناس وتكلفه أن لا يصاحب ولا يجالس الا من تهوى اه وهو كلام جيد يأخذ بيد الواقف الى الانصاف

لا يقصد بصحبته الا الله تعالى استعانة به على دينه واستئناساً بلقائه وتقربا الى الله تعالى بالقيام بحقوقه وتحمل مؤنته قال بعضهم (من اقتضى من اخوانه مالا يقتضونه منه فقد ظلمهم ومن اقتضى منهم مثل ما يقتضونه فقد أتعبهم ومن لم يقتض فهو المتفضل عليهم) وتمام التخفيف بطيّ بساط التكليف حتى لا يستحيي منه فيما لا يستحيي من نفسه . وقال عليّ رضى الله عنه . شرّ الاصدقاء مَنْ تكلّف لك ومَنْ أحوجك الى مداراة والجأك الى اعتذار . وقال الفضل . انما تقاطع الناس بالتكلف يزور أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه ذلك عنه . وكان جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنهما يقول . أثقل اخوانى علىّ من يتكلف لى وأتحفظ منه وأخفهم على قلبى من أكون معه كما أكون وحدى .

(ومن التخفيف) وترك التكلف أن لا يعترض فى نوافل العبادات . كان طائفة من الصوفية يصطحبون على أن أحدهم ان أكل النهار كله لم يقل له صاحبه صُمْ . وان صام الدهر كله لم يقل له افطر . وان نام الليل كله لم يقل له قُمْ . وان صلى الليل كله لم يقل له نم . وتستوى حالاته عنده بلا مزيد ولا نقصان . وقد قيل (مَن سقطَتْ كُلفَتُهُ دامت أُلفَتُهُ . ومن خفت مؤنته دامت مودّته) وقال بعضهم . اذا عمل الرجل فى بيت أخيه أربع خصال فقد تم أنسه به اذا أكل عنده ودخل الخلاء وصلى ونام فذكر ذلك لبعض المشايخ فقال بقيت خامسة وهو أن يحضر مع الاهل فى بيت أخيه لان البيت يتخذ للاستخفاء فى هذه الامور الخمس والا فالمساجد أروح لصلاة

المتعبدين . فاذا فعل هذه الخمس فقد تم الاخاء وارتفعت الحشمة وتأكد الانبساط وقول العرب فى تسليمهم يشير الى ذلك إذ يقول أحدهم لصاحبه (مرحبا وأهلا وسهلا) أى لك عندنا مرحب وهو السعة فى القلب والمكان . ولك عندنا أهل تأنس بهم بلا وحشة لك منا . ولك عندنا سهولة فى ذلك كله أى لا يشتدّ علينا شئ مما تريد ولا يتم التخفيف وترك التكلف الا بأن يرى نفسه دون اخوانه ويحسن الظن بهم ويسيء الظن بنفسه ولا خير فى صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له فهذه أقلّ الدرجات وهو النظر بعين المساواة والكمال في رؤية الفضل للأخ ومهما رأى الفضل لنفسه فقد احتقر أخاه وهذا في عموم المسلمين مذموم قال صلى الله عليه وسلم (بِحَسْبِ امرِئٍ مِنَ الشّرّ أنْ يُحقِّرَ أخاهُ المُسلِمَ) ومن تتمة الانبساط وترك التكلف أن يشاور اخوانه فى كل مايقصده ويقبل اشارتهم فقد قال تعالى (وشاوِرْهُم فى الأمرِ) فهذا جامع حقوق الصحبة . ولا يتم ذلك الا بأن تنزل نفسك منزلة الخادم لهم فتقيد بحقوقهم جميع جوارحك (أما البصر) فبأن تنظر اليهم نظر مودّة يعرفونها منك وتنظر الى محاسنهم . وتتعامى عن عيوبهم . ولا تصرف بصرك عنهم في وقت اقبالهم عليك وكلامهم معك روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطى كلّ من جلس اليه نصيباً من وجهه لا يظن جليسه إلاّ أنه أكرم الناس عليه وكان عليه السلام أكثر الناس تبسما وضحكا فى وجوه أصحابه وتعجبا مما يحدثونه (وأما السمع) فبأن تسمع كلامهم متلذذاً بسماعه

ومصدّقا به ومظهراً للاستبشار به ولا تقطع حديثهم عليهم ببرادة ولا منازعة ومداخلة واعتراض فان أرهقك عارض اعتذرت اليهم *

(وأما اللسان) فقد ذكرنا حقوقه ومن ذلك أن لا يرفع صوته عليهم ولا يخاطبهم إلاّ بما يفقهون (وأما اليدان) فأن لا يقبضهما عن معاونتهم في كلّ مايتعاطى باليد (وأما الرجلان) فبأن لا يتقدمهم إلاّ بقدرما يقدمونه ولا يقرب منهم إلاّ بقدر ما يقربونه ويقوم لهم إذا أقبلوا ولا يقعد إلاّ بقعودهم ويقعد متواضعاً حيث يقعد *

﴿ خاتمة في جملة من آداب المعيشة والمجالسة مع أصناف الخلق ﴾

قال بعض الحكماء إن أردت حسن المعيشة فالق صديقك وعدوّك بوجه الرضا وتوقّر من غير كبر وتواضع في غير مذلة وكن في جميع أمورك في أوسطها * فكلا طرفي قصد الأمور ذميم * ولا تنظر في عطفيك ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات واذا جلست فلا تستوفز وتحفظ من تشبيك أصابعك والعبث بلحيتك وخاتمك وتخليل أسنانك وادخال أصبعك في أنفك وكثرة بصاقك وتنخمك وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة وغيرها وليكن مجلسك هادئاً وحديثك منظوما مرتبا واصغ الى الكلام الحسن ممن حدثك من غير اظهار تعجب مفرط ولا تسأله اعادته واسكت عن المضاحك ولا تحدث عن اعجابك بولدك ولا شعرك ولا تصنيفك وسائر مايخصك ولا تتصنع تصنّع المرأة في التزين ولا تتبذل تبذل العبد ولا تلحّ في الحاجات ولا

تشجع أحداً على الظلم ولا تعلم أهلك وولدك فضلا عن غيرهم مقدار مالك فانهم ان رأوه قليلا هنت عندهم وان كان كثيراً لم تبلغ قط رضاهم وخوفهم من غير عنف ولِن لهم من غير ضعف واذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك وتفكر فى حجتك ولا تكثر الاشارة بيدك ولا تكثر الالتفات الى من ورائك واذا هدأ غيظك فتكلم ولا تجعل مالك أكرم من عرضك واذا دخلت مجلسا فالأدب فيه البداية بالتسليم وترك التخطى لمن سبق والجلوس حيث اتسع وحيث يكون أقرب الى التواضع وأن تحيي بالسلام من قرب منك عند الجلوس ولا تجلس على الطريق فان جلست فأدبه غض البصر ونصرة المظلوم واغاثة الملهوف وعون الضعيف وارشاد الضال ورد السلام واعطاء السائل والامر بالمعروف والنهى عن المنكر والارتياد لموضع البصاق ولا تبصق فى جهة القبلة واياك أن تمازح لبيبا أو غير لبيب فان اللبيب يحقد عليك والسفيه يجترئ عليك ومن بلى فى مجلس بمزاح أو لغط فليذكر الله عند قيامه قال النبى صلى الله عليه وسلم (مَنْ جَلَسَ فى مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فيهِ لَغَطُهُ فقالَ قَبلَ أنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلسِهِ ذلكَ * سُبحانَكَ اللّهمَّ وبِحمدِكَ أشْهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ أنتَ أستَغْفِرُكَ وأتُوبُ إلَيكَ إلاّ غُفِرَ لهُ ما كانَ فى مَجْلِسِهِ ذلكَ) *

﴿ بيان حق المسلم والرحم والجوار ﴾

إعلم أن الانسان لحاجته لمخالطة من هو من جنسه لم يكن له بدٌّ من تعلم آداب المخالطة وكل مخالط ففى مخالطته أدب والأدب على قدر حقه

وحقه على قدر رابطته إمّا القرابة وهى أخصها أو أخوة الاسلام وهى أعمها
وينطوى فى معنى الاخوة الصداقة والصحبة واما الجوار واما صحبة السفر
والمكتب والدرس والصداقة أو الاخوة ولكل واحد من هذه الروابط
درجات فالقرابة لها حق ولكن حق الرحم المحرم آكد وللمحرم حق
ولكن حق الوالدين آكد وكذلك حق الجار ولكن يختلف بحسب قربه
من الدار وبعده ويظهر التفاوت عند النسبة حتى أن البلدى فى بلاد الغربة
يجرى مجرى القريب فى الوطن لاختصاصه بحق الجوار فى البلد وكذلك
حق المسلم يتأكد بتأكد المعرفة والاختلاط *

﴿ حقوق المسلم ﴾

(هى أن تُسلّمَ عليهِ إذا لقيتَهُ) وتجيبه اذا دعاك وتشمته اذا عطس
وتعوده اذا مرض وتشهد جنازته اذا مات وتبرّ قسمه اذا أقسم عليك وتنصح
له اذا استنصحك وتحفظه بظهر الغيب اذا غاب عنك ومنها أن تحب له ما تحب
لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك قال صلى الله عليه وسلم (مَثلُ المُؤمِنينَ فى
تَوادِّهِمْ وتراحُمِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ إذا اشتكى عِضوٌ مِنهُ تداعى سائرُهُ بالحُمّى
والسَّهَرِ) وعنه صلى الله عليه وسلم (المُؤمِنُ لِلمُؤمِنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بَعضُهُ
بَعضاً) ومنها أن لا يؤذى أحداً من المسلمين بفعل ولا قول قال صلى الله
عليه وسلم (المُسلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسلمُونَ منْ لِسانِهِ ويَدِهِ * والمُؤمِنُ مَنْ أمِنَهُ
المُؤمِنُونَ على أنفُسِهِمْ وأموالِهِمْ والمُهاجِرُ مَنْ هَجرَ السُّوءَ واجتَنَبَهُ) وعنه
صلى الله عليه وسلم (لا يَحِلُّ لِمُسلِمٍ أنْ يُرَوِّعَ مُسلماً) ومنها أن يتواضع لكل

مسلم ولا يتكبر عليه قال صلى الله عليه وسلم (إنَّ اللهَ أوحَى إليَّ أن تواضَعُوا حتى لا يَفخَرَ أحَدٌ على أحدٍ) ومنها أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ولا يبلغ بعضهم مايسمع من بعض . فى الحديث (لا يَدخُلُ الجنةَ قتَّاتٌ) ومنها أن لا يزيد فى الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام مهما غضب عليه قال صلى الله عليه وسلم (لايَحِلّ لِمُسلِمٍ أن يَهجُرَ أخاهُ فَوقَ ثَلاثٍ يَلتَقِيانِ فيُعرِضُ هذا ويُعرِضُ هذا وخَيرُهُما الَّذِى يَبدَأُ بالسَّلامِ) وقالت عائشة رضي الله عنها : ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط إلاّ أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله . وفى الحديث (ما زَادَ اللهُ رجُلاً بِعَفوٍ إلاّ عِزّاً) ومنها أن يحسن إلى كل من قدر عليه منهم ما استطاع لا يميز بين الأهل وغير الأهل . وفى أثر : اصنع المعروف فى أهله وفى غير أهله فان أصبت أهله فهو أهله وان لم تصب أهله فأنت من أهله . وفى آخر : رأس العقل بعد الدين التودّد الى الناس واصطناع المعروف الى كل برّ وفاجر . ولم يكن أحد يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاّ أقبل عليه بوجهه ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه ومنها أن لايدخل على أحد منهم إلا باذنه بأن يستأذن ثلاثا فان لم يؤذن له انصرف ومنها أن يخالق الجميع بخلق حسن ويعامله بحسب طريقته ومنها أن يوقر المشايخ ويرحم الصبيان وفى الحديث (لَيسَ مِنّا مَنْ لم يُوَقِّرْ كَبيرَنا ولَم يَرْحَمْ صَغيرَنا) والتلطف بالصبيان من عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان اذا قدم من سفره تلقى بالصبيان ثم يأمر بهم فيرفعون اليه فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه ويأمر

أصحابه أن يحملوا بعضهم . وكان يؤتى بالصبيّ الصغير ليدعو له بالبركة وليسميه فيأخـذه فيضعه فى حجره فربما بال الصبيّ ثم يغسل ثوبه صلى الله عليه وسلم بعد ومنها أن يكون مع كافة الخلق مستبشراً طلق الوجه رفيقاً قال صلى الله عليه وسلم (أَتدرُونَ عَلى مَنْ حُرِّمَتِ النَّارُ) قالوا الله ورسوله أعلم قال (عَلى اللَّيِّنِ الهَيِّنِ السَّهلِ القَرِيبِ) وقال صلى الله عليه وسلم (إتّقوا النَّارَ ولو بِشَقِّ تَمرَةٍ فَمَنْ لم يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ) ومنها أن لا يعد مسلما بوعد الا ويفى به قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الْعِدَةُ عَطِيَّةٌ) وقال (العِدَةُ دَيْنٌ) وقال (ثَلاَثٌ مَن كُنَّ فيـهِ فَهُوَ مُنافِقٌ وَإن صامَ وصلَّى مَن إذا حدَّثَ كَذَبَ وَإذا وَعدَ أخلَفَ وَإذا أُؤتُمِنَ خانَ) *

(ومنها) أن ينصف الناس من نفسه ولا يأتى اليهم إلاّ بما يحب أن يؤتى اليه قال صـلى الله عليه وسـلم (يا أبا الدَّرداء أحسِنْ مُجاوَرَةَ مَن جاوَرَكَ تَكُنْ مُؤْمِناً وأحِبَّ لِلنَّاسِ ماتُحبُّ لنفسِكَ تَكُنْ مُسلماً) *

(ومنها) أن يزيد فى توقير من تدل هيئته وثيابه على علوّ منزلته فينزل الناس منازلهم *

(ومنها) أن يصلح ذات البين بين المسلمين مهما وجد اليـه سبيلا قال صلى الله عليه وسلم (أَفضلُ الصَّدَقَةِ إصـلاحُ ذَاتِ البَينِ) وفى الحديث (لَيسَ بِكذّابٍ مَن أصلَحَ بَينَ اثنينِ فَقالَ خَيراً) وهـذا يدل على وجوب الاصلاح بين الناس لأن ترك الـكذب واجب . ولا يسقط الواجب إلا بواجب آكد منه وقال صلى الله عليه وسلم (كُلُّ الـكَذِبِ مكتوبٌ

إلاّ أن يكذِبَ الرّجلُ فى الحَربِ فإنّ الحربَ خُدعةٌ . أو يَكذِبَ بينَ اثنينِ فيُصلِحَ بينَهما . أو يَكذِبَ لِامرأتِهِ ليُرضيَها) *

(ومنها) أن يستر عورات المسلمين كلهم وقال صلى الله عليه وسلم (مَن سترَ على مُسلمٍ سترَهُ اللهُ تعالى فى الدُّنيا والآخِرةِ) وقال صلى الله عليه وسلم (لا يرَى المؤمنُ مِن أخيهِ عورَةً فيستُرُها عليهِ إلاّ دخلَ الجنّةَ) وقال صلى الله عليه وسلم (يامعشَرَ مَن آمنَ بلسانِهِ ولم يدخُلِ الايمانُ فى قلبِهِ لاتغتابوا النّاسَ ولا تتبّعُوا عوراتِهِم فإنّهُ من يتّبع عورةَ أخيهِ المُسلِمِ يتّبعِ اللهُ عورتَهُ ومَن يتّبعِ اللهُ عورتَهُ يفضَحْهُ ولو كانَ فى جوفِ بيتِهِ) وروى عن بعض الخلفاء أنه كان يعس من الليل فسمع صوت رجل فى بيت يتغنى فتسور عليه فوجد عنده امرأة وعنده خمر فقال ياعدوّ الله أظننت أن الله يسترك وأنت على معصيته فقال وأنت أيها الأمير لا تعجل فان كنتُ عصيتُ الله واحدة فقد عصيتَ الله فىّ ثلاثا قال الله تعالى (ولا تجسّسُوا) وقد تجسّست وقال الله تعالى (وليسَ البِرّ بأن تأتوا البيُوتَ من ظُهُورِها) وقد تسورت علىّ . وقد قال الله تعالى (لا تدخُلُوا بُيوتاً غيرَ بُيوتكُم) الآية وقد دخلت بيتى بغير إذن ولا سلام . فقال الأمير هل عندك من خير ان عفوت عنك قال نعم والله لئن عفوت عنى لا أعود الى مثلها أبداً فعفا عنه وخرج وتركه . وقد قال صلى الله عليه وسلم (كُلُّ أُمّتِي مُعافًى إلاّ المجاهِرينَ وإنّ مِنَ المجاهَرَةِ أن يَعمَلَ الرّجلُ السّوءَ سِرًّا ثمّ يُخبِرَ بهِ) وقال صلى الله عليه وسلم (مَنِ استمعَ خبرَ قومٍ وهُم لهُ كارِهُونَ صُبّ فى أذُنِهِ

الآ نكُ يومَ القيامةِ) *

(ومنها) أن يتقى مواضع التُّهم صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ولألسنتهم عن الغيبة فانهم إذا عصوا الله بذكره وكان هو السبب فيه كان شريكا قال الله تعالى (ولا تَسبُّوا الَّذينَ يَدعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيسبُّوا اللهَ عَدْوًا بغيرِ عِلمٍ) وقال صلى الله عليه وسلم (كيفَ تروْنَ مَنْ سبّ أبوَيْهِ) فقالوا وهل من أحد يسب أبويه فقال (نَعم يَسبُّ أبوَىْ غيرِهِ فيَسبُّونَ أبوَيْهِ) وقال عمر رضى الله عنه : من أقام نفسه مقام التهم فلايلومن من أساء به الظن *

(ومنها) أن يشفع لكلّ من له حاجة من المسلمين الى من له عنده منزلة ويسعى فى قضاء حاجته بما يقدر قال صلى الله عليه وسلم (إشفَعُوا تؤْجرُوا) *

(ومنها) أن يبدأ من يلقى بالسلام قبل الكلام ويصافحه عند السلام قال الله تعالى (وإذا حُيّيتُمْ بتَحِيّةٍ فحيُّوا بأحسنَ مِنْها أو رُدُّوها) وقال صلى الله عليه وسلم (والَّذى نَفسي بِيدِهِ لاتَدخلوا الجنَّةَ حتَّى تؤْمنُوا ولاتؤْمنُوا حتَّى تحابُّوا أولاَ أدلُّكم على عَمل إذا عَمِلتمُوهُ تحا بَبتم) قالوا بلى يارسول الله قال (أفشوا السَّلاَمَ بَينكُمْ) وعنه صلى الله عليه وسلم (يُسلِّمُ الرَّا كبُ على الماشى وإذا سلّمَ عَنِ القومِ واحِدٌ أجزأ عنهُم) وكان أنس رضى الله عنه يمرّ على الصبيان فيسلم عليهم ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فعل ذلك . وروى أنه صلى الله عليه وسلم مرّ فى المسجد يوماً وعصبة من الناس قعود فأومأ بيده بالسلام وقال صلى الله عليه وسلم (إذا انتهى

أحدكم إلى مجلس فليُسلّم فإن بدا له أن يجلس فليجلس ثم إذا أقام فليُسلّم فليستِ الأولى بأحق مِنَ الآخرة) وروى أن من تمام التحية المصافحة . وقال الحسن (المصافحة تزيد فى الود) ولا بأس بقبلة يد المعظم فى الدين تبركا به وتوقيراً له . وروى أنه صلى الله عليه وسلم أذن فى تقبيل يده ورأسه . والانحناء عند السلام منهيّ عنه . والالتزام والتقبيل قد ورد عند القدوم من السفر . والأخذ بالركاب فى توقير العلماء ورد به الأثر فعل ذلك ابن عباس بركاب زيد بن ثابت . وقال صلى الله عليه وسلم لا يُقِم الرّجلُ الرّجلَ مِنْ مجلسهِ ثمّ يَجلسُ فيهِ ولكنْ توسّعوا وتفسّحوا) ويستحب للداخل إذا سلم ولم يجد مجلساً أن لا ينصرف بل يقعد وراء الصف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً فى المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها وأما الثانى فجلس خلفهم وأما الآخر فأدبر ذاهبا فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم (ألا أخبركم عن النفر الثلاثة أما أحدهم فآوى الى الله فآواه الله وأما الثانى فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه) وسلمت أم هانئ على النبى صلى الله عليه وسلم فقال (مَن هذهِ) فقيل له أم هانئ فقال عليه السلام (مرحباً يا أمّ هانئ) *

(ومنها) أن يصون عرض أخيه ونفسه وماله عن ظلم غيره مهما قدر ويردّ عنه ويناضل دونه وينصره فان ذلك يجب عليه بمقتضى أخوة الاسلام . وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما مِن امرئ

مُسلمٍ ينصُرُ مُسلماً فى موضع يُنتَهكُ فيه عِرضهُ ويُستَحلُّ حُرمتُهُ إلاّ نَصرَهُ اللهُ فى موطِنٍ يُحبُّ فيـه نصرَهُ وما من امرِئٍ خذَلَ مُسلماً في موطنٍ تُنتَهكُ فيه حرُمتُهُ إلاّ خذَلَهُ اللهُ فى موضعٍ يحبُّ فيه نُصرَتَهُ) *

(ومنها) تشميت العاطس قال عليه السلام فى العاطس (يَقولُ الحمدُ للهِ على كلّ حالٍ ويقولُ الّذى يُشمّتهُ يرحمكمُ اللهُ ويردُّ عليهِ العاطسُ فيقولُ يهديكمُ اللهُ ويُصلحُ بالَكمْ) ويستحب اذا عطس أن يغض صوته ويخمّر وجهه واذا تثاءب أن يضع يده على فيه *

(ومنها) أنه اذا بلى بذى شر فينبغي أن يجامله ويتقيه . قال بعضهم خالص المؤمن مخالصة وخالق الفاجر مخالقة فان الفاجر يرضى بالخلق الحسن فى الظاهر . وقال أبو الدرداء (إنا لنبش فى وجوه أقوام وأن قلو بنا لتلعنهم) وهـذا معنى المداراة وهو مع من يخاف شره قال الله تعالى (إدفَعْ بالّتى هِيَ أحسنُ) قال ابن عباس فى معنى قوله تعالى (ويدرَؤُنَ بالحَسنةِ السيئَةَ) أى الفحش والأذى بالسلام والمداراة . وقال في قوله تعالى (ولَولا دفعُ اللهِ النّاسَ بعضَهُم ببعضٍ) قال بالرغبة والرهبة والحياء والمداراة . وقالت عائشة رضى الله عنها : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (إئذَنوا لهُ فبئسَ رجلُ العشيرَةِ هُوَ) فلما دخـل ألان له القول حتى ظننت أن له عنـده منزلة فلما خرج قلت له لما دخـل قلت الذى قلت ثم ألنت له القول فقال (ياعائشَةُ إنّ شرّ النّاسِ منزلةً عندَ الله يومَ القيامةِ من ترَكهُ النّاسُ إتّقاءَ فُحشهِ) وفى الخبر (ما وَقَى الرّجلُ بهِ عِرضَهُ فهُوَ لهُ صدقةٌ) وقال

محمد بن الحنفية : ليس بحكيم من لا يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بُدًّا حتى يجعل الله له فرجا *

(ومنها) أن يختلط بالمساكين ويحسن الى الأيتام كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول (اللّهمّ أحْيِنِي مِسكيناً وأمِتْنِي مِسكيناً واحْشُرنِي في زُمْرةِ المَساكينِ) وقد روي أن سليمان عليه السلام في ملكه كان إذا دخل المسجد فرأى مسكينا جلس اليه وقال مسكين جالس مسكينا . وفي الخبر (لاتَغبِطَنّ فاجِراً بِنعمَة فإنَّكَ لاتَدرِي إلامَ يَصيرُ بَعدَ المَوْتِ فإنّ مِنْ وَرائِهِ طَالِبا حثِيثا) *

(وأما اليتيم) فقال صلى الله عليه وسلم (مَنْ ضَمّ يَتيماً حتّى يَستغنِيَ فقد وجبَتْ لهُ الجنّةُ وقال صلى الله عليه وسلم (أنا وَكافِلُ اليَتيمِ كهاتَينِ) وهُوَ يشيرُ بأصبعيهِ وقال صلى الله عليه وسلم (مَنْ وَضعَ يدَهُ على رأسِ يَتيمٍ ترَحُّما كانَتْ لهُ بِكُلّ شَعرَةٍ تمرُّ عليْها يدُهُ حَسنةٌ) وقال صلى الله عليه وسلم (خَيرُ بَيتٍ مِنَ المُسلمينَ بَيتٌ فيهِ يَتيمٌ يُحسَنُ إليْهِ وشرُّ بيتٍ مِنَ المُسلمينَ بَيتٌ فيه يَتيمٌ يُساءُ اليهِ) *

(ومنها) النصيحة لكل مسلم والجهد في إدخال السرور على قلبه قال صلى الله عليه وسلم (لايُؤْمِنُ أحدُكم حتّى يُحِبّ لأخيهِ مايُحبُّ لِنفسِهِ) وعنه (مَن أقَرّ عينَ مُؤْمنٍ أقرّ اللهُ عينَهُ يومَ القيامةِ) وعنه (مَنْ فرّجَ عَنْ مؤمنٍ مغمُومٍ أو أعانَ مظلوما غُفِرَ لهُ) وعنه (إنّ مِن أحَبّ الأعمالِ إلى اللهِ إدخالَ السُّرُورِ على قَلْبِ المُؤْمِنِ وَأن يُفرّجَ عَنهُ غما أو يقضِيَ

عنهُ دَيْنا أو يُطعِمهُ مِنْ جُوعٍ) *

(ومنها) أن يعود مرضاهم وأدب العائد خفة الجلسة وقلة السؤال واظهار الرقة والدعاء بالعافية . وغض البصر عن عورات الموضع . وعند الاستئذان لايقابل الباب . ويدق برفق . ولا يقول انا اذا قيل له مَنْ . وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم (إِذا عادَ المُسلمُ أخاهُ أو زارهُ قال اللهُ تَعالى طِبتَ وطابَ مَمشاكَ وتَبوّأتَ مَنزِلا في الجنّةِ) وعن عثمان رضي اللهُ عنه قال مرضت فعادني رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : (بِسمِ اللهِ الرّحمن الرّحيمِ * أعيذُكَ باللهِ الأحدِ الصّمدِ الّذي لم يلد ولم يولد ولم يكنْ لهُ كفواً أحدٌ مِن شرّ ماتَجِدُ) قاله مراراً ويستحب للعليل أيضا أن يقول أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد . وقال طاوس : أفضل العيادة أخفها وجملة أدب المريض حسن الصبر . وقلة الشكوى والضجر . والفزع الى الدعاء . والتوكل بعد الدواء على خالق الدواء *

(ومنها) أن يشيع جنائزهم قال صلى الله عليه وسلم (منْ شيّعَ جنازةً فَلهُ قيراطٌ مِنَ الأجرِ فإن وقفَ حتّى دُفِنَ فَلهُ قيراطانِ والقيراطُ مِثلُ أحدٍ) ـ جبل عظيم في المدينة المنورة ـ والقصد من التشييع قضاء حق المسلمين والاعتبار *

(ومنها) أن يزور قبورهم والمقصود من ذلك الدعاء والاعتبار وترقيق القلب قال صلى الله عليه وسلم (مارأيتُ منظَراً إلاّ والقبرُ أفظعُ منهُ) وعن حاتم الأصم : من مر بالمقابر فلم يتفكّر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه.

وخانهم : وقال ميمون بن مهران خرجت مع عمر بن عبد العزيز الى المقبرة فلما نظر الى القبور بكى وقال ياميمون هذه قبور آبائى كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذاتهم أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات وأصاب الهوامُّ من أبدانهم ثم بكى وقال والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار الى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله *

(وآداب المعزى) خفض الجناح . واظهار الحزن . وقلة الحديث . وترك التبسم *

(وآداب تشييع الجنازة) لزوم الخشوع وترك الحديث وملاحظة الميت والتفكر فى الموت والاستعداد له والاسراع بالجنازة سنة (فهذه) جمل آداب تنبّه على آداب المعاشرة مع عموم الخلق (والجملة الجامعة) فيه أن لاتستصغر منهم أحداً حيا كان أو ميتا فتهلك . لأنك لاتدرى لعله خير منك فانه وان كان فاسقا فلعله يختم لك بمثل حاله ويختم له بالصلاح ولا تنظر اليهم في حال دنياهم بعين التعظيم فانّ الدنيا صغيرة عند الله صغير مافيها ولا تبذل لهم دينك لتنال من دنياهم فتصغر فى أعينهم ثم تحرم دنياهم ولا تعادهم بحيث تظهر العداوة إلاّ إذا رأيت منكراً فى الدين فتعادى أفعالهم القبيحة ، ولا تسكن اليهم فى ثنائهم عليك فى وجهك وحسن بشرهم لك فقد لا يكون لذلك حقيقة باطنا ، ولا تشك اليهم أحوالك فيكلك الله اليهم ولا تطمع أن يكونوا لك فى الغيب والسر كما فى العلانية فذلك طمع كاذب ولا تطمع فيما فى أيديهم فتستعجل الذل ، وإذا سألت أخا منهم حاجة فقضاها

فهو أخ مستفاد وان لم يقض فلا تعاتبه فيصير عـدواً تطول عليك مقاساته ولا تشتغل بوعظ من لا ترى فيـه مخايل القبول فلا يسمع منك ويعاديك وليكن وعظه عرضا واسترسالا من غير تنصيص على الشخص . واذا بلغك منهم غيبة أو رأيت منهم شراً فـكل أمرهم الى الله واستعذ بالله من شرهم . ولا تشغل نفسك بالمكافأة فيزيد الضرر . وكن فيهم سميعاً لحقهم أصمّ عن باطلهم نطوقا بحقهم . واحذر صحبة أكثر الناس فانهم لا يقيلون عثرة . ولا يغفرون زلة ولا يسترون عورة ، ويحاسبون على النقير والقطمير ويحسدون على القليل والكثير . ولا تعول على مودة من لم تخـبره حق الخبرة . بأن تصحبه مدة فتجربه فى أحواله أو تعامله بالدينار والدرهم أو تقع فى شدة فتحتاج اليه أو تسافر معه فان رضيته فى هذه الأحوال فاتخـذه أبا لك ان كان كبيراً ، وابنا لك ان كان صغيراً ، أو أخا ان كان مثلا لك، فهذه جملة آداب المعاشرة مع أصناف الخلق *

(حقوق الجوار)

اعلم أن الجوار يقتضى حقا وراء ما تقتضيـه أخوّة الاسلام فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة إذ قال النبى صلى الله عليـه وسلم (الجيرانُ ثلاثةٌ جارٌ لهُ حقٌّ واحدٌ وجارٌ لهُ حقّانِ وجارٌ لهُ ثلاثةُ حقوقٍ فالجـارُ الذى لهُ ثلاثةُ حقوقٍ الجـارُ المسلمُ ذو الرَّحِمِ فلهُ حقُّ الجِوَارِ وحقُّ الإسلامِ وحقُّ الرَّحِمِ وأمّا الذى لهُ حقّانِ فالجارُ المسلمُ لهُ حقُّ الجِوَارِ وحقُّ الإسلامِ وأمّا الذى لهُ حقٌّ واحدٌ فالجارُ المشرِكُ) فانظر

كيف أثبت للمشرك حقا بمجرّد الجوار . وقال صلى الله عليه وسلم (أحسنْ مجاوَرَةَ مَنْ جاوَرَكَ تكنْ مُسلماً) وقال صلى الله عليه وسلم (ما زالَ جبريلُ يُوَصّيني بالجارِ حتى ظنَنتُ أنه سَيُوَرّثُهُ) وقال صلى الله عليه وسلم (مَنْ كانَ يُؤمنُ باللهِ واليوم الآخرِ فليُكْرِمْ جارَهُ) وقال صلى الله عليه وسلم (لا يُؤمنُ عبدٌ حتى يَأمَنَ جارُهُ بَوَائقَهُ) وقال صلى الله عليه وسلم (لا يَمْنَعنّ أحدُكم جارَهُ أنْ يَغرِزَ خشبةً في جداره) وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول ما لي أراكم عنها معرضين والله لأرمينها بين أكتافكم وقد ذهب بعض العلماء الى وجوب ذلك . وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها فقال صلى الله عليه وسلم (هي في النار) وعن النبي صلى الله عليه وسلم (أربعونَ داراً جارٌ) قال الزهري يعني أربعين عن يمينه ويساره وخلفه وبين يديه . واعلم انه ليس حق الجوار كفّ الأذى فقط بل احتمال الأذى بل لابدّ فوقه من الرفق وإسداء الخير والمعروف . وحكى أن ابن المقفّع بلغه أن جارًا له يبيع داره في دين ركبه وكان يجلس في ظلّ داره فقال ما قمت إذًا بحرمة ظل داره إن باعها مُعدماً فدفع اليه ثمن الدار وقال لا تبعها . وجملة حق (الجار) أن يبدأ بالسلام . ولا يكثر عن حاله السؤال . ويعوده في المرض . ويعزيه في المصيبة ويقوم معه في العزاء . ويهنئه في الفرح . ويظهر الشركة في السرور معه . ويصفح عن زلاّته . ولا يطلع من السطح الى عوراته . ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره . ولا يضيق طريقه الى الدار . ولا يتبعه النظر فيما يحمله

الى داره . ويستر ما ينكشف له من عوراته . وينعشه من صرعته اذا نابته نائبة . ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته . ولا يسمع عليه كلاما . ويغض بصره عن حرمته . ولا يديم النظر الى خادمته . ويتلطف لولده فى كلمته . ويرشده الى مايجهله من أمر دينه ودنياه . هذا الى جملة الحقوق التى ذكرناها لعامة المسلمين *

﴿ حقوق الأقارب والرحم ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يَقُولُ اللهُ تَعالى أنا الرَّحمَنُ وهذِهِ الرَّحِمُ شَققْتُ لها إسماً مِنْ اسمِي فَمَنْ وصلَها وصلْتُهُ ومَنْ قَطَعَها قطعتُهُ) وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أى الناس أفضل قال (أتقاهُم للهِ وأوْصلُهُمْ لِرَحِمِهِ وآمَرُهم بالمعْرُوفِ وأنهاهُم عَنِ المُنكَرِ) وقال صلى الله عليه وسلم (الصَّدَقَةُ عَلى المِسكينِ صدَقَةٌ وهىَ عَلى ذِى الرَّحِمِ اثْنَتانِ صدَقة وصلَةٌ) ولما أراد أبو طلحة أن يتصدق بحائط كان له يعجبه عملا بقوله تعالى (لَنْ تَنالوا البِرَّ حتَّى تُنفِقوا مِمَّا تُحِبُّونَ) قال يارسول الله هى فى سبيل الله وللفقراء والمساكين فقال عليه السلام (وَجبَ أجرُكَ واقْسِمْهُ فى أقارِبِكَ) *

﴿ حقوق الوالدين والولد ﴾

لا يخفى أنه اذا تأكد حق القرابة والرحم فأخص الأرحام وأمسها الولادة فيتضاعف تأكد الحق فيها . قال صلى الله عليه وسلم (بِرَّ أُمَّكَ

وأباكَ وأختَكَ وأخاكَ ثمّ أدناكَ فأدناكَ) وقال رجل يا رسول الله هل بقى علىّ من برّ أبوىّ شئٌ أبرهما به بعد وفاتهما قال (نَعمْ الصَّلَاةُ عَليهِما والاستغفارُ لهما وإنفاذُ عهدِهما وَإكرامُ صديقهما وصلةُ الرَّحِمِ الَّتى لاتوصلُ إلاّ بِهِما) وقال صلى الله عليه وسلم (إنّ مِنْ أبرِّ البرِّ أن يصِلَ الرَّجلُ أهلَ ودِّ أبيهِ بعد أن يُوَلّى الأبُ) وعنه صلى الله عليه وسلم (رَحِمَ اللهُ والداً أعانَ ولدَهُ على بِرّهِ) أى لم يحمله على العقوق بسوء عمله وعنه صلى الله عليه وسلم (ساوُوا بَينَ أولادِكم فى العطيةِ) وعنه أيضا (مِن حقّ الوَلد على الوَالِدِ أنْ يُحسنَ أدَبهُ ويُحسّن اسمَهُ) ويستحب الرفق بالولد رأى الأقرع بن حابس رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقبّل ولده الحسن فقال ان لى عشرة من الولد ماقبلت واحداً منهم فقال عليه السلام (إنّ منْ لايَرحمُ لايُرْحَمُ) وقال معاوية للأحنف بن قيس ماتقول فى الولد قال يا أمير المؤمنين ثمار قلوبنا . وعماد ظهورنا . ونحن لهم أرض ذليله . وسماء ظليله . وبهم نصول على كل جليله . فان طلبوا فاعطهم . وان غضبوا فارضهم يمنحوك ودهم . ويحبوك جهدهم . ولا تكن عليهم قفلا ثقيلا فيملوا حياتك ويودوا وفاتك . ويكرهوا قربك . فقال معاوية لله أنت ياأحنف لقد أرضيتنى عمن سخطت عليه من ولدى .. ووصله بعطية عظمى *

واعلم أن أكثر العلماء على أن طاعة الوالدين واجبة فى الشبهات وان لم تجب فى الحرام المحض. وليس للولد أن يسافر فى مباح أو نافلة إلا باذنهما وقال صلى الله عليه وسلم (حقُّ كَبيرِ الإخوَة على صَغيرِهم كحَقّ الوَالِد على وَلَدِه) *

كتاب العزلة والمخالطة

اعلم أن من السلف من آثر العزلة لفوائدها كالمواظبة على العبادة والفكر وتربية العلم والتخلص من ارتكاب المناهى التى يتعرض الانسان لها بالمخالطة كالرياء والغيبة والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومسارقة الطبع الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة من جلساء السوء الى غير ذلك وأما أكثر السلف فذهبوا الى استحباب المخالطة واستكثار المعارف والاخوان والتآلف والتحبب الى المؤمنين والاستعانة بهم فى الدين تعاونا على البرّ والتقوي وان فوائد العزلة المتقدمة يمكن نيلها من المخالطة بالمجاهدة ومغالبة النفس . وبالجملة فللمخالطة فوائد عظيمة تفوت بالعزلة فان قلت ماهى فوائد المخالطة والدواعي اليها فاعلم أنها هى التعليم والتعلم. والنفع والانتفاع . والتأديب والتأدب . والاستئناس والايناس . ونيل الثواب وانالته فى القيام بالحقوق . أو اعتياد التواضع . أواستفادةالتجارب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها *

(فأما العلم والتعليم) فهما أعظم العبادات فى الدنيا ولا يتصور ذلك الا بالمخالطة والمحتاج الى التعلم لما هو فرض عليه عاص بالعزلة ومن كان يقدر على التبرز فى علوم الشرع والعقل فالعزلة فى حقه قبل التعلم غاية الخسران ولهذا قال النخعى وغيره تفقه ثم اعتزل ومن اعتزل قبل التعلم فهوفى الاكثر مضيع أوقاته بنوم أو فكر في هوس وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد

يستوعبها ولا ينفك فى أعماله بالبدن والقلب عن أنواع من الغرور ويكون فى أكثر أحواله ضحكة للشيطان وهو يرى نفسه من العبّاد فالعلم هو أصل الدين ولا خير فى عزلة العوام والجهال(وأما التعليم) ففيه ثواب عظيم مهما صحت نية المعلم والمتعلم *

(وأما الانتفاع بالناس) فبالكسب والمعاملة إذ لا يتأتى إلا بالمخالطة ومن اكتسب من وجهه وتصدق منه كان أفضل من المعتزل المشتغل بالنافلة *

(وأما النفع) فهو أن ينفع الناس إما بماله أو ببدنه فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة ففى النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب وذلك لا ينال الا بالمخالطة ومن قدر عليه مع القيام بحدود الشرع فهو أفضل له من العزلة *

(وأما التأديب بنصح الغير والتأدب) ونعنى به الارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة في تحمل أذاهم كسراً للنفس وقهراً للشهوات فهى من الفوائد التي تستفاد بالمخالطة *

(وأما الاستئناس والايناس) فهو مستحب لأمر الدين وذلك فيمن يستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله في الدين وقد يتعلق بحظ النفس ويستحب اذا كان الغرض منه ترويح القلب لتهييج دواعى النشاط فى العبادة فان القلوب اذا كربت عميت والنفس لاتألف الحق على الدوام مالم تروّح وفى تكليفها الملازمة داعية للفترة وقد قال ابن عباس لولا مخافة الوسواس لم أجالس الناس فلا يستغنى المعتزل اذن عن رفيق يستأنس بمشاهدته ومحادثته فى اليوم والليلة ساعة فليجتهد فى طلب من لا يفسد عليه فى ساعته تلك سائر

ساعاته فقد قال صلى الله عليه وسلم (المَرءُ على دِينِ خَليلِهِ فَلْيَنظُرْ أحَدُكم مَن يُخالِلُ) وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء فى أمور الدين والقصور عن الثبات على الحق ففى ذلك متروح للنفس وفيه مجال رحب لكل مشغول باصلاح نفسه *

(وأما نيل الثواب) فبحضور الجنائز وعيادة المرضى وحضور الجماعة فى سائر الصلوات أيضاً لارخصة فى تركه إلا لخوف ضرر ظاهر يقاوم مايفوت من فضيلة الجماعة ويزيد عليه وذلك لايتفق إلا نادراً . وكذلك فى حضور الاملاكات والدعوات ثواب من حيث أنه ادخال سرور على قلب مسلم *

(وأما إنالة الثواب) فهو أن يأذن بعيادته وتعزيته في المصائب وتهنئته على النعم فانهم ينالون بذلك ثوابا . فينبغى أن يزن ثواب هذه المخالطات بآفاتها التى ذكرناها وعند ذلك قد ترجح العزلة وقد ترجح المخالطة *

(وأما التواضع) فانه من أفضل المقامات ولا يقدر عليه في الوحدة وقد يكون الكبر سببا فى اختيار العزلة أو مخافة أن لايوقر فى المحافل أو لا يُقدّم أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحله وأبقى على اعتقاد الناس فى تعبده وزهده وعلامة هؤلاء انهم يحبون أن يزاروا ولايحبون أن يزوروا ويفرحون بتقرب العوام والامراء اليهم ولو كان الاشتغال بنفسه هو الذى يبغض اليه المخالطة وزيارة الناس لبغض اليه زياراتهم له ولكن اعتزاله سببه شدة اشتغاله بالناس لان قلبه متجرد للالتفات الى نظرهم اليه بعين الوقار والاحترام . والعزلة بهذا السبب جهل من وجوه (أحدها) ان التواضع والمخالطة

لاتنقص عن منصب من هو متكبر بعلمه أو دينه (الثانى) ان الذى شغل نفسه بطلب رضاء الناس عنه وتحسين اعتقادهم فيه مغرورلانه لو عرف الله حق المعرفة علم أن الخلق لا يغنون عنه من الله شيأ وأن ضرره ونفعه بيد الله بل رضاء الناس غاية لاتنال فرضاء الله أولى بالطلب ولذلك قال الشافعي ليونس بن عبد الاعلى . والله ما أقول لك الا نصحا انه ليس الى السلامة من الناس من سبيل فانظر ماذا يصلحك فافعله فاذن من حبس نفسه فى البيت لتحسن اعتقادات الناس فيه فهو في عناء حاضر في الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . وبالجملة فلا تستحب العزلة الا لمستغرق الأوقات فى علم بحيث لو خالطه الناس لضاعت أوقاته أو كثرت آفاته *

(وأما التجارب) فانها تستفاد من المخالطة للخلق ومجارى أحوالهم والعقل الغريزى ليس كافيا في تفهم مصالح الدين والدنيا وانما تفيدها التجربة والممارسة ولا خير فى عزلة من لم تحنكه التجارب فالصبي اذا اعتزل بقى غُمْرًا جاهلا بل ينبغى أن يشتغل بالتعلم ويحصل له فى مدة التعلم ما يحتاج اليه من التجارب ويحصل بقية التجارب بسماع الأحوال وبالجهل يحبط العمل الكثير وبالعلم يزكو العمل القليل ولولا ذلك ما فضّل العلم على العمل وقد قضى الشرع بتفضيل العالم على العابد حتى قال صلى الله عليه وسلم (فَضْلُ العالِمِ على العابِدِ كفَضْلى على أدنَى رَجلٍ من أصحابى)

اذا عرفت ما تقدّم من الفوائد والآفات يتبين لك الأفضل من المخالطة والعزلة وأن ذلك يختلف باختلاف الاحوال *

كتاب اداب السفر

اعلم أن كل من سافر وكان مطلبه العلم والدين أو الكفاية للاستعانة على الدين كان من سالكى سبيل الآخرة وكان له فى سفره شروط وآداب ان أهملها كان من عمال الدنيا وأتباع الشيطان وإن واظب عليها لم يخل سفره عن فوائد تلحقه بأعمال الآخرة . واليك جملة من أقسام الأسفار *

(القسم الأول) السفر فى طلب العلم وهو إما واجب وإما نفل وذلك بحسب كون العلم واجبا أو نفلا . وذلك العلم إما علم بأمور دينية أو بأخلاقه فى نفسه أو بآيات الله فى أرضه . وقد قال عليه السلام (مَن خرَجَ مِن بيته فى طلبِ العلمِ فهُوَ فى سبيلِ اللهِ حتَّى يَرْجِعَ) ورحل جابر بن عبد الله من المدينة مسيرة شهر في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه عن عبد الله بن أنيس حتى سمعه عنه وقال الشعبى لو سافر رجل من الشأم الى أقصى اليمن فى كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى ما كان سفره ضائعا وأما علمه بنفسه وأخلاقه فذلك مهم فان من لا يطلع على خبائث صفاته لا يقدر على تطهير القلب منها والنفس فى الوطن مع مواتاة الأسباب لا تظهر خبائث أخلاقها لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات فاذا امتحنت بمشاق الغربة وقع الوقوف على عيوبها فيمكن الاشتغال بعيوبها وأما آيات الله فى أرضه ففي مشاهدتها فوائد للمستبصر ففيها قطع متجاورات وفيها الجبال والبرارى والبحار وأنواع الحيوان والنبات وما من شىء منها إلا وهو شاهد لله بالوحدانية

(القسم الثانى) أن يسافر لأجل العبادة من حج أو جهاد وفي الحديث (لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلاَّ إلى ثلاثةِ مساجدَ مسجدِي هذا والمسجدِ الحرامِ والمسجدِ الأقصَى)

(القسم الثالث) أن يكون السفر للهرب من سبب مشوّش للدين وذلك أيضا حسن فالفرار مما لا يطاق من سنن الأنبياء والمرسلين . وقد كان من عادة السلف رضى الله عنهم مفارقة الوطن خيفة من الفتن . وروى أن بعضهم قيل له الى أين قال بلغنى عن قرية فيها رخص أريد أن أقيم بها فقيل له وتفعل هذا قال نعم اذا بلغك أن قرية فيها رخص فأقم بها فانة أسلم لدينك وأقل لهمك . وهذا هرب من غلاء السعر *

(القسم الرابع) السفر هربا مما يقدح فى البدن كالطاعون أو فى المال كغلاء السعر أو مايجرى بجراه ولا حرج فى ذلك بل ربما يجب الفرار فى بعض المواضع وربما يستحب فى بعض بحسب وجوب مايترتب عليه من الفوائد أو استحبابه ولكن يستثنى الطاعون فلا ينبغي أن يفر منه لورود النهى فيه (وبالجملة) فالسفر ينقسم الى مذموم ومحمود ومباح والمذموم منه حرام كالسفر للعاقّ لوالديه ومنه مكروه كالخروج من بلد الطاعون * والمحمود منه واجب كالحج وطلب العلم الذى هو فريضة على كل مسلم ومنه مندوب كزيارة العلماء للتخلق بأخلاقهم وآدابهم وتحريك الرغبة للاقتداء بهم واقتباس الفوائد العلمية من أنفاسهم . وأما المباح فمرجعه الى النية فمهما كان قصده بطلب المال مثلا التعفف عن السوآل ورعاية ستر المروءة

على الأهل والعيال والتصدق بما يفضل عن مبلغ الحاجة صارهذا المباح بهذه النية من أعمال الآخرة ولو خرج الى الحج وباعثه الرياء والسمعة لخرج عن كونه من أعمال الآخرة لقوله صلى الله عليه وسلم (الأعمالُ بالنّيات)

﴿ آداب المسافر من أول نهوضه الى آخر رجوعه ﴾

(الأدب الأول) أن يبدأ برد المظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته و بردّ الودائع إن كانت عنده ولا يأخذ لزاده الا الحلال الطيب وليأخذ قدراً يوسع به على رفقائه ولا بد فى السفرمن طيب الكلام وإطعام الطعام ومن اظهار مكارم الأخلاق والسفر من أسباب الضجر ومن أحسن خلقه فى الضجر فهو الحسن الخلق وتمام حسن خلق المسافر بالاحسان الى المكارى ومعاونة الرفقة بكل ممكن واعانة المنقطع بمركوب أو زاد وتمام ذلك مع الرفقاء بمزاح ومطايبة فى بعض الأوقات من غير فحش ومعصية ليكون ذلك شفاء لضجر السفر ومشاقه (الثانى) أن يختار رفيقا فلا يخرج وحده فالرفيق ثم الطريق وليكن رفيقه ممن يعينه على الدين فيذكره اذا نسى ويعينه ويساعده اذا ذكر فان المرء على دين خليله ولا يعرف الرجل الاّ برفيقه . وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسافر الرجل وحده وقال (اذا كُنتُمْ ثَلاثَةً فى السَّفَر فأمّرُوا أحَدَكم) وليؤمروا أحسنهم أخلاقا وأرفقهم بالأصحاب وأسرعهم الى الإيثار وطلب الموافقة . وانما يحتاج الى الأمير لأن الآراء تختلف فى مصالح السفر ولا نظام إلا فى الوحدة ولا فساد إلا من الكثرة . وانما انتظم أمر العالم لأن مدبر الكلّ واحد (ولو كان

فيهما آلهةٌ إلاّ الله لفسدتا) (الثالث) أن يودّع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء وليدع عند الوداع بقوله لمودعه : أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك وليدع المقيم له بقوله : زوّدك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير حيث توجهت . وليصلّ المسافر قبل سفره ركعتين صلاة الاستخارة واذا حصل على باب الدار فليقل بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله رب أعوذ بك أن أَضلّ أو أُضَلّ أو أَزِلّ أو أُزَلّ أو أَظلِم أو أُظلَم أو أَجهل أو يُجهل عليّ فاذا ركب فليقل (سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون)* (الرابع) أن يرفق بالدابة إن كان راكبا فلا يحملها ما لا تطيق ولا يضربها فى وجهها فانه منهى عنه . ويستحبّ أن ينزل عن الدابة أحيانا يروّحها بذلك ويدخل السرور على المكارى ويروّض بدنه حذرا من خدر الأعضاء بطول الركوب . وليحذر أن يحمل فوق المشروط شيئاً وإن خفّ فان القليل يجرّ الى الكثير . قال رجل لابن المبارك وهو على دابة احمل لى هذه الرقعة الى فلان فقال حتى استأذن المكارى فانى لم أشارطه على هذه الرقعة فانظر كيف لم يلتفت الى قول الفقهاء ان هذا مما يتسامح فيه ولكن سلك طريق الورع (الخامس) أن يحتاط ان كان في قافلة فلا يمشي منفردا لأنه ربما يغتال أو ينقطع ويكون بالليل متحفظاً عند النوم وينبغى أن يتناوب الرفقاء فى الحراسة بالليل وأن يستصحب مرآة بمقراضاً ومسواكا ومشطا وليحذر التنطع فى الطهارة فقد كان الأولون يكتفون بالتيمم ويغنون أنفسهم عن نقل الماء ولا يبالون بالوضوء من الغدران

ومن المياه كلها ما لم يتيقنوا نجاستها حتى توضأ عمر رضى الله عنه من ماء فى جرة نصرانية (السادس) فى آداب الرجوع من السفر كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول (لا إله إلا اللهُ وحدَهُ لاشريك له لهُ الملكُ وله الحمدُ وهوعلى كلّ شيء قديرٌ آيبُون تائبُون عابدُون ساجدُون لرَبّنا حامدُون صدَق اللهُ وعدَهُ ونصرَ عبدَهُ وهزَم الأحزابَ وحدهُ) ثم يرسل الى المدينة من يبشر بقدومه . وكان صلى الله عليه وسلم ينهى أن يطرق المرء أهله ليلا فيقدم عليهم بغتة فيرى ما يكره . وكان صلى الله عليه وسلم اذاقدم دخل المسجد أولا وصلى ركعتين ثم دخل البيت . وينبغى أن يحمل لأهل بيته وأقاربه تحفة من مطعوم أو غيره على قدر إمكانه فان الأعين تمتد الى القادم من السفر والقلوب تفرح به فيتأكد الاستحباب فى تأكيد فرحهم وإظهار التفات القلب فى السفر الى ذكرهم بما يستصحب فى الطريق لهم . هذه جملة من الآداب الظاهرة (وأما الآداب الباطنة) ففى الفصل الأول بيان جملة منها وجملته أن لا يسافر الا اذا كان زيادة فى علمه فى السفر وينوى فى دخول كل بلدة أن يرى شيوخها الحكماء ويجتهد أن يستفيدمن كل واحد أدبا أو كلمة لينتفع بها وينفع بها واذا قصد زيارة أخ له فلا يقم عنده أكثر من ثلاثة أيام فذلك حد الضيافة الا اذا شق على أخيه مفارقته ولا يشغل نفسه بما لافائدة فيه فان ذلك يقطع بركة سفره *

﴿ مالابد للمسافر من تعلمه من رخص السفر ﴾

اعلم أن المسافر يحتاج فى أول سفره الى أن يتزود لدنياه وآخرته * أما زاد الدنيا فالطعام والشراب وما يحتاج اليه من نفقة فان خرج من غير زاد فلا بأس به اذا كان سفره فى قافلة أو بين قرى متصلة وان ركب البادية وحده أو مع قوم لاطعام معهم ولا شراب فان كان ممن يصبر على الجوع اسبوعا أو عشرا مثلا أو يكتفى بالحشيش فله ذلك وان لم يكن له قوة الصبر على الجوع ولا الاجتزاء بالحشيش فخروجه من غير زاد معصية فانه ألقى نفسه بيده الى التهلكة وليس معنى التوكل التباعد عن الأسباب بالكلية والا لوجب أن يصبر حتى يسخر الله له ملكا أو شخصا آخر حتى يصب الماء فى فيه *

وأما زاد الآخرة فهو العلم الذى يحتاج اليه فى طهارته وصومه وصلاته وعبادته وذلك أن السفر يفيد فى الطهارة رخصتين مسح الخفين والتيمم. وفى صلاة الفرض رخصتين القصر والجمع . وفى النفل رخصتين أداءه على الراحلة واداءه ماشيا . وفى الصوم رخصة واحدة وهى الفطر . فأما المسح على الخفين[1] فقال صفوان بن عسال (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كنا مسافرين أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن) فكل من لبس الخف على طهارة مبيحة للصلاة ثم أحدث فله أن يمسح على خفه من وقت حدثه ثلاثة أيام ولياليهن إن كان مسافراً أو يوما وليلة إن كان مقيما *

---

(١) مثله فى ذلك الجوربان منعلين كانا أو لاصفيقين أولا اهـ

(وأما التيمم) فالتراب بدل عن الماء عند العذر كبعده عن منزله بحيث لو مشى اليه لم يلحقه غوث القافلة ان صاح أو استغاث . أو نزل على الماء عدو أو سبع . أو احتاج اليه لعطشه أو عطش أحد رفقائه . فيتيمم فى هذه الصور وان بيع الماء بثمن المثل لزمه الشراء أو بغبن لم يلزمه *

(وأما القصر) فله أن يقتصر فى كل واحدة من الظهر والعصر والعشاء على ركعتين ولا يصير مسافراً إلاّ بمفارقة عمران البلد *

(وأما الجمع) بين الظهر والعصر فى وقتيهما وبين المغرب والعشاء فى وقتيهما فذلك أيضاً فى كل سفر طويل مباح وفى جوازه فى السفر القصير قول . ثم ان قدم العصر الى الظهر فلينو الجمع بين الظهر والعصر فى وقتيهما قبل الفراغ من الظهر . وليؤذن للظهر وليقم وعند الفراغ يقيم للعصر وان أخر الظهر الى العصر فيجرى على هذا الترتيب *

(وأما النافلة) فقد جوز أداؤها على الراحلة كى لا يتعوق عن الرفقة بسببها وكان صلى الله عليه وسلم يصلى على راحلته أينما توجهت به دابته وأوتر عليه السلام على الراحلة وليس على المتنفل الراكب فى الركوع والسجود إلا الايماء ويجعل سجوده أخفض من ركوعه . وأما استقبال القبلة فلا يجب لا فى ابتداء الصلاة ولا فى دوامها ولكن صوب الطريق بدل عن القبلة . فليكن فى جميع صلاته إما مستقبلا للقبلة أو متوجها في صوب الطريق لتكون له جهة يثبت فيها . وجوز للمسافر أيضا التنفل له ماشياً فيومئ بالركوع والسجود ولا يقعد للتشهد . وحكمه حكم الراكب

لكن ينبغي أن يتحرم بالصلاة مستقبلا القبلة . وكل هارب من عدوّ أو سيل أو سبع فله أن يصلى الفريضة راكبا أو ماشيا كما ذكرناه فى التنفل *

(وأما الفطر فى رمضان للمسافر) فهو مرخص له والصوم أفضل له إلا ان كان يضره فالافطار أفضل *

كتاب الامر بالمعروف

﴿ والنهى عن المنكر ﴾

إعلم أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطب الأعظم فى الدين . والمهم الذى ابتعث الله له النبيين أجمعين . لو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله . لفشت الضلالة وشاعت الجهالة . وخربت البلاد . وهلك العباد فنعوذ بالله أن يندرس من هـذا القطب عمله وعلمه . وأن ينمحى بالكلية حقيقته ورسمه . وأن تستولى على القلوب مداهنة الخلق وتمحى عنها مراقبة الخالق . وأن يسترسل الناس فى اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم . وأن يعزّ على بساط الأرض مؤمن صادق لاتأخذه فى الله لومة لائم فلا معاذ إلاّ به ولا ملجأ إلاّ اليه *

ينحصر هذا الكتاب فى مقاصد *

﴿ وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴾

(وفضيلته والمذمة فى إهماله)

دل على ذلك من الآيات قوله تعالى (ولْتَكُن منكم أُمّةٌ يَدْعُون

إلى الخيرِ ويَأمُرُون بالمعرُوفِ ويَنهَوْن عن المُنكَرِ وأولئكَ همُ المُفلِحون) فني الآية بيان الايجاب فان قوله تعالى (ولتكن) أمر وظاهر الأمر الايجاب وفيها بيان أن الفلاح منوط به اذ حصر بقوله (وأولئك هم المفلحون) وفيها بيان انه فرض كفاية لا فرض عين وانه اذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين . وقال تعالى (والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضُهم أولياءُ بعض يَأمُرُون بالمعرُوفِ ويَنهونَ عن المُنكَرِ ويُقيمونَ الصَّلاةَ) فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف فالذى هجر الأمر بالمعروف خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية . وقال تعالى (لُعِنَ الذينَ كفرُوا مِن بَنى إسرائيلَ علَى لِسَان داوُدَ وعيسَى بنِ مَريَمَ ذلك بما عَصَوْا وكانوا يَعتَدُونَ كانوا لا يَتَناهَوْنَ عن مُنكَرٍ فعَلوهُ لَبِئسَ ماكانوا يَفعلون) وهذا غاية التشديد إذ علل استحقاقهم للعنة بتركهم النهى عن المنكر . وقال عز وجل (كُنتم خيرَ أمّةٍ أخرِجَتْ للناسِ تَأمرُون بالمعرُوفِ وتَنهَوْن عن المُنكَرِ) وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إذ بيّن أنهم كانوا خير أمة . وقال تعالى (فلمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا به أنجَينا الذين يَنهَوْن عن السُّوءِ وأخذْنا الذين ظَلَموا بعذابٍ بَئِيسٍ بِما كانوا يَفسُقُون) فبيّن أنهم استفادوا النجاة بالنهى عن السوء . وقال تعالى (وتَعاوَنوا على البِرِّ والتقوَى ولا تَعاوَنوا على الإثمِ والعُدْوانِ) وهو أمر جزم ومعنى التعاون الحث عليه وتسهيل طرق الخير وسدّ سبل الشر والعدوان بحسب الامكان . وقال تعالى (لولا يَنهاهمُ الرَّبَّانيُّونَ والأَحبارُ عن قولهمُ الإثمَ وأكلِهمُ السُّحتَ لبِئسَ ما كانوا يَصنَعون) فبيّن أنهم أثموا

بترك النهى . وقال تعالى (فلولا كان مِنَ القرُونِ مِنْ قَبلِكم أولوا بَقيةٍ ينهَوْن عن الفَسادِ فى الأرضِ) الآية فبيّن انه أهلك جميعهم إلا قليلا منهم كانوا ينهون عن الفساد . وقال تعالى (يا أيُّها الذين آمنوا كونوا قوّامينَ بالقِسطِ شُهَداء لِلهِ ولو على أنفُسِكم أوِ الوالِدَينِ والأقرَبينَ) وذلك هو الأمر بالمعروف للوالدين والأقربين . وقال تعالى (لا خيرَ فى كثيرٍ مِنْ نَجواهمْ إلاّ مَن أمرَ بصدَقةٍ أو بمعرُوفٍ أو إصلاحٍ بينَ الناسِ ومَنْ يَفعَلْ ذلكَ ابتغاء مَرضاتِ اللهِ فسوفَ نُؤْتيهِ أجرًا عظيما)

ومن الأخبار ما روى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (ما مِنْ قومٍ عَمِلوا بالمَعاصى وفيهم مَن يَقدِرُ أن يُنكِرَ عليهم فلم يَفعَلْ إلاّ يُوشِكُ أن يَعمَّهُمُ اللهُ بعذابٍ مِن عِنده) وقد روى في ذلك من الأحاديث ما لا يحصى . وبهذه الأدلة يظهر كون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبا وان فرضه لا يسقط مع القدرة إلا بقيام قائم به *

﴿ الشروط التي بها يتحقق التصدى للانكار ﴾

(الأول كونه منكرا) وهو ما كان محذور الوقوع في الشرع ولفظ المنكر أعم من لفظ المعصية فان من رأى صبيا أو مجنونا يشرب الخمر فعليه أن يريق الخمر وكذا إن رأى مجنونا يزنى بمجنونة أو بهيمة فعليه أن يمنعه منه وليس ذلك معصية فى حق المجنون . ولا يختص المنكر بالكبائر بل كشف العورة فى

الحمام والخلوة بالأجنبية واتباع النظر للنسوة الأجنبيات كل ذلك من الصغائر ويجب النهي عنها *

(الثانى) أن يكون المنكر ظاهراً بغير تجسس . فكل من ستر معصية فى داره وأغلق بابه لايجوز الدخول عليه بغير اذنه لتعرف المعصية ولا أن يتجسس عليه وقد نهى الله تعالى عنه فى قوله (ولا تَجَسَّسُوا) وكذا لو رؤي فاسق وتحت ذيله شئ لم يجز أن يكشف عنه *

(الثالث) أن يكون كونه منكراً معلوما بغير اجتهاد . فكل ماهو فى محل الاجتهاد فلا نكران فيه فليس للحنفى أن ينكر على الشافعىّ ماهو من مجارى الاجتهاد يعنى المسائل المختلف فيها بين الأئمة إذ لا يعلم خطأ المخالف قطعاً بل ظناً . فلا بد أن يكون المنكر متفقا عليه وكذا انما ينكر على الفرق المبتدعة فى خطئهم المعلوم على القطع بخلاف الخطأ فى مظان الاجتهاد *

* درجات القيام بالانكار *

(الأولى التعريف) أى تعريف المزجور أن مايفعله منكر فانه قد يقدم عليه بجهله فلعله إذا عرف أنه منكر تركه فيجب تعريفه باللطف من غير عنف فان فى التعريف كشفاً للعورة وايذاء للقلب فلا بد وأن يعالج دفع أذاه بلطف الرفق فتقول له إن الانسان لا يولد عالما ولقد كنا جاهلين فعلمنا العلماء فالصواب هو كذا وكذا فيتلطف به هكذا ليحصل التعريف من غير ايذاء فان ايذاء المسلم حرام محذور كما أن تقريره على المنكر محظور وليس من العقلاء من يغسل الدم بالدم أو بالبول ومن آذى بالانكار فهذا مثاله *

(الدرجة الثانية) النهى بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكراً كالذى يواظب على الشرب أو على الظلم أو على اغتياب المسلمين أو ما يجرى مجراه فينبغى أن يوعظ ويخوّف بالله تعالى وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد فى ذلك وتحكى له سيرة السلف وعبادة المتقين وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب بل ينظر اليه نظر المترحم عليه *

(الدرجة الثالثة) التعنيف بالقول الغليظ وذلك عند العجز عن المنع باللطف وظهور مبادئ الاصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح وذلك مثل قول ابراهيم عليه السلام (أُفٍّ لَكُم وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دونِ اللهِ أَفَلاَ تَعقِلونَ) ولا يفحش فى سبه . ولهذه الرتبة أدبان (أحدهما) أن لا يقدم عليها إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف (والثانى) أن لا ينطق إلا بالصدق ولا يسترسل فيه فيطيل لسانه بما لا يحتاج اليه بل يقتصر على قدر الحاجة *

(الدرجة الرابعة) التغيير باليد وذلك كاراقة الخمر واتلاف المنكر المتمول أو دفعه عن محرم وليس الى آحاد الرعية إلا الدفع وأما الاراقة والاتلاف فالى الولاة ومأذونيهم كالضرب والحبس *

* آداب القائم بالأمر والنهى *

جملتها ثلاث صفات العلم ، والورع ، وحسن الخلق (أما العلم) فليعلم مواقع الأمر والنهى ليقتصر على حدّ الشرع فيه (وأما الورع) فليردعه عن

مخالفة معمولة ولا يحمله على مجاوزة الحدّ المأذون شرعا غرض من الأغراض وليكون كلامه مقبولا فان الفاسق يهزأ به اذا أمر أو نهى ويورث ذلك جراءة عليه (وأما حسن) الخلق فليتمكن به من اللطف والرفق وهو أصل الباب وأساسه والعلم والورع لا يكفيان فيه فان الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع فى قمعه مالم يكن فى الطبع قبول له بحسن الخلق وبوجود هذه الصفات الثلاث يصير الارشاد من القربات وبه تندفع المنكرات وان فقدت لم ينـدفع المنكر . وقد حكى أن المأمون وعظه واعظ وعنف له فى القول فقال يارجل ارفق فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر منى وأمره بالرفق فقال تعالى (فَقُولاَ لهُ قَوْلاً لَيِّنا لَعلَّهُ يَتَذَكَّرُ أوْ يَخْشَى) فليكن اقتداء المرشد فى الرّفق بالأنبياء صلوات الله عليهم *

﴿ المنكرات المألوفة في العادات ﴾

(منكرات المساجد)

إعلم أن المنكرات تنقسم الى مكروهة ومحظورة فاذا قلنا هـذا منكر مكروه فاعلم أن المنع منه مستحب والسكوت عليه مكروه وليس بحرام واذا قلنا منكر محظور أو قلنا منكر مطلقا فنريد به المحظور ويكون السكوت عليه مع القدرة محظوراً فما يشاهد كثيراً فى المساجد اساءة الصلاة بترك الطمأنينة فى الركوع والسجود وهو منكر مبطل للصـلاة بنصّ الحديث فيجب النهى عنـه . ومن رأى مسيئاً فى صلاته فسكت عليـه فهو شريكه ومنها قراءة القرآن ملحونة فيجب النهى عن ذلك وتلقين الصحيح والذى يكثر اللحن

فى القرآن ان كان قادرا على التعلم فليمنع عن القراءة قبل التعلم فانه عاص به ومنها تراسل المؤذنين فى الأذان وتطويلهم بمدّ كلماته فذلك منكر مكروه ومنها كلام القصاص والوعاظ الذين يمزجون بكلامهم الكذب والأضاليل والخرافات فيجب الانكار عليهم ومنها التحلق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة والتعويذات وكقيام السؤال وقراءتهم القرآن وانشادهم الأشعار وما يجرى مجراه فكل ذلك منكر يمنعون منه ومنها بيع الأطعمة والأدوية والكتب وكذا الخياطة فيطالب المنع منه لأن المساجد لم تبن لهذا ومنها دخول المجانين ــ المعروفين الآن بالمجاذيب ــ والصبيان والسكارى فانهم يجنبون المساجد (وقد أوسعنا الكلام على منكرات المساجد وبدعها وعوائدها فى كتاب أفردناه لذلك فليرجع اليه من أراده) *

﴿ منكرات الأسواق ﴾

من المنكرات المعتادة فى الأسواق الكذب فى المرابحة واخفاء العيب فمن قال اشتريت هذه السلعة مثلا بعشرة وأربح فيها كذا وكان كاذبا فهو فاسق . وعلى من عرف ذلك أن يخبر المشترى بكذبه . فان سكت مراعاة لقلب البائع كان شريكا له فى الخيانة وعصى بسكوته . وكذا إذا علم به عيبا فيلزمه أن ينبه المشترى عليه والا كان راضيا بضياع مال أخيه المسلم وهو حرام . وكذا التفاوت فى الذراع والمكيال والميزان يجب على كل من عرفه تغييره بنفسه أو رفعه الى الوالى حتى يغيره ومنها بيع الملاهى وتلبيس انخراق الثياب بالرفو وكل ما يؤدى الى التلبيسات وذلك يطول احصاؤه

فليقس بما ذكرناه مالم نذكره *

﴿ منكرات الشوارع ﴾

من المنكرات المعتادة فيها وضع الخشب واحمال الحبوب والأطعمة على الطرق واخراج الأجنحة فكل ذلك منكر ان كان يؤدي الى تضييق الطرق واستضرار المارة . وان لم يؤد الى ضرر أصلا لسعة الطريق فلايمنع منه ـ نعم يجوز وضع الحطب واحمال الأطعمة فى الطريق فى القدر الذى ينقل الي البيوت فان ذلك يشترك في الحاجة اليه الكافة ولا يمكن المنع منه . وكذلك ربط الدواب على الطريق بحيث يضيق الطريق وينجّس المجتازين منكر يجب المنع منه إلا بقدر حاجة النزول والركوب . وهذا لأن الشوارع مشتركة المنفعة وليس لأحد أن يختص بها إلا بقدر الحاجة.والمرعى هو الحاجة التى تراد الشوارع لأجلها فى العادة دون سائر الحاجات ـ ومنها سوق الدوابّ وعليها الشوك بحيث يمزق ثياب الناس فذلك منكر ان أمكن شدّها وضمّها بحيث لايمزق أو أمكن العدول بها الى موضع واسع والا فلا منع إذ حاجة أهل البلد تمسّ الى ذلك *نعم لا تترك ملقاة على الشوارع إلاّ بقدر مدّة النقل ـ وكذلك تحميل الدواب من الأحمال مالاتطيقه منكر يجب منع الملاك منه ـ وكذلك طرح القمامة على جوادّ الطرق وتبديد قشور البطيخ أو رش الماء بحيث يخشى منه التزلق والتعثر كل ذلك من المنكرات ـ وكذلك ارسال الماء من الميازيب المتخرجة من الحائط فى الطريق الضيقة فان ذلك ينجس الثياب أو يضيق الطريق ـ وكذلك الثلج الذى يطرحه شخص

فى الطريق والماء الذى يجتمع فيه من ميزاب معين فعلى الأول والثانى كسح الطريق منهما . وأما مياه المطر فتلك على محتسبي البلدة كسحها من الطريق وكذلك اذا كان له كلب عقور على باب داره يؤذى الناس فيجب منعه منه*

﴿ منكرات الحمامات ﴾

منها كشف العورات والنظر اليها . ومن جملتها كشف الدلاك عن الفخذ وما تحت السرة لتنحية الوسخ . بل من جملتها إدخال اليد تحت الإزار فان مسّ عورة الغير حرام كالنظر اليها . ومنها الانبطاح على الوجه بين يدى الدلاك لتغميز الأفخاذ والأعجاز فهذا مكروه إن كان مع حائل ولا يحرم إلا اذا خشى حركة الشهوة . ومنها أن يكون فى مداخل بيوت الحمام ومجارى مياهها حجارة ملساء مزلقة يزلق عليها الغافلون فهذا منكر ويجب قلعه وازالته وينكر على الحمامى إهماله فانه يفضى الى السقطة وقد تؤدي السقطة الى انكسار عضو أو انخلاعه . وكذلك ترك الصابون على أرض الحمام منكر . وفى الحمام أمور أخر مكروهة تقدمت فى كتاب الطهارة*

﴿ منكرات الضيافة ﴾

منها فرش الحرير للرجال وتبخير البخور فى مجمرة ذهب أو فضة والشرب فى أوانى الفضة ـ ومنها سماع القينات أى النساء المغنيات ـ ومنها أن يكون الطعام حراماً أو الموضع مغصوبا ـ ومنها أن يكون فيها من يتعاطى شرب الخمر فلا يجوز الحضور . وان كان فيها مضحك بالحكايات وأنواع النوادر فان كان

يضحك بالفحش والكذب لم يجز الحضور وعند الحضور يجب الانكار عليه وان كان ذلك بمزح لا كذب فيه ولا فحش فهو مباح أعنى ما يقل منه فأما اتخاذه صنعة وعادة فليس بمباح ـ ومنها الاسراف فى الطعام والبناء فهو منكر بل فى المال منكران أحدهما الاضاعة والآخر الاسراف فالاضاعة تفويت مال بلا فائدة يعتدّ بها كاحراق الثوب وتمزيقه وفى معناه صرف المال الى النائحة والمنكرات وقد يطلق على الصرف الى المباحات فى جنسها ولكن مع المبالغة والمبالغة تختلف بالاضافة الى الاحوال قال تعالى (ولا تَبسُطْها كلَّ البَسطِ فتَقْعُدَ مَلُوماً مَحسُورًا) وقال تعالى (ولا تبذِّرْ تَبذِيرًا إنّ المُبَذِّرِين كانوا إخْوَانَ الشيَاطِينِ وكان الشيطانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا) وقال تعالى (والذين إذا أَنفَقوا لم يُسرِفوا ولم يَقتُرُوا وكان بَينَ ذلك قَوَاماً) فمن لم يملك إلا مائة دينار مثلا ومعه عياله وأولاده ولا معيشة لهم سواه فأنفق الجميع فى وليمة فهو مسرف يجب منعه منه وكذا لو صرف جميع ماله الى نقوش حيطانه وتزيين بنيانه فهو أيضاً إسراف محرم وأما فعل ذلك ممن له مال كثير فليس بحرام لأن التزيين من الأغراض الصحيحة ـ وكذلك القول فى التجمل بالثياب والأطعمة فذلك مباح فى جنسه ويصير إسرافا باعتبار حال الرجل وثروته *

* المنكرات العامة *

اعلم أن كل قاعد فى بيته أينما كان فليس خالياً في هذا الزمان عن منكر من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف فأكثر الناس جاهلون بالشرع فى البلاد فكيف فى القرى والبوادى فواجب أن

يكون فى كل مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم وكذا فى كل قرية وواجب على كل فقيه فرغ من فرض عينه وتفرغ لفرض الكفاية أن يخرج الى من يجاور بلده من أهل السواد والعرب ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم فان قام بهذا الأمر واحد سقط الحرج عن الباقين وبالجملة فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات ثم يعلم ذلك أهل بيته ثم يتعدى بعد الفراغ منهم الى جيرانه ثم الى أهل محلته ثم الى أهل بلده ثم الى أهل السواد المتنكف ببلده ثم الى أهل البوادى وهكذا الى أقصى العالم فان قام به الأدنى سقط عن الأبعد وإلا حرج به كل قادر عليه قريبا كان أو بعيدا*

كتاب الاداب النبويه

﴿ والأخلاق المحمدية ﴾

﴿ بيان تأديب الله تعالى صفيه محمدا صلوات الله عليه بالقرآن ﴾

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير الضراعة والابتهال دائم السؤال من الله تعالى أن يزينه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق فكان يقول فى دعائه (اللهمّ حسِّنْ خَلْقى وخُلُقى) ويقول (اللهمّ جَنِّبْنى منكَرَاتِ الأخلاق) فاستجاب الله دعاءه وفاء بقوله عز وجل (أُدعُونى أستَجِبْ لكم) فأنزل عليه القرآن وأدّبه فكان خلقه القرآن وانما أدبه القرآن بمثل قوله تعالى (خُذِ

العفوَ وأمرْ بالمعرُوفِ واعرِضْ عنِ الجاهِلين) وقوله (إنّ اللهَ يأمرُ بالعدْل والإحسانِ وإيتاء ذِي القُرْبَى ويَنهَى عنِ الفَحشاء والمُنكَرِ والبَغْيِ) وقوله (إصبِرْ على ما أصابَكَ إنّ ذلك مِنْ عَزمِ الأمور) وقوله (فاعفُ عنهم واصفَحْ إنّ اللهَ يُحِبُّ المحسِنين) وقوله (إدفَعْ بالتي هي أحسَنُ فاذا الذى بينَكَ وبَينَهُ عداوَةٌ كأنَّهُ وَلىٌّ حَميمٌ) وقوله (والكاظِمِينَ الغَيظَ والعافِين عنِ الناسِ) وقوله (إجتَنِبوا كثيرًا مِنَ الظنِّ إنّ بَعضَ الظنِّ إثمٌ ولا تجسَّسوا ولا يَغتَب بَعضُكم بعضاً) وأمثال هذه التأديبات فى القرآن لا تحصر وهو عليه الصلاة والسلام المقصود الأول بالتأديب والتهذيب ثم منه يشرق النور على كافة الخلق فانه أدب بالقرآن وأدب الخلق به ـ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (بُعِثتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأخلاق) ثم رغب الخلق فى محاسن الأخلاق . ثم لما أكمل الله تعالى خلقه أثنى عليه فقال تعالى (وإنكَ لَعَلَى خُلُقٍ عظيمٍ) ثم بين صلوات الله عليه للخلق ان الله يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفسافها . قال علىّ رضى الله عنه ياعجبا لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم فى حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا فلو كان لا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا لقد كان ينبغي له أن يسارع الى مكارم الأخلاق فانها مما تدل على سبيل النجاة وفى الحديث (إن الله حفّ الاسلامَ بمكارمِ الأخلاق ومحاسنِ الأعمال) ومن ذلك حسن المعاشرة . وكرم الصنيعة ولين الجانب . وبذل المعروف وإطعام الطعام وإفشاء السلام . وعيادة المريض المسلم . وتشييع الجنازة . وحسن الجوار لمن جاورت مسلماً كان أو كافراً . وتوقير ذى الشيبة المسلم .

وإجابة الطعام . والدعاء عليه . والعفو . والاصلاح بين النـاس . والجود . والـكرم . والسماحة . وكظم الغيظ . واجتناب المحارم . " 'كذب . والبخل . والشح . والجفاء . والمـكر . والخد . . وسوء ذات البين وقطيعة الأرحام . وسوء الخلق . والتكبر . والفخر . والاختيال . والاستطالة والبـذخ . والفحش . والتفحش . والحقد . والحسـد . والطيرة . والبغي . والعدوان . والظلم . قال أنس رضى الله عنه : فلم يدع نصيحة جميلة إلا وقد دعانا اليها وأمرنا بها . ولم يدع غشا أو عيبا إلا حذرناه ونهانا عنه . ويكفى من ذلك كله هذه الآية (إنّ اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُربَى ويَنهى عن الفَحشاءِ والمنكَرِ والبغيِ يَعِظُكم لعلَّكم تَذَكَّرُون) وقال معاذ أوصانى رسول الله صلى الله عليـه وسلم فقال يا معاذ (أوصيك بتقوى الله . وصـدق الحديث . والوفاء بالعهد . وأداء الأمانة . وترك الخيانة . وحفظ الجـار . ورحمة اليتيم . ولين الـكلام . وبذل السلام . وحسن العمل . وقصر الأمل ولزوم الايمان . والتفقه فى القرآن . وحب الآخرة . والجزع من الحساب . وخفض الجناح . وأنهاك أن تسبّ حكيما . أو تـكذب صادقا . أو تطيع آثما أو تعصي إماما عادلا . أو تفسد أرضا . وأوصيك باتقاء الله عنـد كل حجر وشجر ومدر . وأن تحدث لـكل ذنب توبة السرّ بالسرّ . والعلانية بالعلانية) فهكذا أدب عباد الله ودعاهم الى مكارم الاخلاق ومحاسن الآداب .

﴿ بيان جمل من محاسن أخلاقه صلوات الله عليه ﴾

كان صلى الله عليـه وسلم أحلم الناس . وأشجع الناس . وأعـدل الناس .

وأعفّ الناس . لم تمسّ يده قط يد امرأة لا يملك رقّها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه وكان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم وان فضل شئ ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل لم يأو الى منزله حتى يتبرأ منه الى من يحتاج اليه . لا يأخذ مما آتاه الله الا قوت عامّه فقط ويضع سائر ذلك في سبيل الله . لا يسئل شيأ الا أعطاه . ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى انه ربما احتاج قبل انقضاء العام فاستقرض وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم فى مهنة أهله وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد . ويجيب دعوة الحر والعبد . ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن ويكافئ عليها ويأكلها . ولا يأكل الصدقة . ولا يستكبر عن اجابة الامة والمسكين يغضب لربه ولا يغضب لنفسه . وقد وَجد من أصحابه قتيلاً بين اليهود فلم يَحِفْ عليهم ولا زاد على مُرّ الحق بل وداه بمائة ناقة وان بأصحابه لحاجة الى بعير واحد يتقوون به . وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع يأكل ما حضر . ولا يردّ ما وجد . إن وجد تمرا دون خبز أكله . وإن وجد شواء أكله . وإن وجد خبز برّ أو شعير أكله . وإن وجد حلواء أو عسلا أكله . وإن وجد لبنا دون خبز اكتفى به . وإن وجد بطيخاً أو رطباً أكله . لا يأكل متكئا ولا على خوان . لم يشبع من خبز برّ ثلاثة أيام متوالية حتى لقى الله تعالى إيثارا على نفسه لا فقرا ولا بخلا . وكان صلى الله عليه وسلم أشدّ الناس تواضعا وأسكتهم فى غير كبر . وأبلغهم فى غير تطويل . وأحسنهم بشرا . لا يهوله شئ من أمور الدنيا . خاتمه من فضة يلبسه فى خنصره الأيمن والأيسر .

يركب الحمار ويردف خلفه عبده أو غيره . يعود المرضى فى أقصى المدينة . يحب الطيب . ويجالس الفقراء . ويؤاكل المساكين . ويكرم أهل الفضل ويتألف أهل الشرف بالبرّ لهم . يصل رحمه . ولا يجفو على أحد . يقبل معذرة المعتذر اليه . يمزح ولا يقول إلا حقا . ضحكه التبسم من غير قهقهة يرى اللعب المباح فلا ينكره . يسابق أهله . وترفع الاصوات عليه من الجفاة فيصبر . لم يرتفع على عبيده فى مأكل ولا ملبس . لا يمضى له وقت فى غير عمل لله تعالى أو فيما لا بدّ له منه من صلاح نفسه . يخرج الى بساتين أصحابه لا يحتقر مسكينا لفقره . ولا يهاب ملكا لملكه . يدعو هذا وهذا الى الله دعاء مستويا . قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة والسياسة التامة . وهو أمّىّ لا يقرأ ولا يكتب . نشأ فى بلاد الجهل والصحارى فى فقر وفى رعاية الغنم . يتيما لا أب له ولا أم . فعلمه الله تعالى جميع محاسن الاخلاق والطرق الحميدة وأخبار الأولين والآخرين ومافيه النجاة والفوز فى الآخرة والغبطة والخلاص فى الدنيا . وفقنا الله لطاعته فى أمره . والتأسى به فى فعله . آمين يارب العالمين

﴿ بيان جملة أخرى من آدابه وأخلاقه ﴾

مما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه ماضرب بيده أحداً قط إلاّ أن يضرب بها فى سبيل الله تعالى . وما انتقم من شئ صنع اليه قط إلاّ أن تنتهك حرمة الله . وما خيّر بين أمرين قطّ إلاّ اختار أيسرهما إلاّ أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك . وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلاّ قام معه فى حاجته . وقال أنس رضى الله عنه والذى بعثه

بالحق ما قال لى فى شئ قط كرهه لِمَ فعلته ولا لامنى نساؤه إلا قال دعوه انما كان هذا بكتاب وقدر وكان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام . ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف . وكان إذا لقى أحداً من أصحابه بدأه بالمصافحة وكان لايقوم ولا يجلس إلاّ على ذكر الله . وكان لا يجلس اليه أحد وهو يصلى إلاّ خفف صلاته وأقبل عليه فقال ألك حاجة . ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس . وكان يكرم من دخل عليه حتى ربما بسط له ثوبه يجلسه عليه وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته وكان يعطى كل من جلس اليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف مجلسه وتوجهه للجالس اليه . ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة قال تعالى (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم إكراماً لهم واستمالة لقلوبهم ويكنى من لم تكن له كنية فكان يدعى بما كناه بها ويكنى أيضاً النساء اللاتى لهن الأولاد واللاتى لم يلدن ويكنى أيضاً الصبيان فيستلين به قلوبهم وكان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضاء وكان أرأف بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس ولم تكن ترفع فى مجلسه الأصوات وكان إذا قام من مجلسه قال (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أن لا إِلهَ إِلاَّ أَنتَ أَستَغْفِرُكَ وَأَتوبُ إِلَيْكَ) *

﴿ بيان كلامه وضحكه صلوات الله عليه ﴾

كان صلى الله عليه وسلم أفصح الناس منطقا وأحلاهم كلاما ويقول: أنا أفصح العرب . وكان يتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير يحفظه سامعه ويعيه وكان جهير الصوت أحسن الناس نغمة لا يتكلم فى غير حاجة ولا يقول في الرضاء والغضب إلاّ الحق ويعرض عمن تكلم بغير جميل ويكنى عما اضطره الكلام اليه مما يكره وكان إذا سكت تكلم جلساؤه ولا يتنازع عنده فى الحديث ويعظ بالجدّ والنصيحة وكان أكثر الناس تبسما وضحكا فى وجوه أصحابه وتعجباً مما تحدّثوا به وخلطاً لنفسه بهم ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به وتوقيراً له وكان اذا نزل به الأمر فوّض الأمر الى الله وتبرأ من الحول والقوّة واستنزل الهدى فيقول (اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختُلِفَ فيه من الحقّ باذنك إنك تهدى من تشاء الى صراط مستقيم) *

﴿ أخلاقه صلوات الله عليه في الطعام والشراب ﴾

كان صلى الله عليه وسلم يأكل ماوجد . واذا وضعت المائدة قال (بسم الله اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة) وكان لا يأكل الحار ويقول ان الله لم يطعمنا نارا فابردوه وكان يأكل مما يليه . ويأكل خبز

الشعير والقثاء بالرّطب وكان أكثر طعامه الماء والتمر وأحب الطعام اليه اللحم . وكان يأكل الثريد باللحم . ويحب القرع وكان يحب من الشاة الذراع والكتف ولا يحب منها الكليتين ولا الذكر والانثيين ولا المثانة والغدد والحياء ويكره ذلك وكان لا يأكل الثوم ولا البصل وما ذمّ طعاما قط ان أعجبه أكله وان كرهه تركه وكان يعاف الضب والطحال ولا يحرمهما وكان اذا فرغ قال (الحمدُ لِلّهِ اللّهُمّ لكَ الحمدُ أطعَمتَ فأشبَعتَ وَسقَيتَ فأروَيتَ لكَ الحمدُ غيرَ مَكفُورٍ ولا مُوَدَّعٍ ولا مُستَغنًى عنهُ) وكان اذا أكل اللحم غسل يديه غسلا جيدا وكان يشرب فى ثلاث دفعات . ويمص الماء مصا ولا يعبه عبًّا . ولا يتنفس فى الاناء بل ينحرف عنه وكان ربما قام فى بيته فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرب *

﴿ أخلاقه صلوات الله عليه فى اللباس ﴾

كان صلى الله عليه وسلم يلبس من الثياب ما وجد . وأكثر لباسه البياض وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين وكان قميصه مشدود الأزرار وربما حلّ الأزرار وكان له ثوبان لجمعته خاصة سوى ثيابه فى غير الجمعة وكان ربما لبس الازار الواحد ليس عليه غيره فأمّ به الناس وكان له كساء أسود يلبسه ثم وهبه وكان يتختم وربما خرج وفى خاتمه خيط مربوط يتذكر به الشيء وكان يختم به الكتب وكان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمامة وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلى اليها وكان اذا لبس ثوبا لبسه من قبل ميامنه ويقول (الحمدُ لِلّهِ الّذِى كَسانى

ما اوَارِي بِهِ عَوْرَتِي وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فى النَّاسِ) واذا نزعَ ثوبه أخرجه من مياسره وكان اذا لبس جديدا أعطى خَلَقَ ثيابه مسكينا ثم يقول (مامن مسلم يكسو مسلما لله إلاّ كان في ضمان الله وحرزه حيا وميتا) وكان له فراش من ادم حشوه ليف وكانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل تثنى طاقتين تحته وكان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه *

(عفوه صلى الله عليه وسلم مع القدرة)

كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس وأرغبهم فى العفو مع القدرة . فقد كان فى حرب فرأى رجل من المشركين فى المسلمين غرّة فجاء حتى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال من يمنعك منى فقال (الله) قال فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله السيف وقال (من يمنعك منى) فقال كن خير آخذ قال (قُلْ أشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وإنى رَسولُ اللهِ) فقال لا غير إنى لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى سبيله فجاء أصحابه فقال جئتكم من عند خير الناس . وكم استؤذن صلى الله عليه وسلم فى قتل من أساء اليه وقيل دعنا يا رسول الله نضرب عنقه وهو يأبى وينهى ثم يقبل معذرة المعتذر اليه . وربما قال (رَحِمَ اللهُ أخي موسى قدْ أُوذِي بأ كثَرَ مِن هذا فصبرَ) وكان صلى الله عليه وسلم يقول (لا يُبَلِّغنى أحد منكم عن أحدٍ من أصحابى شيئاً فإنى أُحِبُّ أنْ أخرُجَ إليكم وأنا سَليمُ الصَّدْرِ)

(اغضاؤه صلوات الله عليه عما كان يكرهه)

كان صلى الله عليه وسلم رقيق البشرة لطيف الظاهر والباطن يعرف فى

وجهه غضبه ورضاه وكان لا يشافه أحدا بما يكرهه . بال أعرابى فى المسجد بحضرته فهمّ به الصحابة فقال صلى الله عليه وسلم لا تزرموه أى لا تقطعوا عليه البول ثم قال له (إن هذه المساجد لا تصلح لشىء من هذا)

(سخاؤه وجوده صلوات الله عليه)

كان صلى الله عليه وسلم أجود الناس وأسخاهم وكان فى شهر رمضان كالريح المرسلة لا يمسك شيئاً وكان علىّ رضى الله عنه اذا وصف النبى صلى الله عليه وسلم قال : كان أجود الناس كفا . وأوسع الناس صدرا . وأصدق الناس لهجة . وأوفاهم ذمة . وألينهم عريكة . وأكرمهم عِشرة . من رآه بديهة هابه . ومن خالطه معرفة أحبه . يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله . وما سئل عن شىء قط إلا أعطاه . وان رجلا أتاه فسأله فأعطاه غنما سدّت ما بين جبلين فرجع الى قومه وقال أسلموا فان محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة . وما سئل شيئاً قط فقال لا . وحمل اليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم مال اليها فقسمها فما ردّ سائلا حتى فرغ منها وجاءه رجل فسأله فقال (ما عندى شىء ولكن ابتع علىّ فاذا جاءنا شىء قضيناه) فقال عمر يارسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه فكره النبىّ صلى الله عليه وسلم ذلك . فقال الرجل أنفق ولا تخش من ذى العرش اقلالا فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم وعرف السرور فى وجهه ولما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه الى شجرة فخطفت رداءه فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال (أعطونى ردائى لو كانَ لى عَدَدُ هذهِ العضاه نَعَمًا لقسمتُها بينكم ثُمّ

لاَ تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلاَ كَذَّاباً وَلاَ جَبَاناً) *

* شجاعته صلى الله عليه وسلم *

كان صلوات الله عليه أكرم الناس وأشجعهم قال علىّ رضى الله عنه لقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبىّ صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدوّ وكان من أشدّ الناس يومئذ بأساً وقال أيضاً : كنا إذا احمرّ البأس ولقى القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب الى العدوّ منه . ولما غشيه المشركون نزل عن بغلته فجعل يقول (أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب) فما رئى يومئذ أحد كان أشد منه *

* تواضعه صلوات الله عليه *

كان صلى الله عليه وسلم أشد الناس تواضعا فى علوّ منصبه وكان يركب الحمار موكفا عليه قطيفة وكان مع ذلك يستردف وكان يعود المريض ويتبع الجنازة ويجيب دعوة المملوك ويخصف النعل ويرقع الثوب وكان يصنع فى بيته مع أهله فى حاجتهم وكان أصحابه لا يقومون له لما عرفوا من كراهته لذلك وكان يمرّ على الصبيان فيسلم عليهم وكان يجلس بين أصحابه مختلطا بهم كأنه أحدهم فيأتى الغريب فلا يدرى أيهم هو حتى يسأل عنه وكان اذا جلس مع الناس ان تكلموا فى معنى الآخرة أخذ معهم وان تحدّثوا فى طعام أو شراب تحدث معهم رفقا بهم وتواضعاً لهم وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانا ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ويضحكون

فيتبسم هو اذا ضحكوا ولا يزجرهم إلاّ عن حرام *

* خلقته الكريمة صلوات الله عليه *

وكان صلى الله عليه وسلم ليس بالطويل البائن ولا بالقصير وكان أزهر اللون ولم يكن بالآدم ولا الشديد البياض وكان شعره ليس بالسبط ولا الجعد وشعر رأسه يضرب الى شحمة أذنيه لم يبلغ شيبه عشرين شعرة بيضاء في رأسه ولا فى لحيته وكان واسع الجبهة أزجّ الحاجبين سابغهما أهدب الأشفار مفلج الأسنان كث اللحية وكان يعفى لحيته ويأخذ من شاربه وكان عظيم المنكبين بين كتفيه خاتم النبوّة وكان يمشي الهوينا كأنما يتقلع من صخر *

* شذرة من معجزاته صلوات الله عليه *

اعلم أن من شاهد أحواله صلى الله عليه وسلم وأصغى الى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه وسياسته لأصناف الخلق وهدايته الى ضبطهم وتألفه أصناف الخلق وقوده اياهم الى طاعته مع مايروى من عجائب أجوبته في مضايق الأسئلة وبدائع تدبيراته فى مصالح الخلق ومحاسن اشاراته فى تفصيل ظاهر الشرع الذى يعجز العقلاء عن ادراك أوائل دقائقها فى طول أعمارهم لم يبق له ريب ولا شك فى أن ذلك استمداد من تأييد سماويّ وقوّة إلهية . وان ذلك كله لايتصوّر لمفترٍ ولا مُلبّسٍ . بل كانت شمائله وأحواله شواهدَ قاطعة بصدقه . حتى

أن الغربيّ القح كان يراه فيقول والله ماهذا وجه كذاب . فكان يشهد له بالصدق بمجرد شمائله . فكيف من شاهد أخلاقه ومارس أحواله فى جميع مصادره وموارده وانما أوردنا بعض أخلاقه لتعرف محاسن الأخلاق . وليتنبه لصدقه عليه الصلاة والسلام وعلوّ منصبه ومكانته العظيمة عند الله . اذ آتاه الله جميع ذلك وهو أمىّ لم يمارس العلم ولم يطالع الكتب ولم يسافر قط في طلب علم . بل نشأ بين أظهر الجهال من الاعراب يتيما ضعيفا مستضعفا فمن أين حصل له محاسن الأخلاق والآداب ومعرفة مصالح الفقه مثلا دون غيره من العلوم فضلا عن معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه وغير ذلك من خواصّ النبوّة لولا صريح الوحى . ومن أين لقوّة البشر الاستقلال بذلك . فلو لم يكن له الا هذه الأمور الظاهرة لكفى . وقد ظهر من آياته ومعجزاته ما لا يستريب فيه محصل . فلنذكر من جملتها ما استفاضت به الأخبار من غير تطويل . فنقول : استفاض أنه صلى الله عليه وسلم أطعم النفر الكثير من الطعام القليل فى منزل جابر ومنزل أبى طلحة ويوم الخندق ومرّة أطعم أكثر من ثمانين رجلا من أقراص شعير حملها أنس في يده فأكلوا كلهم حتى شبعوا من ذلك وفضل لهم ونبع الماء من بين أصابعه صلوات الله عليه فشرب أهل العسكر كلهم وهم عطاش وتوضؤا من قدح صغير ضاق عن أن يبسط عليه السلام يده فيه وأراق وَضوءه في عين تبوك ولا ماء فيها ومرّة أخرى في بئر الحديبية فجاشتا بالماء فشرب من عين تبوك أهل الجيش وهم ألوف حتى رووا وشرب من بئر الحديبية ألف وخمسمائة

ولم يكن فيها قبل ذلك ماء ورمى صلوات الله عليه جيش العدوّ بقبضة من تراب فعميت عيونهم ونزل بذلك القرآن فى قوله تعالى (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللهَ رَمَى) وحنّ الجزع الذى كان يخطب عليه اليه لما عمل له المنبر حتى سمع منه جميع أصحابه مثل صوت الابل فضمّه اليه فسكن ودعا اليهود الى تمنى الموت وأخبرهم بأنهم لا يتمنونه فحيل بينهم وبين تمنيه كما أخبر وأخبر عليه السلام بالغيوب . فأنذر عثمان بأن بلوى تصيبه بعدها الجنة . وبأن عمّاراً تقتله الفئة الباغية . وأن الحسن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين وأخبر عليه السلام عن رجل قاتل فى سبيل الله أنه من أهل النار فظهر ذلك بأن ذلك الرجل قتل نفسه وهذه كلها أشياء إلهية لا تعرف البتة بشئ من وجوه تقدّمت المعرفة بها لا بنجوم ولا بكشف ولا بخط ولا بزجر لكن بأعلام الله تعالى له ووحيه اليه واتَّبَعَهُ سراقة ابن جعشم فساخت قدما فرسه فى الأرض حتى استغاثه فدعا له فانطلق الفرس . وأنذره بأن سيوضع فى ذراعيه سوار كسرى فكان كذلك وأخبر بمقتل الأسود العنسى الكذاب ليلة قتله وهو بصنعاء اليمن وأخبر بمن قتله وأخبر عليه السلام أنه يقتل أبيّ بن خلف الجمحى فخدشه يوم أحد خدشاً لطيفا فكانت منيته فيه وأُطْعِمَ عليه الصلاة والسلام السمّ فمات الذى أكله معه وعاش هو صلى الله عليه وسلم بعده أربع سنين . وكلمه الذراع المسموم وأخبر عليه السلام بمصارع صناديد قريش ووقفهم على مصارعهم رجلا رجلا فلم يتعدّ واحد منهم ذلك الموضع وأنذر عليه السلام بأن

طوائف من أمتـه يغزون فى البحر فـكان كذلك وزويت له الأرض فأرى مشارقها ومغاربها وأخبر بأن ملك أمته سيبلغ مازوى له منها فـكان كذلك فقد بلغ ملـكهم من أوّل المشرق من بلاد الترك الى آخر المغرب من بحر الأندلس و بلاد البربر وأخبر فاطمة ابنته رضى الله عنها بأنها أول أهله لحوقا به فـكان كذلك وأخبر نساءه بأن أطولهن يداً أسرعهن لحوقا به فـكانت زينب أطولهن يداً بالصدقة وأوّلهن لحوقا به رضى الله عنها ومسح ضرع شاة لا لبن لها فدرّت وكان ذلك سبب اسلام ابن مسعود رضى الله عنه وفعل ذلك مرّة أخرى فى خيمة أم معبد الخزاعية وندرت عين بعض أصحابه فردّها عليه السلام بيده فـكانت أصح عينيه وأحسنهما وتفل فى عين علىّ رضى الله عنـه وهو أرمد يوم خيبر فصحّ من وقتـه . و بعثـه بالراية . الى غير ذلك من آياته ومعجزاته صلى الله عليه وسلم . ومن يستريب فى انخراق العادة على يده ويزعم أن آحاد هـذه الوقائع لم ينقل تواتراً بل المتواتر هو القرآن فقط كمن يستريب فى شـجاعة علىّ رضى الله عنه وسخاوة حاتم الطائى . ومعلوم أن آحاد وقائعهم غير متواترة ولـكن مجموع الوقائع يورث علما ضروريا ثم لا يتمارى فى تواتر القرآن وهو المعجزة الـكبرى الباقية بين الخلق وليس لنبىّ معجزة باقية سواه صلى الله عليـه وسلم اذ تحدى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغاء الخلق وفصحاء العرب وجزيرة العرب حينئذ مملوءة بآلاف منهـم والفصاحة صنعتهم وبها منافستهم ومباهاتهم وكان ينادى بين أظهرهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور

مثله أو بسورة من مثله ان شكوا فيه وقال لهم (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) قال ذلك تعجيزاً لهم فعجزوا عن ذلك حتى عرضوا أنفسهم للقتل ونساؤهم وذراريهم للسبي وما استطاعوا أن يعارضوا ولا أن يقدحوا فى جزالته وحسنه . ثم انتشر ذلك بعده فى أقطار العالم شرقا وغربا قرنا بعد قرن وعصراً بعد عصر الى زماننا هذا فلم يقدر أحد على معارضته. فأعظم بغباوة من ينظر في أحواله ثم فى أقواله ثم فى أفعاله ثم فى أخلاقه ثم فى معجزاته ثم فى استمرار شرعه الى الآن ثم فى انتشاره فى أقطار العالم ثم فى اذعان ملوك الأرض له فى عصره و بعد عصره مع ضعفه ويتمه ثم يتمادى بعد ذلك فى صدقه . فما أعظم توفيق من آمن به وصدقه واتبعه فى كل وِرْدٍ وصَدَرٍ . فنسأل الله تعالى أن يوفقنا للاقتداء به فى الأخلاق والأفعال والأحوال والأقوال . بمنه وسعته وجوده آمين

تمَّ الجزء الأوَّل من موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين.

قبيل عشاء ليلة السبت غرّة ذى الحجة الحرام ختام

عام (١٣٢٣ هـ) بمنزلنا بدمشق الشام على يد

مؤلفه ومختصره الحقير جمال الدّين

القاسمى عفا الله عنه وعن والديه

واخوانه وأولاده والمسلمين

والحمد لله رب العالمين

﴿ انتهى طبع الجزء الأوَّل ويليه الجزء الثانى ﴾

(فهرست الجزء الأول من كتاب)

موعظة المؤمنين

من

إحياء علوم الدين

صحيفة

(كتاب الأذكار والدعوات)

﴿ كتاب آداب النكاح ـ والترغيب فيه ﴾

﴿ كتاب آداب الكسب والمعاش ﴾

(كتاب الحلال والحرام)

(كتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة)

(كتاب العزلة والمخالطة)

(كتاب آداب السفر)

(كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر)

(كتاب الآداب النبوية والأخلاق المحمدية)

تمت الفهرست

موعظة المؤمنين

من

إحياء علوم الدين

﴿ تأليف العلامة المفضال الشيخ محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي ﴾

(تنبيه) لايخفى أن ترقية الوعظ الديني من أهم المسائل الشاغلة لأفكار الباحثين في شؤن المسلمين اليوم ومن أجلّ أسبابها مسألة الكتب المفيدة الجيدة ولما رأى حضرة المؤلف المذكور أن اختصار الاحياء من أحسن الوسائل الجليلة النفع في هذا الباب قام بذلك واذرآنا شغفين بنشر الكتب النافعة الاسلامية أهدانا ذلك الكتاب المنسوخ بخطه وأذن لنا في نشره ونحن رغبة في الخدمات الاسلامية رأينا من الواجبات المقدسة القيام بنشره وهاهو قد ظهر في عالم المطبوعات محلّى بأحسن الحلل فنرجو من الحق جلّ اسمه أن يكمل به النفع

﴿ الجزء الثاني ﴾

﴿ الطبعة الأولى سنة ١٣٣١ هـ ﴾

على نفقة البحّاثة المنقّب عن الاسفار النافعة الشيخ محيي الدين صبري الكردي

(مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر)

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب رياضة النفس

﴿ وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب ﴾

الحمد لله الذى صرف الأمور بتدبيره ، وزين صورة الانسان بحسن تقويمه وتقديره ، وفوّض تحسين الأخلاق إلى اجتهاده وتشميره ، واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره ، وسهّل على خواصّ عباده تهذيب الأخلاق بتوفيقه وتيسيره ، والصلاة والسلام على محمد عبد الله ونبيه و بشيره ونذيره، الذى كان تلوح أنوار النبوّة من بين أساريره ، ويستنشق حقيقة الحق من مخايله وتباشيره ، وعلى آله وأصحابه الذين حسموا مادّة الباطل فلم يتدنسوا بقليله ولا بكثيره ﴿ أمّا بعد ﴾ فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين ، وأفضل أعمال الصدّيقين ، وهو على التحقيق شطر الدّين ، وثمرة مجاهدة المتّقين ، و رياضة المتعبدين ، والأخلاق السيئة هى السموم القاتلة، والمخازي الفاضحة ، والرذائل الواضحة ، والخبائث المبعدة عن جوار ربّ العالمين ، المنخرطة بصاحبها فى سلك الشياطين ، وهى الأبواب المفتوحة إلى نار الله

الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة ، كما أن الأخلاق الجميلة هى الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان ، وجوار الرّحمن ، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس ، إلاّ أنه مرض يفوّت حياة الأبد ، وأين منه المرض الذى لا يفوّت إلاّ حياة الجسد ، ومهما اشتدّت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس فى مرضها إلاّ فوت الحياة الفانية . فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب في مرضها وفوت حياةٍ باقيةٍ أولى ، وهـذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذى لب ، إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكمت ، وترادفت العلل وتظاهرت فيحتاج العبد إلى تأنق في معرفة عللها وأسبابها ثم الى تشمير فى علاجها واصلاحها فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ واهمالها هو المراد بقوله ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ ونحن نشير في هـذا الـكتاب الى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول فى معالجتها بعونه تعالى *

﴿ بيان فضيلة حسن الخلق * ومذمة سوء الخلق ﴾

قال الله تعالى لنبيه مثنياً عليه ، ومظهراً نعمته لديه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وقالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّمَا بعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ ﴾ وعنه صلوات الله عليه ﴿ الدِّينُ حُسْنُ الخُلُقِ ﴾ وهو أن لا تغضب . وقيل يارسول الله : ما الشؤم قال ﴿ سُوءُ الخُلُقِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ ﴾

وقيل له يارسول الله ان فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها قال ﴿لاخيرَ فيها هيَ منْ أهلِ النَّارِ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿إنَّ اللهَ استَخلَصَ هذا الدِّينَ لِنَفْسِهِ ولا يَصلُحُ لِدِينِكُمْ إلاَّ السَّخاء وَحُسنُ الخُلُقِ ألا فَزَيِّنُوا دِينَكُم بِهِما﴾ وقيل يا رسول الله أى المؤمنين أفضلهم ايمانا قال ﴿أحسَنُهُم خُلُقًا﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿إنَّكُم لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأموالِكُم فَسَعُوهم بِبَسطِ الوَجهِ وَحُسنِ الخُلُقِ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿يا أبا ذَرّ لاعقلَ كالتَّدبيرِ ولا حَسَبَ كَحُسنِ الخُلُقِ﴾ وعن الحسن من ساء خلقه عذب نفسه وقال وهب مثل السيء الخلق كمثل الفخارة المكسورة لا ترقع ولا تعاد طينا وقال الفضيل لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق أحبّ اليّ من أن يصحبني عابد سيئ الخلق *

﴿ ماقاله السلف فى حسن الخلق وشرح ماهيته ﴾

اعلم أنه روى عنهم في ذلك ماهو كالثمرة والغاية من ذلك ماقاله الحسن رحمه الله . حسن الخلق بسط الوجه وبذل الندا وكف الأذى . وقال الواسطى هو أن لايخاصم ولا يخاصم من شدة معرفته بالله تعالى وقال أيضا هو ارضاء الخلق فى السراء والضراء وقيل غير ذلك مما هو من ثمرات حسن الخلق وأما حقيقة الخلق فهى هيئة فى النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا وان كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر

خلقا سيئاً وانما قلنا إنها هيئة راسخة لان من يصدر عنه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء مالم يثبت ذلك فى نفسه ثبوت رسوخ وانما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم وأمهات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل * ونعنى بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأحوال الاختيارية ونعنى بالعدل حالة للنفس وقوة بها يسوس الغضب والشهوة ويحملها على مقتضى الحكمة ويضبطها فى الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها ونعنى بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل فى اقدامها واحجامها ونعنى بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع فمن اعتدال هذه الأصول الاربعة تصدر الاخلاق الجميلة كلها وقد أشار القرآن الى هذه الاخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ فالايمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هى قوة اليقين وهى ثمرة العقل ومنتهى الحكمة والمجاهدة بالمال هو السخاء الذى يرجع الى ضبط قوة الشهوة والمجاهدة بالنفس هى الشجاعة التى ترجع الى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحدّ الاعتدال فقد وصف الله تعالى الصحابة . فقال : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ اشارة الى أن للشدة موضعا وللرحمة موضعاً فليس الكمال فى الشدة بكل حال ولا فى الرحمة بكل حال *

﴿ بيان قبول الأخلاق للتغير بطريق الرياضة ﴾

اعلم أن بعض من غلبت عليه البطالة استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الاخلاق فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته فزعم أن الاخلاق لا يتصور تغييرها فان الطباع لا تتغير فنقول لو كانت الاخلاق لاتقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (حَسِّنُوا أخلاَقَكم) وكيف ينكر هذا فى حق الآدمى وتغيير خلق البهيمة ممكن اذ ينقل البازى من الاستيحاش الى الأنس والفرس من الجماح الى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير للاخلاق والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول الموجودات منقسمة الى مالامدخل للآدمي واختياره فى أصله وتفصيله كالسماء والكواكب بل أعضاء البدن داخلا وخارجا وسائر أجزاء الحيوانات وبالجملة كل ماهو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله والى ماوجد وجوداً ناقصا وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه وشرطه قد يرتبط باختيار العبد فان النواة ليست بتفاح ولا نخل إلاّ أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة اذا انضاف التربية اليها ولا تصير تفّاحا أصلا ولا بالتربية فاذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الاحوال دون بعض فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لايبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلا ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا الى الله تعالى نعم الجبلات مختلفة بعضها

سريعة القبول و بعضها بطيئة القبول . وليس المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات فان الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية فى الجبلة فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ولو انقطع الغضب بالكلية لم يدفع الانسان عن نفسه مايهلكه ولهلك ومهما بقى أصل الشهوة فيبقى لامحالة حب المال الذى يوصله الى الشهوة حتى يحمله ذلك على امساك المال وليس المطلوب اماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها الى الاعتدال الذى هو وسط بين الافراط والتفريط . والمطلوب فى صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعا وبالجملة أن يكون فى نفسه قويا ومع قوته منقاداً للعقل ولذلك قال الله تعالى ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ وصفهم بالشدة وانما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والانبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك إذ قال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنما أنا بَشرٌ أغضَبُ كما يَغضَبُ البَشرُ ﴾ وكان اذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمرّ وجنتاه ولكن لا يقول إلاّ حقاً فكان عليه الصلاة والسلام لا يخرجه غضبه عن الحق وقال تعالى ﴿ والكاظِمينَ الغَيظَ والعافينَ عنِ النَّاسِ ﴾ ولم يقل والفاقدين الغيظ فردُّ الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لايقهر واحد منهما العقل ولايغلبه بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما ممكنٌ . وهو المراد بتغيير الخلق . فانه ربما تستولى الشهوة على الانسان بحيث لا يقوى عقله على

دفعها عن الانبساط الى الفواحش وبالرياضة تعود إلى حدّ الاعتدال فدل أن ذلك ممكن والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لاشك فيها .
والذى يدل على أن المطلوب هو الوسط فى الاخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعا وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير وقد أثنى الله تعالى عليه فقال ﴿ والَّذينَ إذا أنفقوا لم يُسْرِفوا ولم يَقتُرُوا وكانَ بينَ ذَلكَ قَواماً ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تَجعل يدَكَ مَغلولةً إلى عُنقِكَ ولا تَبسُطْها كلَّ البَسطِ ﴾ وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود قال الله تعالى ﴿ كلوا واشرَبوا ولا تُسرِفوا إنّهُ لا يُحِبُّ المسرِفينَ ﴾ وقال فى الغضب ﴿ أشِدّاءُ عَلى الكفّارِ رُحَماءُ بَينَهم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ خيرُ الأُمُورِ أوساطُها ﴾ *

﴿ بيان السبب الذى به ينال حسن الخلق على الجملة ﴾

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع الى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة والى اعتدال قوة الغضب والشهوة وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضا .
وهذا الاعتدال يحصل على وجهين (أحدهما) بجود إلهيّ وكمال فطريّ بحيث يخلق الانسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كفي سلطان الشهوة والغضب بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع . (والوجه الثانى) اكتساب هذه الاخلاق بالمجاهدة والرياضة وأعنى به حمل النفس على الاعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب . فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطى فعل الجود وهو بذل المال فلا يزال

يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفا مجاهداً نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً له ويتيسر عليه فيصير به جواداً وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف الى أن يصير ذلك خلقا له وطبعا فيتيسر عليه وجميع الأخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق. وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذا . فالسخيّ هو الذى يستلذّ بذل المال دون الذى يبذله عن كراهة . والمتواضع هو الذى يستلذ التواضع . ولن ترسخ الأخلاق الدينية فى النفس مالم تتعوّد النفس جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الأفعال السيئة وما لم يواظب عليها مواظبة من يشتاق الى الأفعال الجميلة ويتنعم بها ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها كما قال صلى الله عليه وسلم ﴿ وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيني فى الصَّلاَةِ ﴾ ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به ولذلك قال الله تعالى ﴿ وَإنها لَكَبيرَةٌ إلاّ على الخاشِعِينَ ﴾ ثم لا يكفى فى نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية فى زمان دون زمان بل ينبغى أن يكون ذلك على الدوام وفى جملة العمر . ولا ينبغى أن يستبعد مصيرَ الصلاة الى حد تصير هى قرة العين ومصيرَ العبادات لذيذةً فان العادة تقتضى فى النفس عجائب أغرب من ذلك فانا نرى المقامر المفلس قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه مايستثقل معه فرح الناس بغير قمار مع أن القمار ربما سلبه ماله وخرّب بيته

وتركه مفلسا ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به وذلك لطول ألفه له وصرف نفسه اليه مدة . وكذلك اللاعب بالحمَام قد يقف طول النهار فى حر الشمس قائما على رجليه وهو لايحس بألمها لفرحه بالطيور وحركاتها وطيرانها وتحلقها فى جو السماء فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ومشاهدة ذلك في المخالطين والمعارف . واذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل اليه فكيف لاتستلذ الحق لو ردت اليه مدة والتزمت المواظبة عليه . بل ميل النفس الى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهى الميل الى أكل الطين فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة . فأما ميله الى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل الى الطعام والشراب فانه مقتضى طبع القلب فانه أمر ربانى وميله الى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه . وانما غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عز وجل ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به كما قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهى الطعام والشراب وهما سببان لحياتها فكل قلب مال الى حب شئ سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله الا اذا كان أحب ذلك الشئ لكونه معينا له على حب الله تعالى وعلى دينه فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض فاذا قد عرفت بهذا قطعا أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهى تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء فتصير طبعاً ـ وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح أتعنى النفس والبدن ـ فان كل صفة تظهر فى القلب يفيض أثرها على الجوارح

حتى لاتتحرك الا على وفقها لامحالة وكل فعـل يجرى على الجوارح فانه قد يرتفع منه أثر الى القلب والأمر فيه دور *

واذا تحققت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير اخوان الصلاح اذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعاً فمن تظاهرت فى حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعا واعتيادا وتعلما فهو غاية الفضيلة . ومن كان رذلا بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو فى غاية البعد من الله عزّ وجل. وبين الرتبتين من اختلفت فيه هـذه الجهات . ولـكلّ درجة فى القرب والبعد بحسب ماتقتضيه صفته وحالته ﴿ فَمَن يَعمَل مِثقالَ ذرّةٍ خيراً يرَه * ومَن يَعمَل مِثقالَ ذرّةٍ شراً يرَه ﴾ * ﴿ وما ظلمَهُمُ اللهُ ولكِنْ كانُوا أنفُسَهم يظلمُونَ ﴾ *

﴿ بيان تفصيل الطريق الى تهذيب الاخلاق ﴾

قد عرفت من قبل أن الاعتدال فى الاخلاق هو صحة النفس . والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها . كما أن الاعتدال فى مزاج البدن هو صحة له والميل عن الاعتدال مرض فيه . فلنتخذ البدن مثالا فنقول مثال النفس فى علاجها بمحو الرذائل والاخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والاخلاق الجميلة اليها مثال البدن فى علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها اليه . وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وانما تعترى المعدة المَضَرَّةُ بعوارض

الاغذية والاهوية والاحوال فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة وانما أبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه أى بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل . وكما أن البدن فى الابتداء لايخلق كاملا وانما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وانما تكمل بالتربية وتهذيب الاخلاق والتغذية بالعلم . وكما أن البدن ان كان صحيحا فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة وان كان مريضا فشأنه جلب الصحة اليه فكذلك النفس منك ان كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغى أن تسعي لحفظها وجلب مزيد القوة اليها واكتساب زيادة صفائها وان كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك اليها . وكما أن العلة الموجبة للمرض لا تعالج الا بضدها فان كانت من حرارة فبالبرودة وبالعكس فكذلك الرذيلة التى هى مرض القلب علاجها بضدها فيعالج مرض الجهل بالتعلم ومرض البخل بالتسخى ومرض الكبر بالتواضع ومرض الشره بالكف عن المشتهي تكلفا . وكما أنه لابد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الابدان المريضة فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب بل أولى فان مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد. وبالجملة فالطريق الكلى فى معالجة القلوب هو سلوك مسلك المضادة لكل ماتهواه النفس وتميل اليه وقد جمع الله ذلك كله فى كتابه العزيز في كلمة واحدة فقال تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهى النَّفسَ عَنِ الهَوَى.

فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ والاصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم فاذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختباراً فينبغي أن يصبر ويستمر فانه ان عوّد نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت (عافانا الله تعالى من فسادها) *

﴿ بيان الطريق الذى يعرف به الانسانُ عيوبَ نفسه ﴾

اعلم أن الله عزّ وجل اذا أراد بعبد خيرا بصّره بعيوب نفسه . فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه . فاذا عرف العيوب أمكنه العلاج ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى فى عين أخيه ولا يري الجذع فى عين نفسه . فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق *

(الأوّل) أن يجلس بين يدى شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويتبع اشارته فى مجاهدته وهذا شأن التلميذ مع أستاذه فيعرّفه أستاذه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه *

(الثانى) أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا يلاحظ أحواله وأفعاله فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه ينبهه عليه . فهكذا كان يفعل الأكابر من أئمة الدين . كان عمر رضى الله عنه يقول رحم الله امرأ أهدى الىّ عيوبى وكان يسأل حذيفة ويقول له أنت صاحب سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنافقين فهل ترى علىّ شيأ من آثار النفاق . فهو على جلالة قدره وعلوّ منصبه هكذا كانت تهمته لنفسه رضى الله عنه . فكل من كان أوفر

عقلا وأعلى منصبا كان أقلّ اعجابا وأعظم اتهاما لنفسه وفرحا بتنبيه غيره على عيوبه وقد آل الأمر فى أمثالنا الى أن أبغض الخلق الينا من ينصحنا ويعرفنا عيوبنا - ويكاد هذا أن يكون مفصحا عن ضعف الايمان - فان الأخلاق السيئة حيّات وعقارب لدّاغة فلو نبهنا منبّه على أن تحت ثوبنا عقربا لتقلدنا منه منةً وفرحنا به واشتغلنا بازالة العقرب وقتلها . وانما نكايتها على البدن ولا يدوم ألمها يوما فما دونه . ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تدوم بعد الموت أبد الآباد ثم أنا لا نفرح بمن ينبهنا عليها ولا نشتغل بازالتها بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته فنقول له وأنت أيضا تصنع كيت وكيت ونشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب وأصل كل ذلك ضعف الايمان فنسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا ويبصرنا بعيوبنا ويشغلنا بمداواتها ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوئنا بمنه وفضله *

(الطريق الثالث) أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فان عين السخط تبدى المساويا ولعل انتفاع الانسان بعدوّ مشاحن يذكر عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثنى عليه ويمدحه ويخفى عنه عيوبه الا أن الطبع مجبول على تكذيب العدوّ وحمل ما يقوله على الحسد ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه فان مساويه لا بد وان تنتشر على ألسنتهم *

(الطريق الرابع) أن يخالط الناس فكل مارآه مذموما فيما بين الخلق

فليطالب نفسه به ويَنسبها اليه فان المؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة فى اتباع الهوى فما يتصف به غيره فلا ينفك هو عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شئ منه فليتفقد نفسه ويطهرها عن كل مايذمه من غيره . وناهيك بهذا تأديبا . فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب . وهـذا كله من حيل من فقد شيخا مربيا ناصحا فى الدين والا فمن وجده فقد وجد الطبيب فليلازمه فانه يخلصه من مرضه *

﴿ بيان تمييز علامات حسن الخلق ﴾

اعلم أن كل انسان جاهل بعيوب نفسه فاذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصى ربما يظن بنفسه أنه قد هـذّب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة فلا بد من ايضاح علامة حسن الخلق فان حسن الخلق هو الايمان وسوء الخلق هو النفاق وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين فى كتابه وهى بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق . قال الله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الذينَ هم فى صَلاتِهِم خاشِعونَ ، والذينَ هُم عن اللّغوِ مُعرِضُونَ والذينَ هُم للزّكاةِ فاعِلونَ ، والذينَ هم لِفرُوجِهِم حافِظون ، إلاّ على أزواجِهِم أو ما مَلَكَتْ أيمانهم فانّهم غيرُ مَلومين ، فمن ابتَغى وراءَ ذلكَ فاولئكَ هُمُ العادونَ والّذينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُون . وَالّذينَ هُمْ عَلى صَلَوَاتِهِمْ يُحافِظون . اولئكَ هُمُ الوَارِثونَ الذينَ يَرِثونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهـا

خالدون ﴾ وقال عز وجل ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾ وقال عز وجل ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم . وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً . وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ وقال تعالى ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ الى آخر السورة فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق وفقد جميعها علامة سوء الخلق ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بتحصيل مافقده وحفظ ماوجده . وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها الى محاسن الاخلاق . فقال ﴿ المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ﴾ وقال عليه السلام ﴿ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ﴾ وقال ﴿ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت ﴾ وذكر ان صفات المومنين هي حسن الخلق فقال صلى الله عليه وسلم ﴿ أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً ﴾ وقال ﴿ لا يحل لمؤمن أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه ﴾ وقال عليه السلام ﴿ لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً ﴾ وقال صلى الله

عليه وسلم ﴿ إنما يَتجالَسُ المتجالِسانِ بأمانَةِ اللهِ عزّ وجلّ فلا يَحلُّ لأحدِهما أن يُفشيَ على أخيهِ ما يَكرَهُهُ ﴾ وأولى مايمتحن به حسن الخلق الصبر على الأذى واحتمال الجفا فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوماً يمشي ومعه أنس فأدركه اعرابيّ فجذبه جذبا شديداً وكان عليه برد غليظ الحاشية قال أنس رضي الله عنه حتى نظرت الى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه . فقال يا محمد هب لى من مال الله الذى عندك فالتفت اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك ثم أمر باعطائه ولما أكثرت قريش ايذاءه قال ﴿ اللّهمّ اغفرْ لِقَوْمى فإنهُم لايَعلمُونَ ﴾ *

حكى أن الأحنف بن قيس قيل له ممن تعلمت الحلم فقال من قيس ابن عاصم قيل له وما بلغ من حلمه قال بينما هو جالس في داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له صغير فمات فدهشت الجارية فقال لها لاروع عليكِ أنتِ حرّة لوجه الله تعالى *

وروى أن عليا كرم الله وجهه دعا غلاما فلم يجبه فدعاه ثانيا وثالثا فلم يجبه فقام اليه فرآه مضطجعا فقال أما تسمع ياغلام قال بلى قال فما حملك على ترك إجابتى قال أمنت عقوبتك فتكاسلت فقال امض فأنت حر لوجه الله تعالى *

وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله يامرائى فقال ياهذه وجدت اسمى الذى أضله أهل البصرة *

فهذه نفوس قد ذللت بالرياضة فاعتــدلت أخلاقها ونقيت من الغش والغــل والحقد بواطنها فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق فمن لم يصادف من نفسه هــذه العلامات فلا ينبغي أن يغترّ بنفسه فيظن بها حسن الخلق بل ينبغى أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة الى أن يبلغ درجة حسن الخلق فانها درجة رفيعة لاينالها إلاّ المقربون والصديقون *

﴿ بيان الطريق فى رياضة الصبيان فى أول نشوءهم ﴾
(ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم)

اعلم أن الطريق فى رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها . والصبي أمانة عند والديه . وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خاليــة عن كل نقش وصورة وهو قابل لــكل مانقش ومائل الى كل مايمال به اليه فان عُوِّد الخيرَ وعُلّمه نشأ عليه وسـعد فى الدنيا والآخرة وشاركه فى ثوابه أبواه وكل معلّم له ومؤدّب وان عوّد الشر وأهمل اهمال البهائم شقى وهلك وكان الوزر فى رقبة القيم عليه وقد قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى . وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعوده التنعم ولا يحبب اليــه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره فى طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد بل ينبغى أن يراقبــه من أول أمره فلا يستعمل فى حضانتــه وارضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال . ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته . وأول ذلك

ظهور أوائل الحياء فانه إذا كان يحتشم ويستحى ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلاّ لاشراق نور العقل عليه وهذه بشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب فالصبي المستحى لاينبغى أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه . وأول مايغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه . وأن يأكل مما يليه . وأن لايبادر الى الطعام قبل غيره . وأن لا يحدّق فى النظر اليه ولا الى من يأكل . وأن لايسرع فى الأكل . وأن يجيد المضغ وأن لايوالى بين اللقم . ولا يلطخ يده ولا ثوبه . وأن يعوّد الخبز القفار فى بعض الأوقات حتى لايصير بحيث يرى الادم حتما . وأن يقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم . وبأن يذم بين يديه الصبى الذى يكثر الاكل ويمدح عنده الصبى المتأدب القليل الاكل . وأن يحبب اليه الايثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن أىّ طعام كان . وأن يحبب اليه من الثياب ماليس بملوّن وحرير ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين وأن الرجال يستنكفون منه ويكرر ذلك عليه . ومهما رأى على صبى ثوبا من حرير أو ملونا فينبغى أن يستنكره ويذمه وأن يحفظ عن الصبيان الذين عوّدوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة وعن مخالطة كل من يسمعه مايرغبه فيه . فان الصبي مهما أهمل فى ابتداء نشوءه خرج فى الاغلب ردىء الاخلاق كذابا حسودا سروقا نماما لحوحا ذافضول وضحك وكياد ومجانة وانما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب . ثم

يشتغل فى المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الاخبار وحكايات الابرار وأحوالهم لينغرس فى نفسه حب الصالحين . ويحفظ من الاشعار التى فيها ذكر العشق وأهله فان ذلك يغرس فى قلوب الصبيان بذر الفساد . ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغى أن يُكرَم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس . فان خالف ذلك فى بعض الاحوال مرة واحدة فينبغى أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ولا سيما اذا ستره الصبى واجتهد فى اخفائه . فان أظهر ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالى بالمكاشفة فعند ذلك ان عاد ثانيا فينبغى أن يعاتب سراً ويعظم الامر فيه ويقال له إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطّلَعَ عليك فى مثل هذا فتفتضح بين الناس . ولا تكثر القول عليه بالعتاب فى كل حين فانه يهوّن عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه . وليكن الاب حافظا هيئة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحيانا والأم تخوّفه بالاب وتزجره عن القبائح . وينبغى أن يمنع عن النوم نهارا فانه يورث الكسل ولا يمنع منه ليلا ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يسخف بدنه فلا يصبر عن التنعم بل يعوّد الخشونة في المفرش والملبس والمطعم وينبغى أن يمنع من كل ما يفعله في خفية فانه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح فاذا منع تعوّدَ تركَ فعل القبيح . ويعوّد فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل . ويعوّد أن لا يكشف أطرافه . ولا

يسرع المشى . ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه والداه أو بشىء من مطاعمه وملابسه بل يعوّد التواضع والاكرام لكل من عاشره والتلطف فى الكلام معهم . ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئاً بدا له بل يعلم أن الرفعة فى الاعطاء لا فى الأخذ وان الأخذ لؤم وخسة ودناءة وان ذلك من دأب الكلب فانه يبصبص فى انتظار لقمة والطمع فيها . وبالجملة يقبح الى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما . ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب فان آفة حب الذهب والفضة أضرّ من آفة السموم على الصبيان بل وعلى الكبار أيضاً . وينبغي أن يعوّد أن لا يبصق فى مجلسه ولا يتمخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلا على رجل ولا يضع كفه تحت ذقنه ولا يعمد رأسه بساعده فان ذلك دليل الكسل . ويعلم كيفية الجلوس . ويمنع كثرة الكلام . ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وانه فعل أبناء اللئام . ويمنع اليمين رأساً صادقا كان أو كاذبا حتى لا يعتاد ذلك فى الصغر . ويعوّد حسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه ويمنع من لغو الكلام وفحشه ومن اللعن والسب ومن مخالطة من يجري على لسانه شىء من ذلك فان ذلك يسرى لا محالة من القرناء السوء . وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء . وينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتّاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح اليه من تعب المكتب فان منع الصبي من اللعب وإرهاقه الى التعلم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش حتى

يطالب الحيلة فى الخلاص منه رأسا . و ينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه وكل من هو أ كبر منه سنا من قريب وأجنبى وأن ينظر اليهم بعين الجلالة والتعظيم وأن يترك اللعب بين أيديهم . ومهما بلغ سن التمييز فينبغى أن لا يسامح فى ترك الطهارة والصلاة و يؤمر بالصوم فى بعض أيام رمضان . و يعلم كل ما يحتاج اليه من حدود الشرع ويخوّف من السرقة وأ كل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش فاذا وقع نشوءه كذلك فى الصبي فمهما قارب البلوغ أمكن أن يعرّف أسرار هذه الأمور *

كتاب افات اللسان

﴿ بيان خطر اللسان ﴾

اعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة منه إلا بالنطق بالخير فعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (لا يَستقيمُ إيمانُ العبدِ حتى يَستقيمَ قلبُهُ ولا يَستقيمُ قلبُهُ حتى يَستقيمَ لِسانُهُ ولا يَدخُلُ الجنّةَ رَجلٌ لا يأمَنُ جارُهُ بَوائِقَهُ) وقال معاذ بن جبل قلت يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول فقال (يا ابنَ جبَلٍ وهلْ يَكُبُّ الناسَ في النارِ على مَناخِرِهمْ إلاّ حَصائدُ ألسِنَتِهِمْ) وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : يا لسان قل خيرا تغنم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم . وعنه صلى الله عليه وسلم (مَنْ كفَّ لِسانَهُ سَترَ اللهُ عورَتَهُ ومَن مَلَكَ غضبَهُ وَقاهُ اللهُ عذابَهُ . ومَن اعتذَرَ الى اللهِ قَبِلَ اللهُ عُذرَهُ) وقال صلى الله عليه وسلم (مَن كان يُؤمنُ باللهِ واليوم الآخرِ فلْيَقُلْ خيرًا أو

ليَسكُت) وعنه عليه الصلاة والسلام (إخزِنْ لِسانَكَ إلاّ مِنْ خَيرٍ فإنك بِذلكَ تَغلِبُ الشيطانَ)

﴿ جمل من آفات اللسان ﴾

﴿ الأولى الكلام فيما لا يعنى ﴾

إعلم أن رأس مال العبد أوقاته فمهما صرفها الى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثوابا فى الآخرة فقد ضيع رأس ماله ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم (مِنْ حُسْنِ إسلامِ المَرءِ تَرْكُهُ ما لا يَعنِيهِ) وسببه الباعث عليه هو الحرص على معرفة ما لا حاجة به اليه أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها . وعلاج ذلك كله أن يعلم أن أنفاسه رأس ماله وأن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الخيرات الحسان فاهماله ذلك وتضييعه خسران مبين *

﴿ الآفة الثانيه فضول الكلام ﴾

وهو أيضاً مذموم وهذا يتناول الخوض فيما لا يعنى والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة فان من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ويمكنه أن يجسمه ويكرره مهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول ـ أى فضل عن الحاجة ـ وهو أيضاً مذموم لما سبق وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور فى كتاب الله تعالى قال الله عز وجل (لا خَيرَ فى كثيرٍ مِن نَجْواهمْ إلاّ منْ أمَرَ بصَدَقةٍ أومعرُوفٍ أو إصلاَحٍ بينَ الناسِ) وقال صلى الله عليه وسلم (طُوبَى لمَن أمسكَ الفَضلَ

منْ لِسانهِ وأنفقَ الفضلَ مِن مالِه) فانظر كيف قلب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان . قال عطاء : إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يَعُدُّون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أمرًا بمعروف أو نهياً عن منكر أو تنطق لحاجتك في معيشتك التي لا بدَّ لك منها . أتنكرون إن عليكم حافظين كراما كاتبين . عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد . أما يستحي أحدكم اذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر مافيها ليس من أمر دينه ولا دنياه وقال ابن عمر : ان أحق ماطهر الرجل لسانه . وفي أثر : ما أوتي رجل شرًّا من فضل في لسان *

﴿ الآفة الثالثة الخوض في الباطل ﴾

وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتكبر الجبابرة ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المذمومة فان ذلك مما لايحل الخوض فيه . وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس أو الخوض في الباطل . وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها فلذلك لا مخلص منها الا بالاقتصار على مايغني من مهمات الدين والدنيا . وفي الحديث (أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا في الباطل) واليه الاشارة بقوله تعالى ﴿ وكنّا نخوض مَعَ الخائضينَ ﴾ وبقوله تعالى ﴿ فَلاَ تَقْعدُوا مَعَهمْ حتّى يَخوضوا في حديثٍ غيرِهِ إنّكم إذًا مِثلُهم ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ الرّجلَ ليتكلمُ

بالكلمةِ مِنْ رِضوانِ اللهِ مايظُنُّ أنْ تبلغَ ما بَلغتْ يَكتبُ اللهُ بها رِضوانَهُ إلى يوم القيامَةِ وَإنَّ الرّجلَ ليتكلمُ بالكلِمَةِ مِنْ سَخطِ اللهِ ما يَظنُّ أن تَبلغَ ما بَلغتْ يكتبُ اللهُ عليهِ بها سخطهُ إلى يومِ القيامَةِ ﴾ *

﴿ الآفة الرابعة المراء والجدال ﴾

وذلك منهى عنه قال صلى الله عليه وسلم ﴿ لا تمارِ أخاكَ ولا تمازحهُ ولا تعِدْهُ موعدا فتخلفَهُ ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ ماضلَّ قومٌ بَعدَ أن هدَاهم اللهُ إلاّ أُوتوا الجَدَلَ ﴾ وعنه ﴿ لايَستَكملُ عبدٌ حقيقَةَ الإيمانِ حتّى يدَعَ المِراءَ وإن كانَ مُحقًّا ﴾ *

وقال بلال بن سعد : اذا رأيت الرجل لجوجا مماريا معجبا برأيه فقد تمت خسارته . وقال ابن أبى ليلى : لا أمارىَ صاحبى فاما أن أكذبه واما أن أغضبه . وما ورد فى ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى *

وحدّ المراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه إما فى اللفظ واما في المعنى واما فى قصد المتكلم وترك المراء بترك الانكار والاعتراض فى كل كلام سمعته فان كان حقا فصدّق به وان كان باطلا أو كذبا ولم يكن متعلقا بأمور الدين فاسكت عنه *

والواجب ان جرى الجدل فى مسألة علمية السكوتُ أو السؤالُ فى معرض الاستفادة لا على وجه العناد والنكادة أو التلطفُ فى التعريف لا فى معرض الطعن . وأما قصد افحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح فى كلامه ونسبته الى القصور والجهل فيه فهى المجادلة المحظورة التى لا نجاة

من اثمها إلاّ بالسكوت . وما الباعث عليها إلا الترفع باظهار العلم والفضل والتهجم على الغير باظهار نقصه وهما صفتان مهلكتان . ولا تنفك المماراة عن الايذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ويقدح فى قائله بكل ما يتصوّر له فيثور الشجار بين المتماريين . وأما علاجه فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على اظهار فضله والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره *

﴿ الآفة الخامسة الخصومة ﴾

وهى أيضاً مذمومة وهى وراء الجدال والمراء وحقيقتها لجاج فى الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود وفى الحديث ﴿ إنّ أبغضَ الرّجال إلى اللهِ الألدُّ الخصِمُ ﴾ ولا تكون الخصومة مذمومة الا ان كانت بالباطل أو بغير علم كالذى يدافع قبل أن يعلم الحق فى أى جانب أو يمزج بخصومته كلمات مؤذية لاحاجة لها فى نصرة الحجة واظهار الحقّ أو يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحقر ذلك القدر من المال وفى الناس من يصرح به ويقول انما قصدى عناده وكسر غرضه وانى ان أخذت منه هذا المال ربما رميت به فى بئر ولاأبالى وهذامقصوده اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جداً . فأما المظلوم الذى ينصرحجته بطريق الشرع من غير لدد واسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وايذاء ففعله ليس بحرام ولكن الأولى تركه ماوجد اليه سبيلا فان ضبط اللسان في الخصومة على قدر الاعتدال متعذر

والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه وبقي الحقد بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته ويطلق اللسان في عرضه فمن بدأ بالخصومة فقد تعرّض لهذه المحذورات . وأقل مافيه تشويش خاطره حتى أنه فى صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حدّ الواجب . فالخصومة مبدأ كل شر وكذا المراء والجدال فينبغى أن لا يفتح بابه إلاّ لضرورة وعند الضرورة ينبغى أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جدا نعم أقل ما يفوته فى الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وقد قال الله تعالى . ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ وقال ابن عباس رضى الله عنهما ﴿ مَنْ سَلَّمَ عَلَيكَ مِنْ خَلقِ اللهِ فارْدُدْ عليهِ السَّلاَمَ وَإن كانَ مَجوسيًّا ﴾ إنّ اللهَ تَعالى يقولُ ﴿ وَإذَا حُيّيتُمْ بِتَحيّةٍ فحَيُّوا بأحْسنَ مِنْها أو رُدُّوها ﴾ وقال ابن عباس أيضاً : لو قال لى فرعون خيرًا لرددت عليه .. وفي الحديث (الكلمة الطيبة صدقة) وقال عمر رضي الله عنه : البرّ شئ هين وجه طليق وكلام لين . وقال بعض الحكماء : الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة فى الجوارح وقال آخر : كل كلام لا يسخط ربك إلا أنك ترضى به جليسك فلا تكن به عليه بخيلا فلعله يعوضك منه ثواب المحسنين *

﴿ الآفة السادسة التقعر في الكلام ﴾

وهو التشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه فانه من التكلف الممقوت إذ ينبغى أن يقتصر فى كل شئ على مقصوده ومقصود الكلام

التفهيم للغرض وما وراء ذلك تصنع مذموم ولا يدخل في هــذا تحسين ألفاظ التذكير والخطابة من غير افراط ولا اغراب فلرشاقة اللفظ تأثير فى ذلك *

﴿ الآفة السابعة الفحش والسب وبذاءة اللسان ﴾

وهو مذموم ومنهيٌّ عنه ومصدره الخبث واللؤم . قال صلى الله عليه وسلم ﴿ إيّاكم وَالفُحشَ فإنّ اللهَ تَعالى لا يُحِبُّ الفُحشَ ولا التّفحُّشَ ﴾ ونهى رسول الله عليه السلام عن أن تسب قتلى بدر من المشركين . فقال ﴿ لاتَسبُّوا هؤلاءِ فإنّهُ لايَخلُصُ إليهِمْ شيءٌ مِمّا تقولونَ . وتؤْذونَ الأحياء ألا إنّ البَذَاء لؤمٌ ﴾ وقال عليه السلام ﴿ ليسَ المؤمنُ بالطّعان ولا اللعّانِ ولا الفاحِشِ ولا البَذِيء ﴾ وعنه ﴿ إنّ اللهَ لا يُحبُّ الفاحشَ المتفَحّشَ الصَّيَّاحَ فى الأسواقِ ﴾ وحــدّ الفحش هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة وأكثر ذلك يجري فى ألفاظ الوقاع وما يتعلق به فان لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يدلون عليها بالرموز والكناية . قال ابن عباس : ان الله حيي كريم يعفو ويكنو كنى باللمس عن الجماع : فالمسيس والمس والدخول كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة . وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها فى الشتم والتعيير . وكل مايستحيا منــه فلا ينبغى أن يذكر ألفاظه الصريحة فانه فحش *

والباعث على الفحش اما قصد الايذاء واما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السب *

روى أن اعرابياً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصنى . فقال: ﴿عليكَ بتقوَى اللهِ وَإن امرُؤٌ عيَّرَكَ بشىء يَعلمهُ فيكَ فَلاَ تُعيِّرهُ بشىء تَعلمهُ فيهِ يكُنْ وَبالهُ عليهِ وَأجرُهُ لكَ وَلا تَسُبَّنَّ شيأً﴾ قال فما سببت شيأً بعده وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿سِبابُ المؤمنِ فُسوقٌ وَقِتالهُ كُفرٌ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿مَلعُونٌ مَن سَبَّ وَالِدَيهِ﴾ وفى رواية ﴿مِنْ أكبَرِ الكبائرِ أنْ يَسُبَّ الرّجلُ وَالدَيهِ﴾ قالوا يا رسول الله كيف يسب الرجل والديه قال ﴿يَسُبُّ أبا الرّجلِ فيسُبُّ الآخَرُ أباهُ﴾ *

﴿ الآفة الثامنة اللعن ﴾

اللعن إما لحيوان أو جماد أو انسان وكل ذلك مذموم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المؤمنُ ليسَ بلَعّانٍ﴾ واللعن عبارة عن الطرد والابعاد من الله تعالى وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عزّ وجلّ وهو الكفر والظلم . وفى لعن فاسق معيّن خطر فليجتنب ولو بعد موته بل قد يكون أشد ان كان فيه أذى للحيّ . وفى الحديث ﴿لا تَسبُّوا الأمواتَ فتؤذُوا بهِ الأحياء﴾ ويقرب من اللعن الدعاء على الانسان بالشر حتى الدعاء على الظالم فانه مذموم وفى الخبر ﴿إنّ المظلومَ ليَدْعو على الظالِم حتّى يُكافئهُ﴾ *

﴿ الآفة التاسعة الغناء والشعر ﴾

والمذموم منهما ما اشتمل على محرّم أو دعاء اليه كتشبيب بمعيّن وهجاء

وتشبه بالنساء وتهييج لفاحشة ولحوق بأهل الخلاعة والمجون وصرف الوقت اليه ونحو ذلك وما خلا عن ذلك فهو مباح *

﴿ الآفة العاشرة المزاح ﴾

والمنهيّ عنه المذموم منه هو المداومة عليه والافراط فيه فأما المداومة فلانه اشتغال باللعب والهزل وأما الافراط فيه فانه يورث كثرة الضحك والضغينة فى بعض الأحوال ويسقط المهابة والوقار وأما ما يخلو عن هذه الأمور فلا يذم كما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال ﴿ إنّى لأمْزَحُ ولا أقولُ إلاّ حَقّاً ﴾ ألا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقاً وأما غيره اذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان وقد قال عمر . من مزح استخفّ به . وقال سعيد بن العاص لابنه يا بنيّ لاتمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدّنيء فيجترئ عليك . وقيل لكل شئ بذر وبذر العداوة المزاح . ويقال المزاح مسلبةللنهى مقطعة للأصدقاء ومن الغلط العظيم أن يتخذ المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرّسول صلى الله عليه وسلم وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر اليهم والى رقصهم ويتمسك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لعائشة فى النظر الى رقص الزنوج فى يوم عيد وهو خطأ وبالجملة فان كنت تقدر على أن تمزح ولا تقول إلا حقا ولا تؤذى قلبا ولا تفرّط فيه وتقتصر عليه أحيانا على الندور فلا حرج عليك فيه . ومن مطايباته صلى الله عليه وسلم ما روى أن عجوزا أتته . فقال لها ﴿ لا يَدخُلُ الجنّةَ عجوزٌ فبكَتْ ﴾ فقال لها ﴿ إنّكِ

لستِ بعجوزٍ يومئذٍ ﴾ قال الله تعالى ﴿ إنا أنشأناهنَّ إنشاءً فجعلناهنَّ أبكارا ﴾.
وجاءت امرأة اليه صلى الله عليه وسلم فقالت ان زوجي يدعوك قال ﴿ ومَن هُوَ أهُوَ الَّذي بعينِهِ بَياضٌ ﴾ قالت والله ما بعينه بياض . فقال ﴿ بَلَى إن بعينهِ بياضاً ﴾ فقالت لا والله . فقال صلى الله عليه وسلم ﴿ ما مِنْ أحدٍ إلاَّ وَبِعينهِ بياضٌ ﴾ وأراد بالبياض المحيط بالحدقة *

وجاءت امرأة أخرى فقالت يارسول الله احملني على بعير فقال ﴿ بَلْ نَحملكِ على ابنِ البَعيرِ ﴾ فقالت ما أصنع به أنه لايحملني . فقال صلى الله عليه وسلم ﴿ ما مِنْ بَعيرٍ إلاّ وهُوَ ابنُ بعيرٍ ﴾ *

وقال أنس كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير وكان رسول الله يأتيهم ويقول ﴿ أبا عُميرٍ ما فعَلَ النُّغيرُ ﴾ لنغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور وقالت عائشة رضي الله عنها خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر فقال ﴿ تعالَيْ حتى اسابِقَكِ فشددتُ عليّ درعي ثم خططنا خطاً فقمنا عليه واستبقنا فسبقني وقال : هذه مكان ذي المجاز وذلك أنه جاء يوما ونحن بذي المجاز وأنا جارية قد بعثني أبي بشيءٍ فقال أعطينيه فأبيت وسعيتُ وسَعى في أثري فلم يدركني ﴾ *

وقالت أيضاً : كان عندي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسودة بنت زمعة فصنعتُ خزيراً وجئت به فقلت لسودة كلي فقالت لا أحبه فقلت والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك فقالت ما أنا ذائقته فأخذتُ بيدي من الصفحة شيأ منه فلطخت به وجهها ورسول الله جالس بيني وبينها فخفض

لها ركبته لتستقيد فتناولت من الصحفة شيأ فمسحت به وجهي وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك . وعن أبي سلمة أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن بن عليّ رضي الله عنهما فيرى الصبيّ لسانه فيهش له *

وقال عيينة الفزاري والله ليكونن لي الابن قد تزوّج وبقل وجهه وما قبلته قط فقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ مَن لا يَرحَمْ لا يُرحَمْ ﴾ *

فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل الى هزل *

وقال صلى الله عليه وسلم مرّة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمراً ﴿ أتأكلُ التمرَ وأنتَ رَمِدٌ ﴾ فقال انما آكل بالشق الآخر يارسول الله فتبسم صلى الله عليه وسلم قال بعض الرّواة حتى نظرت الى نواجذه *

وكان نعيمان الأنصارى رجلا مزّاحا لايدخل المدينةطرفة الا اشترى منها ثم أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم فيقول يارسول الله هذا قد اشتريته لك وأهديته لك فاذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال يارسول الله اعطه ثمن متاعه فيقول له صلى الله عليه وسلم أو لم تهده لنا فيقول يارسول الله انه لم يكن عندى ثمنه وأحببت أن تأكل منه فيضحك النبيّ صلى الله عليه وسلم ويأمر لصاحبه بثمنه . فهذه مطايبات يباح مثلها على الندور لاعلى الدوام *

(الآفة الحادية عشرة)

(السخرية والاستهزاء) وهو محرم قال تعالى ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا

لا يَسخرْ قَومٌ مِن قَومٍ عَسَى أن يَكونوا خَيرًا مِنْهُم وَلا نِساءٌ مِن نساء عَسَى أن يَكنّ خَيراً مِنْهُنّ ﴾ ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى القول والفعل وقد يكون بالاشارة والايماء ومرجع ذلك إلى استحقار الغير والضحك عليه والاستهانة به والاستصغار له وعليه نبه قوله تعالى ﴿عسى أن يَكونوا خَيراً منهُم ﴾ أى لاتستحقره استصغارا فلعله خير منك . وهذا انما يحرم فى حق من يتأذى به فأمامن جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية في حقه من جملة المزح وقد سبق مايذم منه وما يمدح . وانما المحرّم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم أو على أفعاله اذا كانت مشوشة كالضحك على حفظه وعلى صنعته أو على صورته وخلقته لعيب فيه فالضحك من جميع ذلك داخل فى السخرية المنهىّ عنها*

(الآفة الثانية عشر افشاء السرّ)

وهو منهىّ عنه لما فيه من الايذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم ﴿ إذَا حدَّثَ الرّجلُ الحَديثَ ثمّ التفَتَ فَهى أمانَةٌ ﴾ وعنه ﴿ الحديثُ بينَكم أمانةٌ ﴾ فافشاء السرّ خيانة وهو حرام إذا كان فيه اضرار . ولؤم ان لم يكن فيه اضرار *

(الآفة الثالثة عشر الوعد الكاذب)

فان اللسان سباق الى الوعد ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفا وذلك من أمارات النفاق . قال الله تعالى ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا أوْفوا بالعُقودِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ العِدَةُ عطِيَّةٌ ﴾ وقد أثنى الله تعالى على نبيه اسمعيل عليه السلام فى كتابه العزيز فقال ﴿ إنَّهُ كانَ صادِقَ الوَعْدِ ﴾ ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاةُ قال انه كان خطب إلىَّ ابنتى رجل من قريش وقد كان منى اليه شبه الوعد فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق . أشهدكم انى قد زوجته ابنتى *

وعن عبد الله ابن أبى الخنساء قال بايعت النبىَّ صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وبقيت له بقية فواعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك فنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه فقال يافتى لقد شققتَ علىَّ أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك *

وكان ابن مسعود لا يعِدُ وَعداً الا ويقول ان شاء الله وهو الأولى ثم اذا فهم مع ذلك الجزم فى الوعد فلا بد من الوفاء إلاَّ أن يتعذر . فان كان عند الوعد عازما على أن لا يفى فهذا هو النفاق قال النبىّ صلى الله عليه وسلم ﴿ ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ فهُوَ مُنافِقٌ وَإنْ صامَ وَصلَّى وَزَعمَ أنَّهُ مسلمٌ إذا حدَّثَ كذَبَ وَإذا وَعَدَ أخْلَفَ وَإذا اؤْتُمِنَ خانَ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ أرْبعٌ مَنْ كنَّ فيهِ كانَ مُنافِقاً وَمن كانَتْ فيهِ خلّة مِنهنَّ كانَ فيهِ خلةٌ مِنَ النّفاقِ حتّى يَدَعَها إذا حدَّثَ كذَبَ وَإذا وعَدَ

أخلفَ وَإِذَا عاهَدَ غَدَرَ وإِذا خاصَمَ فَجَرَ ﴾ وهـذا يُنزّل على من إذا وعد وهو على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر فأما من عزم على الوفاء فعنّ له عـذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا وان جرى عليـه ما هو صورة النفاق ولـكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضاً كما يحترز من حقيقته ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذوراً من غير ضرورة فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وعد أبا الهيثم خادماً فأتى بثلاثة من السبي فأعطى اثنين و بقى واحد فأتت فاطمة رضى الله عنها تطلب منـه خادما وتقول ألا ترى أثر الرحى بيدى فذكر موعده لأبي الهيثم فجعـل يقول (كيفَ بموعدى لأبى الهيثَمِ) فآثره به على فاطمة لِما كان قد سبق من موعده له مع أنها كانت تدير الرحى بيدها الضعيفة . ولقد كان صلى الله عليـه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليـه رجل من الناس فقال ان لى عنـدك موعدا يا رسول الله قال صـدقتَ (فاحتـكِمْ ماشِئْتَ) فقال أحتكم ثمانين صائبة و راعيها قال هى لك وقال احتكمت يسيراً *

﴿ الآفة الرابعة عشر الـكذب فى القول واليمين ﴾

وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب قال صـلى الله عليه وسـلم ﴿ إيَّاكم والـكذبَ فإِنّهُ معَ الفجُورِ وهما فى النّارِ ﴾ وعنـه ﴿ إنّ الـكذبَ بابٌ من أبوابِ النّفاقِ ﴾ وعنه ﴿ كبُرَتْ خيانةً أن تُحدّثَ أخاكَ حديثاً هُو لكَ بهِ مُصدّقٌ وأنتَ لهُ بهِ كاذبٌ ﴾ ومرّ صلى الله عليه وسلم برجلين يتبايعان شاة و يتحالفان يقول أحدهما والله لا أنقصك من كذا وكذا ويقول

الآخر والله لاأزيدك على كذا وكذا فمرّ بالشاة وقد اشتراها أحدهما فقال ﴿ أُوجِبُ أحدَهما بالإثم والكفّارة ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم قال ﴿ ثلاثةٌ لايكلّمهم الله يومَ القيامةِ ولا ينظرُ إليهم المنّانُ بعطيّتِهِ والمنفقُ سلعتَهُ بالحلفِ الفاجرِ والمُسبِلُ إزارَهُ ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ من حلَفَ على يمينٍ بإثمٍ ليقتطعَ بها مالَ امرِئٍ مُسلمٍ بغيرِ حقٍ لقِيَ اللهَ عزّ وجلّ وهوَ عليهِ غضبانُ ﴾ وقال عليه السلام لمعاذ ﴿ أُوصيكَ بتقوى اللهِ وصِدقِ الحديثِ وأداءِ الأمانةِ والوفاءِ بالعهد وبَذلِ الطّعامِ وخفضِ الجَناحِ ﴾ *

﴿ بيان مارخص فيه من الكذب ﴾

اعلم أن الكذب انما حرم لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره وقد يتعلق به مصلحة فيكون مأذونا فيه وربما كان واجبا كما اذا كان فى الصدق سفك دم امرئ قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب وكما اذا كان لايتم مقصود الحرب أو اصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجنىّ عليه أو تعاشر الزوجين إلاّ بكذب فالكذب مباح الا أنه يقتصر فيه على حدّ الضرورة لئلا يتجاوز الى مايستغنى عنه . وفى معنى ذلك وردت أحاديث كثيرة قال ثوبان : الكذب كله إثم إلا مانفع به مسلما أو دفع عنه ضررا *

﴿ بيان المعاريض ﴾

قد نقل عن السلف (ان فى المعاريض مندوحة عن الكذب) وانما أرادوا اذا اضطر الانسان الى الكذب فأما اذا لم تكن حاجة وضرورة فلا

يجوز التعريض ولا التصريح جميعا ولكن التعريض أهون. ومثال التعريض ماروى أن مطرفا دخل على زياد فاستبطأه فتعلل بمرض وقال مارفعت جنبي مذ فارقت الأمير الا مارفعني الله . وكان معاذ بن جبل عاملا لعمر رضى الله عنه فلما رجع قالت له امرأته ماجئت به مما يأتى به العمالُ الى أهلهم — وما كان قد أتاها بشئ — فقال كان عندى ضاغط . قالت كنت أميناً عندرسول الله وأبي بكر فبعث عمر معك ضاغطا وقامت بذلك بين نسائها واشتكت عمر فلما بلغه ذلك دعا معاذا وقال بعثت معك ضاغطا . قال ما أجد ما أعتذر به اليها الا ذلك فضحك عمر وأعطاه شيأ فقال أرضها به . ومعنى قوله ضاغطا رقيبا وأراد به الله تعالى . وكان النخعى اذا طلبه من يكره أن يخرج اليه وهو فى الدار قال للجارية قولى له أطلبه فى المسجد ولا تقولى ليس ههنا كيلا يكون كذبا ومما تباح به المعاريض قصد تطييب قلب الغير بالمزاح كقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ لايَدْخُلُ الجَنَّةَ عَجُوزٌ ﴾ وقوله للأخرى ﴿ الذى فى عين زَوْجِكِ بياضٌ ﴾ وللأخرى ﴿ نَحْمِلُكِ عَلىوَلَدِ البعيرِ ﴾ كما تقدّم *

ومما يتسامح به ماجرت به العادة فى المبالغة كقوله : قلت لك كذامائة مرّة فانه لايريد به تفهيم المرات بعددها بل تفهيم المبالغة إلا أنه اذا لم يكن قال ذلك إلاّ مرّة واحدة كان كاذبا *

وأما مايعتاد التساهل به فى الكذب في مثل أن يقال كل الطعام فيقول لا أشتهيه فذلك منهي عنه وهو حرام ان لم يكن فيه غرض صحيح ومثل ذلك أن يقول يعلم الله فيما لايعلمه *

وأما الكذب في حكاية المنام فالإثم فيه عظيم وفى الحديث ﴿ إنّ مِنْ أعظَمِ الفِريةِ أن يَدَّعِيَ الرَّجلُ إلى غَيرِ أبيهِ أو يُرِي عَينَيْهِ فى المَنامِ مالم يرَ أو يقولُ عليّ مالم أقُلْ ﴾ *

﴿ الآفة الخامسة عشر الغيبة ﴾

قد نص الله سبحانه على ذمها فى كتابه الكريم وشبّه صاحبها بآكل لحم الميتة فقال تعالى ﴿ولا يَغتَب بَعضُكم بَعضاً أيُحِبُّ أحَدُكم أن يأكُلَ لحمَ أخيهِ مَيتاً فكرِهتُمُوهُ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ كُلُّ المُسلِمِ عَلى المُسلِمِ حَرَامٌ دَمهُ ومالهُ وعِرضُهُ ﴾ والغيبة تتناول العرض . وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ يامَعشَرَ مَنْ آمَنَ بلسانه ولم يؤمِنْ بِقَلبهِ لاتَغتابوا المُسلمينَ ولا تَتَبَّعُوا عَورَاتِهِم فإنّهُ مَن تَتَبَّعَ عَورَةَ أخيهِ تَتَبَّعَ اللهُ عَورَتَهُ . ومَن تَتَبَّعَ عَورَتَهُ يفضَحهُ ولو فى جَوفِ بَيتِهِ ﴾ وعن مجاهد أنه قال فى قوله تعالى ﴿ وَيل لِكُلِّ همَزَةٍ لمَزَةٍ ﴾ الهمزة الطعّان فى الناس واللمزة الذى يأكل لحوم الناس . وقال بعضهم : أدركنا السلف وهم لا يرُون العبادة فى الصوم ولا فى الصلاة ولكن في الكف عن اعراض الناس . وقال ابن عباس : اذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك *

﴿ بيان معنى الغيبة وحدودها ﴾

اعلم أن حدّ الغيبة أنْ تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه سواء ذكرته بنقص فى بدنه ونسبه أو فى خُلقه أو في فعله أو فى قوله أو فى دينه أو فى دنياه حتى

فى ثوبه وداره ودابته . أما البـدن فذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة وجميع مايتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان وأما النسب فبأن تقول أبوه فاسـق أو خسيس أو زبال أو نحوه مما يكرهه . وأما الخُلق فبأن تقول سيئ الخلق بخيل متكبر مراء شـديد الغضب جبان متهوّر وما يجرى مجراه . وأما فى أفعاله فكقولك هو سارق كذاب شارب خمر خائن ظالم متهاون بالصلاة أو الزكاة لا يحترز من النجاسات ليس باراً بوالديه ونحوه . وأما فعله فكقولك أنه قليـل الأدب متهاون بالناس كثير الـكلام كثير الأكل نؤوم يجلس فى غير موضـعه . وأما فى ثوبه فكقولك انه واسع الـكم طويل الذيل وسخ الثياب ونحوه *

والقول الجامع في الغيبة ماجاء من قوله صـلى الله عليه وسـلم ﴿ الغيبة ذِكْرُكَ أخاكَ بما يكرَهُ ﴾ وانما حرم الذكر باللسان لما فيـه من تفهيم الغـير نقصان أخيه وتعريفه بما يكرهه ولذا كان التعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول . والاشارة والايماء والغمز والهمز والـكتابة والحركة وكلّ مايُفهِمُ المقصودَ فهو داخل فى الغيبة ـ وهو حرام . فمن أومأ بيده الى قصر أحد أو طوله أو حاكاه فى المشى كما يمشى فهو غيبة . والكتابة عن شخص فى عيب به غيبة لأن القلم أحد اللسانين . وكذا قولك من قدم من السفر أو بعض من مرّ بنا اليوم اذا كان المخاطب يفهمه فهو غيبة . وكذا من يفهم عيب الغير بصيغة الدعاء كقوله الحمد لله الذي لم يبتلينا بكذا . وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول ما أحسن أحوال فلان لـكن ابتلى بما يبتلى به

كلنا وهو كذا فيذكر نفسه ومقصوده أن يذم غيره فى ضمن ذلك . ومن ذلك أن يذكر عيب انسان فلا يتنبه له بعضُ الحاضرين فيقول سبحان الله ما أعجب هذا حتى يصغى اليه ويعلم مايقول فيذكر الله تعالى ويستعمل اسمه آلة له فى تحقيق خبثه . وكذلك يقول ساءنى ما جرى على صديقنا من الاستخفاف به فيكون كاذبا فى دعوى الاغتمام لأنه لو اغتم به لاغتمّ باظهار ما يكرهه . وكذلك يقول ذلك المسكين قد بلى بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه وهو فى كل ذلك يظهر الدعاء والله مطلع على خبث ضميره وخفىّ قصده وهو لجهله لايدرى أنه قد تعرض لمقت عظيم . ومن ذلك الاصغاء الى الغيبة على سبيل التعجب فانه انما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب فى الغيبة فيندفع فيها وكأن يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول عجيب ماعلمت أنه كذلك كنت أحسب فيه غير هذا . عافانا الله من بلائه فان كل ذلك تصديق للمغتاب والتصديق بالغيبة غيبة بل الساكت شريك المغتاب الا أن ينكر بلسانه أو بقلبه ان خاف وفى الحديث ﴿ مَنْ اذِلَّ عِنْدَهُ مُؤْمِنٌ فَلَم يَنصُرْهُ وهُوَ يَقدِرُ عَلى نَصرِهِ أذلَّه اللهُ يومَ القِيامةِ على رُؤُوسِ الخَلائِقِ ﴾ وفى رواية ﴿ مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أخيهِ بالغَيب كانَ حقا على اللهِ أن يَرُدَّ عَنْ عِرضِهِ يومَ القِيامةِ ﴾ *

﴿ الأسباب الباعثة على الغيبة ﴾

منها التشفى وذلك اذا جرى سبب غضب به عليه فانه اذا هاج غضبه فيشتفى بذكر مساوئه . فسبقُ اللسان اليه بالطبع ان لم يكن ثم دين وازع .

وقد يمتنع تشفى الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب فى الباطن فيصير حقدا ثابتا فيكون سببا دائما لذكر المساوئ . فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة *

(ومنها) موافقة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام فانهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الاعراض فيرى انه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة . وقد يغضب رفقاؤه فيضطر الى أن يغضب لغضبهم اظهاراً للمساهمة في السراء والضراء فيخوض معهم فى ذكر العيوب والمساوئ *

(ومنها) ارادة التصنع والمباهاة وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره *

(ومنها) الحسد يحسد من يثنى الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلا اليه الا بالقدح فيه حتى يكفوا عن الثناء عليه واكرامه لانه يثقل عليه ذلك *

(ومنها) اللعب والهزل وتزجية الوقت بالضحك فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة والتعجب *

(ومنها) السخرية والاستهزاء إستحقاراً له ومنشؤه التكبر واستجهال المستهزأ به *

وثمة أسباب غامضة فيها دسائس للشيطان وهي أن يذكر اسم إنسان فى حالة التعجب أو الرحمة والغضب لله تعالى فيقول مثلا . تعجبت من فلان كيف يجلس بين يدى فلان وهو جاهل . فيكون تعجبه من المنكر

لصدقه أو يقول مسكين فلان غمنى أمره وما ابتلى به . وهوصادق فى الاغتمام وكذا قد يتغضب على منكر قارفه انسان فيظهر غضبه و يذكر اسمه . والواجب فى ذلك ستر اسمه وعدم اظهاره على غيره ولا عذر فى ذكر الاسم فى ذلك*

﴿ بيان العلاج الذى به يمنع اللسان عن الغيبة ﴾

اعلم ان مساوئ الاخلاق كلها انما تعالج بمعجون العلم والعمل وعلاج كف اللسان عن الغيبة اجمالا أن يعلم انه يتعرض لسخط الله تعالى اذا اغتاب لارتكابه ما نهى الله عنه . فمهما آمن العبد بما ورد من الاخبار فى الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفا من ذلك . وينفعه أيضاً أن يتدبر فى نفسه فان وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه وذكر قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَن عُيُوبِ النَّاسِ ﴾ ومهما وجد عيبا فينبغى أن يستحى من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره بل ينبغى أن يتحقق ان عجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذلك العيب كعجزه . وهذا ان كان ذلك عيبا يتعلق بفعله واختياره وان كان أمرا خلقيا فالذم له ذم للخالق فان من ذم صنعة فقد ذم صانعها . واذا لم يجد العبد عيبا فى نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب فان ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب . بل لو أنصف لعلم ان ظنه بنفسه انه برىء من كل عيب جهل بنفسه وهو من أعظم الذنوب . وينفعه أيضا أن يعلم ان تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له فاذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب فينبغى أن لا يرضى لغيره مالا يرضاه لنفسه وبالجملة فمن قوى ايمانه انكف عن الغيبة لسانه*

﴿ بيان تحريم الغيبة بالقلب وذلك بسوء الظن ﴾

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوئ الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك . ولست أعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره ظناً بأمر سيئ . فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه ولكن المنهي عنه أن يظن. والظن عبارة عما تركن اليه النفس ويميل اليه القلب فقد قال تعالى ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا اجتَنِبُوا كثيراً من الظَنّ إنّ بعضَ الظنّ إثمٌ ﴾ وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب فليس لك أن تعتقد في غيرك سوأ الا اذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل فان لم ينكشف كذلك فانما الشيطان يلقيه اليك فينبغي أن تكذبه فانه أفسق الفساق وقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا إن جاءكم فاسِقٌ بِنَبأ فَتَبيَّنوا أن تُصيبُوا قَوماً بجهالة ﴾ وفي الحديث ﴿ إنّ اللهَ حرَّمَ مِن المسلم دَمهُ ومالهُ وأنْ يُظَنَّ بهِ ظنّ السُّوء ﴾ وحينئذ فاذا خطر لك وسواسُ سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر (فان قلت) فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث (فنقول) أمارة عقد الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفوراً ما ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاغتمام بسببه . والمخرج منه أن لا يحققه أي لا يحقق في نفسه بعقد ولا فعل لا في القلب ولا في الجوارح . وربما يلقي الشيطان أن هذا من فطنتك وسرعة

تنبهك وذكائك وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى – وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته . ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه فى السرّ ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك الى اغتيابه *

ومن ثمرات سوء الظن (التجسّس) فان القلب لايقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضاً منهى عنه قال الله تعالى ﴿ ولا تَجَسَّسُوا ﴾ فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهى عنه في آية واحدة . ومعنى التجسس أن لايترك عباد الله تحت ستر الله فيتوصل الى الاطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له مالو كان مستورا عنه كان أسلم لقلبه ودينه وقدمضى فى كتاب الأمر بالمعروف حكم التجسس وحقيقته *

﴿ بيان الأعذار المرخصة فى الغيبة ﴾

اعلم أنه اذا لم يمكن التوصل الى غرض صحيح فى الشرع إلا بذكر مساوئ الغير فانه يرخص فيه ولا اثم وذلك فى أمور منها التظلم وذلك كمظلوم يرفع ظلامته على انسان الى أمير ليستوفى له حقه إذ لايمكنه استيفاء حقه الا بنسبته الى الظالم . قال صلى الله عليه وسلم ﴿إنّ لِصاحِبِ الحقّ مَقالاً﴾ وعنه ﴿ مَطْلُ الغنِيّ ظلمٌ ﴾ ومنها الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصى الى منهج الصلاح *

ومنها الاستفتاء كما يقول للمفتى ظلمنى أبى أو زوجتى أو أخي اذا لم يفد الابهام أو التعريض . وذلك لما روى عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : ان أبا سفيان رجل شحيح لايعطينى ما يكفيني و ولدى

أفآخـذ من غير علمه فقال ﴿ خُـذى ما يَكفيكِ وولدِكِ بِالمَعرُوفِ ﴾ فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يزجرها عليـه السلام اذ كان قصدها الاسـتفتاء ومنها تحذير المسلم من الشر كما اذا علمت من انسان ضرراً فحذرت شخصاً منـه وكالمزكي يطعن فى الشاهد اذا سئل عنـه وكذلك المستشار فى التزويج وايداع الأمانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لاعلى قصد الوقيعة *

ومنها أن يكون الانسان معروفا بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج والأعمش فلا حرج فى ذكره لضرورة التعريف ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهورا به . نعم ان وجد عنه معدلا وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى ولذلك يقال للأعمى البصير عدولا عن اسم النقص *

ومنها أن يكون مجاهراً بالفسق متظاهرا به ولا يكره أن يذكر به فلا غيبة له بما يتظاهر به *

﴿ بيان كفارة الغيبة ﴾

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسـف على ما فعله ليخرج من حق الله سـبحانه ثم يستحل المغتاب ليحلّه فيخرج من مظلمته ان قدر عليه ولم يخش محذورا وقال الحسن يكفيه الاستغفار دون الاستحلال وفى الحديث : أيعجز أحـدكم أن يكون كأبى ضمضم كان اذا خرج من بيته قال اللهم انى قد تصدقت بعرضى على الناس . أى لا أطلب مظلمة فى القيامة

منه ولا أخاصمه . وليس المراد اباحة تناول عرضه بل العفو عن جريمته وقد قال تعالى ﴿ خُذِ العفوَ وأمُرْ بالعُرفِ وأعرِضْ عن الجاهِلينَ ﴾ وفي الحديث أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ اللهَ تَعالى يأمُرُكَ أن تَعفُوَ عَمَّنْ ظَلَمكَ وتَصِلَ من قَطَعكَ وتُعطِيَ من حَرَمكَ ﴾ *

(الآفة السادسة عشر النميمة)

قال الله تعالى ﴿ هَمّازٍ مشّاءٍ بِنَميمٍ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَيلٌ لِكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ قيل الهمزة النمام وقال تعالى ﴿ حَمّالةَ الحَطَبِ ﴾ قيل أنها كانت نمامة حمالة للحديث وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لا يَدخلُ الجنّةَ نمّامٌ ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ أحبُّكم إلى اللهِ أحاسِنُكم أخلاقاً . الموَطّئونَ أكنافاً[1] الذينَ يألفونَ ويُؤلفونَ وإنَّ أبغَضَكُمْ إلى اللهِ المشّاؤونَ بالنميمةِ المفرِّقونَ بينَ الإخوانِ الملتَمِسُون لِلبُرَءاءِ العَثَراتِ ﴾ *

وحد النميمة هو كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول اليه أو كرهه ثالث . وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالايماء . وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال . وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً في المنقول عنه أو لم يكن . بل حقيقة النميمة افشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه . بل كل ما رآه الانسان من أحوال الناس فينبغي أن يسكت عنه الا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية كما اذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود عليه *

---

(١) فلان موطأ الأكناف كمعظم الجوانب كريم مضياف اهـ قاموس

والباعث على النميمة اما ارادة السوء للمحكيّ عنه أو اظهار الحب للمحكيّ له أو التفرّج بالحديث والخوض في الفضول والباطل *

وكل من حملت اليه نميمة فعليه أن لا يسارع الى ظن صدقه لقوله تعالى ﴿ إنْ جاءكُمْ فاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبيَّنُوا ﴾ وأن ينهاه وينصح له وأن لا يظن بالغائب سوأ وأن لا يحمله ذلك على التجسس *

وقال الحسن : من نمّ اليك نمّ عليك . وهذا اشارة الى أن النمام ينبغي أن يبغض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته وكيف لا وهو لا ينفك عن الغدر والخيانة والافساد بين الناس وهو ممن يسعى فى قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض وقال تعالى ﴿ إنَّما السَّبيلُ عَلى الَّذينَ يَظْلِمُونَ النّاسَ وَيَبْغُونَ فى الأَرْضِ بِغَيرِ الحَقِ ﴾ والنمام منهم وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنَّ مِنْ شِرَارِ النّاسِ مَنِ اتقاهُ الناسُ لِشرِّهِ ﴾ والنمام منهم . وقيل لمحمد بن كعب القرظى : أيُّ خصال المؤمن أوضع له فقال كثرة الكلام وافشاء السرّ وقبول قول كل أحد . وقال بعضهم : لو صح ما نقله النمام اليك لكان هو المجترئ بالشتم عليك والمنقول عنه أولى بحلمك لأنه لم يقابلك بشتمك *

﴿ الآفة السابعة عشر كلام ذى الوجهين ﴾

. وهو ذو اللسانين الذى يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه من الثناء عليه فى معاداته وذمه الآخر ووعده بأن ينصره على خصمه . وهو من علامات النفاق . نعم اذا دخل على متعاديين وجامل كل

واحد منهما وكان صادقا فيه لم يكن ذا لسانين ولا منافقا فان الانسان قد يصادق متعاديين . وأما لو نقل كلام كل واحد منهما الى الآخر فهو ذو لسانين وهو شرّ من النمام لأن النمام ينقل من أحد الجانبين فقط وهذا يزيد النقل من الجانب الآخر ويزيد أن يحسّن لكل واحد منهما ماهو عليه من المعاداة مع صاحبه . نعم من ابتلى بمراعاة أحد الجانبين فى قول مّا لضرورة وخاف من تركه فهو معذور فان اتقاء الشر جائز . قال أبوالدرداء رضي الله عنه : انا لنكشر فى وجوه أقوام وأن قلوبنا لتلعنهم . وقالت عائشة استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال(ائذنواله فبئس رجل العشيرة هو) ثم لما دخل ألان له القول فلما خرج قلت يارسول الله قلت فيه ماقلت ثم ألنت له القول فقال (ياعائشة ان شرّ الناس الذى يُكرَمُ اتقاء شرّه) ولكن هذا ورد فى الاقبال وفي الكشر والتبسم . والا فلا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس فى معرض التقرير على كل كلام باطل . فان فعل ذلك فهو منافق بل ينبغي أن ينكر فان لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه . وللضرورات حكمها *

﴿ الآفة الثامنة عشر المدح ﴾

وهو منهى عنه فى بعض المواضع . أما الذم فهوالغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمهما . والمدح يدخله ست آفات أربع من المادح واثنتان فى الممدوح فأما المادح فالأولى أنه قد يفرط فيه فينتهى به الى الكذب والثانية أنه قد يدخله الرياء فانه بالمدح مظهر للحب وقد لا يكون مضمراً له ولا معتقداً

لجميع مايقوله فيصير به مرائيا منافقا والثالثة أنه قد يقول مالا يتحققه ولا سبيل له الى الاطلاع عليه والرابعة أنه قد يُفرحُ الممدوحَ وهو ظالم أو فاسق . وذلك غير جائز قال الحسن : من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله في الأرض *

وأما الممدوح فيضره من وجهين (أحدهما) أنه يحدث فيه كبراً واعجابا وهما مهلكان (الثانى) هو أنه اذا أثنى عليه فرح وفتر ورضى عن نفسه وقل تشميره للعمل *

فان سلم المدح من هذه الآفات في حق المادح والممدوح لم يكن به بأس بل ربما كان مندوبا اليه *

وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور ويتذكر أنه يعلم من نفسه مالا يعلمه المادح وانه لو انكشف له جميع أسراره وما يجرى على خواطره لكف المادح عن مدحه . وكان علىّ رضى الله عنه اذا أثنى عليه يقول . اللهم اغفر لى مالا يعلمون . ولا تؤاخذنى بما يقولون . واجعلنى خيرا مما يظنون * وعلى المادح أن لا يجزم القول الا بعد خبرة باطنه . سمع عمر رضى الله عنه رجلا يثنى على رجل فقال أسافرت معه قال لا قال أخالطته فى المبايعة والمعاملة قال لا قال فأنت جاره صباحه ومساءه قال لا . فقال والله الذى لا اله الا هو لا أراك تعرفه . وفي الحديث ﴿ إِن كانَ أحَدُكم لا بدّ مَادِحاً أخاه فَلْيَقُلْ أَحْسِبُ فُلاَناً ولا أُزَكّي عَلى اللهِ أحَدًا ﴾

﴿ الآفة التاسعة عشر الخطأ فى دقائق لفظية ﴾

ينبغي التنبه لدقائق الخطأ في فحوى الكلام والحذر عن الغفلة عنها لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته . مثاله ماجاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم ﴿ لايَقُلْ أحدُكُم ماشاء اللهُ وَشِئْتُ ولَكِنْ لِيَقُلْ ماشاء اللهُ ثمّ شِئْتُ ﴾ وذلك لأن فى العطف المطلق تشريكا وتسوية وهو على خلاف الاحترام وكان ابراهيم يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله و بك . ولولا الله وفلان . ويجوّز أن يقول أعوذ بالله ثم بك ولولا الله ثم فلان وعن ابن عباس رضى الله عنهما : ان أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه فيقول لولاه لسرقنا الليلة *

وقال عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ اللهَ تَعالى يَنهاكم أن تَحلِفوا بِآبائِكُمْ ﴾ قال عمر : فوالله ماحلفت بها منذ سمعتها *

وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لاَ يَقولَنَّ أحَدُكم عَبدِى وَلاَ أَمَتِي كُلُّكُمْ عَبيدُ اللهِ وَكلُّ نِساءكم إماء اللهِ وَلْيَقلْ غُلاَمِي وَجارِيَتِي وَلا يَقلِ المَملوكُ رَبّى وَلا رَبَّتِى وَلْيَقلْ سيِّدِى وَسيِّدَتى فكلكم عبيدُ اللهِ وَالرّبُّ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى ﴾ *

وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لاَ تقولوا لِلمُنافِقِ سيِّدُنا فإنّهُ إن يَكن سيّدَكُم فَقَدْ أسخَطْتُم رَبَّكُمْ ﴾ *

فعلى المتكلم أن يوافقه ورع حافظ ومراقبة لازمة ليسلم عن الخطر *

﴿ الآفة العشرون سؤال العوام عن الغوامض ﴾

من حق العوام الاشتغال بالعمل الصالح الا أن الفضول خفيف على القلب والعاميّ قد يفرح بالخوض فى العلم إذ الشيطان يخيل اليه أنك من العلماء وأهل الفضل ولا يزال يحبب اليه ذلك حتى قد يتكلم بما هو كفر ولا يدرى . وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم فانه بالاضافة اليه عامي . وفى الحديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال واضاعة المال وكثرة السؤال . وفى قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه اذقال ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِى فلا تَسْأَلنى عَنْ شَيْءٍ حتَّى أُحدِثَ لكَ مِنهُ ذِكْرًا ﴾ فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال ﴿ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِى مِنْ أَمرِي عُسرًا ﴾ فلما لم يصبر حتى سأل ثلاثا قال ﴿ هذَا فِرَاقُ بيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ وفارقه فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات فيجب منعهم من ذلك وزجرهم *

كتاب ذم الغضب

﴿ والحقد والحسد ﴾

ان الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة وأنها لمستكنة فى طيّ الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد ويستخرجها الكبر

الدفين فى قلب كل جبار عنيد كاستخراج الحجر النار من الحديد وقد انكشف للناظرين بنور اليقين ان الانسان ينزع منه عرق الى الشيطان اللعين فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال خلقتنى من نار وخلقته من طين فان شأن الطين السكون والوقار وشأن النار التلظى والاستعار والحركة والاضطراب ومن نتائج الغضب الحقد والحسد وبهما هلك من هلك وفسد من فسد ومفيضهما مضغة اذا صلحت صلح الجسد . واذا كان الحقد والحسد والغضب مما يسوق العبد الى مواطن العطب فما أحوجه الى معرفة معاطبه ومساوءه ليحذر ذلك ويتقيه ويميطه عن القلب ان كان وينفيه وهاك بيان ذلك بعونه تعالى *

﴿ بيان ذم الغضب ﴾

قال الله تعالى (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ) الآية . ذمّ الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل ومدح المؤمنين بما أنزل عليهم من السكينة . وروي أن رجلا قال يارسول الله مرنى بعمل واقلل قال: لاتغضب ثم أعاد عليه فقال . لاتغضب ! وقال صلى الله عليه وسلم (ماتَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُم) قلنا الذى لاتصرعه الرجال قال (لَيْسَ ذَلِكَ وَلَكِنِ الذى يملِكُ نَفسَهُ عِندَ الغَضَبِ) *

وعن جعفر : الغضب مفتاح كل شرّ . وقال بعض الأنصار : رأس الحمق الحدة وقائده الغضب ومن رضى بالجهل استغنى عن الحلم والحلم

زين ومنفعه والجهل شين ومضره والسكوت عن جواب الأحمق جوابه

وقال الحسن : من علامات المسلم قوّة فى دين وحزم فى لين . وايمان فى يقين وعلم فى حلم . وكيس فى رفق . واعطاء فى حق . وقصد فى غنى . وتجمل في فاقة . واحسان فى قدرة . وتحمّل فى رفاقة . وصبر فى شدّة . لا يغلبه الغضب . ولا تجمح به الحمية . ولا تغلبه شهوة . ولا تفضحه بطنة . ولا يستخفه حرصه . ولا تقصر به نيّته . فينصر المظلوم ويرحم الضعيف . ولا يبخل . ولا يبذر . ولا يسرف . ولا يقتر . يغفر اذا ظُلم . ويعفو عن الجاهل . نفسه منه فى عناء . والناس منه فى رخاء *

﴿ درجات الناس مع الغضب ﴾

اعلم أن قوّة الغضب محلها القلب ومعناها غليان دم القلب وانتشاره فى العروق وارتفاعه الى أعالي البدن كما ترتفع النار والماء الذى يغلى فى القدر فلذلك ينصبّ الى الوجه فيحمرّ الوجه والعين ، والبشرةُ لصفائها تحكى لون ماوراءها من حمرة الدم كما تحكى الزجاجة لون مافيها *

ثم ان الناس فى هذه القوة على درجات ثلاث من التفريط والافراط والاعتدال (أما التفريط) ففقد هـذه القوّة أو ضعفها وذلك مذموم وهو الذى يقال فيه أنه لاحمية له .. وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبى صلى الله عليـه وسلم بالشدّة والحمية فقال (أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ) وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم (جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيهِمْ) وانما الغلظة والشدّة من آثار قوة الحمية وهو الغضب *

(وأما الافراط) فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدّين وطاعته ولا يبقى للمرء معه بصيرة وفكرة ولا اختيار بل يصير فى صورة المضطر ومن آثار هذا الغضب فى الظاهر تغيّر اللون . وشدّة الرعدة فى الأطراف . وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام . واضطراب الحركة والكلام حتى يظهر الزبد على الأشداق . وتحمرّ الأحداق . وتنقلب المناخر . وتستحيل الخلقة . ولو رأى الغضبان فى حال غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته . وقبحُ باطنه أعظم من قبح ظاهره . فان الظاهر عنوان الباطن . وانما قبحت صورة الباطن أولا ثم انتشر قبحها الى الظاهر ثانيا فتغيّر الظاهر ثمرة تغيّر الباطن فقس المثمر بالثمرة . فهذا أثره في الجسد *

وأما أثره فى اللسان فانطلاقه بالشتم . والفحش من الكلام الذى يستحى منه ذو العقل ويستحى منه قائله عند فتور الغضب . وذلك مع تخبط النظم . واضطراب اللفظ . *

وأما أثره على الأعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق . والقتل والجرح عند التمكن وقد يمزق ثوب نفسه ويلطم نفسه وقد يضرب بيده على الأرض وربما يعتريه مثل الغشية وربما يضرب الجمادات والحيوانات أو يكسر القصعة أو يشتم البهيمة أو ترفسه دابة فيرفسها ويقابلها بذلك كالمجنون*

وأما أثره فى القلب فالحقد والحسد واضمار السوء والشماتة بالمساءآت والحزن بالسرور والعزم على افشاء السر وهتك الستر والاستهزاء وغير ذلك

من القبائح . فهذه ثمرة الغضب المفرط *

وأما ثمرة الحمية الضعيفة فقلة الأنفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة واحتمال الذل من الأخساء وصغر النفس وهو أيضاً مذموم إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحُرَم وهو صونها قال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ سَعْدًا لَغَيُورٌ وَأَنا أَغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ وَاللهُ أَغْيَرُ مِنى ﴾ وانما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب . ولذلك قيل : كل أمة وُضِعت الغيرة فى رجالها وُضِعت الصيانة فى نسائها *

ومن ضعف الغضب الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات وقد قال تعالى ﴿ وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِما رَأفةٌ فى دينِ اللهِ ﴾ *

ففقدُ الغضب مذموم . وانما المحمود غضب ينتظر اشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحميّة وينطفئ حيث يحسن الحلم . وحفظهُ على حدّ الاعتدال هو الاستقامة التى كلف الله بها عباده . وهو الوسط الذى وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : خير الأمور أوساطها *

﴿ زوال الغضب بالرياضة وغيرها ﴾

اعلم أنه مادام الانسان يحب شيأ ويكره شيأ فلا يخلو من الغيظ والغضب لأنه من مقتضى الطبع إلاّ أنه قد تفيد الرياضة فى محو قوّته وذلك بالمجاهدة وتكلف الحلم والاحتمال مدّة حتى يصير الحلم والاحتمال خلقا راسخاً فالرياضة ليست لينعدم غيظ القلب لأنه غير ممكن . ولكن ليستعمله على حدّ يستحبه الشرع ويستحسنه العقل وذلك بكسر سورته وتضعيفه حتى لا يشتد هيجان

الغيظ فى الباطن ويتنهى ضعفه الى أن لايظهر أثره في الوجه . وقد يتصوّر فقد الغيظ بغلبة نظر التوحيد أو بأن يعلم أن الله يحب منه أن لايغتاظ فتطفىء شدّة حبه لله تعالى غيظه . أو بأن يشتغل القلب بضرورى أهم من الغضب فلا يكون فى القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره فان استغراق القلب ببعض المهمات يمنع الاحساس بما عداه *

* بيان الأسباب المهيجة للغضب *

قد عرفت أن علاج كل علة بحسم مادّتها وازالة أسبابها فلا بدّ من معرفة أسباب الغضب . وأسبابه المهيجة له هى الزهوّ . والعجب . والمزاح . والهزل . والهزء . والتعيير . والمماراة . والمضادة . والغدر . وشدة الحرص على حصول المال والجاه . وهى بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعا ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب . فلا بدّ من إزالتها بأضدادها. فينبغي أن تميت الزهوّ بالتواضع . وتميت العجب بمعرفتك بنفسك . وتزيل الفخر بأنك من جنس أقل مخلوق إذ الناس يجمعهم فى الانتساب أب واحد وانما الفخر بالفضائل . والفخر والعجب أكبر الرّذائل . وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التى تستوعب العمر وتفضل عنه . وأما الهزل فتزيله بالجد فى طلب الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم الدينية التى تبلغك الى سعادة الآخرة . وأما الهزء فتزيله بالتكرم على إيذاء الناس وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك . وأما التعيير فبالحذر عن القول القبيح وصيانة النفس عن مرّ الجواب . وأما شدّة الحرص فبالصبر على مرّ العيش وبالقناعة بقدر

الضرورة طلبا لعزّ الاستغناء وترفعاً عن ذلّ الحاجة وكل خلق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات يفتقر فى علاجه الى رياضة وتحمّل مشقة. وحاصل رياضتها الرجوع الى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبحها ثم المواظبة على مواظبة أضدادها مدّة مديدة حتى تصير بالعادة هينة مألوفة على النفس فاذا انمحت عن النفس فقد ذكت وتطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت أيضاً من الغضب الذى يتولد منها. وأشد البواعث للغضب عند أكثر الجهّال تسميتهم الغضب شجاعة وعزّة نفس حتى تميل النفس اليه وتستحسنه وهذا من الجهل بل هو مرض قلب ونقصان عقل ويعالج هذا الجاهل بأن تتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو وما استحسن منهم من كظم الغيظ فان ذلك منقول عن الأنبياء والعلماء *

* بيان علاج الغضب بعد هيجانه *

ماتقدّم هو حسم لموادّ الغضب حتى لا يهيج فاذا جرى سببٌ هيّجه فعنده يجب التثبت حتى لا يضطر صاحبه الى العمل به على الوجه المذموم وانما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل. أما العلم فهو أمور:

(الأوّل) أن يتفكر فيما ورد فى فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال فيرغب فى ثوابه ويمنعه الرغبة فى الأجر عن الانتقام وينطفئ عنه غيظه *

(الثانى) أن يخوّف نفسه بعقاب الله لو أمضى غضبه وهل يأمن من غضب الله عليه يوم القيامة وهو أحوج ما يكون الى العفو *

(الثالث) أن يحذّر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمّر العدوّ لمقابلته والسعي في هدم أغراضه والشماتة بمصائبه وهو لا يخلو عن المصائب فيخوّف نفسه بعواقب الغضب فى الدنيا ان كان لا يخاف من الآخرة *

(الرابع) أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره فى حالة الغضب ويتفكّر فى قبح الغضب فى نفسه ومشابهة صاحبه للكلب الضارى والسبع العادى ومشابهة الحليم الهادى التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء فى عادتهم لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء ان كان قد بقى معه مسكة من عقل *

(الخامس) أن يتفكر فى السبب الذى يدعوه الى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ مثل قول الشيطان له أن هذا يُحمَل منك على العجز والذلة وتصير حقيراً فى أعين الناس . فيقول لنفسه ما أعجبك تأنفين من الاحتمال الآن . ولا تأنفين من خزى يوم القيامة . ولا تحذرين من أن تصغرى عند الله والملائكة والنبيين . فمها كظم الغيظ فينبغى أن يكظمه لله . وذلك يعظمه عند الله فماله وللناس *

وأما العمل فأن تقول بلسانك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وان كنت قائما فاجلس وان كنت جالسا فاضطجع ويستحب أن يتوضأ بالماء البارد فان الغضب من النار والنار لا يطفئها إلاّ الماء *

﴿ فضيلة كظم الغيظ ﴾

قال الله تعالى (وسارِعُوا الى مَغفِرَةٍ من رَبِّكم وجَنَّةٍ عَرْضُها السمواتُ والأرضُ أُعِدَّتْ للمتَّقين الذين يُنفقون فى السَّرَّاء والضَّرَّاء والكاظمينَ الغَيظَ والعافِينَ عن النَّاسِ واللهُ يُحبُّ المحسنين) دلت الآية على أن الكاظمين من المتقين وان مغفرة ربهم تنالهم وجنته أعدّت لهم فما أفضل هذا الجزاء وقال صلى الله عليه وسلم (مَن كَفَّ غَضبَهُ كَفَّ اللهُ عنهُ عذابَهُ ومَنِ اعتذَرَ الى ربّهِ قَبِلَ اللهُ عُذرَهُ ومَنْ خَزَنَ لِسانَهُ سَترَ اللهُ عورتَهُ) وقال صلى الله عليه وسلم (أشَدُّكم مَن غَلَبَ نفسَهُ عند الغضبِ وأحلَمُكم مَن عفا عند القُدرة) وروى أن رجلا من جفاة الأعراب قال لعمر رضى الله عنه والله ما تقضى بالعدل ولا تعطى الجزل فغضب عمر حتى عرف ذلك فى وجهه فقال له رجل يا أمير المؤمنين ألم تسمع قول الله تعالى (خُذِ العفوَ وأْمُرْ بالعُرفِ واعرِضْ عن الجاهلين) وإن هذا من الجاهلين فسكن عمر رضى الله عنه وعفا عنه *

﴿ فضيلة الحلم ﴾

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم أى تكلف الحلم ولا يحتاج الى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ويحتاج فيه الى مجاهدة شديدة ولكن اذا تعوّد ذلك مدة صار ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ وان هاج فلا يكون فى كظمه تعب وهو الحلم الطبيعي وهو دلالة

كمال العقل واستيلائه وانكسارقوة الغضب وخضوعها للعقل ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفا وفى الحديث (إنما العلمُ بالتعلمِ والحِلْمُ بالتحلمِ) اشارة الى أن اكتساب الحلم طريقه التحلم أولا وتكلفه كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم وعنه صلى الله عليه وسلم (إنّ الرجلَ المسلمَ لَيُدرِكُ بالحلمِ درَجةَ الصائمِ القـائمِ) وعن الحسن فى قوله تعالى (وإذا خاطَبَهمُ الجاهِلونَ قالوا سَلَاَماً) قال حلماء إن جُهل عليهم لم يجهلوا وعن مجاهد فى آية (وإذا مَرُّوا باللغوِ مَرُّوا كِرَاماً) أى اذا أوذوا صفحوا وعن علىّ رضى الله عنـه ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولـكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك وأن لاتباهى الناس بعبادة الله واذا أحسنت حمدت الله تعالى واذا أسأت استغفرت الله تعالى وقال أكثم دعامة العقل الحلم وجماع الأمر الصبر وقال معاوية لا يبلغ العبد مبلغ الرأى حتى يغلب حلمه جهله وصبره شهوته ولا يبلغ ذلك إلا بقوّة العلم وقال معاوية لعمرو بن الاهتم أى الرجال أشجع قال من ردّ جهله بحلمه قال أى الرجال أسخى قال من بذل دنيـاه لصلاح دينه وقال معاوية لعرابة بم سدت قومك قال كنت أحلم عن جاهلهم وأعطى سائلهم وأسعى فى حوائجهم فمن فعل مثل فعلى فهو مثلى ومن جاوزنى فهو أفضل منى ومن قصّر عنى فأنا خير منه وقال أنس بن مالك فى قوله تعالى (إدفَعْ بالَّتى هىَ أحسنُ فإِذا الذى بَينَكَ وبَينَهُ عداوَةٌ كأنهُ وَلِى حَميمٌ وما يُلقّاها إلاّ الذين صَبرُوا وما يُلقّاها إلاّ ذو حَظٍّ عظيمٍ) هو الرجل يشـتمه أخوه فيقول إن كنتَ كاذبا فغفر الله لك وإن كنت صادقا فغفر الله لى وعن

عليّ بن الحسين رضى الله عنهما انه سبّه رجل فرمى اليه بخميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم فقال بعضهم جمع له خمس خصال محمودة الحلم . وإسقاط الأذى وتخليص الرجل مما يبعده من الله عزّ وجل . وحمله على الندم والتوبة ورجوعه الى المدح بعد الذم اشترى جميع ذلك بشىء من الدنيا يسير *

﴿ بيان القدر الذى يجوز به الانتصار من الكلام ﴾

اعلم أن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابلته بمثله فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ولا مقابلة التجسس بالتجسس ولا السبّ بالسبّ وكذلك سائر المعاصى وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مقابلة التعيير فقال (إنِ امرُؤٌ عيَّرَكَ بما فيكَ فلا تعيّرْهُ بما فيهِ) وقال قوم تجوز المقابلة بما لا كذب فيه ـ قالوا ـ والنهى النبوى عن مقابلة التعيير بمثله نهى تنزيه والأفضل تركه ولكنه لا يعصى به ـ قالوا ـ والذى يرخص فيه أن تقول من أنت . ويا أحمق . ويا جاهل . اذ ما من أحد إلا وفيه حمق وجهل فقد آذاه بما ليس بكذب وكذلك قوله يا سيئَ الخلق يا ثلابا للأعراض وكان ذلك فيه . وكذلك قوله لو كان فيك حياء لما تكلمت وما أحقرك فى عينى بما فعلت واستدلوا بالحديث (المستَبّانِ ما قالاَ فعلَى البادِئِ منهما حتّى يَعتَدِى المظلومُ) فأثبت للمظلوم انتصارا الى أن يعتدى *

فهذا القدرهوالذى أباحه هؤلاء وهو رخصة فى الإيذاء جزاء على إيذائه السابق (قال الغزالى) ولا تبعد الرخصة فى هذا القدر ولكن الأفضل تركه فانه يجره الى ما وراءه ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه . والسكوت

عن أصل الجواب لعله أيسر من الشروع فى الجواب والوقوف على حدّ الشرع فيه . ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه فى فورة الغضب ولكن يعود سريعا وفى الحديث (خَيرُ بَنِى آدمَ البَطئ الغضَبِ السَّريعُ الفَئ وشرُّهمُ السَّريعُ الغضَبِ البَطئ الفَئ)

(معنى الحقد ونتائجه الوخيمة وفضيلة الرفق)

اعلم أن الغضب اذا لزم كظمه لعجز عن التشفى فى الحال رجع الى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا . ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه وأن يدوم ذلك ويبقى . وقد قال صلى الله عليه وسلم (المؤمنُ ليس بحَقُودٍ) والحقد ثمرة الغضب والحقد يثمر أمورا منكرة (الأول) الحسد وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه فتغتم بنعمة ان أصابها وتسرّ بمصيبة ان نزلت به وهذا من فعل المنافقين (الثانى) أن يزيد على اضمار الحسد فى الباطن فيشمت بما أصابه من البلاء (الثالث) أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وان طلبك وأقبل عليك (الرابع) وهو دونه أن تعرض عنه استصغارا له (الخامس) أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وافشاء سرّ وهتك ستر وعورة (السادس) أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه (السابع) ايذاؤه بالضرب ومايؤلم بدنه (الثامن) أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو ردّ مظلمة وكل ذلك حرام وأقل درجات الحقد لو احترز عن هذه الآفات الثمانية أن يترك البشاشة أو الرفق والعناية والقيام بحاجاته أو المعاونة على المنفعة له وكله مما ينقص الدرجة فى الدين ويفوت الثواب الجزيل

ولما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح وكان قريبه لأمر مّا نزل قوله تعالى (ولا يَأْتَلِ أُولوا الفَضْلِ منكم والسَّعَةِ أن يُؤْتوا أولِى القُرْبَى ألاَ تحبُّونَ أن يَغفِرَ اللهُ لَكم) فقال أبو بكر نعم نحبّ ذلك وعاد الى الانفاق عليه *

والأولى أن يبقى على ما كان عليه فان أمكنه أن يزيد فى الاحسان مجاهدة للنفس وارغاما للشيطان فذلك مقام الصديقين وهو من فضائل أعمال المقربين *

﴿ فضيلة العفو والاحسان ﴾

اعلم أن معنى العفو أن يستحق حقا فيسقطه ويبرأ عنه من قصاص أو غرامة . قال الله تعالى (خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ) وقال تعالى (وَأن تعفوا أقرَبُ لِلتَّقوَى) وقال صلى الله عليه وسلم (التّواضُعُ لاَ يَزِيدُ العَبدَ إلاّ رِفعَةً فتَوَاضَعُوا يَرْفَعْكم اللهُ والعَفوُ لا يَزِيدُ العَبدَ إلاّ عِزًّا فاعفوا يعِزَّكُمُ اللهُ والصَّدَقةُ لا تَزِيدُ المالَ إلاّ كثْرَةً فتصَدَّقوا يَرحَمكمُ اللهُ) وقال صلى الله عليه وسلم (أفضَلُ أخلاَقِ أهلِ الدُّنيا وَالآخِرَةِ تَصِلُ مَنْ قطَعَكَ وَتُعطِي مَنْ حرَمَكَ وَتَعفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ) وروى عن الحسن البصرى رحمه الله أنه دخل على أمير يعرّض له بالعفو فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام وما صنع به اخوته من بيعهم إيّاه وطرحهم له فى الجب فقال (باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم) وذكر ما لقى من كيد النساء ومن الحبس ثم قال أيها الأمير ماذا صنع الله به. أداله منهم ورفع ذكره

وأعلى كلمته وجعله على خزائن الأرض فماذا صنع حين أكمل له أمره وجمع له أهله قال (لاَ تَثْرِيبَ عَليكمُ اليَوْمَ يَغفِرُ اللهُ لكم وَهُوَ أَرحَمُ الرَّاحِمِينَ) فعفا ذلك الأمير وروي أن ابن مسعود سرقت له دراهم فجعلوا يدعون على من أخذها فقال لهم اللهم ان كان حملته على أخذها حاجة فبارك له فيها وان كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه . وقال معاوية: عليكم بالحلم والاحتمال فاذا أمكنتكم الفرصة فعليكم بالصفح والافضال *

﴿ فضيلة الرفق ﴾

اعلم أن الرّفق محمود ويضادّه العنف والحدّة . والعنف نتيجة الغضب والفظاظةِ . والرفقُ واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة . ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوّة الغضب وحفظها على حدّ الاعتدال . ولأجل هذا أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرفق وبالغ فيه فقال (مَنْ أُعطِيَ حظَّهُ مِنَ الرِّفقِ فقد أُعطِيَ حظَّهُ مِن خيرِ الدُّنيا والآخرةِ . ومن حُرِمَ حظَّهُ مِنَ الرِّفقِ فقد حُرِمَ حظَّهُ من خيرِ الدُّنيا والآخرَةِ) وقال صلى الله عليه وسلم (إذا أحبَّ اللهُ أهلَ بَيتٍ أدخلَ عليهمُ الرِّفقَ) وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة (عليكِ بالرِّفقِ فإنَّهُ لا يدخلُ فى شىءٍ إلاّ زانَهُ ولا يُنزَعُ من شيءٍ إلاّ شانهُ) *

وسر الترغيب فى الرفق والثناء عليه هو كون الطباع الى العنف والحدة أميل . وان كان العنف فى محله حسنا فان الحاجة قد تدعو اليه ولكن على الندور * والكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف فيعطى كل أمر حقه *

﴿ ذم الحسد ﴾

اعلم ان الحسد أيضا من نتائج الحقد الذميم . وللحسد من الفروع الذميمة مالا يكاد يحصى . وقد ورد فى ذمه أخبار كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم (الحَسَدُ يَأْكُلُ الحَسناتِ كما تأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ) وقوله (لاَ تَحاسَدُوا وَلاَ تقاطَعُوا وَلاَ تَباغَضُوا وَلاَ تَدابَرُوا وَكونوا عِبادَ اللهِ إخْوَاناً كما أمرَكُم اللهُ) ومن الآثار * قول بعض السلف . ان أول خطيئة كانت هى الحسد حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته فأبى أن يسجد له فحمله الحسد على المعصية (وعن) ابن سيرين رحمه الله . ما حسدت أحدا على شئ من أمر الدنيا لانه ان كان من أهل الجنة فكيف أحسده على أمر الدنيا وهى حقيرة في الجنة وان كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير الى النار وقال بعضهم الحاسد لاينال من المجالس إلاّ مذمة وذلا ولا ينال من الملائكة إلاّ لعنة وبغضاً ولا ينال من الخلق إلاّ جزعا وغما ولا ينال عند الموقف إلاّ فضيحة ونكالا *

﴿ حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ﴾

الحسد نوعان (أحدهما) كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه (وثانيهما) عدم محبة زوالها وتمنى مثلها وهذا يسمى غبطة فالأوّل حرام بكل حال الا نعمة أصابها فاجر وهو يستعين بها على محرم كافساد وايذاء فلايضر محبة زوالها عنه من حيث هى آلة الفساد ويدل على تحريم الحسد

الاخبار التي نقلناها وان هـذه الكراهة تسخط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض وذلك لاعذر فيـه ولا رخصة وأيّ معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة والى هذا أشار القرآن بقوله(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا)وهذا الفرح شماتة والحسد والشماتة يتلازمان وقال تعالى (ولا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا) أي لا تضيق صـدورهم به ولا يغتمون فأثنى عليهم بعدم الحسد . وأما المنافسة فليست بحرام بل قد تكون مطلوبة قال تعـالى (وَفِي ذلك فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) وقال تعالى (سابِقوا إِلَى مغفرةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) وقال صلى الله عليه وسلم (لَا حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مالاً فَسَلَّطَهُ على هَلَكَتِهِ في الحقّ وَرَجُلٌ آتاهُ اللهُ عِلماً فَهُوَ يَعملُ بِهِ ويُعلِّمُهُ النّاسَ) فلا حرج على من يغبط غـيره في نعمة ويشتهي لنفسه مثلها مهما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها له . وأما تمنى عين نعمة الغير بانتقالها اليه لرغبته فيها بحيث يكون مطلوبه تلك النعمة لا زوالها فهو مذموم لقوله تعالى (ولا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعضٍ) وأما تمنيه لمثـل ذلك فليس مذموما . فاعرف الفرق *

﴿أسباب الحسد﴾

للحسد المذموم مداخـل كثيرة وأسباب عـديدة (فمنها) العداوة والبغضاء وهذا أشد أسباب الحسد فان من آذاه شخص بسبب من الاسباب وخالفه في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ في نفسه

الحقد . والحقد يقتضى منه التشفى والانتقام . فان عجز المتنغص عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان . وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى . فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه وانها لاجله . ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك لانه ضد مراده وربما يخطر له انه لامنزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذى آذاه بل أنعم عليه وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما . وانما غاية التقى أن لا يبغي وأن يكره ذلك من نفسه (ومنها) التعزز وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره (ومنها) حب الرياسة وطلب الجاه بأن يكون منفردا عديم النظير غير مشارك فى المنزلة يسوءه وجود مناظر له فى المنزلة (ومنها) خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله بحيث يشق عليه أن يوصف عنده حسن حال عبد فيما أنعم عليه ويفرح بذكر فوات مقاصد أحد واضطراب أموره وتنغص عيشه . فهو أبدا يحب الادبار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه . وهذا ليس له سبب ظاهر الا خبث فى النفس ورذالة فى الطبع ومعالجته شديدة لانه خبث فى الجبلة لا عن عارض حتى يتصور زواله . وقد يجتمع بعض هذه الاسباب أو أكثرها أو جميعها فى شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك ويقوى قوة لا يقدر معها على الاخفاء والمجاملة بل ينهتك حجاب المجاملة وتظهر العداوة بالمكاشفة أعاذنا المولى من ذلك بلطفه وكرمه *

﴿ بيان الدواء الذي ينفي مرض الحسد عن القلب ﴾

إعلم أن الحسد من الامراض العظيمة للقلوب ولا تداوى أمراض القلوب الا بالعلم والعمل والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقا أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين وانه لاضرر فيه على المحسود فى الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدوّ نفسك وصديق عدوّك فارقت الحسد لامحالة أما كونه ضررا عليك فى الدين فهو انك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى وكرهت نعمته التى قسمها بين عباده وعدله الذي أقامه فى ملكه بخفيّ حكمته فاستنكرت ذلك واستبشعته وهذه جناية فى حدقة التوحيد وقذى في عين الايمان وناهيك بهما جناية على الدّين وقد انضاف الى ذلك أنك فارقت أولياءه وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى وشاركت ابليس والكفار فى محبّتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم وهذه خبائث في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب . وأما كونه ضرراً فى الدنيا فهو أنك تتألم بحسدك فى الدنيا أو تتعذّب به ولا تزال فى كد وغم إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم فلا تزال تتعذّب بكل نعمة تراها وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم فتبقى مغموماً ضيق الصدر قد نزل بك مايشتهيه الأعداء لك وتشتهيه لأعدائك فقد كنت تريد المحنة لعدوّك فتنجزت فى الحال محنتك وغمك نقدا ولا تزول النعمة عن المحسود بحسدك ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضي

الفطنة ان كنت عاقلا أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءته مع عدم النفع فكيف وأنت عالم بما فى الحسد من العذاب الشديد فى الآخرة فما أعجب ممن يتعرّض لسخط الله من غير نفع يناله بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة . وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح لأن النعمة لاتزول عنه بحسدك . وأما أن المحسود ينتفع به فى الدّين والدنيا فواضح أما منفعته فى الدّين فهو أنه مظلوم من جهتك لاسيما اذا أخرجك الحسد الى القول والفعل بالغيبة والقدح فيه وهتك ستره وذكر مساوءه فهذه هدايا تهديها اليه إذتهدى اليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلساً محروماً كما حرمت فى الدنيا عن النعمة . فاذا تأملت هذا عرفت أنك عدوّ نفسك وصديق عدوّك إذتعاطيت ما تضررت به فى الدنيا والآخرة . وانتفع به عدوّك فى الدنيا والآخرة وصرت مذموماً عند الخالق والخلائق شقيا فى الحال والمآل ونعمة المحسود دائمة شئت أم أبيت باقية ومن تفكّر فى هذا بذهن صاف وقلب حاضر انطفأت نار الحسد من قلبه . وأما العمل النافع فيه فهو أن يكلف نفسه نقيض ما يتقاضاه الحسد وذلك بالتواضع للمحسود والثناء والمدح واظهار السرور بالنعمة فتعود القلوب الى التآلف والتحاب وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض . فهذه هى أدوية الحسد وهى نافعة جداً الا أنها مُرّة على القلوب جداً ولكن النفع فى الدواء المرّ فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء . وانما تهون مرارة هذا الدواء أعنى التواضع للأعداء والتقرب

اليهم بالمدح والثناء بقوة العلم بالمعانى التى ذكرناها وقوة الرغبة فى ثواب الرضاء بقضاء الله تعالى *

كتاب ذم الدنيا

الآيات الواردة في ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة . وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم الى الآخرة بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يبعثوا إلا لذلك . فلا حاجة الى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها . وانما نورد بعض الأخبار الواردة فيها . وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ على شاة ميتة . فقال (أترون هذه الشاة هينة على أهلها) قالوا من هوانها ألقوها قال (والذى نفسى بيده للدُّنيا أهونُ على اللهِ من هذهِ الشّاةِ على أهلها ولو كانَتِ الدُّنيا تَعدِلُ عندَ اللهِ جَناحَ بعُوضةٍ ماسقى كافراً منها شَربةَ ماء) وقال صلى الله عليه وسلم (حبُّ الدُّنيا رَأسُ كلّ خطيئَةٍ) وقال صلى الله عليه وسلم (إنّ الدُّنيا حُلوَةٌ خَضِرَةٌ وإنّ اللهَ مُستخلفُكُم فيها فَناظِرٌ كيفَ تعمَلُون)

﴿ بيان الدنيا المذمومة ﴾

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تكفيك مالم تعرف الدنيا المذمومة . ماهى وما الذى ينبغى أن يجتنب منها وما الذى لا يجتنب فلا بد وأن نبين الدنيا المذمومة المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ما هى . فنقول : دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك . فالقريب الدانى

يسمى دنيا وهو كل ما قبل الموت . والمتراخى المتأخر يسمى آخرة وهو ما بعد الموت . فكل ما لك فيه حظ ونصيب وغرض وشهوة ولذة عاجل الحال قبل الوفاة فهى الدنيا فى حقك إلا أن جميع ما لك اليه ميل وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم بل هو ثلاثة أقسام (القسم الأول) ما يصحبك في الآخرة ويبقى معك ثمرته بعد الموت وهو العلم النافع والعمل الصالح . (القسم الثانى) وهو المقابل له على الطرف الأقصى كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له فى الآخرة أصلا كالتلذذ بالمعاصى كلها والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات والضرورات الداخلة فى جملة الرفاهية والرعونات أى فى السرف فحظ العبد من هذا كله هى الدنيا المذمومة (القسم الثالث) وهو متوسط بين الطرفين كل حظ عاجل معين على أعمال الآخرة وهو ما لا بد منه ليتأتى للانسان البقاء والصحة التى بها يصل الى العلم والعمل وهذا ليس من الدنيا كالقسم الأول لأنه معين على الأول ووسيلة اليه فمهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل لم يكن به متناولا للدنيا ولم يصر به من أبناء الدنيا وكانت الدنيا فى حقه مزرعة للآخرة وان أخذ ذلك بقصد حظ النفس فهو من الدنيا فاذًا الدنيا حظ نفسك العاجل الذى لا حاجة اليه لأمر الآخرة ويعبر عنه بالهوى واليه الاشارة بقوله تعالى (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِىَ الْمَأْوَى) ومجامع الهوى خمسة أمور وهى ما جمعه الله تعالى فى قوله (انما الْحَيَاةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بينكم وَتَكَاثُرٌ فِي الأَموالِ والأَولادِ)

والأعيان التى تحصل منها هذه الخمسة سبعة يجمعها قوله تعالى (زُيِّنَ

لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ المُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنعَامِ وَالحَرثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنيَا) وبالجملة فكل ما ليس لله فهو من الدنيا وما هو لله فذلك ليس من الدنيا *

(بيان حقيقة الدنيا فى نفسها)

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للانسان فيها حظ وله فى اصلاحها شغل وانما الأعيان الموجودة التى الدنيا عبارة عنها فهى الأرض وما عليها قال الله تعالى (إِنَّا جَعَلنَا مَا عَلَى الأَرضِ زِينَةً لَهَا لِنَبلُوَهُم أَيُّهُم أَحسَنُ عَمَلاً) فالأرض فراش للآدميين ومهاد ومسكن ومستقرّ وما عليها لهم ملبس ومطعم ومشرب ومنكح ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام المعادن والنبات والحيوان (أما النبات) فيطلبه الآدمى للاقتيات والتداوى (وأما المعادن) فيطلبها للآلات والأوانى كالنحاس والرصاص وللنقد كالذهب والفضة ولغير ذلك من المقاصد (وأما الحيوان) فينقسم الى الانسان والبهائم أما البهائم فيطلب منها لحومها للمآكل وظهورها للمركب والزينة وأما الانسان فقد يطلب الآدمى ليستخدم كالغلمان أو ليتمتع به كالجوارى والنسوان ويطلب قلوب الناس ثم لملكها بأن يغرس فيها التعظيم والاكرام وهو الذى يعبر عنه بالجاه إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين فهذه هي الأعيان التى يعبر عنها بالدنيا وقد جمعها الله تعالى فى قوله (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ) وهذا من الانس (وَالقَنَاطِيرِ المُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ) وهذا من الجواهر والمعادن وفيه تنبيه على غيرها من اللآلئ واليواقيت وغيرها

(وَالخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنْعامِ) وهي البهائم والحيوانات (وَالحَرْثِ) وهو النبات والزرع . فهذه هي أعيان الدنيا ألا إنّ لها مع العبد علاقتين علاقة مع القلب وهو حبّه لها وحظه منها وانصراف همه اليها حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب المستهتر بالدنيا ويدخل فى هذه العلاقة جميع صفات القلب المتعلق بالدنيا كالكبر والغل والحسد والرّياء والسمعة وسوء الظن والمداهنة وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر وهذه هى الدنيا الباطنة . وأما الظاهرة فهي الأعيان التي ذكرناها . العلاقة الثانية مع البدن وهو اشتغاله باصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره . وهى جملة الصناعات والحرف التى الخلق مشغولون بها . والخلق انما نسوا أنفسهم ومآبهم ومنقلبهم بالدنيا لهاتين العلاقتين علاقة القلب بالحب وعلاقة البدن بالشغل ولو عرف نفسه وعرف ربه وعرف حكمة الدنيا وسرّها علم أن هذه الأعيان التي سميناها دنيا لم تخلق الا لقوامه ليتقوّى بها على إصلاح دينه حتى اذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنه همته وبقى ملازماً لسياسة الشهوات ومراقباً لها حتى لايجاوز حدود الورع والتقوى ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة فقد كانوا على المنهج القصد وعلى السبيل الواضح فانهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية وما كان لهم فى الأمور تفريط ولا إفراط بل كان أمرهم بين ذلك قواماً وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين وهو أحبّ الأمور الى الله تعالى *

كتاب ذم البخل

﴿ وذم المال ﴾

ماذكرناه فى كتاب ذم الدنيا لم يكن نظراً فى المال خاصة بل فى الدنيا عامة . والمال بعض أجزائها الجدير بافراد البحث عنه . إذ فيه آفات وغوائل وللانسان من فقده صفة الفقر ومن وجوده وصف الغنى . وهما حالتان . يحصل بهما الاختبار والامتحان . ثم للفاقد حالتان القناعة والحرص واحداهما مذمومة والأخرى محمودة . وللحريص حالتان طمع فيما فى أيدى الناس وتشمّر للحرف والصناعات مع اليأس عن الخلق . والطمع شرّ الحالتين . وللواجد حالتان إمساك بحكم البخل والشح وانفاق واحداهما مذمومة والأخرى محمودة وللمنفق حالتان تبذير واقتصاد والمحمود هو الاقتصاد وهذه أمور متشابهة وكشف الغطاء عن الغموض فيها مهم ونحن نشرحه بعونه تعالى *

﴿ بيان ذم المال وكراهة حبّه ﴾

قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) وقال تعالى (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) فمن اختار ماله وولده على ماعند الله فقد خسر وغبن خسرانا مبيناً . وقال تعالى (إِنَّ الْإِنْسَانَ

لَيَطْغَى أن رَآهُ استَغْنى) فلا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم . وقال تعالى (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ) وقال صلى الله عليه وسلم (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينارِ وتَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ تَعِسَ ولا انتَعَشَ وَإِذا شِيكَ فلا انْتَقَشَ) بين أن محبهما عابد لهما ومن عبد حجراً فهو عابد صنم أى من قطعه ذلك عن الله تعالى وعن أداء حقه فهو كعابد صنم وهو شرك الا أن الشرك خفى وجلى نعوذ بالله منهما . وقال صلى الله عليه وسلم(يَقولُ ابنُ آدَمَ مَالِي مَالِي وَهَلْ لَكَ مِنْ مالِكَ إلاّ ما أكلْتَ فأفنَيْتَ أو لبِسْتَ فأبلَيْتَ أو تَصَدَّقتَ فأمْضَيْتَ) وقال صلى الله عليه وسلم (ماذِئبانِ ضارِيانِ ارسِلاَ فى غَنَمٍ بأكْثَرَ إفساداً فيها مِنْ حُبِّ الشَّرَفِ والمالِ والجاهِ فى دينِ الرَّجُلِ المُسْلِمِ) وقال صلى الله عليه وسلم (هَلكَ المُكثِرُونَ إلاّ من قالَ بِهِ فى عِبادِ اللهِ هكذا وهكذا وقَليلٌ ماهُمْ) وعن يحيي بن معاذ قال الدرهم عقرب فان لم تحسن رقيته فلا تأخذه فانه ان لدغك قتلك سمّه قيل وما رقيته قال أخذه من حلّه ووضعه في حقه وعنه رحمه الله مصيبتان لم يسمع الأوّلون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند موته قيل وما هما قال يؤخذ منه كله ويسأل عنه كله *

﴿ بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم ﴾

اعلم أن الله تعالى قد سمى المال خيراً فى مواضع من كتابه العزيز فقال جلّ وعزّ (إن تَرَكَ خَيرًا) وقال تعالى ممتناً على عباده (وَيمدُدْكم بأموالٍ وبنينَ وَيَجْعَلْ لكم جنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لكم أنهارا) وقال صلى الله عليه وسلم

(نِعمَ المالُ الصّالحُ للرّجلِ الصّالحِ) ولا تقف على وجه الجمع بين الذمّ والمدح إلاّ بأن تعرف حكمة المال ومقصوده وآفاته حتى ينكشف لك أنه خير من وجه وشرّ من وجه وأنه محمود من حيث هو خير ومذموم من حيث هو شر فانه ليس بخير محض ولا هو شرّ محض بل هو سبب الأمرين جميعاً وما هذا وصفه فيمدح تارة و يذم أخرى *

﴿ بيان تفصيل آفات المال وفوائده ﴾

قدمنا أن المال فيه خير وشرّ فمن عرف فوائده وغوائله أمكنه أن يحترز من شرّه ويستدر من خيره . أما الفوائد فدنيوية ودينية أما الدنيوية فمعروفة . وأما الدينية فتنحصر فى ثلاثة أنواع *

(النوع الأوّل) أن ينفقه على نفسه إما فى عبادة كالسفر للحج والعلم وإما فيما يقويه على العبادة من مطعم وملبس ومسكن ومنكح وضرورات المعيشة . وما لايتوصل الى العبادة إلاّ به فهو عبادة *

(النوع الثانى) مايصرفه الى الناس وهو أربعة أقسام الصدقة . والمروءة ووقاية العرض . وأجرة الاستخدام (أما الصدقة) فلا يخفى ثوابها *

(وأما المروءة) فنعنى بها صرف المال الى الأغنياء والأشراف فى ضيافة وهدية واعانة وما يجرى مجراها فان هذه لايسمى صدقة بل الصدقة مايسلم الى المحتاج إلا أن هذا من الفوائد الدينية إذ به يكتسب العبد الاخوان والأصدقاء وبه يكتسب صفة السخاء ويلتحق بزمرة الأسخياء فلايوصف بالجود إلا من يصطنع المعروف و يسلك سبيل المروءة والفتوة وهذا أيضاً مما

يعظم الثواب فيـه فقد وردت أخبار كثيرة فى الهدايا والضيافات واطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة في مصارفها . وأما وقاية العرض فنعنى به بذل المال لدفع هجو الشعراء وثلب السفهاء ودفع شرهم وهو أيضاً ـ مع تنجز فائدته فى العاجلة ـ من الحظوظ الدينية . فنى الحديث (ماوَقى بهِ المَرْءُ عِرضَهُ كُتِبَ لهُ بهِ صَدَقَةٌ) وكيف لا وفيـه منع المغتاب عن معصية الغيبة واحتراز عما يثور من كلامه من العـداوة التى تحمل فى المـكافأة والانتقام على مجاوزة حـدود الشريعة . وأما الاستخدام فهو أن الأعمال التى يحتاج اليها الانسان كثيرة ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته *

(النوع الثالث) مالا يصرفه الى انسان معين ولـكن يحصل به خيرعام كبناء المساجد والقناطر والرباطات ودور المرضى وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات وهي من الخيرات المؤبدة الدارّة بعد الموت المستجلبة بركة أدعية الصالحين . وناهيك بها خيرا . فهذه جملة فوائد المال فى الدين *

(وأما الآفات) فدينية ودنيوية أما الدينية فثلاث (الأولى) أن تجر الى المعاصى فان المال يحرك داعية المعاصى وارتـكاب الفجور *

(الثانية) أنه يجر الى التنعم فى المباحات والتمرّن عليه حتى يصير مألوفا عنده ومحبوبا لا يصبر عنـه واذا اشتد أنسه به ربما لا يقدر على التوصل اليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات ويخوض فى الكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديئة لينتظم له أمر دنياه ويتيسر له تنعمه وذلك من شؤم المال

(الثالثة) أنه يلهيه اصلاح ماله عن ذكر الله تعالى وكل ما شـغل العبد

عن الله فهو خسران وأما الآفات الدنيوية فكثيرة كالخوف والحزن والغم والهم والتعب في دفع الحساب وتجشم المصاعب فى حفظ المال وكسبه والفكر فى خصومة الشركاء ومنازعتهم . وأودية أفكارالدنيا لانهاية لها . فاذا ترياق المال أخذه من حلّه وصرفه فى الخيرات وما عدا ذلك سموم وآفات نسأله تعالى السلامة والعون بلطفه وكرمه *

﴿ بيان ذمّ الحرص والطمع ومدح القناعة والاقتصاد ﴾

ينبغى للفقير أن يكون قانعاً منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت الى مافى أيديهم ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان لئلا يتدنس بذلّ الحرص فيجره الى مساوىء الأخلاق وارتكاب المنكرات وقد جبل الآدمى على الحرص والطمع وقلة القناعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لوْ كانَ لابْنِ آدَمَ وادِيانِ مِنْ ذَهَبٍ لابتَغَى لهما ثالثاً) وعلاج ذلك لا يكون إلا بأمور (الأوّل) الاقتصاد فى المعيشة والرفق فى الانفاق وهو الأصل فى القناعة فان من كثر خرجه واتسع انفاقه لم تمكنه القناعة وفى الحديث (ماعالَ مَنِ اقتَصَدَ) وعنه صلى الله عليه وسلم (ثَلاَثٌ مُنْجِيَاتٌ خَشْيَةُ اللهِ فى السِّرِّ والعَلاَنِيَةِ والقصدِ فِي الغِنَى والفَقْرِ والعَدْلِ فى الرِّضا والغَضَبِ) وعنه صلى الله عليه وسلم (الاقْتِصادُ وحُسْنُ السَّمْتِ والهَدْىُ الصَّالِحُ جُزْءٌ مِنْ بِضعٍ وعِشرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ) (الثانى) أن يتحقق بأن الرزق الذي قدر له لابد وأن يأتيه وان لم يشتد حرصه (الثالث) أن يعرف مافى القناعة من عزّ الاستغناء وما فى الحرص والطمع من الذل والمداهنة.

(الرابع) أن يكثر تأمله فى تنعم الكفرة والحمقى ثم ينظر الى أحوال الأنبياء والأولياء ويستمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة الفجار أو الأبرار فيهون عليه الصبر على القليل والقناعة باليسير

(الخامس) أن يفهم مافى جمع المال من الخطر كما ذكرنا فى آفات المال. ويتم ذلك بأن ينظر أبداً الى من دونه فى الدنيا لا الى من فوقه ـ فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة وعماد الأمر الصبر *

(بيان فضيلة السخاء)

اعلم أن المال ان كان مفقودا فينبغى أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص وان كان موجوداً فينبغى أن يكون حاله الايثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشحّ والبخل فان السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام وهو أصل من اصول النجاة وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه أحاديث كثيرة منها ﴿ خُلُقان يُحِبُّهُما اللهُ تعالى حسنُ الخُلُقِ والسَّخاءُ وخُلُقانِ يُبغِضُهُما سُوءُ الخُلُقِ والبُخلُ وإذا أرادَ اللهُ بِعَبدٍ خيرًا استَعمَلَهُ فى قضاءِ حوائجِ الناس ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم (إنَّ من موجِباتِ المَغفِرَةِ بَذلَ الطَّعامِ وإفشاءَ السَّلامِ وحُسْنَ الكَلامِ) وقال أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسأل شيأ على الاسلام الا أعطاه وأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة فرجع الى قومه فقال ياقوم اسلموا فان محمدا يُعطى عطاء من لايخاف الفاقة . وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنَّ السَّخى قريبٌ منَ اللهِ قريبٌ منَ الناسِ قريب منَ

الجنة بعيدٌ من النارِ وإنَّ البخيلَ بعيدٌ منَ اللهِ بعيدٌ منَ الناسِ بعيدٌ منَ الجنةِ قريبٌ منَ النار. وجاهلٌ سخيٌّ أحبُّ إلى اللهِ منْ عالمٍ بخيل وأدْوَا الدَّاء البُخلُ » وقال صلى الله عليه وسلم « كلُّ معرُوفٍ صدَقةٌ وكل ما أنفقَ الرَّجلُ على نفسهِ وأهلِهِ كُتِبَ لهُ صدَقةٌ وما وقى بهِ الرَّجلُ عِرضَهُ فَهُوَ لهُ صدَقةٌ وما أنفقَ الرَّجلُ مِن نفَقةٍ فَعلى اللهِ خَلفُها)وقال صلى الله عليه وسلم (كلُّ معرُوف صدَقةٌ والدَّالُ على الخيرِ كفاعِلِهِ واللهُ يُحِبُّ إغاثةَ اللَّهفان)

وعن الحسن بن علي : الكرم هو التبرع بالمعروف قبل السؤال والاطعام في المحل والرأفة بالسائل مع بذل النائل . وعن عبد الله بن جعفر : أمطر المعروف مطرا فان أصاب الكرام كانوا له أهلا وان أصاب اللئام كنت له أهلا . ومن سخاء السلف ماحكي أن ابن عامر اشترى دارا بتسعين ألف درهم فلما كان الليل سمع بكاء أهلها فسأل فقيل يبكون لدارهم فقال ياغلام أيتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعاً وكان الليث ابن سعد لا يتكلم كل يوم حتي يتصدق على ثلثمائة وستين مسكيناً وعن أسماء بن خارجة أن عبد الملك سأله عن خصال حدث بها عنه فأجابه أسماء : مامددت رجلى بين يدى جليس لى قط ولا صنعت طعاماً قط فدعوت عليه قوما الا كانوا أمنَّ عليَّ مني عليهم ولا نصب لى رجل وجهه قط يسألنى شيأ فاستكثرت شيأ أعطيته اياه وعن الشافعي أن حماد بن أبى سليمان انقطع زره وهو راكب فمرَّ على خياط وأراد النزول فبادره الخياط وحلف عليه أن لاينزل وأصلح له زره وهو راكب فأخرج له صرة فيها عشرة دنانير وسلمها له واعتذر اليه من قلتها

قال الشافعى لاأزال أحب حمادا لما بلغنى عنه وأنشد الشافعى لنفسه *

يالهف قلبى على مال أجود به على المقلّين من أهل المروءآت
إنّ اعتذارى الى من جاء يسألنى ماليس عندى من احدى المصيبات

وعن الربيع بن سليمان قال أخذ رجل بركاب الشافعى رحمه الله فقال ياربيع اعطه أربعة دنانير واعتذر اليه عنى وقام رجل الى سعيد بن العاص فسأله فأمر له بمائة ألف درهم فبكي فقال له سعيد مايبكيك قال أبكى على الأرض أن تأكل مثلك فأمر له بمائة ألف أخرى وروى أن علياً كرّم الله وجهه بكى فقيل مايبكيك فقال لم يأتنى ضيف منذ سبعة أيام أخاف أن يكون الله قد أهانني وروى أن رجلا أتى صديقا له فدق عليه الباب . فقال ما جاء بك قال علىّ أربعمائة درهم دين فوزن أربعمائة درهم وأخرجها اليه وعاد يبكى فسألته امرأته فقال ابكى لأنى لم أتفقد حاله حتى أحتاج الى مفاتحتى . فرحم الله مَنْ هذه أخلاقُهم وغفر لهم *

﴿ بيان ذم البخل ﴾

قال الله تعالى ﴿ ومَنْ يوقَ شُحَّ نَفْسهِ فأولئكَ همُ المُفلِحُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا يَحسَبَنَّ الَّذينَ يَبْخَلونَ بِما آتاهمُ اللهُ مِن فَضلِهِ هُوَ خيرًا لهم بَلْ هُوَ شَرٌّ لهم سَيُطَوَّقونَ مابَخِلوا بهِ يومَ القيامَةِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إيَّاكم والشُّحَّ فإنّهُ أهلَكَ مَنْ كانَ قَبلَكُمْ حَمَلَهُمْ على أنْ يَسفِكوا دِماءهُم وَيَستَحِلُّوا مَحارِمَهُمْ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ بَخيلٌ ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ اللهَ يُبغِضُ البَخيلَ فى حَياتهِ السَّخيَّ عِندَ

مَوتهِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ خَصلَتانِ لا يَجتَمعانِ فى مُؤْمِنٍ البُخلُ وسُوءُ الخُلُقِ ﴾ وعن علىّ كرّم الله وجهه : سيأتى على الناس زمان عضوض يعض الموسر على مافى يده ولم يؤمر بذلك قال الله تعالى ﴿ولاتَنسَوُاالفَضلَ بينَكُمْ ﴾ وقال الشعبي : لا أدرى أيهما أبعد غورا فى نار جهنم البخل أو الكذب . وقال بشر بن الحارث : البخيل لا غيبة له قال النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّكَ إذًا لَبخيلٌ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم لوفد بنى لِحيان ﴿ مَنْ سَيّدُكم ﴾ قالوا جد بن قيس الا أنه رجل فيه بخل فقال صلى الله عليه وسلم ﴿ وأىُّ داء أدوَءُ مِنَ البُخلِ ولكِنْ سَيّدُكم عَمرُو بنُ الجمُوحِ ﴾ وكان عمرو يولم على رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا تزوّج . وعن علىّ رضى الله عنه قال : والله ما أستقصى كريم قط حقه قال الله تعالى ﴿فلمّانَبّأَت بهِ وأَظهَرَهُ اللهُ عليهِ عَرّفَ بَعضَهُ وأَعرَضَ عَن بَعضٍ ﴾ وقال بشر النظر الى البخيل يقسى القلب ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين وقال: ابن المعتز : أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه *

﴿ بيان الايثار وفضله ﴾

اعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم الى درجات فأرفع درجات السخاء الايثار وهو أن يجود بالمال مع الحاجة اليه وانما السخاء عبارة عن بذل مالايحتاج اليه لمحتاج أو لغير محتاج . والبذل مع الحاجة أشد . وكما أن السخاوة قد تنتهى الى أن يسخو الانسان على غيره مع الحاجة . فالبخل قد ينتهى الى أن يبخل على نفسه مع الحاجة فكم من بخيل يمسك المال ويمرض فلا

يتداوى ويشتهي الشهوة فلا يمنعه منها الا البخل بالثمن ولو وجدها مجانا لأكلها فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة . وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج اليه . فانظر مابين الرجلين فان الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء وليس بعد الايثار درجة فى السخاء . وقد أثنى الله على الصحابة رضى الله عنهم به فقال ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أنفُسِهِم ولو كانَ بِهِم خَصاصةٌ ﴾ فقد روى أنه نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عند أهله شيأ فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب بالضيف الى أهله ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته باطفاء السراج وجعل يمد يده الى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل حتى أكل الضيف الطعام فلما أصبح قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لَقد عجِبَ اللهُ مِن صَنيعِكمُ الليلةَ إلى ضَيفِكم ونزلَت ﴾ * ﴿ وَيُؤْثِرُون على أنفُسِهِم ولو كانَ بِهِم خَصاصةٌ ﴾ فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى والايثار أعلى درجات السخاء . وكان ذلك من دأب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سماه الله تعالى عظيما فقال تعالى ﴿ وَإنكَ لَعلَى خُلُقٍ عَظيمٍ ﴾ *

قيل خرج عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما الى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه اذ أتى الغلامُ بقوته فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام فرمى اليه الغلام بقرص فأكله ثم رمى اليه الثانى والثالث فأكله وعبد الله ينظر اليه فقال ياغلام كم قوتك كل يوم قال مارأيتَ قال فلم آثرتَ به هذا الكلب قال ماهى بأرض كلاب انه جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت أن أشبع وهو جائع قال فما أنت صانع اليوم قال أطوى يومى

هذا فقال عبد الله بن جعفر ألام على السخاء ان هذا الغلام لأسخى منى فأشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات فأعتق الغلام ووهبه منه *

وقال عمر رضي الله عنه أهدى لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال ان أخي كان أحوج منى اليه فبعث به اليه فلم يزل كل واحد يبعث به الى آخر حتى تداوله سبعة أبيات ورجع الى الأوّل *

وقال حذيفة العدوى : انطلقت يوم اليرموك ـ من أيام فتوح الشام ـ اطلب ابن عم لى ومعي شئ من ماء وأنا أقول ان كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه فاذا أنا به فقلت أسقيك فأشار إلىّ أن نعم فاذا رجل يقول آه فأشار ابن عمى الىّ انطلق به اليه قال فجئته فاذا هو هشام بن العاص فقلت أسقيك فسمع به آخر فقال آه فأشار هشام انطلق به اليه فجئته فاذا هو قد مات فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات فرجعت الى ابن عمى فاذا هو قد مات رحمة الله عليهم أجمعين *

﴿ بيان حدّ السخاء والبخل وحقيقتهما ﴾

اعلم أن المال خلق لحكمة وهو صلاحه لحاجات الخلق . فيمكن امساكه عن صرفه الى ما خلق الصرف اليه . ويمكن بذله بالصرف الى ما لايحسن الصرف اليه . ويمكن التصرف فيه بالعدل وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ ويبذل حيث يجب البذل . فالامساك حيث يجب البذل بخل . والبذل حيث يجب الامساك تبذير وبينهما وسط هو المحمود وينبغى أن يكون السخاء والجود عبارة عنه إذ لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا

بالسخاء وقد قيل له ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ وقال تعالى ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ فالجود وسط بين الاسراف والاقتار وبين البسط والقبض وهو أن يقدّر بذله وامساكه بقدر الواجب ولا بدّ أن يكون قلبه طيباً به غير منازع له فيه ثم أن الواجب بذله قسمان واجب بالشرع وواجب بالمروءة والعادة والسخيّ هو الذى لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة فان منع واحداً منهما فهو بخيل ولكن الذى يمنع واجب الشرع أبخل كالذى يمنع أداء الزكاة ويمنع عياله وأهله النفقة أو يؤدّيها ولكنه يشق عليه فانه بخيل بالطبع أو الذى يتيمّم الخبيث من ماله ولا يطيب قلبه أن يعطى من أطيب ماله أو من وسطه فهذا كله بخل *

ومن واجب المروءه ترك المضايقة والاستقصاء فى المحقرات فان ذلك مستقبح واستقباح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص فمن كثر ماله استقبح منه مالا يستقبح من الفقير من المضايقة ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله وأقاربه ما لا يستقبح مع الأجانب ويستقبح من الجار مالا يستقبح مع البعيد ويستقبح فى الضيافة من المضايقة مالا يستقبح فى المعاملة وبالجملة فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغى أن لا يمنع إما بحكم الشرع وإما بحكم المروءة ومن أدّى واجب الشرع وواجب المروءة اللائقة به فقد تبرّأ من البخل نعم لا يتصف بصفة الجود والسخاء مالم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدرجات . فاصطناع المعروف

وراء ماتوجبه العادة والمروءة هو الجود ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ولا يكون عن طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء فان من طمع فى الشكر والثناء فهو بياع وليس بجوّاد فانه يشترى المدح بماله ومثله من يبعثه عليه الخوف من الهجاء أو ملامة الخلق فانه ليس من الجود لأنه مضطر اليه بهذه البواعث وهى أعواض معجلة له عليه فهو معتاض لا جواد *

﴿ بيان علاج البخل ﴾

اعلم أن البخل سببه حب المال ولحب المال سببان. (أحدهما) حب الشهوات التي لاوصول اليها إلا بالمال مع طول الأمل (الثانى) أن يحب عين المال ويلتذ بوجوده وان علم أنه زائد عن حاجاته بقية عمره. وقدمنا أن علاج كل علة بمضادّة سببها فيعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر ويعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر فى موت الأقران وطول تعبهم في جمع المال وضياعه بعدهم ويعالج التفات القلب الى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه وكم من ولد لم يرث من أبيه مالا وحاله أحسن ممن ورث وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير وينقلب هو الى شرّ ويعالج قلبه أيضاً بكثرة التأمل فى الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء وما توعّد الله به على البخل من العقاب العظيم . ومن الأدوية النافعة كثرة التأمل فى أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم واستقباحهم له فانه مامن بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره ويستثقل البخيل من أصحابه فيعلم أنه مستثقل ومستقذر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه . ويعالج قلبه

أيضاً بأن يتفكر فى مقاصد المال وأنه لماذا خلق فلا يحفظ منه إلا قدر حاجته والباقى يدّخره لنفسه في الآخرة بأن يحصل له ثواب بذله . فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم فاذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الامساك في الدنيا والآخرة هاجت رغبته فى البذل ان كان عاقلا . فاذا تحركت الشهوة فينبغى أن يجيب الخاطر الأوّل ولا يتوقف فان الشيطان يعده الفقر ويخوّفه ويصدّه عنه *

كتاب ذم الجاه والرياء

اعلم أصلحك الله أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار وهو مذموم بل المحمود الخمول إلا من شهره الله لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه . قال الله تعالى ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فى الأرضِ ولا فَساداً ﴾ جمع بين إرادة الفساد والعلو فى الأرض وبين أن الدار الآخرة للخالى عن الارادتين جميعاً وقال عزّ وجلّ ﴿ مَنْ كانَ يُرِيدُ الحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهم فيها وَهُمْ فيها لا يُبْخَسُونَ أُولئِكَ الَّذينَ لَيْسَ لَهُم فِي الآخِرَةِ إلاّ النَّارُ وحَبِطَ ماصَنَعُوا فيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلونَ ﴾ وهـذا أيضا متناول بعمومه لحب الجاه فانه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زينتها . وفى الحديث ﴿ حَسْبُ امرِىءٍ مِنَ الشَّرّ أن يُشيرَ النَّاسُ إليهِ بالأصابعِ فى دِينِهِ ودُنياهُ إلاّ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ . إنّ اللهَ لايَنظُرُ إلي صُوَرِكم ولـكن يَنظرُ إلى قُلوبِكم وَأَعمالِـكم ﴾

وروى فى فضيلة الخمول عنه صلى الله عليه وسلم ﴿ رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ كُلُّ ضَعِيفٍ مُسْتَضْعَفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ وَأَهْلُ النَّارِ كُلُّ مُتَكَبِّرٍ مُسْتَكْبِرٍ جَوَّاظٍ ﴾ والأخبار فى مذمة الشهرة وفضيلة الخمول كثيرة . ومعلوم أن المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة فى القلوب . وحب الجاه منشأ كل فساد . ثم أن المذموم هو طلب الشهرة والحرص عليها فأما وجودها من الله تعالى من غير تكلف من العبد فليس بمذموم *

﴿ بيان الحدّ الذى يباح فيه الجاه ﴾

اعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها أى القدرة على التصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها فى أغراضه . فحكم الجاه حكم ملك الأموال فانه عرض من أعراض الحياة الدنيا وينقطع بالموت والدنيا مزرعة الآخرة . فكل ماخلق فى الدنيا فيمكن أن يتزوّد منه للآخرة . فحب الجاه والمال لأجل التوسل بهما الى مهمات البدن غيرمذموم وحبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم ولكنه لايوصف صاحبه بالفسق والعصيان مالم يحمله الحب على مباشرة معصية وما لم يتوصل الى اكتسابه بكذب وخداع وارتكاب محظور وما لم يتوصل الى اكتسابه بعبادة فان التوصل الى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدّين وهو حرام *

والقول الفصل فى طلب المنزلة والجاه في قلوب الناس أن يقال يطلب ذلك على ثلاثة أوجه . وجهان مباحان ووجه محظور (أما الوجه المحظور) فهو أن يطلب قيام المنزلة فى قلوبهم باعتقادهم فيه صفة هو منفك عنها مثل العلم والورع والنسب فيظهر لهم أنه علوىّ أو عالم أو ورع وهو لا يكون كذلك فهذا حرام لأنه كذب وتلبيس إما بالقول أو بالمعاملة *

وأما أحـــد المباحين فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها كقول يوسف صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه الرب تعالى ﴿ إجْعَلْنى عَلى خَزَائِنِ الأَرضِ إنى حَفِيظ عَلِيمٌ ﴾ فانه طلب المنزلة فى قلبه بكونه حفيظا عليما وكان محتاجا اليه وكان صادقا فيه *

(والثانى) أن يطلب اخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه حتى لا يعلم فلا تزول منزلته به فهذا أيضاً مباح لأن حفظ الستر على القبائح جائز ولا يجوز هتك الستر كالذى يخفى عمن يريد استئجاره أنه يشرب الخمر ولا يلقى اليـه أنه ورع . فان قوله انى ورع تلبيس وعـدم اقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع بل يمنع العلم بالشرب *

ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده فان ذلك رياء وهو ملبس إذ يخيل اليه أنه من المخلصين الخاشعين لله وهو مراء بما يفعله فكيف يكون مخلصاً فطلب الجاه بهذا الطريق حرام وكذا بكل معصية وذلك يجرى مجرى اكتساب المال بالحرام من غير فرق وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس فى عوض أو غيره فلا يجوز له أن يتملك قلبه

بتزوير وخداع فان ملك القلوب أعظم من ملك الأموال *

﴿ سبب حب المدح وبغض الذم ﴾

لا يعرف طريق العلاج لذلك مالم يعرف سببه لأن ما لا يعرف سببه لا يمكن معالجته إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض *

لحب المدح والتلذاذ القلب به أسباب (الأوّل) وهو الأقوى شعور النفس بالكمال ومهما شعرت بكمالها ارتاحت واهتزت وتلذذت والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها (السبب الثانى) أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للمدوح وأنه مريد له ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته وملك القلوب محبوب . والشعور بحصوله لذيذ (الثالث) أن ثناء المثنى ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه لاسيما اذا كان ممن يعتد بثنائه فى ملأ فيكون المدح ألذ والذم أشدّ على النفس . فأما العلة الأولى وهى استشعار الكمال ـ فتندفع بأن يعلم الممدوح أنه غير صادق فى قوله كما اذا مدح بأنه نسيب أو سخىّ أو عالم بعلم أو متورع عن المحظورات وهو يعلم من نفسه ضد ذلك فتزول اللذّة التى سببها استشعار الكمال وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وما بعدها فان كان يعلم أن المادح ليس يعتقد مايقوله ويعلم خلوّه عن هذه الصفة بطلت اللذّة الثانية وهو استيلاؤه على قلبه فبطلت اللذّات كلها *

﴿ بيان علاج حب الجاه ﴾

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق مشغوفا بالتودد اليهم والمراءاة لأجلهم ولا يزال فى أقواله وأفعاله ملتفتا الى مايعظم منزلته عندهم وذلك بذر النفاق وأصل الفساد ويجر ذلك لامحالة الى التساهل فى العبادات والمراءاة بها والى اقتحام المحظورات للتوصل الى اقتناص القلوب فاذن حب الجاه من المهلكات فيجب علاجه وازالته عن القلب وعلاجه مركب من علم وعمل أما العلم فهو أن يعلم السبب الذى لأجله أحب الجاه ـ وهو كمال القدرة على قلوب الناس ـ ان صفا وسلم فآخره الموت فليس هو من الباقيات الصالحات فلا ينبغي أن يترك به الدين الذى هو الحياة الأبدية التى لا انقطاع لها وأما العمل فبأن يأنس بالخمول ليسقط من نفوسهم ويستعين عليه بالأخبار الواردة فى ذم الجاه ومدح الخمول وينظر فى أحوال السلف وايثارهم ثواب الآخرة على زخرف الدنيا *

﴿ بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم ﴾

اعلم أن أكثر الخلق انما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم فصارت حركاتهم كلها موقوفة على مايوافق رضا الناس رجاء للمدح وخوفا من الذّم وذلك من المهلكات فيجب معالجته . وطريقه ملاحظة الأسباب التى لأجلها يحب المدح ويكره الذم فمن الأسباب استشعار الكمال بسبب

قول المادح . فطريقك فيه أن ترجع الى عقلك وتقول لنفسك هذه الصفة التى يمدحك بها أنت متصف بها أم لا فان كنت متصفا بها فان كانت كالثروة والجاه فهذه لاتستحق المدح فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذى يصير على القرب هشيما تذروه الرّياح وهذا من قلة العقل وان كانت كالعلم والورع فهذه وان استحقت المدح إلاّ أنه لا ينبغى الفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة . وان كانت الصفة التى مُدِحْتَ بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون *

ومن الأسباب . الحشمة التى اضطرت المادح الى المدح وهو أيضا يرجع الى قدرة عارضة لاثبات لها ولا تستحق الفرح بل ينبغى أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به كما نقل ذلك عن السلف لأن آفات المدح على الممدوح عظيمة كما تقدّم فى آفات اللسان . وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم مرّة للمادح ﴿ وَيحَكَ قَصَمْتَ ظَهرَهُ ﴾ *

﴿ بيان علاج كراهة الذم ﴾

يفهم ذلك مما تقدّم والقول الوجيز فيه أن من ذمك لايخلو من ثلاثة أحوال إما أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصح والشفقة . واما أن يكون صادقا ولكن قصده الايذاء والتعنت . واما أن يكون كاذبا . فان كان صادقا وقصده النصح فلا ينبغى أن تذمه وتغضب عليه وتحقد بسببه بل ينبغى أن تتقلد منته . فان من أهدى اليك عيوبك فقد أرشدك الى المهلك حتى تتقيه فينبغى أن تفرح به وتشتغل بازالة الصفة المذمومة عن نفسك ان

قدرت عليها . فأما اغتمامك بسببه وكراهتك له وذمك إياه فانه غاية الجهل . وان كان قصده التعنت فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك الى عيبك ان كنت جاهلا به لتقلع عنه وذلك من أسباب سعادتك فينبغى أن تفرح به لأن تنبهك بقوله غنيمة وجميع مساوئ الأخلاق مهلكة فى الآخرة والانسان انما يعرفها من قول أعدائه فينبغى أن تغتنمه . وأما قصد العدوّ التعنت فجناية منه على دين نفسه وهو نعمة منه عليك . فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتضرّر هو به *

(الحالة الثالثة) أن يفترى عليك بما أنت برىء منه عند الله تعالى فينبغى ألاّ تكره ذلك ولا تشتغل بذمه بل تتفكر فى ثلاثة أمور *

(أحدها) ان خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه .وما ستره الله من عيوبك أكثر فاشكر الله تعالى اذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت برىء عنه (والثانى) ان ذلك كفارة لبقية مساوئك وذنوبك وكل من اغتابك فقد أهدى اليك حسناته وكل من مدحك فقد قطع ظهرك فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات التى تقرّبك الى الله تعالى وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله (وأما الثالث) فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله .وأهلك نفسه بافترائه وتعرّض لعقابه الأليم فلا ينبغى أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول اللهم أهلكه بل ينبغى أن تقول اللهم أصلحه اللهم تب عليه اللهم ارحمه كما قال صلى الله عليه وسلم ﴿ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَومِى

اللّهُمّ اهدِ قَومى فإنّهم لايَعلمُونَ ﴾ لما أن كسروا ثنّيته وشجّوا وجهه وقتلوا عمه حمزة يوم أحد *

ومما يهوّن عليك كراهية المذمة قطع الطمع فان من استغنيت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك فى قلبك . وأصل الدّين القناعة . وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه وما دام الطمع قائما كان حبّ الجاه والمدح فى قلب من طمعت فيه غالبا وكانت همتك الى تحصيل المنزلة فى قلبه مصروفة . ولا ينال ذلك إلا بهدم الدّين . فلا ينبغى أن يطمع طالب الجاه ومحب المدح ومبغض الذّم فى سلامة دينه فان ذلك بعيدٌ جداً *

﴿ بيان ذم الرياء ﴾

وهو طلب الجاه والمنزلة بالعبادات . اعلم أن الرياء حرام . والمرائى عند الله ممقوت . وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار (أما الآيات) فقوله تعالى ﴿فَوَيلٌ لِلمُصَلّينَ الّذينَ هُم عَن صَلاَتِهِم ساهُونَ الّذينَ هم يُراؤُنَ﴾ وقوله عزّ وجلّ ﴿ والذينَ يَمكُرُونَ السّيئاتِ لَهُم عَذَابٌ شَدِيدٌ ومَكرُ أولئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ قال مجاهد هم أهل الرّياء . وقال تعالى ﴿ إنّما نُطعِمُكُمْ لِوَجهِ اللهِ لا نُريدُ مِنكم جزَاءً ولا شُكوراً ﴾ فمدح المخلصين بنفى كل إرادة سوى وجه الله والرياء ضدّه . وقال تعالى ﴿ فَمَن كانَ يَرجُو لِقاءَ رَبّهِ فَليَعمَلْ عَمَلاً صالِحًا ولا يُشرِكْ بِعِبادَةِ رَبّهِ أحَدًا ﴾ نزل ذلك فيمن يطلب الأجر والحمد بعباداته وأعماله (ومن الأحاديث) قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ يَقولُ اللهُ عزّ وجَلّ مَن عَمِلَ لِى عَمَلاً أشرَكَ فيهِ غَيرِى فَهُوَ لهُ كُلّهُ

وأنا مِنهُ بَرِيءٌ وأنا أغنى الأغنياءِ عَنِ الشِّركِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنَّ أخوَفَ ما أخافُ عليكم الشِّركُ الأصغَرُ ﴾ قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله قال ﴿ الرِّياءُ يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ إذا جازَ العبادُ بأعمالِهِم إذهبُوا إلى الَّذينَ كُنتُمْ تُراءونَ في الدُّنيا فانظرُوا هل تجدُون عِندَهُمُ الجَزاءَ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لا يَقبَلُ اللهُ عزَّ وجلَّ عملاً فيهِ مِثقالُ ذرَّةٍ مِنْ رِياءٍ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنَّ أدنَى الرِّياءِ شِركٌ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنَّ في ظِلِّ العَرشِ يومَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ رَجُلاً تَصدَّقَ بيمينِهِ فكانَ يُخفيها عَنْ شِمالِهِ ﴾ . ولذلك ورد ﴿ إن فَضلَ عَمَلِ السرِّ على عملِ الجهرِ بسبعين ضِعفاً ﴾ *

وروى أن المسيح عليه السلام كان يقول : إذا كان يومُ صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لئلا يرى الناس أنه صائم . واذا أعطى بيمينه فَليُخفِ عن شماله . واذا صلى فليرخ ستر بابه *

ومن الآثار ما روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى رجلا يطأطئ رقبته . فقال : ياصاحب الرّقبة إرفع رقبتك ليس الخشوع فى الرقاب انما الخشوع فى القلوب . ورأى أبو أمامة الباهلى رجلا فى المسجد يبكى فى سجوده فقال : أنت أنت لو كان هذا فى بيتك . وقال الضحاك : لا يقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك ولا يقولن هذا لله وللرحم فان الله تعالى لا شريك له *

﴿ بيان حقيقة الرياء وجوامع ما يراءى به ﴾

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية وأصله طلب المنزلة فى قلوب الناس

بايرائهم خصال الخير . والمراءى به كثير ويجمعه خمسة أقسام وهى مجامع مايتزين به العبد للناس وهو البدن والزى والقول والعمل والأتباع والأشياء الخارجة فأما الرياء في الدين بالبدن فكاظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدّين غلبةَ خوف الاخرة وكتشعيث الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفرّغ لتسريح الشعر ومثله خفض الصوت واغارة العينين ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم أو متوقر للدين أو ضعيف القوة من الجوع وعن هـذا روى (إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره ويكحل عينيه) لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء *

وأما الرياء بالهيئة والزى فمثل تشعيث الشعر وحلق الشارب واطراق الرأس فى المشي والهدء فى الحركة وابقاء أثر السجود على الوجه وغلظ الثياب ولبس الصوف وتشميرها الى قريب من الساق وتقصير الأكمام كل ذلك يرائى به ليظهر أنه متبع للسنة ومقتد بالصالحين ومن ذلك لبس المرقعة والصلاة على السجادة ولبس الثياب الزرق تشبها بالصوفية مع الافلاس من حقائق التصوّف فى الباطن ومنه التقنع فوق العمامة . واسبال الرداء على العينين ومنه الطيلسان يلبسه من هو خال عن العلم ليوهم أنه من أهل العلم . والمراءون بالزىّ على طبقات . كل طبقة منهم يرى منزلته فى زى مخصوص فيثقل عليه الانتقال الي مادونه والى مافوقه وان كان مباحا بل هو عنده بمنزلة الذبح وذلك لخوفه أن يقول الناس قد بدا له من الزهد ورجع

عن تلك الطريقة ورغب في الدنيا *

وأما الرياء بالقول فرياء أهل الدّين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار لاظهار شدّة العناية بأحوال الصالحين وتحريك الشفتين بالذكر فى محضر الناس والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بمشهد الخلق واظهار الغضب للمنكرات واظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصى وتضعيف الصوت فى الكلام والمبادرة الى أن الحديث صحيح أو غير صحيح لاظهار الفضل فيه والمجادلة على قصد افحام الخصم *

وأما الرياء بالعمل فكمراءاة المصلى بطول القيام وطول السجود والركوع واطراق الرأس وترك الالتفات *

وأما المراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين كالذى يتكلف أن يستزير عالما من العلماء ليقال أن فلانا قد زار فلانا أو عابداً من العباد ليقال أن أهل الدّين يتبرّكون بزيارته ويتردّدون اليه أو أميراً من الأمراء ليقال أنهم يتبركون به وكالذى يكثر ذكر الشيوخ وطواف البلاد ليتباهى عند خصمه فهذه مجامع مايراءى به المراءون وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة فى قلوب العباد لاعتقاده أنه نوع قدرة وكمال فى الحال وان كان سريع الزّوال لايغتر به إلاّ الجهال ولكن أكثر الناس جهال *

ومن المرائين من لايقنع بقيام منزلته بل يلتمس مع ذلك اطلاق اللسان بالثناء والحمد ومنهم من يريد انتشار الصيت ومنهم من يريد الاشتهار عند الأمراء لتقبل شفاعته فيقوم له جاه عند العامة ومنهم من يقصد

التوصل بذلك الى جمع حطام وكسب مال ولو كان من الحرام . وهؤلاء شرّ طبقات المرائين *

﴿ حكم الرياء ﴾

إعلم أن الرّياء إما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات فأما المراءاة بما ليس من العبادات فقد تكون مباحة كتسوية العمامة والشعر وتحسين الثوب لئلا تزدريه أعين الناس واحترازا من ألم المذمة وطلبا لراحة الأنس بالاخوان وقد تكون طاعة كما اذا كان متبوعا وعمله المذكور يرغّب فى اتباعه واستمالة القلوب اليه وقد تكون مذمومة كما إذا حملت على ما لايجوز أو دعت الى أمور محظورات وبالجملة فحكمها تابع للغرض المطلوب بها . وأما العبادات كالصدقة والصلاة والصيام والغزو والحج فالمرائى فيها يبطل عبادته ويعصى ويأثم والمعنى فيه أمران . (أحدهما) يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر لأنه خيل اليهم أنه مخلص مطيع لله وأنه من أهل الدين وليس كذلك *

(الثانى) يتعلق بالله وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو مستهزئ بالله كما ورد ومثاله أن يتمثل بين يدى ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة الخدم وانما وقوفه لملاحظة جارية من جواريه أو غلام من غلمانه فان هـذا استهزاء بالملك إذ لم يقصد التقرب اليه بخدمته بل قصد بذلك عبداً من عبيده . فأي استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراءاة عبد ضعيف لايملك له ضرا ولا نفعا . وهل ذلك إلاّ لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله وأنه أولى بالتقرّب اليه من

الله اذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته وأي استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى فهذا من كبائر المهلكات ولذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر ولو لم يكن فى الرياء إلا أنه يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية فانه وان لم يقصد التقرب الى الله فقد قصد غير الله وعن هذا كان شركا خفيا وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان وأوهم عنده ان العباد يملكون من مصالح حاله أكثر مما يملكه الله تعالى مع أن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لها ضرا ولا نفعاً فكيف يملكون لغيرهم هذا فى الدنيا فكيف فى يوم ﴿لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ولا مَوْلودٌ هُوَ جازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً﴾ بل تقول الأنبياء فيه نفسى نفسى . فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ما يرتقبه بطمعه الكاذب فى الدنيا من الناس . فلا ينبغى أن نشك فى أن المرائي بطاعة الله فى سخط الله تعالى *

﴿ درجات الرياء ﴾

اعلم أن أغلظ أنواع الرياء هو الرياء بأصل الايمان وصاحبه مخلد فى النار وهو الذى يظهر كلمتى الشهادة و باطنه مشحون بالتكذيب وهذا هوالنفاق المذكور فى القرآن الكريم فى مواضع شتى وذلك مما يقل في زماننا. و يلحق به من يجحد الجنة والنار والدار الآخرة أو يعتقد طىّ بساط الشرع والأحكام ميلا الى أهل الاباحة . أو يعتقد كفراً وهو يظهر خلافه فهؤلاء من المنافقين المرائين المخلدين فى النار *

وقسم من الرياء دون الأوّل بكثير كمن يحضر الجمعة أو الصلاة ولولا خوف المذمة لكان لايحضرها أو يصل رحمه أو يبرّ والديه لا عن رغبة لكن خوفا من الناس أو يزكى أو يحج كذلك فيكون خوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالمقت *

وقسم يرائى بالنوافل يكسل عنها فى الخلوة ثم يبعثه الرياء على فعلها كحضور الجماعة وعيادة المريض واتباع الجنازة وصوم عرفة وعاشوراء خوفا من المذمة وطلبا للمحمدة ويعلم الله تعالى أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض وهذا أيضاً عظيم ولكن دون ماقبله *

وقسم يرائى بفعل مافى تركه نقصان العبادة كالذى غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطوّل القراءة فاذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات وتمم القعود بين السجدتين . وكذلك الذى يعتاد اخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الرّدىء فاذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفا من مذمته . وكذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة والرفث لاجل الخلق لا اكمالا لعبادة الصوم خوفا من المذمة . فهذا أيضاً من الرّياء المحظور لأن فيه تقديما للمخلوقين على الخالق فان قال المرائى انما فعلت ذلك صيانة لالسنتهم عن الغيبة فيقال له هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبيس وليس الامر كذلك فان ضررك من نقصان صلاتك وهى خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغيبة غيرك فلو كان باعثك الدّين لكان شفقتك على نفسك أكثر *

وقسم يرائى بفعل مالانقصان في تركه ولكن فعله في حكم التكملة والتتمة

لعبادته كالتطويل فى الركوع والسجود ومدّ القيام وتحسين الهيئة ورفع اليدين والمبادرة الى التكبيرة الأولى وتحسين الاعتدال والزيادة فى القراءة على السورة المعتادة وكذلك كثرة الخلوة فى صوم رمضان وطول الصمت مما لو خلا بنفسه لكان لايقدم عليه *

وقسم يرائى بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضاً كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأوّل وتوجهه الى يمين الامام وما يجرى مجراه وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لايبالى أين وقف ومتى يحرم بالصلاة *

فهذه درجات الرياء بالاضافة الى مايراءي به وبعضه أشد من بعض والكل مذموم *

﴿ بيان المراءى لاجله ﴾

اعلم أن للمرائى مقصودا لامحالة وانما يراءى لادراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض وله درجات (أشدها) أن يكون مقصوده التمكن من معصية كالذى يراءى بعباداته ويظهر التقوى والورع وغرضه أن يعرف بالأمانة فيولى منصباً أو يسلم اليه تفرقة مال ليستأثر بما قدر عليه منه أو يودع الودائع فيأخذها أو يتوصل الى التحبب بامرأة لفجور ونحوه أو يحضر مجالس العلم والتذكير وقصده النظر لامرد فهؤلاء أبغض المرائين الى الله تعالى لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلما الى معصيته ويقرب منهم من يقترف جريمة وهو مصرّ عليها فيظهر التقوى لينفى التهمة عن نفسه *

(ثانيها) أن يكون غرضه نيل حظ من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة كالذى يظهر العلم والعبادة ليرغب فى تزويجه أو اعطائه فهذا رياء محظور لانه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الأول

(الثالثة) أن لا يقصد نيل حظ وادراك مال أو نكاح ولكن يظهر عبادته خوفا من أن ينظر اليه بعين النقص ولا يعدّ من الخاصة والزهاد ويعتقد انه من جملة العامة كالذى يمشي مستعجلا فيطلع عليه الناس فيحسن المشى ويترك العجلة كيلا يقال انه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار . وكذلك يسبق الى الضحك أو يبدو منه المزاح فيخاف أن ينظر اليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء واظهار الحزن ويقول ما أعظم غفلة الآدمى عن نفسه والله يعلم منه انه لو كان فى خلوة لما كان يثقل عليه ذلك وانما يخاف أن ينظر اليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير (وكالذى) يرى جماعة يصلون التراويح ويتهجدون أو يصومون الخميس والاثنين أو يتصدقون فيوافقهم خيفة أن ينسب الى الكسل ويلحق بالعوام ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئا من ذلك (وكالذى) يعطش يوم عرفة أو عاشوراء فلا يشرب خوفا من أن يعلم الناس انه غير صائم أو يدعى الى طعام فيمتنع ليظن أنه صائم وقد لا يصرح بأنى صائم ولكن يقول لى عذر وهو جمع بين خبيثين فانه يرى انه صائم ثم يرى انه مخلص ليس بمراء وانه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائيا فيريد أن يقال انه ساتر لعبادته ثم ان اضطر الى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذرا تصريحا أو تعريضا

بأن يتعلل بمرض يقتضى فرط العطش ويمنع من الصوم أو يقول أفطرت تطييبا لقلب فلان لانه محب للاخوان شديد الرغبة فى أن يأكل الانسان من طعامه وقد ألحّ علىّ اليوم ولم أجد بدا من تطييب قلبه ومثل أن يقول ان أبوىّ أو أحدهما يشفقان علىّ يظنان ان لو صمت لمرضت فلا يدعانى أصوم فهذا وما يجرى مجراه من آفات الرياء فلا يسبق الى الانسان الا لرسوخ عرق الرياء فى الباطن (أما المخلص) فانه لايبالى كيف نظر الخلق اليه . فان لم يكن له رغبة في الصوم وقد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيرُه ما يخالف علم الله فيكون ملبسا . وان كان له رغبة فى الصوم لله قنع بعلم الله تعالى ولم يشرك فيه غيره . وقد يخطر له أن فى اظهاره اقتداء غيره به وتحريك رغبة الناس فيه . وفيه مكيدة وغرور فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين . وجميعهم تحت مقت الله وغضبه وهومن أشدّ المهلكات*

﴿ بيان الرياء الخفى الذى هو أخفى من دبيب النمل ﴾

اعلم أن الرياء جلىّ وخفىّ فالجلىّ هو الذى يبعث على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب . وهو أجلاه . وأخفى منه قليلا هو ما لايحمل على العمل بمجرده إلاّ أنه يخفف العمل الذى يريد به وجه الله كالذى يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه فاذا نزل عنده ضيف تنشّط له وخف عليه . وأخفى من ذلك مالايؤثر فى العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضاً ولكنه مع ذلك مستبطن فى القلب . وأجلى علاماته أن يسرّ باطلاع الناس على طاعته فربّ عبد يخلص فى عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ويتمم العمل

كذلك ولكن إذا اطلع عليه الناس سرّه ذلك وارتاح له وروّح ذلك عن قلبه شدّةَ العبادة . وهذا السرور يدل على رياء خفيّ منه يرشح السرور ولولا التفات القلب الى الناس ماظهر سروره عند اطلاع الناس فلقد كان الرياء مستكناً فى القلب استكنان النار فى الحجر . فأظهر منه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور . ثم إذا استشعر لذّة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكراهية فيصير ذلك قوتا وغذاء للعرق الخفىّ من الرياء حتى يتحرّك على نفسه حركةً خفيةً فيتقاضي تقاضياً خفياً أن يتكلف سببا يطلع عليه بالتعريض أو بالشمائل كخفض الصوت وآثار الدموع وأخفى من ذلك أن يختفى بحيث لايريد الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وأن يثنوا عليه وأن ينشطوا فى قضاء حوائجه وأن يسامحوه فى البيع والشراء وأن يوسعوا له فى المكان فان قصّر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ووجد لذلك استبعاداً فى نفسه كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التى أخفاها ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها فى كل مايتعلق بالخلق لم يكن خاليا عن شوب خفيّ من الرياء أخفى من دبيب النمل وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلاّ الصدّيقون *

ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفى يجتهدون فى اخفائها أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم الله فى يوم القيامة باخلاصهم إذ علموا أن الله لا يقبل فى القيامة إلا الخالص وعلموا شدّة حاجتهم وفاقتهم فى القيامة وأنه يوم لاينفع فيه مال ولا

بنون ولا يجزى والد عن ولده *

فإذًا شوائب الرياء الخفىّ كثيرة لاتنحصر ومهماأدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته انسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء فلو كان مخلصا لما بالى بالناس لعلمه أنهم لايقدرون له على رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب *

فان قلت فما نرى أحداً ينفك عن السرور اذا عرفت طاعاته فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود و بعضه مذموم * فنقول السرور منقسم الى محمود ومذموم فالمحمود مثل أن يكون قصده إخفاء الطاعة والاخلاص لله ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله فيستدل به على حسن صنع الله به والطافه به إذ لالطف أعظم من ستر القبيح واظهار الجميل فيكون فرحه بجميل نظر الله له لابحمد الناس وقيام المنزلة فى قلوبهم وقد قال تعالى ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ *

ومثل أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به فى الطاعة فيتضاعف بذلك أجره فيكون له أجر العلانية بما أظهر وأجر السرّ بما قصده أوّلاً ومن اقتدى به فى طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شئ وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور *

ومثل أن يحمده المطلعون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله فى مدحهم وبحبهم للمطيع وبميل قلوبهم الى الطاعة فهذا فرح بحسن ايمان عباد الله وعلامة الاخلاص فى هذا الورع أن يكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه

بحمدهم إيّاه . وأما السرور المذموم فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته فى قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه ويقابلوه بالاكرام فهذا مكروه *

﴿ بيان مايحبط العمل من الرياء وما لايحبط ﴾

إذا عقد العبد العبادة على الاخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء فلا يخلو إمّا أن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ فان ورد بعد الفراغ سرور بمجرّد بالظهور من غير إظهار فهذا لايفسد العمل اذ العمل قد تم على نعت الاخلاص سالما عن الرّياء إلاّ إذا ظهرت له بعده رغبة فى الاظهار فتحدّث به وأظهره فهذا مخوف وفى الآثار والأخبار مايدل على أنه محبط وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من العمل وكان عقد على الاخلاص فان كان مجرد سرور فلا يؤثر فى العمل وان كان رياء باعثا على العمل وختم العبادة به حبط أجره لأن الواجب عليه أداء عمل خالص لوجه الله والخالص مالا يشوبه شئ فلا يكون مؤدّيا للواجب مع هذا الشوب . وأمّا الرياء الذى يقارن حال العقد كان يبتدئ الصلاة على قصد الرياء فان استمرّ عليه حتى سلم فلا خلاف فى أنه يقضى ولا يعتدّ بصلاته . وان ندم عليه فى أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام فالأرجح أنه لاتنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف لأن باعثه الرياء فى ابتداء العقد دون امتثال الأمر فلم ينعقد افتتاحه فلم يصح مابعده *

﴿ بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه ﴾

عرفت مما سبق أن الرياء محبط للأعمال وسبب للمقت عند الله تعالى وأنه من كبائر المهلكات وما هذا وصفه لجدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته *

وفى علاجه مقامان (أحدهما) قلع عروقه وأصوله التى منها انشعابه (والثانى) دفع مايخطر منه في الحال *

﴿ المقام الاول فى قلع عروقه وأصوله ﴾

وأصله حب المنزلة والجاه واذا فصل رجع الى ثلاثة أصول وهي حب لذة المحمدة . والفرار من ألم الذم . والطمع فيما فى أيدى الناس . فهذه الثلاثة هى التى تحرك المرائى الى الرياء . وعلاجه أن يعلم مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه فى الحال من التوفيق وفى الآخرة من المنزلة عند الله تعالى وما يتعرض له من العقاب والمقت الشديد والخزى الظاهر . فمهما تفكر العبد في هذا الخزى وقابل مايحصل له من العباد والتزين لهم فى الدنيا بما يفوته في الاخرة . وبما يحبط عليه من ثواب الأعمال فانه يسهل عليه قطع الرغبة عنه كمن يعلم أن العسل لذيذ ولكن إذا بان له أن فيه سماً أعرض عنه . ثم أى غرض له فى مدحهم وايثار ذم الله لأجل حمدهم ولا يزيده حمدهم رزقا ولا أجلا ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة وأما الطمع فيما فى أيديهم فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع

والاعطاء وأن الخلق مضطرون فيه ولا رازق إلاّ الله ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة وان وصل الى المراد لم يخل عن المنة والمهانة فكيف يترك ماعند الله برجاء كاذب ووهم فاسد وقد يصيب وقد يخطئ واذا أصاب فلا تفى لذته بألم منته ومذلته وأما ذمهم فلم يحذر منه ولا يزيده ذمهم شيأ مالم يكتبه الله عليه ولا يعجل أجله ولا يؤخر رزقه ولا يجعله من أهل النار ان كان من أهل الجنة ولا يبغضه إلى الله ان كان محمودا عند الله فالعباد كلهم عجزة لايملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً فاذا قرّر فى قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت رغبته وأقبل على الله قلبه والعاقل لايرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه . فهذا من الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء وأما الدواء العملى فهو أن يعوّد نفسه إخفاء العبادات واغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش فلا تنازعه نفسه الى طلب علم غير الله به *

﴿ المقام الثاني فى دفع العارض منه أثناء العبادة ﴾

وذلك لابد أيضاً من تعلمه فان من جاهد نفسه بقلع مغارس الرياء وقطع الطمع واستحقار مدح المخلوقين وذمهم فقد لايتركه الشيطان فى أثناء العبادة بل يعارضه بخطرات الرياء . فاذا خطر له معرفة اطلاع الخلق دفع ذلك بأن قال مالك وللخلق علموا أو لم يعلموا والله عالم بحالك فأى فائدة فى علم غيره فان هاجت الرغبة الى لذة الحمد ذكر مارسخ فى قلبه من قبل من آفة الرياء وتعرضه للمقت الالهى وخسرانه الأخروى *

﴿ بيان الرخصة فى قصد اظهار الطاعات ﴾

إعلم أن فى أسرار الأعمال فائدة الاخلاص والنجاة من الرياء وفى الاظهار فائدة الاقتداء وترغيب الناس فى الخير ولكن فيه آفة الرياء قال الحسن أن السر أحرز العملين ولكن فى الاظهار أيضاً فائدة ولذلك أثنى الله تعالى على السرّ والعلانية . فقال ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ والاظهار قسمان :

(أحدهما) في نفس العمل . والآخر بالتحدّث بما عمل (القسم الأوّل) اظهار نفس العمل كالصدقة فى الملأ لترغيب الناس فيها كما روى عن الأنصارى الذى جاء بالصرة فتتابع الناس بالعطية لما رأوه . فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم ﴿ مَنْ سَنَّ سُنَّةً فَعَمِلَ بِهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنِ اتَّبَعَهُ ﴾ ونجرى سائر الأعمال هـذا المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيره ولكن الاقتـداء فى الصدقة على الطباع أغلب . فالسر أفضل من علانيـة لاقدوة فيها . أما العلانية للقدوة فأفضل من السرّ ويدل على ذلك أن الله عزّ وجلّ أمر الأنبياء باظهار العمل للاقتداء وقوله عليه السلام ﴿ لهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا ﴾ ولكن على من يظهر العمل وظيفتان :

(احـداهما) أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به أو يظن ظناً وربَّ رجل يقتدى به أهله دون جيرانه . وربما يقتدى به جيرانه دون أهل السوق . وربما يقتدى به أهل محلته . وانما العالم المعروف هو الذى يقتدى به الناس كافة . فغـير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب الى الرياء

والنفاق وذموه ولم يقتدوا به فليس له الاظهار من غـير فائدة . وانما يصح الاظهار بنية القدوة ممن هو فى محل القدوة على من هو فى محل الاقتداء به

(الثانية) أن يراقب قلبه فانه ربما يكون فيه حبّ الرياء الخفيّ فيدعوه الى الاظهار بعـذر الاقتداء وانما شهوته التجمل بالعمل و بكونه مقتدى به . فليحذر العبد خدع النفس . فان النفس خدوع . والشيطان مترصد . وحب الجاه على القلب غالب . وقلما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات . فلاينبغى أن يعدل بالسلامة شيأ . والسلامة فى الاخفاء . وفى الاظهار من الاخطار مالايقوى عليه أمثالنا . فالحذر من الاظهار أولى بنا و بجميع الضعفاء *

(القسم الثانى) أن يتحدّث بما فعله بعـد الفراغ . وحكمه حكم اظهار العمل نفسه . والخطر فى هذا أشد لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان وقد تجرى فى الحـكاية زيادة ومبالغـة وللنفس لذّة فى إظهار الدّعاوى عظيمة إلاّ أنه لو تطرّق اليه الرياء لم يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعـد الفراغ منها فهو من هذا الوجه أهون . والحـكم فيه أن من قوى قلبه . وتمّ اخلاصه . وصغر الناس فى عينه . واستوى عنده مدحهم وذمهم . وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به . والرغبة فى الخير بسببه . فهو جائز بل مندوب اليـه ان صفت النية وسلمت عن جميع الآفات . لأنه ترغيب فى الخير . والترغيب فى الخير خير . وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء *

﴿ بيان الخطأ فى ترك الطاعات خوفا من الرياء ﴾

من الناس من يترك العـمل خوفا من أن يكون مرائياً به . وذلك غلط

وموافقة للشيطان وجر الى البطالة وترك للخير فما دمت تجد باعثا دينيا على العمل فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء والزم قلبك الحياء من الله إذا دعتك نفسك الى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين وهو مطلع على قلبك بل ان قدرت على أن تزيد فى العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل فان قال لك الشيطان أنت مراء فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف فى قلبك من كراهية الرياء وابائه وخوفك منه وحيائك من الله تعالى . وان لم يبق باعث دينى بل تجرّد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك *

﴿ بيان ما على المريد قبل العمل وبعده وفيه ﴾

اعلم أن أولى ما يُلزم المريدُ قلبَه فى سائر أوقاته القناعة بعلم الله فى جميع طاعاته . ولا يقنع بعلم الله إلا من لايخاف إلا الله ولا يرجو إلا الله . فأمامن خاف غيره وارتجاه اشتهى اطلاعه على محاسن أحواله فان كان فى هذه الرتبة فليلزم قلبَه كراهة ذلك من جهة العقل والايمان لما فيه من خطرالتعرض للمقت واحباط العمل . وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة فان النفس تكاد تغلى حرصا على الافشاء فينبغي أن يثبت قدمه ويتذكر فى مقابلة عظم عمله ملك الآخرة ونعيم الجنة أبد الآباد وعظم غضب الله على من طلب بطاعته ثوابا من عباده . ثم يلزم قلبه ذلك بعدالفراغ حتى لا يظهره ولا يتحدث به . واذا فعل جميع ذلك فينبغي أن يكون وجلا من عمله خائفاً أنه ربما داخله من الرياء الخفى مالم يقف عليه فيكون شاكا في قبوله ورده مجوّزا أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية مامقته بها وردّ عمله بسببها ويكون هذا

الشك والخوف في دوام عمله و بعـده وأما فى الابتداء فيكون متيقنا أنه مخلص مايريد بعمله الا الله حتى يصح عمله وخوفه لذلك الشك جـديـر بأن يكفر خاطر الرياء ان كان قد سبق وهو غافل عنه *

والذى يتقرّب الى الله بالسعي فى حوائج الناس وافادة العلم ينبغي أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط دون شكر ومكافأة وحمـد وثناء من المتعلم والمنعم عليه فان ذلك يحبط الأجر . فمهما توقع من المتعلم مساعدة فى شـغل وخدمة أو مرافقة فى المشى فى الطريق ليستكثر باستتباعه أو ترددًا منـه فى حاجة فقد أخذ أجره فلا ثواب له غيره . نعم ان لم يتوقع هو ولم يقصد إلاّ الثواب على عمله بعلمه ليكون له مثل أجره ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبـل خدمته فنرجو أن لايحبط ذلك أجره اذا كان لايريده ولا يستبعده منـه لو قطعه ويجب على المتعلم أن يلزم قلبـه حمد الله ويتعلم لله ويعبد لله ويخدم المعلم لله لاليكون له فى قلبه منزلة ولا فى قلب الخلق فان العباد أمروا ألا يعبدوا إلاّ الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره *

وأما المعتزل عن الناس فينبغى له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بعلمه ولا يُخْطِرَ بقلبه معرفةَ الناس زهـده واستعظامهم محله فان ذلك يغرس الرياء فى صدره حتى تتيسر عليـه العبادات فى خلوته به وانما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لمحله وهو لا يدرى أنه المخفف للعمل عليـه . فاستشعار النفس عزّ العظمة فى القلوب يكون باعثًا في الخلوة فينبغى أن يلزم

نفسه الحذر منه . وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة فلو تغيروا عن اعتقادهم به لم يجزع ولم يضق به ذرعا إلاّ كراهة ضعيفة إن وجدها فى قلبه فيردّها فى الحال بعقله وإيمانه ولو كان فى عبادة واطلع الناس كلهم عليه لم يزده ذلك خشوعا ولم يدخله سرور بسبب اطلاعهم عليه .
ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان أحدهما غنىٌّ و الآخر فقيرٌ فلا يجد عند اقبال الغنىّ زيادة هِزّة في نفسه لا كرامه إلاّ إذا كان فى الغنى زيادة علم أو زيادة ورع فيكون مكرماً له بذلك الوصف لابالغنى . فمن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مراء أو طماع *

ومكايد النفس وخفاياها فى هذا الفن لاتنحصر ولا ينجيك منها إلاّ أن تخرج ماسوى الله من قلبك وتتجرّد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة فى أيّام متقاربة *

كتاب ذم الكبر والعجب

﴿ ماورد فى ذم الكبر ﴾

قال تعالى ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ وقال تعالى ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ وقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ *

وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ ﴾ وقال عليه السلام ﴿ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ وَلَا أُبَالِي ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَخِيلٌ وَلَا جَبَّارٌ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى رَجُلٍ يَجُرُّ إِزَارَهُ بَطَرًا ﴾ وجاء فى فضل التواضع قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ مَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ ﴾ وعنه عليه الصلاة والسلام ﴿ طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ فِي غَيْرِ مَسْكَنَةٍ وَأَنْفَقَ مَالًا جَمَعَهُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ . وَرَحِمَ أَهْلَ الذُّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ وَخَالَطَ أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ وعنه عليه السلام ﴿ مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ . وَمَنِ اقْتَصَدَ أَغْنَاهُ اللَّهُ . وَمَنْ بَذَّرَ أَفْقَرَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللَّهِ أَحَبَّهُ اللَّهُ ﴾ *

وقال الفضيل ـ وقد سئل عن التواضع ـ أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبى قبلته ولو سمعته من أجهل الناس قبلته *

﴿ بيان حقيقة الكبر وآفته ﴾

اعلم أن الكبر ينقسم الى باطن وظاهر فالباطن هو خلق فى النفس والظاهر هو أعمال تصدر من الجوارح وتلك الأعمال أكثر من أن تحصى وآفته عظيمة وغائلته هائلة وكيف لا تعظم آفته وقد قال صلى الله عليه وسلم ﴿ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ﴾ وانما صار حجابا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها . وتلك

الأخلاق هى أبواب الجنة . والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها لأن المتكبر لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين ولا يقدر على ترك الحقد ولا يقدر أن يدوم على الصدق ولا يقدر على ترك الغضب ولا يقدر على كظم الغيظ ولا يقدر على ترك الحسد ولا يقدر على النصح اللطيف ولا يقدر على قبول النصح ولا يسلم من الازراء بالناس ومن اغتيابهم وبالجملة فما من خلق ذميم إلاّ وصاحب العزّ والكبر مضطر اليه ليحفظ به عزّه وما من خلق محمود الا وهو عاجز عنه خوفا من أن يفوته عزّه فمن هذا لم يدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة منه . وشرّ أنواع الكبر مايمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له وفيه وردت الآيات التى فيها ذم الكبر والمتكبرين *

ومنشؤه استحقار الغير وازدراؤه واستصغاره . ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآفتين بقوله « الكِبرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغمصُ الخَلْقِ » أى ازدراؤهم واستحقارهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه وهذه الآفة الأولى وبطر الحق هو رده وهى الآفة الثانية . فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر اليه بعين الاستصغار أو رد الحق وهو يعرفه فقد تكبر ونازع الله فى حقه *

ووجه الآفة الأولى أن الكبر والعزّ والعظمة لايليق الا بالملك القادر فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذى لا يقدر على شئ فمن أين يليق بحاله الكبر واستعظام النفس واستحقار الغير فمهما تكبر العبد فقد نازع الله

تعالى فى صفة لاتليق إلا بجلاله ومثاله أن يأخذ الغلام تاج الملك فيضعه على رأسه ويجلس على سريره فما أعظم استحقاقه للمقت وما أعظم تهدفه للخزى والنكال وما أشد استجراءه على مولاه وما أقبح ماتعاطاه. فالخلق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله فى حقه *

ووجه الآفة الثانية أن من سمع الحق من عبد من عباد الله واستنكف عن قبوله وتشمّر لجحده فما ذاك إلاّ للترفع والتعاظم واستحقار غيره حتى تأبى أن ينقاد له وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين إذ وصفهم الله تعالى فقال ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسمَعُوا لِهَذَا القُرآنِ وَالغَوا فِيهِ لَعَلَّكُم تَغلِبُونَ ﴾ فكل من يتضح له الحق على لسان أحد ويأنف من قبوله أو يناظر للغلبة والافحام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به فقد شاركهم فى هذا الخلق وكذلك من تحمله الأنفة على قبول الوعظ كما قال تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتهُ العِزَّةُ بِالإِثمِ فَحَسبُهُ جَهَنَّمُ ﴾ *

﴿ بيان مابه التكبر ﴾

اعلم أنه لا يتكبر إلاّ من استعظم نفسه ولا يستعظمها إلاّ وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال وجماع ذلك يرجع الى كمال دينى أو دنيوى فالدينى هو العلم والعمل والدنيوى هو النسب والجمال والقوّة والمال وكثرة الأنصار. فهذه سبعة أسباب *

(الأوّل العلم) وما أسرع الكبر الى بعض العلماء فلا يلبث أن

يستشعر فى نفسه كمال العلم فيستعظم نفسه و يستحقر الناس و يستجهلهم و يستخدم من خالطه منهم وقد يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم . وسبب كبره بالعلم أمران (أحدهما) أن يكون اشتغاله بما يسمى علما وليس علما في الحقيقة فان العلم الحقيقى ما يعرف به العبد ربهُ ونفسه وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ *

(ثانيهما) أن يخوض في العلم وهو خبيث الدخلة ردىء النفس سيئ الأخلاق . فانه لم يشتغل أوّلاً بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات فبقى خبيث الجوهر فاذا خاض فى العلم صادف العلم من قلبه منزلا خبيثاً فلم يطب ثمره . ولم يظهر فى الخير أثره . وقد ضرب وهب لهذا مثلا . فقال : العلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافيا فتشربه الأشجار بعروقها فتحوّله على قدر طعومها فيزداد المرّ مرارة والحلو حلاوة فكذلك العلم يحفظه الرجال فتحوّله على قدر هممها وأهوائها فيزيد المتكبر كبرا والمتواضع تواضعا وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل فاذا حفظ العلم وجد مايتكبر به فازداد كبرا واذا كان الرجل خائفا مع علمه فازداد علما علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفا *

(الثانى العمل والعبادة) وليس يخلو عن رذيلة الكبر واستمالة قلوب الناس العُبّادُ فيترشح منهم الكبر فى الدّين والدُّنيا . أما فى الدُّنيا فهو أنهم

يتوقعون ذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس . وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق . وأما فى الدين فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجيا وهو الهالك تحقيقا مهما رأى ذلك . قال صلى الله عليه وسلم ﴿ إذا سَمِعتمُ الرَّجلَ يقولُ هَلكَ النّاسُ فهُوَ أهلَكهُمْ ﴾ وانما قال ذلك لأن هـذا القول منه يدل على أنه مزدرٍ بخلق الله مغتر بالله آمن من مكره غير خائف من سطوته . وكيف لا يخاف ويكفيه شرًّا احتقاره لغيره . قال صلى الله عليه وسلم ﴿ كَفَى بِالمَرءِ شَرًّا أن يُحقِّرَ أخاهُ المُسلِمَ ﴾ وكثيرٌ من العُبّاد اذا استخفَّ به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له ولا يشك فى أنه صار ممقوتا عند الله . وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل وجمع بين الكبر والعجب والاغترار بالله . وقد ينتهى الحمق والغباوة ببعضهم الى أن يتحدّى ويقول سترون مايجرى عليه واذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته وأن الله ما أراد إلاّ الانتقام له مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبُّون الله ورسوله وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم فمنهم من قتلهم ومنهم من ضربهم ثمّ أن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم فى الدُّنيا بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدُّنيا ولا فى الآخرة . أفيظن هذا الجاهل المغرور أنه أكرم على الله من أنبيائه وأنه قد انتقمَ لهُ بما لم ينتقم لأنبيائه به . ولعله فى مقت الله باعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه . فهذه عقيدة المغترين . وأما الأكياس من العباد فيقولون ما كان يقوله بعض السلف بعد انصرافه من عرفات ﴿ كنتُ أرجُو الرَّحمَةَ لجميعهم

لولاَ كونى فِيهم ﴾ فانظر الى الفرق بين الرجلين . هــذا يتقى الله ظاهراً وباطنا وهو وجل على نفسه مزدرٍ لعمله . وذاك يضمر من الرياء والـكبر والغل ماهو ضحكة للشيطان به ثم أنه يمتن على الله بعمله . ومن آثار الكبر فى العابد أن يعبس وجهه كأنه متنزّه عن الناس مستقذر لهم وليس يعلم المسكين أن الورع ليس فى الجبهة حتى تقطب ولا فى الرقبة حتى تطأطأ ولا في الذيل حتي يضم انما الورع في القلوب قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم ﴿ التقْوَى هَهنا ﴾ وأشارَ إلى صَدرِهِ فقد كان صلى الله عليـه وسلم أكرم الخلق وأتقاهم وكان أوسعهم خلقا وأكثرهم بشرا وتبسما وانبساطا كما قال تعالى ﴿ وَاخفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبعَكَ مِنَ المؤْمنينَ ﴾ *

(الثالث) التكبر بالحسب والنسب فالذى له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وان كان أرفع منه عملا وعلما وقد يتكبر بعضهم فيأنف من مخالطة الناس ومجالستهم وقد يجرى على لسانه التفاخر به فيقول لغيره من أنت ومن أبوك فأنا فلان بن فلان ومع مثلى تتكلم . وقد روى أن أبا ذر رضي الله عنه قال قاولت رجلا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت له يا ابن السوداء فغضب صلى الله عليه وسلم وقال ﴿ يَا أَبَاذَرّ لَيسَ لابنِ البَيضاء عَلى ابنِ السَّوداء فَضلٌ ﴾ قال أبو ذر فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدى فانظر كيف نبهه صلى الله عليه وسلم على أن ذلك جهل وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر إذ عرف أن العز لايقمعه إلاّ الذل *

(الرابع) التفاخر بالجمال وذلك أكثر مايجرى بين النساء و يدعو ذلك الى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس *

(الخامس) الكبر بالمال وذلك يجرى بين الأمراء والتجار فى لباسهم وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغنىّ الفقير ويتكبر عليه وكل ذلك جهل بفضيلة الفقر وآفة الغنى *

(السادس) الكبر بالقوّة وشدّة البطش والتكبر به على أهل الضعف

(السابع) التكبر بالاتباع والأنصار والعشيرة والأقارب فهذه مجامع مايتكبر به العباد بعضهم على بعض نسأله تعالى العون بلطفه ورحمته *

﴿ بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه ﴾

﴿ أثر التواضع والتكبر ﴾

اعلم أن التكبر يظهر فى شمائل الرجل كصعر فى وجهه ونظره شزرا واطراقه رأسه وجلوسه متربعاً أو متكئاً وفى أقواله حتى فى صوته ونغمته وصيغته فى الايراد ويظهر فى مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر فى بعض ويتواضع فى بعض فمنها التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه ومنها أن لايمشى إلاّ ومعه غيره يمشى خلفه ومنها أن لايزور غيره وان كان يحصل من زيارته خير لغيره فى الدّين وهو ضدّ التواضع ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلاّ أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه ومنها أن لايتعاطى بيده شغلا فى بيته والتواضع خلافه روى

أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ فقال الضيف أقوم الى المصباح فأصلحه فقال ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه قال أفأنبه الغلام فقال هى أول نومة نامها فقام وملأ المصباح زيتا فقال الضيف قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين فقال ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر مانقص منى شئ وخير الناس من كان عند الله متواضعا ومنها أن لايأخذ متاعه ويحمله الى بيته وهو خلاف عادة المتواضعين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك وقال على لاينقص الرجل الكامل من كماله ماحمل من شئ الى عياله ومنها اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع وعلامة المتكبر فيه حرصه على التزين للناس للشهرة والمخيلة وأما طلب التجمل لذاته فى غير سرف ولا مخيلة فليس من الكبر . والمحبوب الوسط من اللباس الذى لايوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة . وقد قال صلى الله عليه وسلم ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِى غَيْرِ سَرَفٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ﴾ ومنها أن يتواضع بالاحتمال إذا سبّ وأوذى وأخذ حقه فذلك هو الأصل وبالجملة فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبىّ صلى الله عليه وسلم فيه . فينبغى أن يقتدى به ومنه ينبغى أن يتعلم وقد قال ابن أبى سلمة قلت لأبى سعيد الخدرىّ ماترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم فقال (ياابن أخى كل لله . واشرب لله . والبس لله . وكلّ شئ من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهومعصية وسرف . وعالج فى بيتك من الخدمة ما كان

يعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته . كان يحلب الشاة . ويخصف النعل . ويرقع الثوب . ويأكل مع خادمه . ويشترى الشئ من السوق ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده . يصافح الغنىّ والفقير . ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير . يجيبُ إذا دعى . ولا يحقر مادعى اليه . لين الخلق . جميل المعاشرة . طليق الوجه . شديد فى غير عنف . متواضع فى غير مذلة . جوّاد من غير سرف . رقيق القلب). (زادت عائشة رضى الله عنها) وأنه صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعاً . ولم يبث الى أحد شكوى وان كانت الفاقة لاحبّ اليه من اليسار والغنى *

فمن طلب التواضع فليقتد به صلى الله عليه وسلم . ومن لم يرض لنفسه بذلك فما أشد جهله . فلقد كان أعظم خلق الله منصبا فى الدنيا والدين . فلا عزّ ولا رفعة إلاّ فى الاقتداء به *

﴿ بيان الطريق فى معالجة الكبر واكتساب التواضع ﴾

اعلم أن الكبر من المهلكات . وازالته فرض عين . ولا يزول بمجرّد التمنى بل بالمعالجة وفى معالجته مقامان (أحدهما) قلع شجرته من مغرسها فى القلب (الثانى) دفع العارض منه بالأسباب التى قد يتكبر بها *

﴿ المقام الأول فى استئصال أصله ﴾

علاجه علمى وعملىّ . ولا يتم الشفاء إلاّ بمجموعهما . أما العملىّ فهوأن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى . ويكفيه ذلك فى إزالة الكبر فانه مهما

عرف نفسه حق المعرفة علم أنه لا يليق به إلاّ التواضع واذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله . أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول . وأما معرفته نفسه . فهو أيضاً يطول ولكنا نذكر من ذلك ماينفع فى إثارة التواضع . ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة فى كتاب الله . فان فى القرآن علم الأوّلين والآخرين لمن فتحت بصيرته قال تعالى ﴿ قُتِلَ الإِنسانُ ما أَكْفَرَهُ . مِنْ أَيِّ شيء خَلَقَهُ . مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ . ثُمَّ أَماتَهُ فأَقْبَرَهُ . ثُمَّ إِذَا شاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ فقد أشارت الآية الى أوّل خلق الانسان والى آخر أمره والى وسطه فلينظر الانسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية أما أول الانسان فهو أنه لم يكن شيأ مذكورا وقد كان فى حيّز العدم دهورا وأى شيء أخسّ من العدم ثم خلقه الله من أقذر الأشياء إذ خلقه من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم جعله عظما ثم كسا العظم لحما فهذا بداية وجوده فما صار شيأ مذكوراً إلاّ وهو على أخسّ الأوصاف والنعوت إذ لم يخلق فى ابتدائه كاملا بل خلقه جماداً ميتا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم فبدأ بموته قبل حياته وبضعفه قبل قوّته وبجهله قبل علمه وبعماه قبل بصره وبصممه قبل سمعه وبكمه قبل نطقه وبضلاله قبل هداه وبفقره قبل غناه وبعجزه قبل قدرته . فهذا معنى قوله ﴿ مِنْ أَيِّ شيء خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ ثم امتن عليه فقال ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ وهذا اشارة الى ماتيسر له في مدة حياته الي الموت . وانما خلقه من

التراب الذليل الذى يوطأ بالأقدام والنطفة القذرة بعد عدمها ليعرف خسة ذاته فيعرف بها نفسه وانما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربهُ ويعلم بها عظمته وجلاله وأنه لايليق الكبرياء إلاّ به جلّ وعلا فمن كان هذا بدؤه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على التحقيق أضعف الضعفاء . ولكن هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم وذلك لدلالة خسةِ أوّلِه ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله * نعم لو أكمله وفوّض اليه أمره وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يطغى وينسى المبدأ والمنتهى ولكنه سلّط عليه فى دوام وجوده الأمراض والآفات يهدم البعض من أجزائه البعض شاء أم أبى فيجوع كرها ويعطش كرها ويمرض كرها ويموت كرها لايملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا خيراً ولا شراً يريد أن يعلم الشئ فيجهله ويريد أن يذكر الشئ فينساه ويريد أن ينسى الشئ ويغفل عنه فلا يغفل عنه ولا يأمن فى لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله ويختطف روحه ويسلب جميع مايهواه فى دنياه . فهو مضطر ذليل . ان ترك بقى وان اختطف فنى عبد مملوك لايقدر على شئ من نفسه ولا شئ من غيره . فأى شئ أذل منه لو عرف نفسه وأنى يليق الكبر به لولا جهله فهذا وسط أحواله فليتأمله وأما آخره فهو الموت المشار اليه بقوله تعالى ﴿ ثُمَّ أماتَهُ فأقبَرَهُ ثمَّ إذَا شاءَ أنشَرَهُ ﴾ ومعناه أنه يسلب روحه وسمعه وبصره . وعلمه وقدرته وحسّه وادراكه وحركته فيعود جمادا كما كان أول مرة لايبقى إلاّ شكل

أعضاؤه وصورته لا حسّ فيـه ولا حركة ثم يوضع فى التراب فيصير جيفة منتنة قذرة ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه ويأكل الدود أجزاءه فيصير روثا فى أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل انسان ويهرب منـه لشدة الانتان وليته بقى كذلك فما أحسنه لو ترك لا بل يحييه بعـد طول البلى ليقاسى شـديد البلا فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة ويخرج الى أهوال القيامة فينظر الى قيامة قائمة وسماء مشققة ممزقه وأرض مبدله وجبال مسيّرة ونجوم منكدره وشمس منكسفه وأحوال مظلمة وملائـكة غلاظ شداد وجهنم تزفر وجنة ينظر اليها المجرم فيتحسر ويرى صحائف منشوره فيقال له اقرأ كتابك فيقول وما هو فيقال كان قد وكل بك فى حياتك التى كنت تتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملـكان رقيبان يكتبان عليك ما تنطق به أو تعمله من قليـل أو كثير وصغير وكبير قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك فهلمّ الى الحساب واسـتعدّ للجواب أو تساق الى دار العـذاب فينقطع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب قبل أن تنتشر الصحيفة ويشاهـد مافيها من مخازيه فاذا شاهده قال ﴿ يَاوَيْلَتَنَا مالِهَذَا الـكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إلاّ أحْصاها ﴾ فهذا آخر أمره . وهو معنى قوله تعالى ﴿ ثُمّ إذَا شاء أنْشَرَهُ ﴾ فما لمن هـذا حاله والتكبر والتعظم بل ماله وللفرح فضلا عن البطر فقد ظهر له أول حاله ووسـطه ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يصير مع البهائم ترابا ولا يكون انسانا يسمع خطابا أو

يلقى عذابا فمن هذا حاله في العاقبة إلاّ أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو فكيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر حقاً يكفيه ذلك حزنا وخوفا واشفاقا ومهانة وذلا فهذا هو العلاج العلمى القامع لأصل الكبر وأما العلاج العملى فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين كما وصفناه من شمائل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أحوال الصالحين . ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلاّ بالعمل ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالايمان وبالصلاة جميعاً وقيل الصلاة عماد الدّين وفى الصلاة أسرار لأجلها كانت عماداً ومن جملتها مافيها من التواضع بالمثول قائما وبالركوع وبالسجود وقد كان العرب قديما يأنفون من الانحناء فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحنى لأخذه وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لاصلاحه فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذّلة والضعة أمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع فى قلوبهم وبه أمر سائر الخلق *

﴿ المقام الثانى ﴾

﴿ فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المتقدمة ﴾

ذكرنا فى كتاب ذمّ الجاه أن الكمال الحقيقى هو العلم والعمل فأماماعداه مما يفنى بالموت فكمالٌ وهمىّ ونحن نذكر طريق العلاج من العلم والعمل فى جميع أسبابه السبعة (الأوّل النسب) فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداوِ قلبه بمعرفة أن هذا جهل من حيث أنه تعزز بكمال غيره .

ومن كان خسيساً فمن أين تجبر خسته بكمال غيره وبمعرفة نسبه الحقيقى أعنى أباه وجده فان أباه القريب نطفة قذرة وجدّه البعيد تراب وقد عرّف الله تعالى نسبه فقال ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ ﴾ فاذا كانَ أصله من التراب وفصله من النطفة فمن أين تأتيه الرفعة فهذا هو النسب الحقيقى للانسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب

(الثانى) الكبر بالجمال ودواؤه أن ينظر الى باطنه نظر العقلاء. ولا ينظر الى الظاهر نظر البهائم ومهما نظر الى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال إذ خلق من أقذار ووكل به فى جميع أجزائه الاقذار وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الاقذار وجماله لا بقاء له بل هو فى كل حين يتصور أن يزول بمرض أو سبب من الاسباب فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب فمعرفة ذلك تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها (الثالث) الكبر بالقوة ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سلط الله عليه من العلل والامراض وانه لو توجع عرق واحد فى يده لصار أعجز من كل عاجز أو أن شوكة لو دخلت فى رجله لاعجزته وان حمى يوم تحلل من قوته مالا ينجبر فى مدة فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة فلا ينبغى أن يفتخر بقوته ثم ان قوى الانسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل وأى افتخار فى صفة يسبقك بها البهائم *

(السبب الرابع والخامس) الغنى وكثرة المال وفى معناه كثرة الاتباع والأنصار والتكبر بالمناصب والولايات وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن

ذات الانسان وهذا أقبح أنواع الكبر فلو ذهب ماله أو احترقت داره لعاد ذليلا وكم فى اليهود من يزيد عليه فى الغنى والثروة والتجمل فأفٍّ لشرف يسبقه به يهودى أو يأخذه سارق فى لحظة فيعود ذليلا مفلسا *

(السادس) الكبر بالعلم وهو أعظم الآفات وعلاجه بأمرين (أحدهما) أن يعلم ان حجة الله على أهل العلم آكد وانه يحتمل من الجاهل مالا يحتمل عشره من العالم فان من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش وخطره أعظم (ثانيهما) ان يعرف ان الكبر لا يليق الا بالله عز وجل وحده وانه اذا تكبر صار ممقوتا عند الله بغيضا فهذا مما يزيل التكبر ويبعث على التواضع. واذا دعته نفسه للتكبر على فاسق أو مبتدع فليتذكر ما سبق من ذنوبه وخطاياه لتصغر نفسه فى عينه وليلاحظ ابهام عاقبته وعاقبة الآخر فلعله يختم له بالسوء ولذاك بالحسنى حتى يشغله الخوف عن التكبر عليه. ولا يمنعه ترك التكبر عليه أن يكرهه ويغضب لفسقه بل يبغضه ويغضب لربه اذ أمره أن يغضب عليه من غير تكبر عليه (السابع) التكبر بالورع والعبادة وذلك فتنة عظيمة على العبّاد وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد قال وهب ابن منبّه: ماتم عقل عبد حتى يكون فيه خصال: وعد منها خصلة. قال: بها ساد مجده. وبها علا ذكره. أن يرى الناس كلهم خيرا منه. وانما الناس عنده فرقتان فرقة هى أفضل منه وأرفع. وفرقة هى شرّ منه وأدنى. فهو يتواضع للفرقتين جميعا بقلبه. وان رأى من هو خير منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به وان رأى من هو شر منه قال لعل هذا ينجو واهلك أنا. فلا تراه

الا خائفا من العاقبة . ويقول لعل برّ هذا باطن فذلك خير له ولا أدرى لعل فيه خلقا كريما بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال . وبرّى ظاهر فذلك شرٌّ لى فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها . قال : فحينئذ كمل عقله . وساد أهل زمانه *

والذى يدلُّ على فضيلة هـذا الاشفاق قوله تعالى ﴿ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ الى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ أى أنهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها . وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام مع تقدسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات بالدؤوب على الاشفاق فقال تعالى مخبرا عنهم ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيلَ والنَّهار لاَ يَفْتُرُونَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ فمتى زال الاشفاق والحذر غلب الأمن من مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك فالكبر دليل الأمن والأمن مهلك والتواضع دليل الخوف وهو مسعد *

فاذن مايفسده العابد باضمار الكبر واحتقار الخلق أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب إلاّ أنّ النفس بعدهذه المعرفة قد تضمر التواضع وتدعى البراءة من الكبر وهى كاذبة فاذا وقعت الواقعة عادت الى طبعها فمن هـذا لاينبغى أن يكتفى فى المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغى أن تكمل بالعمل وتجرب بأفعال المتواضعين فى مواقع هيجان الكبر من النفس *

وبيانه أن يمتحن النفس بالامتحانات الدالة على استخراج مافي الباطن والامتحانات كثيرة . فمنها وهو أوّلها : أن يناظر فى مسألة مع واحـد من أقرانه فان ظهر شئ من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والشكر له على تنبيهه فذلك يدلُّ على أن فيه كبرا دفينا فليتق الله فيه ويشتغل بعلاجه . أمّا من حيث العلم فبأن يُذَكّرَ نفسَهُ خسةَ نفسه وخطر عاقبته وأن الكبر لايليق إلاّ بالله تعالى . وأما العمل فبأن يكلف نفسه ماثقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء ويقر على نفسه بالعجز ويشكره على الاستفادة ويقول ما أحسنَ مافطنتَ لهُ وقد كنتُ غافلا عنه فجزاك الله خيراً كما نبهتنى له فالحكمة ضالّة المؤمن فاذاوجدها ينبغى أن يشكر من دلّه عليها فاذا واظب على ذلك مرّات متواليـة صار ذلك له طبعاً وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله . ومهما ثقل عليـه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر *

(الامتحان الثانى) أن يجتمع مع الأقران والأمثال فى المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشي خلفهم ويجلس فى الصدور تحتهم فان ثقل ذلك عليه فهو متكبر فليواظب عليه تكلفا حتى يسقط عنه ثقله فبذلك يزايله الكبر *

وههنا للشيطان مكيدة وهو أن يجلس فى صف النعال أو يجلس بينـه وبين الأقران بعض الأرذال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر . فانّ ذلك يَخِفّ على نفوس المتكبرين إذ يوهمون أنهـم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل فيكون قد تكبر باظهار التواضع أيضا بل ينبغى أن

يقدّم أقرانه ويجلس بجنبهم ولا ينحط عنهم إلى صف النعال فذلك هو الذى يخرج خبث الكبر من الباطن *

(الامتحان الثالث) أن يجيب دعوة الفقير ويمرّ الى السوق فى حاجة الرّفقاء والأقارب فان ثقل ذلك عليه فهو كبر فان هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل فنفور النفس عنها ليس إلاّ لخبث فى الباطن فليشتغل بازالتـه بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ماذكرناه من المعارف التى تزيل داء الكبر *

(الامتحان الرابع) أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق الى البيت فان أبت نفسه ذلك فهو كبر أورياء *

وكل ذلك من أمراض القلوب وعلله المهلكة له ان لم تتدارك . وقد أهمل الناس طبّ القلوب واشتغلوا بطبّ الأجساد مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لامحالة والقلوب لاتدرك السعادة إلاّ بسلامتها إذ قال تعالى ﴿ إلاّ مَنْ أتى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ *

﴿ بيان غاية الرياضة فى خلق التواضع ﴾

اعلم أن هـذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان ووسط فطرفه الذى يميل الى الزيادة يسمى تكبرا وطرفه الذى يميل الى النقصان يسمى تخاسسا ومذلة والوسط يسمى تواضعاً والمحمود أن يتواضع فى غير مذلة وتخاسس فان (كلا طرفى قصد الأمور ذميم) وأحبّ الأمور الى الله تعالى أوساطها فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهـم فهو متواضع أى وضع

شيأ من قدره الذى يستحقه والعالم اذا دخل عليه دنىء فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوّى له نعله وغدا الى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل وهو أيضا غير محمود بل المحمود عند الله العدل وهو أن يعطى كل ذى حق حقه فينبغى أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته فأما تواضعه للسوقى فبالقيام والبشر فى الكلام والرفق فى السؤال واجابة دعوته والسعي فى حاجته وأمثال ذلك وأن لا يرى نفسه خيرا منه فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة أمره *

﴿ بيان ذم العجب وآفاته ﴾

اعلم أن العجب مذموم فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْأً ﴾ ذكر ذلك في معرض الانكار وقال عزّ وجلّ ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ فرد على الكفار في اعجابهم بحصونهم وشوكتهم وقال تعالى ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صنعاً ﴾ وهذا أيضا يرجع الى العجب بالعمل وقد يعجب الانسان بعمل هو مخطئ فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه . وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ ثَلَاثٌ مُهلِكَاتٌ شحٌ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ ﴾ وقال ابن مسعود (الهلاك في اثنتين القنوط والعجب) وانما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلاّ بالسعى والطلب والجد والتشمر والقانط لا يسعى ولا يطلب والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى وقد قال تعالى ﴿ فَلَا تُزَكُّوا

أنفسكم ﴾ أى لا تعتقدوا أنها بارَّة وقال تعالى ﴿ لاَ تُبْطِلوا صَدَقَاتِكم بِالمَنّ وَالأذى ﴾ والمنّ نتيجة استعظام الصدقة واستعظام العمل هو العجب *

﴿ بيان آفة العجب ﴾

اعلم أن آفات العجب كثيرة فان العجب يدعو الى الكبر لأنه أحد أسبابه فيتولد من العجب الكبر ومن الكبر الآفات الكثيرة التى لا تخفى هذا مع العباد وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو الى نسيان الذنوب واهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها لظنه أنه مستغن عن تفقدها وما يتذكره منها فيستصغره فلا يجتهد فى إزالته بل يظن أنه يغفر له وأما العبادات والأعمال فانه يستعظمها ويمنّ على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها ثم إذا أعجب بها عمى عن آفاتها وذلك أن المعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ويظن أنه عند الله بمكان وأن له عند الله منة وحقا بأعماله التى هى نعمة من نعمه ويخرجه العجب الى أن يثنى على نفسه ويحمدها ويزكيها . وان أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه . وربما يعجب بالرأى الخطأ الذى خطر له فيفرح بكونه من خواطره ولا يفرح بخواطر غيره فيصرّ عليه ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ بل ينظر الى غيره بعين الاستجهال ويصرّ على خطاياه *

فهذا وأمثاله من آفات العجب فلذلك كان من المهلكات ومن أعظم آفاته أن يغتر في السعي لظنه أنه قد فاز وأنه قد استغنى وهو الهلاك الصريح

نسأل الله العظيم حسن التوفيق لطاعته *

﴿ بيان علاج العجب على الجملة ﴾

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده وعلة العجب الجهل المحض فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل وذلك أن المعجب بجماله أوقوته أو نسبه ومالايدخل تحت اختياره انما يعجب بما ليس اليه لأن كل ذلك من فضل الله وانما هو محل لفيضان جوده تعالى فله الشكر والمنة لا لك اذ أفاض على عبده مالايستحق وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة فاذن منشأ العجب بذلك هو الجهل وازالة ذلك بالعلم المحقق بأن العبد وعمله وأوصافه كلها من عند الله تعالى نعمة ابتدأه بها قبل الاستحقاق وهذا ينفى العجب والادلال ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة قال الله تعالى ﴿ وَلولاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيكم وَرَحمَتُهُ مازَكا مِنكُمْ مِنْ أحَدٍ أبَدًا ﴾ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم خير الناس ﴿ مامِنكُم مِنْ أحَدٍ يُنجِيهِ عَمَلُهُ ﴾ قالوا ولا أنت يارسول الله قال﴿ ولا أنا إلاّ أنْ يتغمَّدَنِى اللهُ برَحمَتهِ ﴾ ومهما غلب الخوف على القلب شغله خشية سلب هذه النعمة عن الاعجاب بها وأنى لذى بصيرة أن يعجب بعمله ولا يخاف على نفسه فإذًا هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب *

﴿ بيان أقسام مابه العجب وتفصيل علاجه ﴾

اعلم أن مجموع مابه العجب ثمانية أقسام (الأوّل) أن يعجب ببدنه

في جماله وهيئته وصحته وقوته وحسن صوته وينسى أنه نعمة من الله تعالى وهو بعرضة الزوال فى كل حال وعلاجه التفكر في أقذار باطنه فى أول أمره وفى آخره وفى الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة كيف تمزقت فى التراب وأنتنت فى القبور حتى استقذرتها الطباع *

(الثانى) البطش والقوة كما حكي عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ وعلاجه أن يعلم أن حمى يوم تضعف قوته وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه *

(الثالث) العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا وثمرته الاستبداد بالرأى وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه ويخرج الى قلة الاصغاء الى أهل العلم اعراضا عنهم بالاستغناء بالرأى والعقل وعلاجه أن يشكر الله تعالى على مارزق من العقل ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك منه فلا يأمن أن يسلب عقله ان أعجب به ولم يقم بشكره ويستقصر علمه وعقله وليعلم أنه ما أوتى من العلم إلاّ قليلاً وإن اتسع علمه وان ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى وأن يتهم عقله وينظر الى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم فيحذر أن يكون منهم وهو لايدرى فان القاصر العقل لايعلم قصور عقله فينبغى أن يعرف مقدار عقله من غيره لامن نفسه ومن أعدائه لامن أصدقائه فان من يداهنه يثنى عليه فيزيده عجبا وهو لا يظن بنفسه إلاّ الخير ولا يفطن

لجهل نفسه فيزداد به عجبا *

(الرابع) العجب بالنسب الشريف حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آبائه فى أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل وان اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف ومذمة النفس ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب فليشرف بما شرفوا به ولذلك قال تعالى ﴿ يَا أَيُّها النَّاسُ إنا خَلَقْنا كم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ أى لا تفاوت فى أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد ثم ذكر فائدة النسب فقال ﴿ وَجَعَلْنا كم شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفوا ﴾ ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال ﴿إنَّ أَكْرَمَكم عِندَ اللهِ أتقاكم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنَّ اللهَ أذهَبَ عَنكم عبيةَ الجاهلِيَّةِ ﴾ أى كبرها ﴿ كُلُّكم بنو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ ﴾ ولما نزل قوله تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال ﴿ يافاطمةُ بِنتُ مُحَمدٍ ياصفيةُ بِنتُ عَبدِ المطّلِبِ عَمّةُ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلَّمَ إعمَلاَ لِأَنفسِكما فإِنّي لا أغنِي عَنكما مِنَ اللهِ شَيأً ﴾ فبين أنهم اذا مالوا الى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش فمن عرف هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر تقواه وقد كان من عادة آبائه التواضع اقتدى بهم فى التقوى والتواضع والا كان طاعنا فى نسب نفسه بلسان حاله مهما انتمى اليهم ولم يشبههم فى التواضع والتقوى والخوف والاشفاق *

(الخامس) العجب بنسب الأمراء وأعوانهم دون نسب العلم والدين

وهذا غاية الجهل وعلاجه أن يتفكر في منكراتهم وما جروا على الناس من المحظورات فيشكر الله ان عصمه من تبعاتهم *

(السادس) العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والعشيرة والأقارب كما قال الكفار ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً ﴾ وكما قال المؤمنون يوم حنين لا نغلب اليوم من قلة: وعلاجه ماذكرناه فى الكبر وهو أن يتفكر فى ضعفه وضعفهم وأن كلهم عجزة لايملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعا . ثم كيف يعجب وهم سيفارقونه إذا مات ودفن وحده ذليلا مهانا ويسلمونه الى البلى والحيَّات والعقارب ولا يغنون عنه شيأ ويهربون منه يوم القيامة ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ فكيف تعجب بمن يفارقك فى أشدّ أحوالك ويهرب منك وكيف تتكل على من لاينفعك وتنسى نعم من يملك نفعك وضرّك *

(السابع) العجب بالمال كما أخبر تعالى عن ذاك الكافر اذ قال ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾ وعلاجه أن يتفكر فى آفات المال وكثرة حقوقه والى أن فى اليهود من يزيد عليه فى المال وينظر الى فضيلة الفقراء وخفة حسابهم وكيف يتصوّر من المؤمن أن يعجب بماله ولا يخلو من تقصير فى القيام بحقوق المال من أخذه من حله ووضعه فى حقه وأن مآل المتهوّر فى الجمع والمنع الى الخزى والبوار *

(الثامن) العجب بالرأى الخطأ قال تعالى ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ وقال تعالى ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ وقد أخبر

رسول الله صلوات الله عليه أن بذلك هلكت الأمم السالفة إذ افترقت فرقا وكلٌّ معجب برأيه وكل حزب بما لديهم فرحون . وعلاجه أن يتهم رأيه أبدا لا يغتر به إلاّ أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقل صحيح جامع لشروط الأدلة (ولن يعرف الانسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلاّ بقريحة تامة وعقل ثاقب وجدٍّ وتشمير فى الطلب وممارسة للكتاب والسنّة ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط فى بعض الأمور) والصواب لمن لم يتفرّغ لاستغراق عمره فى العلم أن لا يخوض فى المذاهب بل يشتغل بالتقوى واجتناب المعاصى وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين * نسأله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهّال *

كتاب ذم الغرور

أن مفتاح السعادة التيقظ والفطنة . ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة . والمغرور هو الذى لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا . وبقى فى العمى فاتخذ الهوى قائداً والشيطان دليلا . ولما كان الغرور أم الشقاوات . ومنبع المهلكات . لزم شرح مداخله ومجاريه . وتفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه (فالموفق من العباد . من عرف مداخل الآفات والفساد . فأخذ منها حذره . وبنى على الحزم والبصيرة أمره) *

﴿ بيان ذم الغرور وحقيقته ﴾

اعلم أن قوله تعالى ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنيا ولا يَغُرَّنَّكم باللهِ الغرورُ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَلَكِنَّكُم فَتَنتُم أنفُسكم وَتَرَبَّصتمْ وَارْتَبْتُم وَغَرَّتكمُ الأَمانِيُّ ﴾ الآية كاف فى ذم الغرور وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ الكَيِّسُ من دَانَ نفسَهُ وَعَمِلَ لما بَعدَ المَوتِ والأَحْمَقُ من أتْبعَ نفسَهُ هَوَاها وتمنَّى عَلى اللهِ ﴾ فالغرور هو سكون النفس الى مايوافق الهوى ويميل اليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان فمن اعتقد أنه على خير إما فى العاجل أو فى الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه فأكثر الناس إذا مغرورون وان اختلفت أصناف غرورهم *

وأشد الغرور غرور الكفار . وغرور العصاة والفساق . فأما غرور الكفار [١] فقد أشير اليه فى قوله تعالى ﴿ أُولئِكَ الَّذِينَ اشتَرَوُا الحَياةَ الدُّنيا بالآخِرَةِ فلا يُخَفَّفُ عَنهُمُ العَذَابَ ولا هم يُنصَرُونَ ﴾ وعلاج هذا الغرور إمَّا التصديق بالايمان واما بالبرهان . أما التصديق بمجرد الايمان فهو أن يصدّق الله تعالى فى قوله ﴿ ما عِندَكم ينفَدُ وما عِندَ اللهِ باقٍ ﴾ وفى قوله عزّ وجلّ ﴿ وما عِندَ اللهِ خيرٌ ﴾ وقوله ﴿ والآخِرَةُ خيرٌ وأبقى ﴾ وقوله ﴿ فلا تَغُرَّنَّكم الحَياةُ الدُّنيا ﴾ وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك طوائف من الكفار فصدّقوه وآمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان . ومنهم من قال نشدتك الله أبعثك

---

(١) يدخل فى الكفار الدهريَّة الطبيعية فهذا البحث والاحتجاج ينفعان فى القامهم الحجر فليكن على بال منك فانه مهم جدا اه مختصره

الله رسولا فكان يقول نعم فيصدّق . وهذا ايمان العامة . وهو يخرج من الغرور *

وأما المعرفة بالبيان والبرهان فان تعرف فساد ما وسوس به الشيطان من الغرور بالتبصر فى دعوى الأنبياء والعلماء وتصديقهم فانه أيضا يزيل الغرور وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص ومثالهم مريض لا يعرف دواء علته وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت الفلانى فانه تطمئن نفس المريض الى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية بل يثق بقولهم ويعمل به ولو بقى معتوه يكذبهم فى ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه عددا وأغزر منه فضلا وأعلم منه بالطب بل لا علم له بالطب فيعلم كذبه بقولهم ولا يعتقد كذبهم بقوله ولا يغتر فى علمه بسببه . ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان معتوها مغرورا فكذلك من نظر الى المقرّين بالآخرة والمخبرين عنها والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع فى الوصول الى سعادتها وجدهم خير خلق الله وأعلاهم رتبة فى البصيرة والمعرفة والعقل وهم الأنبياء والحكماء والعلماء واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم . وشذ منهم آحاد ممن غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم الى التمتع فعظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار فجحدوا الآخرة وكذّبوا الأنبياء . فكما أن قول الصبيّ والمعتوه لا يزيل طمأنينة القلب الى ما اتفق عليه الأطباء فكذلك قول هذا الغبيّ الذى استرقته الشهوات لا يشكك فى صحة أقوال

الأنبياء والعلماء ـ وهذا القدر من الايمان كاف لجملة الخلق وهو يقين جازم يستحث على العمل لامحالة والغرور يزول به *

وأما غرور العصاة من المسلمين فبقولهم . إنّ الله كريم وَإنا نرجو عفوه : واتكالهم على ذلك واهمالهم الأعمال وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء وظنهم أن الرجاء مقام محمود فى الدّين وأن نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عميم وأين معاصى العباد فى بحار كرمه وانّا موحدون فنرجوه بوسيلة الايمان وربما كان مستدرجاتهم التمسك بصلاح الآباء وعلوّ رتبتهم كاغترار العلوية بنسبهم ومخالفة سيرة آبائهم فى الخوف والتقوى والورع وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى . أينسى المغرور أن نوحا عليه السلام أراد أن يستصحب ولده معه فى السفينة فلم يُرِدْ فكان من المغرقين ﴿ قالَ رَبِّ إنَّ ابنى مِنْ أهلِى ﴾ فقال تعالى ﴿ يانوحُ إنّهُ لَيسَ مِنْ أهلِكَ إنّهُ عَمَلٌ غيرُ صالِحٍ ﴾ وأن ابراهيم عليه السلام استغفر لأبيه فلم ينفعه . ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه . ويَرْوَى بشرب أبيه . ويصير عالما بعلم أبيه . ويصل الى الكعبة ويراها بمشى أبيه . فالتقوى فرض عين فلا يجزى فيه والد عن ولده شيأ وكذا العكس *

﴿ بيان الغلط فى تسمية التمنى والغرور رجاء ﴾

(فان قلت) فأين الغلط في قول العصاة والفجار ان الله كريم وانا نرجو

رحمته ومغفرته وقد قال : أنا عند ظن عبدى بي (فالجواب) أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كشف عن ذلك فقال ﴿ الكيّسُ مَنْ دَانَ نَفسَهُ وعَمِلَ لما بَعدَ المَوتِ وَالأحمَقُ مَنْ أتبعَ نَفسَهُ هوَاها وتمنّى على اللهِ الأمانى ﴾ وهـذا هو التمنى على الله تعالى غيَّر الشيطان اسمه فسماه رجاء حتى خـدع به الجهال وقد شرح الله الرجاء فقال ﴿ إنّ الَّذينَ آمنوا وَالَّذينَ هاجَرُوا وَجاهَدُوا فى سَبيلِ اللهِ أُولئِكَ يَرجُونَ رَحمةَ اللهِ ﴾ يعنى أن الرجاء بهم أليق . وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال قال الله تعالى ﴿ جزَاءً بِما كانوا يَعمَلونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَإنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكم يَومَ القِيامةِ ﴾ أفترى أن من استؤجر على إصلاح أوان وشرط له أجرة عليها وكان الشارط كريما يفى بالوعد مهما وعـد ولا يخلف بل يزيد فجاء الأجير وكسر الأوانى وأفسد جميعها ثم جلس ينتظر الأجر ويزعم أن المستأجر كريم أفتراه العقلاء فى انتظاره متمنيا مغرورا أو راجيا . وهـذا للفرق بين الرجاء والغرة . قيل للحسن قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل . فقال : هيهات هيهات . تلك أمانيهم يترجحون فيها . من رجا شيأ طلبه ومن خاف شيأ هرب منه *

وكما أن الذى يرجو فى الدُّنيا ولدا وهو بعدُ لم ينكح فهومعتوه فكذلك من رجا رحمة الله ولم يعمل صالحا ولم يترك المعاصى فهومغرور . فكما أنه إذا نكح بقى متردداً فى الولد يخاف ويرجو فضـل الله فى خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم الى أن يتم فهو كيّس . فكذلك إذا آمن

وعمل الصالحات وترك السيئات وبقي مترددا بين الخوف والرجاء يخاف أن لايقبل منه ويرجو أن يثبته حتى يموت على التوحيد ويحرس قلبه عن الميل الى الشهوات بقية عمره حتى لايميل الى المعاصي فهو كيّس . ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله ﴿ وَسَوْفَ يَعلمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ *

﴿ موضع الرجاء المحمود ﴾

فان قلت فأين موضع الرجاء المحمود فاعلم أنه محمود فى موضعين *

(أحـدهما) فى حق العاصي المنهمك إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان وأنى تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله تعالى فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء ويتذكر أن الله يغفر الذنوب جميعاً وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب قال تعالى ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحا ثُمَّ اهتَدَى ﴾ فاذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج وان توقع المغفرة مع الاصرار فهو مغرور *

(الثاني) أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض فيرجي نفسه نعيم الله تعالى وما وعد به الصالحين حتى ينبعث من الرجاء نشاطُ العبادة فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنونَ الَّذِينَ هُمْ فى صلَاَتِهِمْ خاشِعُونَ ﴾ الآيات *

فالرجاء الأوّل يقمع القنوط المانع من التوبة والرجاء الثاني يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمر (فكل توقعٍ حثّ على توبةٍ أو على تشمرٍ فى

العبادة فهو رجاء . وكل رجاء أوجب فتورا فى العبادة وركونا الى البطالة فهو غرّة) كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل فيفتره الشيطان عن التوبة والعبادة وقال له لك رب كريم فهذا غرّة وعندهذا يجب أن يستعمل الخوف فيخوّف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب وأنه مع أنه كريم خلد الكفار فى النار أبد الآباد وقد خوّفنى عقابه فكيف لا أخافه وكيف أغترّ به *

فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل فما لا يبعث على العمل فهو تمنّ وغرور ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب اقبالهم على الدّنيا وسبب اعراضهم عن الله تعالى واهمالهم السعي للآخرة فذلك غرور وقد كان السلف يبالغون فى التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ويبكون على أنفسهم فى الخلوات . وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين غير خائفين مع إكبابهم على المعاصي وانهماكهم فى الدّنيا واعراضهم عن الله تعالى زاعمين أنهم واثقون بكرم الله وعفوه كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه مالم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون فان كان هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالهوينا فعلى ماذا كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم وقد قال تعالى ﴿ وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ . ذَلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ ﴾ والقرآن من أوّله الى آخره تحذير وتخويف لا يتفكّر فيه متفكّر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه ان كان مؤمنا بما فيه *

﴿ بيان بعض أصناف المغترين ﴾

فمنهم فرقة أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان لا يعذب مثلهم ولو نظروا بعين البصيرة لعلموا ان العلم انما يراد لمعرفة الحلال والحرام ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها فهي علوم لا تراد الا للعمل وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل وقد ورد فيمن لا يعمل بعلمه ما فيه أشد الترهيب كقوله تعالى ﴿ مَثَلُ الذينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلوها كَمَثَلِ الحِمارِ يَحمِلُ أسفارًا ﴾ فأى خزى أعظم من التمثيل بالحمار *

وفرقة أخرى أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات الذميمة من الكبر والحسد والرياء وطلب العلا وارادة السوء للاقران والنظراء وطلب الشهرة في البلاد والعباد فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إنَّ اللهَ لاَ يَنظُرُ إلى صُوَرِكُمْ ولاَ إلى أمْوالِكُمْ وَإنَّما ينظُر إلى قلوبِكمْ وأعمالِكُمْ ﴾ فتعهدوا الأعمال وما تعهدوا القلوب والقلب هو الأصل إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ومثال هؤلاء قبور الموتى ظاهرها مزين وباطنها جيفة *

وفرقة اقتصروا على علم الفيصل في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد وخصصوا اسم الفقه بها

وربما ضيعوا مع ذلك الاعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقدوا الجوارح كاللسان عن الغيبة ولاالبطن عن الحرام ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات فهؤلاء مغرورن من وجهين من حيث العمل ومن حيث العلم اما من العمل فقد قدمنا أولا وجه الغرور فيه ومثالهم مثال المريض اذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكرارها وتعليمها المرضى ولم يشتغل بشربها واستعمالها أفترى ان ذلك يغنى عنه من مرضه شيأ هيهات هيهات . فلا بد من شربه وصبره على مرارته . على انه بعدُ على خطر من شفائه *

وأما غروره من حيث العلم فحيث اقتصر على علم المعاملات وظن انه علم الدين وترك علم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وربما طعن فى المحدثين وقال : انهم نقلة أخبار وحملة أسفار لا يفقهون وترك أيضا علم تهذيب الاخلاق وترك الفقه عن الله تعالى بادراك جلاله وعظمته وهو الذى يورث الخوف والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى فان الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى اذ قال تعالى ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا الَيهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ والذى يحصل به الانذار غير هذا العلم *

وفرقة اشتغلوا بالوعظ والتذكير والتكلم فى أخلاق النفس والزهد والاخلاص وهم مغرورون يظنون بأنفسهم انهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق اليها فقد صاروا موصوفين بها وهم منفكون عنها عند الله لحرصهم

على السمعة وحسدهم لمن يتقدّمهم من أقرانهم وغيظهم على من يثنى على معاصريهم وجمعهم لحطام الدّنيا فهؤلاء أعظم الناس غِرّة *

وفرقة منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدّنيا فهم يحفظون الكلمات ويؤدّونها من غير إحاطة بمعانيها ولو فى الأسواق مع الجلساء وكل منهم يظن أنه إذا حفظ كلام الزُّهاد فقد أفلح ونال الغرض وصار مغفوراً له من غير أن يحفظ باطنه عن الآثام وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم *

وفرقة اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغتروا به وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الأمة فأفنوا أعمارهم فى ذلك وأعرضوا عن معرفة معانى الشريعة والعمل بها كمن ضيع عمره فى تصحيح مخارج الحروف فى القرآن واقتصر عليه وهو غرور إذ المقصود من الحروف المعانى وانما الحروف أدوات فاللب هو العمل والذى فوقه كالقشر للعمل فالقانعون به مغترّون إلاّ من اتخذه منزلا فلم يعرج عليه إلاّ بقدر حاجته فتجاوزه حتى وصل إلى لباب العمل فحمل نفسه عليه فصفاها من الشوائب والآفات *

﴿ غرور أرباب العبادة وهم فرق عديدة ﴾

منهم فرقة تعمقوا حتى خرجوا إلى العدوان والسرف كالذى يغلب عليه الوسوسة فى الوضوء فيبالغ فيه ولا يرضي المحكوم بطهارته فى الشرع ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة فى النجاسة ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء

إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة إذ توضأ عمر رضى الله عنه بماء فى جرّة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة وكان مع هذا يدع أبوابا من الحلال مخافة من الوقوع فى الحرام *

ومنهم فرقة غلب عليها الوسوسة فى نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة ـ على زعمه ـ وقد يوسوسون فى التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدّة الاحتياط فيه ـ على زعمهم ـ يفعلون ذلك فى أوّل الصلاة ثم يغفلون فى جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم ويغترون بذلك ويظنون أنهم على خير عند ربهم *

وفرقة تغلب عليهم الوسوسة فى إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها فلا يزال يحتاط فى التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح المخارج فى جميع صلاته لايهمه غيره ذاهلا عن معنى القرآن والاتعاظ به وصرف الفهم إلى أسراره وهذا من أقبح أنواع الغرور فانه لم يكلف الخلق فى تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلاّ بما جرت به عادتهم فى الكلام . ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان وأمر أن يؤديها على وجهها فأخذ يؤدى الرسالة ويتأنق فى مخارج الحروف ويكررها ويعيدها مرّة بعد أخرى وهو فى ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس فما أحراه بأن يقام عليه التأديب ويحكم عليه بفقد العقل *

وفرقة اغتروا بقراءة القرآن فيهذرمونه هذرمة وربما يختمونه فى اليوم والليلة مرّة ولسان أحدهم يجرى وقلبه يتردد فى أودية الأمانى إذ لا يتفكر في

معانى القرآن لينزجر بزواجره ويتعظ بمواعظه ويقف عند أوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه . فهو مغرور يظن أن المقصود من انزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه . ومثاله مثال عبد كتب اليه مولاه كتابا وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهى فلم يصرف عنايته الى فهمه والعمل به ولكن اقتصر على حفظه فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاه إلاّ أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة فهو مستحق للعقوبة . ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور نعم تلاوته انما تراد لكيلا ينسى بل لحفظه. وحفظه يراد لمعناه . ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذ به ويغترّ باستلذاذه ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه وانما هى لذته فى صوته فليتفقد قلبه . وليخش ربه *

وفرقة اغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر أو الأيام الشريفة وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة وخواطرهم عن الرياء وبواطنهم عن الحرام عند الافطار وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير فيهمل الفرائض ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه وذلك غاية الغرور *

وفرقة اغتروا بالحج فيخرجون الي الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الاسلام ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض ولا يحذرون من الرفث والخصام ثم يحضر البيت بقلب ملوّث بذميم الأخلاق

لم يقدم تطهيره على حضوره وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه فهو مغرور *

وفرقة جاوروا بمكة والمدينة واغتروا بذلك ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم فقلوبهم معلقة ببلادهم ملتفتة الى قول من يعرفه ان فلانا مجاور بمكة وتراه يقول قد جاورت بمكة كذا وكذا سنة ثم أنه قد يجاور ويمد عين طمعه الى أوساخ أموال الناس ويظهر فيه الرياء وجملة من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة ولكن حب المحمدة وأن يقال أنه من المجاورين الزمه المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل فهو أيضاً مغرور *

وفرقة زهدت في المال وقنعت من اللباس والطعام بالدون ومن المسكن بالمساجد أو المدارس وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد وهو مع ذلك راغب بالرياسة والجاه أما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد فقد ترك أهون الأمرين وباء بأعظم المهلكين فهذا مغرور إذ ظن أنه من الزهاد فى الدنيا وهو لم يفهم معنى الدنيا ولم يدر أن منتهى لذاتها الرياسة وأن الراغب فيها لا بد وأن يكون منافقا وحسودا ومتكبرا ومرائيا ومتصفا بجميع خبائث الأخلاق. وقد يؤثر الخلوة والعزلة وهو مع ذلك مغرور إذ يتطاول بذلك على الناس وينظر اليهم بعين الاستحقار ويعجب بعمله ويتصف بجملة من خبائث القلوب وربما يعطى المال فلا يأخذه خيفة من أن يقال بطل زهده فهو راغب فى حمد الناس وهو من ألذ أبواب الدنيا ويرى نفسه أنه زاهد فى الدنيا وهو مغرور ومع ذلك فربما لا يخلو عن توقير الأغنياء وتقديمهم

على الفقراء والميل الى المريدين له والمثنين عليه والنفرة عن المائلين الى غيره وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان نعوذ بالله منه وفى العبّاد من يشدّد على نفسه فى أعمال الجوارح ولا يخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرّياء والكبر والعجب وسائر المهلكات ويتوهم أنه مغفور له لعمله الظاهر وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب وقد يظن أن العبادات الظاهرة تترجح بها كفة حسناته وهيهات وذرة من ذى تقوى وخلقٌ واحدٌ من أخلاق الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملا بالجوارح ثم لا يخلو هذا المغرور من سوء خلقه مع الناس وخشونته وتلوث باطنه بالرياء وحب الثناء فاذا قيل له أنت من أوتاد الأرض وأولياء الله وأحبابه فرح المغرور بذلك وصدّق به وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضيا عند الله ولا يدرى أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه *

وفرقة حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل وأمثال هذه النوافل ولا يجد للفريضة لذّة ولا يشتدّ حرصه على المبادرة بها فى أوّل الوقت وينسى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه ﴿ ما تَقَرَّبَ الْمُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ ما افْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ ﴾ *

﴿ غرور المتصوفة وهم فرق كثيرة ﴾

ففرقة منهم اغتروا بالزىّ والهيئة والمنطق فيجلسون على السجادات مع إطراق الرأس وادخاله فى الجيب كالمتفكر وفى تنفس الصعداء وفى خفض

الصوت فى الحديث ولم يتعبوا أنفسهم قط فى المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية وكلّ ذلك من أوائل منازل التصوّف مع أنهم لم يحوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيأ منها *

وفرقة ادّعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والأحوال والملازمة فى عين الشهود والوصول الى القرب . ولا يَعرِف هذه الأمور إلاّ بالأسامى والألفاظ لأنه تلقف من ألفاظ الطامّات كلمات فهو يردّدها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأوّلين والآخرين . فهو ينظر الى الفقهاء والمفسرين والمحدّثين وأصناف العلماء بعين الازدراء فضلاً عن العوام حتى أن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلازمهم ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيردّدها كأنه يتكلم عن الوحى ويخبر عن سر الأسرار ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء ويقول أنهم عن الله محجوبون ويدّعى لنفسه الوصول الى الحق وأنه من المقرّبين وهو عند الله من المنافقين وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين . لم يحكم قط علما . ولم يهذّب خلقا . ولم يرتّب عملا . ولم يراقب قلبا . سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه *

وفرقة وقعت فى الاباحة وطووا بساط الشرع ورفضوا الأحكام وسووا بين الحلال والحرام فبعضهم يقول ان الله مستغن عن عملى فلم أتعب نفسى وبعضهم يقول الأعمال بالجوارح لاوزن لها وانما النظر الى القلوب وقلوبنا والهة بحب الله وواصلة الى معرفة الله . وانما نخوض فى الدنيا

بأبداننا وقلوبنا عاكفة فى الحضرة الربوبيـة فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب . ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبـة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالاعمال البدنية وأن الشهوات لاتصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها وكل هذا من وساوس يخدعهم الشيطان بها . والاباحية من الكفار المارقين. نعوذ بالله أن نكون من الجاهلين *

وفرقة ادّعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة فتصدوا لخدمة الصوفية فجمعوا قوما وتكلفوا بخدمتهم واتخـذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال فيجمعون من الحرام والشبهات وينفقون عليهم لتكثر أتباعهم وينتشر بالخدمة اسمهم . وما باعثهم إلاّ الرياء والسمعة *

وثمة فرق أخر لايحصى غرورها . والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تعرف الاجناس دون الاستيعاب فان ذلك يطول *

﴿ غرور أرباب الأموال ﴾

والمغترون منهم فِرَق ففرقة منهـم يحرصون على بناء المساجد وما يظهر للناس ليتخلد ذكرهم أو يذيع صيتهم وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك وقد يكون بناؤها من جهات محظورة تعرضوا لسخط الله في كسبها وكان الواجب ردها إلى ملاكها إما بأعيانها واما رد بدلها عنـد العجز . وقد يكون الاهم التفرقة على المساكين وهم لا يفعلون ذلك خيفة أن لايظهر ذلك للناس فيكون غرضهم فى البناء الرياء وجلب الثناء مع أن صرف المال الى من فى جواره أو بلده من فقراء وأيتام أهم وأفضل وأولى

من الصرف الى المساجد وزينتها . فما خف عليهم الصرف الى المساجد إلاّ ليظهر ذلك بين الناس . وهناك محظور آخر وهو أنه قد يصرف المال الى زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش المنهى عنها لشغلها قلوب المصلين والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب وذلك يفسد قلوب المصلين فوبال ذلك كله يرجع اليه وهو مع ذلك يغتر به ويرى أنه من الخيرات مع أنه تعرّض لما لا يُرضى الله تعالى *

وفرقة ينفقون الاموال فى الصدقات على المساكين ويطلبون به المحافل الجامعة ومن الفقراء من عادته الشكر وافشاء المعروف . ويكرهون التصدق فى السرّ ويرون اخفاء الفقير لما يأخذه منهم جناية عليهم وكفرانا . وربما يحرصون على انفاق المال فى الحج فيحجون مرة بعد أخرى وربما تركوا جيرانهم جياعا . ولذلك قال ابن مسعود : (فى آخر الزّمان يكثر الحاج بلا سبب . يهون عليهم السفر . ويبسط لهم فى الرزق . ويرجعون محرومين مسلوبين . يهوى بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور الى جنبه لايواسيه) وقال أبو نصر التمار أن رجلا جاء يودّع بشر بن الحارث وقال قد عزمت على الحج فتأمرنى بشئ فقال له كم أعددت للنفقة فقال ألفى درهم قال بشر فأى شئ تبتغى بحجتك تزهدا أو اشتياقا الى البيت أو ابتغاء مرضاة الله قال ابتغاء مرضاة الله قال فان أصبت مرضاة الله تعالى وأنت فى منزلك وتنفق ألفى درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أتفعل ذلك قال نعم قال اذهب فاعطها عشرة أنفس مديون يقضى دينه . وفقير

يرم شعثه . ومعيل يحيي عياله . ومربي يتيم يفرحه . وان قوى قلبك تعطيها واحدا فافعل . فان ادخالك السرور على قلب مسلم واغاثة اللهفان وكشف الضر واعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الاسلام . قم فاخرجها كما أمرناك . والا فقل لنا ما فى قلبك فقال يا أبانصر سفرى أقوى فى قلبى . فتبسم بشر رحمه الله تعالى وأقبل عليه وقال له (المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضى به وطرا فأظهرت الأعمال الصالحات وقد آلى الله على نفسه أن لايقبل إلاّ عمل المتقين) *

وفرقة من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التى لايحتاج فيها الى نفقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن . وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهو يحتاج الى قمعه باخراج المال . فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها . ومثاله مثال من دخل فى ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ دواء يسكن به الصفراء . ومن قتلته الحية متى يحتاج الى دواء ولذلك قيل لبشر أن فلانا الغنىّ كثير الصوم والصلاة فقال المسكين ترك حاله ودخل فى حال غيره . وانما حال هذا اطعام الطعام للجياع والانفاق على المساكين فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء *

وفرقة غلبهم البخل فلا تسمح نفوسهم إلاّ بأداء الزكاة فقط ثم أنهم يخرجون من المال الخبيث الردىء الذى يرغبون عنه ويطلبون من الفقراء

من يخدمهم ويتردد فى حاجاتهم أو من يحتاجون اليه فى المستقبل للاستسخار فى خدمة أو من لهم فيه على الجملة غرض أو يسلمون الى من يعينه واحد من الأكابر ممن يستظهر بحشمه لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته وكل ذلك مفسدات للنية ومحبطات للعمل وصاحبه مغرور ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر إذ طلب بعبادة الله عوضا من غيره . وغرور أصحاب الأموال لايحصي وانما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور *

وفرقة أخرى من عوام أرباب الأموال اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل والاتعاظ أجراً . وهم مغرورون لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغبا فى الخير فان لم يهيج الرغبة فلا خير فيه . والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل فان ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها . وما يراد لغيره فاذا قصّر عن الأداء الى ذلك الغير فلا قيمة له وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ وتدخله رقة كرقة النساء فيبكي ولا عزم وربما يسمع كلاما مخوفا فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول ياسلام سلم أو نعوذ بالله أو سبحان الله ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور وانما مثاله مثال المريض الذى يحضر مجالس الأطباء فيسمع مايجرى أو الجائع الذى يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف وذلك لايغنى عنه من مرضه وجوعه شيأ فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لايغنى من الله شيأ فكل وعظ لم يغيّر منك صفةً تغييرًا يغيّر

أفعالك حتى تقبل على الله تعالى اقبالا قويا أو ضعيفا وتعرض عن الدنيا فذلك الوعظ زيادة حجة عليك فاذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورا *

(فان قلت) ماذكرته من مداخل الغرور أمر لايمكن الاحترازمنه إذ لايقوى أحد على الحذر من خفايا هذه الآفات (قلت) الانسان إذا فترت همته فى شئ أظهر اليأس منه واستعظم الأمر واستوعر الطريق واذا صح منه الهوى اهتدى الى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطريق فى الوصول الى الغرض حتى أن الانسان اذا أراد أن يستنزل الطير المحلّق فى جوّ السماء مع بعده منه استنزله واذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات استسخرها الى غير ذلك من دقائق حيل الآدمى كل ذلك لأنه همّه أمر دنياه فلو أهمه أمر آخرته فليس عليه إلاّ شغل واحد وهو تقويم قلبه ولما تخاذل عن تقويم قلبه ظنه محالا وليس ذلك بمحال لأنه شئ لم يعجز عنه السلف الصالحون ومن اتبعهم باحسان فلا يعجز عنه أيضاً من صدقت ارادته وقويت همته بل لايحتاج الى عشر تعب الخلق فى استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها *

(فان قلت) قد قربت الامر فيه مع أنك أكثرت فى ذكر مداخل الغرور فبم ينجو العبد من الغرور فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور بالعقل والعلم والمعرفة فهذه ثلاثة أمور لابدّ منها. أما العقل فأعنى به الفطرة الغريزية والنور الأصلى الذى به يدرك الانسان حقائق الأشياء لأن أساس السعادات كلها العقل والكياسة. وأما المعرفة فأن يعرف نفسه وربه ويعرف

الدنيا والآخرة . فاذا عرف ذلك ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله وبمعرفة الآخرة شدّة الرغبة فيها وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها ويصير أهم أموره مايوصله الى الله تعالى وينفعه فى الآخرة واذا غلبت هذه الارادة على قلبه صحت نيته فى الأمور كلها واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض والنزوع الى الدنيا والجاه والمال (وما دامت الدنيا أحب اليه من الآخرة . وهوى نفسه أحب اليه من رضاء الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرور) فاذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرة عن كال عقله فيحتاج الى المعنى الثالث وهو العلم أعنى العلم بما يقرّبه من الله وما يبعده عنه فيعرف من العبادات شروطها فيراعيها وآفاتها فيتقيها ومن العادات اسرار المعايش وما هو مضطر اليه فيأخذه بأدب الشرع وما هو مستغن عنه فيعرض عنه ومن المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة فى طريق الله فان المانع من الله الصفات المذمومة فى الخلق فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه ويعرف من المنجيات الصفات المحمودة التى لابد وأن توضع خلفا عن المذمومة بعد محوها فاذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا اليها من الغرور وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الارادة وتصح به النية ولا يحصل ذلك إلاّ بالمعرفة التي ذكرناها * نسأل الله العون والتوفيق وحسن الخاتمة *

كتاب التوبة

﴿ حقيقة التوبة ﴾

اعلم أن التوبة معنى ينتظم من ثلاثة أمور: علم. وحال. وفعل والأوّل موجب للثانى والثانى موجب للثالث ايجابا اقتضاه سنة الله فى الملك والملكوت. أما العلم فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها سموما مهلكة وحجابا بين العبد وبين كل محبوب. فاذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب فان القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم. فان كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوّت فيسمى تألمه بسبب فعله المفوّت لمحبوبه ندما فاذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم فى القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا الى فعل له تعلق بالحال وبالماضى وبالاستقبال. أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذى كان ملابسا. وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذّنب المفوّت للمحبوب الى آخر العمر. وأما بالماضى فبتلافى مافات بالخير والقضاء ان كان قابلاً للخير. فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك يطلق اسم التوبة على مجموعها. وكثيرًا مايطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالمقدّمة والترك كالثمرة. وبهذا الاعتبار جاء في الأثر (الندم توبة) إذ لايخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه ويتلوه *

﴿ بيان وجوب التوبة وفضلها ﴾

اعلم أن وجوب التو بة ظاهر بالأخبار والآيات وهو واضح بنورالبصيرة عند من شرح الله بنور الايمان صدره فان من عرف أن لاسعادة في دار البقاء إلاّ في لقاء الله تعالى وأن كل محجوب عنه يشقى لا محالة محولٌ بينه وبين ما يشتهي محترق بنار الفراق ونار الجحيم وعلم أن لا مبعد عن لقاء الله إلاّ اتباع الشهوات ولا مقرّب من لقائه إلاّ الاقبال على الله بدوام ذكره وعلم أن الذنوب سبب كونه محجوبا مُبعَدًا عن الله تعالى فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول الى القرب . وانما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم . وهكذا يكون الايمان الحاصل عن البصيرة ومن لم يترشح لهذا المقام فيلاحظ ماورد من الآيات والآثار فقد قال تعالى ﴿ وَتوبوا إلَى اللهِ جميعاً أيُّها المؤمنونَ لعَلّكُم تُفلِحُونَ ﴾ وهذا أمر على العموم وقال تعالي ﴿ يَا أيُّها الّذينَ آمنوا توبوا إلى اللهِ توبَةً نصُوحاً ﴾ ومعنى النصوح الخالصُ لله تعالى خاليا عن الشوائب *

ويدل على فضل التو بة قوله تعالى ﴿ إنّ اللهَ يُحِبُّ التوَّابِينَ ويُحِبُّ المُتطَهِّرِينَ ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام ﴿ التّائِبُ مِنَ الذّنبِ كَمَنْ لاذَنْبَ لهُ ﴾ والأخبار في ذلك كثيرة *

﴿ وجوب التوبة على الفور وعلى الدوام ﴾

لايخفى أن وجوبها على الفور أمر لايستراب فيه إذمعرفة كون المعاصى

مهلكات من نفس الايمان وهو واجب على الفور والعلم بضرر الذنوب انما أريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان وهو المراد بقوله عليه الصلاة والسلام ﴿ لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ وذلك لكون الزنى مبعداً عن الله تعالى موجباً للمقت كسائر المعاصي لأنها للايمان كالمأكولات المضرّة للأبدان فكما أنها تغيّر مزاج الانسان ولا تزال تجتمع حتى تفسده فيموت دفعة كذلك تعمل سموم الذنوب بروح الايمان عملا تحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين *

وأما وجوب التوبة على الدّوام وفي كل حال فهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه . فان خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهمّ بالذنوب بالقلب . فان خلا في بعض الأحوال عن الهمّ فلا يخلو عن وسواس الشيطان بايراد الخواطر المذهلة عن ذكر الله . فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله وكل ذلك نقص وله أسباب . وترك أسبابه بالتشاغل بضدّها رجوع عن طريق الى ضده . والمراد بالتوبة الرجوع . ولا يتصوّر الخلوّ في حق الآدميّ عن هذا النقص وانما يتفاوتون بالمقادير فأما الأصل فلا بدّ منه ولهذا قال عليه السلام : ﴿ إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ الحديث ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ واذا كان هذا حاله فكيف حال غيره *

وانما أطلقنا الوجوب في كل حال والتوبة عن بعض ماذكر من الفضائل

لاالفرائض لأنا نعنى بالواجب مالا بد منه للوصول به الى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصدّيقين والتوبة عن جميع ماذكرناه واجبة فى الوصول اليه كما يقال الطهارة واجبة فى صلاة التطوّع أى لمن تريدها فانه لايتوصل اليها إلاّ بها *

واعلم أنه قد سبق أن الانسان لايخلو فى مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلا وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدارك مامضى وكل شهوة اتبعها الانسان ارتفع منها ظلمة الى قلبه كما يرتفع عن نَفَس الانسان ظلمة الى وجه المرآة الصقيلة فان تراكمت ظلمة الشهوات صارت رينا كما يصير بُخار النفس فى وجه المرآة عند تراكمه خبثا كما قال تعالى ﴿ كَلاّ بَل رَانَ عَلى قُلوبِهِم ما كانوا يَكْسِبُونَ ﴾ فاذا تراكم الرين صار طبعاً فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه غاص فى جرم الحديد وأفسده وصار لايقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الخبث ولا يكفى فى تدارك اتباع الشهوات تركها فى المستقبل بل لابدّ من محو تلك الأريان التى انطبعت فى القلب . كما لا يكفى في ظهور الصور في المرآة قطع الأنفاس والبخارات المسوّدة لوجهها فى المستقبل مالم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان وكما يرتفع الى القلب ظلمة من المعاصى والشهوات فيرتفع اليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتنمحى ظلمة المعصية بنور الطاعة واليه الاشارة بقوله عليه السلام ﴿ أتبع السّيّئة الحَسَنَةَ تمحُها ﴾ فاذا لايستغنى العبد فى حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارُها

آثارَ تلك السيئات *

ولقد صدق أبو سليمان الدارانى حيث قال لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلاّ على تفويت مامضى منه فى غير الطاعة لكان خليقا أن يحزنه ذلك الى الممات فكيف من يستقبل مابقى من عمره بمثل مامضى من جهله وانما قال هذا لأن العاقل اذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لامحالة وان ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منها أشد وكل ساعة من العمر بل كل نَفسٍ جوهرة نفيسة لاخلف لها ولا بدل منها فانها صالحة لأن توصلك الى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد . وأى جوهر أنفس من هذا فاذا ضيعتها فى الغفلة فقد خسرت خسرانا مبيناً فان كنت لاتبكى على هذه المصيبة فذلك لجهلك ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة . ونوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته والناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا . فعند ذلك ينكشف لكل مفلس افلاسه ولكل مصاب مصيبته . وقد رفع الناس عن التدارك كما قال تعالى ﴿ وأَنفِقوا مِمَّا رَزَقْناكم مِنْ قَبلِ أن يَأتِىَ أحدَكم المَوتُ فيَقولَ رَبِّ لولاَ أخرتَنى إلى أجلٍ قَرِيبٍ فأصدَّقَ وأكُنْ مِنَ الصَّالحينَ ولَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفساً إذا جاءَ أجَلُها ﴾ وقد قيل فى معنى الآية أنه يقول حالتئذ ياملك الموت أخرنى يوماً أتوب فيه الى ربى وأتزوّد صالحا لنفسى فيقول فنيت الأيام فلا يوم فيقول فأخرنى ساعة فيقول فنيت الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة فيتغرغر بروحه وتزهق نفسه ولمثل هذا يقال ﴿ وَلَيستِ التّوبةُ لِلّذِينَ يَعمَلونَ السَّيّئاتِ

حتّى إذا حَضَرَ أحَدَهُمُ المَوتُ قالَ إنّى تُبتُ الآنَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ إنَّما التّوبَةُ على اللهِ لِلّذينَ يَعمَلونَ السُّوءَ بِجَهالةٍ ثُمَّ يَتوبونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ معناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ﴿ أتبع السّيّئةَ الحَسَنَةَ تمحُها ﴾ ومن ترك المبادرة الى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين (أحدهما) أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو (الثانى) أن يعاجله المرض أوالموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو فيأتى الله بقلب غير سليم ولا ينجو إلاّ من أتى الله بقلب سليم *

﴿ بيان أن التوبة الصحيحة مقبولة ﴾

اعلم أن التوبة اذا استجمعت شرائطها فهى مقبولة لا محالة فان نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة كما لا طاقة لظلام الليل مع بياض النهار وكما أن استعمال الثوب فى الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لامحالة فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه . وكل قلب زكىّ طاهر فهو مقبول كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول فانما عليك التزكية والتطهير وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلىّ الذى لا مردّ له وهو المسمى فلاحا في قوله ﴿ قَدْ أفْلَحَ مَنْ زَكّاها ﴾ *

فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام

لايزول والثوب يغسل بالصابون والوسخ لايزول الاّ أن يغوص الوسخ لطول تراكمه فى تجاويف الثوب فلا يقوى الصابون على قلعه فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب فمثل هذا القلب لايرجع ولا يتوب نعم قد يقول باللسان تبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لاينظف الثوب أصلا مالم يغيّر صفة الثوب باستعمال مايضاد الوصف المتمكن به . فهذا حال امتناع أصل التوبة وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية *

هذا البيان كاف عند ذوى البصائر فى قبول التوبة ولكنا نعضد جناحه ببعض آيات وأخبار (فكل استبصار لايشهد له الكتاب والسنة لايوثق به) قال تعالى ﴿ غافِرِ الذَّنبِ وَقابِلِ التَّوبِ ﴾ وقال سبحانه ﴿ وَهُوَ الَّذى يَقبَلُ التَّوبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعفو عَنِ السَّيِّئاتِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنَّ الله عزَّ وَجلَّ يَبسِطُ يَدَهُ بالتَّوبَةِ لِمُسىءِ اللّيلِ إلى النَّهارِ ولِمُسىءِ النَّهارِ إلى اللّيلِ حتّى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِها ﴾ وبسط اليد كناية عن طلب التوبة وقال صلوات الله عليه ﴿ التّائِبُ مِنَ الذَّنبِ كَمَن لاذَنبَ لهُ ﴾ *

﴿ بيان ما تكون عنه التوبة وهى الذنوب ﴾

اعلم أن التوبة ترك الذنب . ولا يمكن ترك الشئ إلا بعد معرفته . واذا كانت التوبة واجبة كان مالايتوصل اليها إلا به واجبا . فمعرفة الذنوب إذًا واجبة . والذنب عبارة عن كل ماهو مخالف لأمر الله تعالى فى ترك أوفعل *

ثم أن مثارات الذنوب تنحصر فى أربع صفات صفات ربوبية وصفات

شيطانية وصفات بهيمية وصفات سبعية *

فأما ما يقتضي النزوع الى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر وحب المدح والثناء وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الأعلى وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوبا وهي المهلكات العظيمة التي هي كالأمهات لأكثر المعاصي *

(الثانية) هي الصفة الشيطانية التي منها يتشعب الحسد والبغي والحيلة والخداع والامر بالفساد والمنكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدّعوة الى البدع والضلال *

(الثالثة) الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال الايتام وجمع الحطام لأجل الشهوات *

(الرابعة) الصفة السبعية ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ويتفرغ عنها جمل من الذنوب *

فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق واضمار السوء للناس وبعضها على العين والسمع . وبعضها على اللسان وبعضها على البطن والفرج وبعضها على اليدين والرجلين . وبعضها على جميع البدن . ولا حاجة الى

بيان تفصيل ذلك فانه واضح *

﴿ انقسام الذنوب الى صغائر وكبائر ﴾

اعلم أن الذنوب تنقسم الى صغائر وكبائر . وقد كثر الاختلاف فيها فقال قائلون لاصغيرة ولا كبيرة ، بل كل مخالفة لله فهى كبيرة . وهــذا ضعيف إذ قال تعالى ﴿ إن تَجتَنِبُوا كَبائِرَ ماتُنهَونَ عَنهُ نُكفِّرْ عَنكُم سَيِّآتِــكُم وَنُدخِلْــكُم مُدخَلاً كَرِيماً ﴾ وقال تعالى ﴿ الَّذِينَ يَجتَنِبُونَ كَبائِرَ الإثمِ وَالفَواحِشَ إلاَّ اللَّمَمَ ﴾ وقال بعض السلف كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر . وقد روى عن الصحابة والتابعين فى عدد الكبائر أقوال . وذهب أبو طالب المكي الى أنها سبع عشرة جمعها من الأخبار والآثار :

(أربعة فى القلب) وهى الشرك بالله . والاصرار على معصيته . والقنوط من رحمته والأمن من مكره . (وأربع فى اللسان) وهى شهادة الزور . وقذف المحصن والسحر . واليمين الغموس . وهى التى يحق بها باطلا أو يبطل بها حقا وقيل هي التى يقتطع بها مال امرء مسلم باطلا ولو سواكا من أراك سميت غموساً لأنها تغمس صاحبها فى النار (وثلاث فى البطن) وهى شرب الخمر والمسكر من كل شراب . وأكل مال اليتيم ظلما . وأكل الربا وهو يعلم (واثنتان فى الفرج) وهما الزنا واللواط (واثنتان فى اليدين) وهما القتل والسرقة (وواحدة فى الرجلين) وهو الفرار من الزحف أن يفر الواحد من اثنين والعشرة من العشرين (وواحدة فى جميع الجسد) وهو عقوق الوالدين وجملة عقوقهما أن يقسما عليه فى حق فلا يبر قسمهما

وان سألاه حاجة فلا يعطيهما وأن يسباه فيضربهما ويجوعان فلا يطعمهما . هذا كلام أبى طالب وهو قريب إلاّ أنه لم يرد تفصيلها بعدُ ولا حد جامع بل ورد بألفاظ مختلفات والحق فى ذلك أن الذنوب منقسمة فى نظرالشرع الى مايعلم استعظامه إيّاها والى مايعلم أنها معدودة فى الصغائر والى مايشك فيه فلا يدرى حكمه وربما قصد الشارع الابهام ليكون العباد على وجل وحذر فلا يتجرّؤن على الصغائر . ثم أن اجتناب الكبيرة انما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والارادة كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه عن الوقاع مجاهداً نفسه فان امتنع لعجزأوخوف فهذالايصلح للتكفيرأصلا *

﴿ بيان ماتعظم به الصغائر من الذنوب ﴾

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب منها الاصرار والمواظبة ولذلك قيل لاصغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها يكون العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب عليها العبد ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه وذلك القدر لو صبّ عليه دفعة واحدة لم يؤثر ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ خَيْرُ الأَعمالِ أدوَمُها وَإنْ قَلَّ ﴾ ومنها أن يستصغر الذنب . فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى . وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لأن استعظامَهُ يصدر عن نفور القلب عنه وذلك النفور يمنع من شدّة تأثره به واستصغارَهُ يصدر عن الألف به وذلك يوجب شدّة الأثر فى القلب . والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات.

وقد روى أن المؤمن يرى ذنبه كجبل فوقه يخاف أن يقع عليه والمنافق يرى ذنبه كذباب مرّ على أنفه فأطاره . وكذلك يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ويتجاوز عن العامىّ فى أمور لا يتجاوز فى أمثالها عن العارف . لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف ومنها السرور بالصغيرة والفرح بها فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت وعظم أثرها فى تسويد قلبه كمن يقول أما رأيتنى كيف مزّقت عرضه وكيف فضحته حتى خجلته وكيف روّجت عليه الزائف وكيف خدعته فهذا وأمثاله مما تكبر به الصغائر فان الذنوب مهلكات ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وامهاله إيّاه ولا يدرى أنه انما يمهل مقتا ليزداد بالامهال إثما فيظن أن تمكنه من المعاصى عناية من الله به . وذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله ومنها أن يأتى الذنب ويظهره بأن يذكره بعد اتيانه أو يأتيه فى مشهد غيره فان ذلك جناية منه على ستر الله الذى سدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله فهما جنايتان انضمتا الى جناية فتغلظت به فان انضاف الى ذلك ترغيب الغير فيه صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر ومنها أن يكون المذنب عالما يقتدى به فاذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه وفى الخبر ﴿مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً﴾ وكما يتضاعف وزر العالم على الذنب فكذلك يتضاعف ثوابه على الحسنات إذا اتبعوا *

فحركات المقتدى بفعالهم فى طورى الزيادة والنقصان . تتضاعف آثارها

إمّا بالربح وَإمّا بالخسران *

﴿ تمام التوبة وشروطها ودوامها ﴾

ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً فالندم هو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب . وعلامته طول الحسرة والحزن واسكاب الدمع والفكر . فمن استشعر عقوبة نازلة بولده طال عليه مصيبته وبكاؤه . وأي عزيز أعز عليه من نفسه . وأى عقوبة أشد من النار . وأى سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصى . وأى مخبر أصدق من الله ورسوله . ولو حدّثه انسان واحد يتطبب أن مرض ولده لايبرأ وأنه سيموت منه لطال فى الحال حزنه . فليس ولده بأعزّ من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار . ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها الى النار فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجي . فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع . ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب فى قلبه بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة كمن ينفر عن عسل فيه سم ولو كان فى غاية الجوع والشهوة للحلاوة . فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم . ولا تصح التوبة ولا تصدق إلاّ بمثل هذا الايمان . ولما عزّ مثل هذا الايمان عزّت التوبة والتائبون . فلا ترى إلاّ معرضاً عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصراً عليها . فهذا شرط تمام الندم . وينبغي أن يدوم الى الموت . وينبغي أن يجد

هذه المرارة فى جميع الذنوب *

وأما القصد الذى ينبعث منه وهو ارادة التدارك فله تعلق بالحال وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه فى الحال وله تعلق بالماضى وهو تدارك مافرط وبالمستقبل وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية الى الموت *

ومن أهم مايجب تداركه الحقوق المالية فمن تناول مالا بغصب أوخيانة أو غبن فى معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو أكل أجرته فكل ذلك يجب أن يفتش عنهم ليستحلهم أو ليؤدى حقوقهم لهم أو لورثتهم وليحاسب نفسه على الحبّات والدوانق قبل أن يحاسب في القيامة وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه فى الدنيا طال فى الآخرة حسابه فان عجز فلا يبقى له طريق إلاّ أن يكثر من الحسنات بقدر كثرة مظالمه فهذا طريق كل تائب فى رد المظالم الثابتة فى ذمته أما أمواله الحاضرة فليرد الى المالك ما يعرف له مالكا معينا وما لايعرف له مالكا فعليه أن يتصدق به فان اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد و يتصدق بذلك المقدار *

وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسؤهم أو بعيبهم فى الغيبة فليطلب كل من تعرض له بلسانه أو آذى قلبه بفعل من أفعاله فمن وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته ومن مات أو غاب أو تعذر استحلاله فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات *

ومن مهمات التائب اذا لم يكن عالما أن يتعلم ما يجب عليه فى المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة *

﴿ أقسام العباد فى دوام التوبة ﴾

اعلم أن التائبين فى التوبة على أربع طبقات

(الطبقة الأولى) أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة الى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود الى ذنوبه إلا الزلات التى لا ينفك البشر عنها فى العادات فهذا هو الاستقامة على التوبة . وصاحبه هو (السابق بالخيرات) المستبدل بالسيئات حسنات . واسم هذه التوبة التوبة النصوح . واسم هذه النفس الساكنة (النفس المطمئنة) التي ترجع الى ربها راضية مرضية *

(الطبقة الثانية) تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها الا انه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد ولكن يبتلى بها في مجارى أحواله من غير أن يقدم عزما على الاقدام عليها ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التى تعرضه لها . وهذه النفس جديرة بان تكون هى (النفس اللوّامة) إذ تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الاحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وقصد . وهذه أيضا رتبة عالية وان كانت نازلة عن الطبقة الاولى وهى أغلب أحوال التائبين لان الشرّ معجون بطينة الآدمى قلما ينفك

عنه . وانما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات فاما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد . وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى ﴿ الذينَ يجتنبونَ كبائِرَ الإِثم والفوَاحشِ إلاّ اللَمَ إنّ ربَّكَ واسعُ المغفرَةِ) فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بان يكون من اللمم المعفو عنه . قال تعالى (والذينَ إذا فعلوا فاحِشةً أوظلَمُوا أنفسهمْ ذَكَرُوا اللهَ فاستغفرُوا لِذُنوبِهمْ) فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه وفي الخبر لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفيئة بعد الفيئة أي الحين بعد الحين وفي الخبر (كلُّ بَني آدَمَ خطَّاؤُنَ وَخيرُ الخطَّائِينَ التوَّابونَ) فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرّين

(الطبقة الثالثة) أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب فيقدم عليها عن قصد لعجزه عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب وهو يَوَدّ لو كفي شرها في حال قضاء الشهوة وعند الفراغ يتندم ويقول ليتني لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها لكنه يسوّل نفسه ويسوّف توبته يوما بعد يوم . فهذه النفس هي التي تسمى (النفس المسوّلة) وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم (وآخرُونَ اعترَفوا بذُنوبِهمْ خلَطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً) فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجوّ فعسى الله أن يتوب عليه وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره فربما يختطف قبل التوبة

ويقع أمره فى المشيئة ان تداركه الله بفضله ألحقه بالسابقين والا فيخشى عليه

(الطبقة الرابعة) أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ثم يعود الى مقارفة الذنب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله بل ينهمك انهماك الغافل فى اتباع شهواته فهذا من جملة المصرين وهذه النفس هى النفس الأمارة بالسوء الفرّارة من الخير ويخاف على هذا سوء الخاتمة وانتظاره مع هذه الحالة المغفرة من الله تعالى غرور فان المقصّر عن الطاعة المصرّ على الذنوب الغير السالك سبيل المغفرة المنتظر للغفران يعدّ عند أرباب القلوب من المعتوهين كما ان من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعا يزعم انه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزًا يجده تحت الأرض فى بيته الخرب يعدّ عند ذوى البصائر من الحمقى المغرورين . فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار وطلب المال بالتجارة . والعجب من عقل هذا المعتوه وترويجه حماقته إذ يقول (ان الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلى ومعصيتى ليست تضره) ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار فى طلب الدينار . واذا قيل له ان الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك . وكسلك بترك التجارة ليس يضرك . فاجلس في بيتك . فعساه يرزقك من حيث لاتحتسب . فيستحمق قائل هذا الكلام ويستهزئ به ويقول ماهذا الهوس . السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة . وانما ينال ذلك بالكسب . هكذا قدّره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله . ولا يعلم المغرور ان رب الآخرة ورب الدنيا واحد . وان سنته لا تبديل لها فيهما

جميعا وانه قد أخبر إذ قال (وَأَنْ لَيْسَ للإِنسان إلاّ ماسَعَى) فنعوذ بالله من الضلال *

﴿ مايفعله التائب بعد الذنب ﴾

اعلم أن الواجب على التائب ان كان جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة غالبة أو عن المام بحكم الاتفاق هو أن يبادر الى التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضادها فان لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة فيمحوها فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئاً فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ولتكن الحسنة فى محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها فأما بالقلب فليكفره بالتضرع الى الله تعالى فى سؤال المغفرة والعفو ويتذلل تذلل العبد الآبق ويخفض من كبره فيما بين العباد وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول (رب ظلمت نفسى وعملت سوأ فاغفر لى ذنوبى) وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار المأثورة وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات وبالجملة فينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجتهد فى دفعها بالحسنات .

واعلم انه ليس كل استغفار نافعا ففي خبر (المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله) وقال بعض السلف . الاستغفار باللسان توبة الكذابين وقالت رابعة . استغفارنا يحتاج الى استغفار كثير . وذلك لان

الاستغفار الذى هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة كما يقول الانسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة أستغفر الله وكما يقول اذا سمع صفة النار نعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه وهذا يرجع الى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له فأما اذا انضاف اليه تضرع القلب الى الله تعالى وابتهاله فى سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة فهذه حسنة فى نفسها فتصلح لان تدفع بها السيئة وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة فى فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم ﴿ ما أَصَرَّ من استَغفَرَ ولَوْ عَادَ فى اليَوْم سَبعينَ مرَّةً ﴾ ثم ان للتوبة ثمرتين

(أحداهما) تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له

(والثانية) نيل الدرجات . والتكفير أيضا درجات فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وان خلا عن حل عقدة الاصرار فليس يخلو عن الفائدة أصلا فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها فانه لا تخلو ذرة من خير عن أثر كما لا تخلو شعيرة تطرح فى الميزان عن أثر . فاياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها وذرات المعاصى فلا تنفيها فاذا التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا بل أقول الاستغفار باللسان أيضا حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان فى تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام فرابعة بقولها استغفارنا يحتاج الى استغفار كثير . لا تظن انها تذم حركة اللسان من حيث انه ذكر

الله بل تذم غفلة القلب فهو محتاج الى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه

﴿ دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الاصرار ﴾

اعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء وكل داء حصل من سبب فدواؤه إبطاله ولا يبطل الشئ إلا بضده ولا سبب للاصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة إلا العلم ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة *

وأما الانواع النافعة في حل عقدة الاصرار وحمل الناس على ترك الذنوب فهى أربعة أنواع (الاول) أن يذكر ما فى القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين وكذا ماورد من الاخبار والآثار فى ذم المعاصي ومدح التائبين (الثانى) حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع فى قلوب الخلق مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم فى عصيانه وما لقيه من الاخراج من الجنة ونحوها فانه لم يرد بها القرآن والاخبار ورودَ الاسمار بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم ان الانبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم فى الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم فى الذنوب الكبار فهذا أيضا مما ينبغي أن يكثر جنسه على اسماع المصرين فانه نافع في تحريك دواعى التوبة *

(الثالث) أن يقرر عندهم ان تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وان كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته فينبغي أن يخوّف به . وفى خبر ﴿ إنّ العبدَ لَيُحرَمُ الرِّزقَ بالذَّنبِ يُصيبُهُ ﴾ وقال

بعض السلف . ليست اللعنة سوادًا في الوجـه ونقصانا فى المال انما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت فى مثله أو شر منه . وهو كما قال لان اللعنة هى الطرد والابعاد فاذا لم يوفق للخير ويسر له الشرّ فقد أبعـد . والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان . وكل ذنب فانه يدعو الى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبـد به عن رزقه النافع من مجالسـة العلماء المنكرين للذنوب ومن مجالسة الصالحين بل يمقته الله تعالى ليمقته الصالحون وبالجملة فالاخبار كثيرة فى آفات الذنوب فى الدنيا فمن ابتلى بشئ منها كان عقوبة له وان أصابتـه نعمة كانت استـدراجا له ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه .وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة فى حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها وكل بليـة كفارة لذنوبه وزيادة فى درجاته (الرابع) ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة وغير ذلك *

والمدار فى هـذا الباب على الفكر النافع وهو الفكر فى عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين فى الحرمان عن النعيم المقيم وليعتبر بانه لو مرض فأخبره طبيب نصرانىّ بان شرب الماء البارد يضره ويسوقه الى الموت وكان الماء البارد ألذ الأشياء عنـده تركه مع أن الموت ألمه لحظة ومفارقتـه للدنيا لا بد منها فيقول كيف يليق بعقلى أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عنده دون قول نصرانى طبيب يدعى الطب بلا معجزة على طبّه وكيف يكون عذاب النار عنـدى أخف من عذاب المرض وكل يوم فى الآخرة بمقدار خمسين ألف سـنة من أيام الدنيا . ومتى استشعر قلبه

ذلك انبعث خوفه واذا قوى الخوف تيسر بمعونته الصبر . وتوفيقُ الله وتيسيره من وراء ذلك . فمن أعطى من قلبه حسن الاصغاء واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدّق بالحسنى فسييسره الله تعالى لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسييسره الله للعسرى فلا يغنى عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى وانما لله الآخرة والاولى *

كتاب الصبر والشكر

﴿ فضيلة الصبر ﴾

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر فى القرآن فى نيف وسبعين موضعا وأضاف أكثر الدرجات والخيرات الى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل (وَجعلنا منهمْ أئمّةً يَهدُونَ بأمرِنا لمّا صَبرُوا) وقال تعالى (وَلَيَجزِيَنّ الذينَ صَبرُوا أجرَهُمْ بأحسَنِ ما كانوا يَعملونَ) وقال تعالى (أولئكَ يُؤتَونَ أجرَهم مرّتين بما صَبرُوا) وقال تعالى (إنّما يُوَفّى الصّابرُونَ أجرَهم بِغَيرِ حِسابٍ) فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ووعد الصابرين بانه معهم فقال تعالى (إنّ اللهَ معَ الصّابرين) وجمع لهم بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى (أولئكَ عليهم صلواتٌ من رَبهمْ ورَحمةٌ وأولئكَ همُ المهتدُونَ) ومن الاخبار قوله صلى الله عليه وسلم (الصّبرُ نِصفُ الايمان) وسئل صلى الله عليه وسلم عن

الايمان فقال (الصَّبرُ والسَّماحةُ)

﴿ حقيقة الصبر وأقسامه ﴾

اعلم أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى وباعث الدّين هو ماهدى اليه الانسان من معرفة الله ورسوله ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وهي الصفة التى بها فارق الانسان البهائم فى قمع الشهوات وباعث الهوى هو مطالبة الشهوات بمقتضاها . فمن ثبت حتى قهره واستمرّ على مخالفة الشهوة التحق بالصابرين وان تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر فى دفعها التحق باتباع الشياطين *

ثم أن باعث الدّين بالاضافة الى باعث الهوى له ثلاثة أحوال *

(أحدها) أن يقهر داعى الهوى فلا تبقى له قوّة المنازعة ويتوصل اليه بدوام الصبر وعند هذا يقال من صبر ظفر والواصلون الى هذه الرتبة هم الأقلون فلا جرم هم الصديقون المقرّبون الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا *

(الحالة الثانية) أن تغلب دواعى الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه الى جند الشياطين ولا يجاهد وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا أعداء الله فى قلوبهم ﴿ أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الحَيَاةَ الدُّنيا بِالآخِرَةِ ﴾ فخسرت صفقتهم *

(الحالة الثالثة) أن يكون الحرب سجالا بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه وهذا من المجاهدين يُعدُّ لا من الظافرين وأهل هذه

الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم *

والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقا يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلا إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقـدرة التى بها تجاهد مقتضى الشهوات وهذا قد خلق له ذلك وعطله فهو الناقص حقا *

واذا دامت التقوى وقوى التصديق بما فى العاقبة من الحسنى تيسر الصبر *

﴿ بيان مظانّ الحاجة الى الصبر ﴾

﴿ وأن العبد لا يستغنى عنه فى حال من الأحوال ﴾

اعلم أن جميع ما يلقى العبد فى هـذه الحياة لا يخلو من نوعين ما يوافق هواه وما لا يوافقه بل يكرهه وهو محتاج الى الصبر فى كل واحد منهما . وهو فى جميع الأحوال لا يخلو عن هذين النوعين فإذاً لا يستغنى قط عن الصبر *

(النوع الأوّل) ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسـباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدُّنيا وما أحوج العبد الى الصبر على هذه الأمور فانه ان لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون اليها والانهماك فى ملاذها المباحة أخرجه ذلك الى البطر والطغيان ولذلك حذّر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد . فقال تعالى ﴿ يَا أَيُّها الَّذينَ آمنوا لاتُلهِكُمْ أمْوَالُـكُمْ ولاَ أولادُكم عَنْ ذِكْرِ اللهِ ﴾ وقال عزّ وجلّ ﴿ إنّ مِنْ أزْوَاجِكُم وَأولادِكُم عَدُوًّا لكم فاحذَرُوهُمْ ﴾ . فالرجل كل الرجل من يصبر على العافيـة ومعنى الصبر عليها أن لا يركن اليها وأن لا يرسـل نفسه فى الفرح بها وأن يرعى حقوق الله فى ماله

بالانفاق وفى بدنه ببذل المعونة للخلق وفى لسانه ببذل الصدق وكذلك فى سائر ما أنعم الله به عليه وهـذا الصبر متصل بالشكر . وانما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه اذا حضرته الأطعمة اللذيذة وقدر عليها فلهذا عظمت فتنة السراء *

(النوع الثانى) مالايوافق الهوى والطبع وذلك إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصى أو لايرتبط باختياره كالمصائب أو لايرتبط باختياره ولكن له اختيار فى إزالته كالتشفى من المؤذى بالانتقام منه . فهذه ثلاثة أقسام *

(القسم الأول) مايرتبط باختياره وهما ضربان *

(الضرب الأول) الطاعة والعبد يحتاج الى الصبر عليها لأن منها ماتنفر عنه النفس بسبب الكسل كالصلاة أو بسبب البخل كالزكاة أو بسببهما جميعاً كالحج والجهاد وكل ذلك يحتاج الى صبر *

(الضرب الثانى). المعاصى . وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصى فى قوله تعالى ﴿ وَيَنْهَى عَنِ الفَحشاء وَالمُنكَرِ وَالبَغْيِ ﴾ فما أحوج العبد الى الصبر عنها سيما مالايثقل منها على النفس كالغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً وأنواع المزح المؤذى للقلوب وضروب الكلمات التى يقصد بها الازراء والاستحقار والقدح فى الموتى . ولمصير ذلك معتاداً فى المحاورات بطل استقباحها من القلوب لعموم الأنس بها . وهي من أكبر الموبقات *

(القسم الثانى) . مالايرتبط هجومه باختياره وله اختيار فى دفعه كالوأوذى

بفعل أو قول وجني عليه فى نفسه أو ماله فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا وتارة يكون فضيلة قال تعالى ﴿ وَاصبِرْ عَلى مايَقولونَ وَاهجُرهُم هَجرًا جَميلاً ﴾ وقال تعالى ﴿وَلَتَسمَعُنَّ مِنَ الَّذينَ أُوتوا الكِتابَ مِنْ قَبلِكُمْ وَمِنَ الَّذينَ أَشرَكوا أَذًى كَثيرًا وَإِن تَصبِرُوا وَتَتَّقوا فَإِنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ أى تصبروا على المكافأة . ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره . فقال تعالى ﴿ وَإِن عاقَبتُم فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ماعُوقِبتُم بِهِ وَلَئِنْ صَبَرتُم لَهُوَ خَيرٌ لِلصَّابِرينَ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿صِلْ مَن قَطَعَكَ . وَأَعطِ مَن حَرَمَكَ . وَاعفُ عَمَّن ظَلَمَكَ﴾ *

(القسم الثالث) مالايدخل تحت حصر الاختيار كالمصائب مثل موت الأعزّة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفسادالأعضاء وسائر أنواع البلاء فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر وانما ينال درجة الصبر في المصائب بترك الجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة في الشكوى واظهار الكآبة وتغيير العادة فى الملبس والمفرش والمطعم لأن هذه الأمور داخلة تحت اختياره فينبغى أن يجتنب جميعها ويظهر الرضاء بقضاء الله تعالى ويبقى مستمراً على عادته ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت . كما روى عن أم سليم رحمها الله قالت توفى ابنٌ لى وزوجى أبو طلحة غائب فقمت فسجيته فى ناحية البيت فهيأت له افطاره فجعل يأكل فقال كيف الصبيّ فقلت بحمد الله لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب منى حاجته ثم

قلت ألا تعجب من جيراننا قال مالهم قلت أُعيروا عارية فلما طُلِبَتْ منهم واسترجعت جزعوا فقال بئس ماصنعوا فقلت هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وأن الله قبضه اليه فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره . فقال ﴿ اللّهُمَّ بارِكْ لَهُما فى لَيْلَتِهِما ﴾ قال الرّاوى فلقد رأيت لهم بعد ذلك فى المسجد سبعة كلهم قد قرؤا القرآن *

ولا يخرجه عن حد الصابر بن توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع لأن ذلك مقتضى البشرية ولذلك لما مات ابراهيم ولدُ النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه فقيل له فى ذلك فقال ﴿ هَذِهِ رَحمَةٌ وَإنَّما يَرحمُ اللهُ مِنْ عِبادِهِ الرُّحَماء ﴾ بل ذلك لايخرج أيضاً عن مقام الرّضاء *

وقد ظهر لك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام فى جميع الأحوال والأفعال حتى من اعتزل وحده لايستغنى عن الصبر على وساوس الشيطان باطنا فان اختلاج الخواطر لايسكن ولا يزال فى شغل دائم بسببها يضيع به الزمان وقد يتفكر فى وجوه الحيل لقضاء الشهوات ولا تظنن أن الشيطان يخلو عنه قلب فارغ بل هو سيّال يجرى من ابن آدم مجرى الدم وسيلانه مثل الهواء فى القدح فانك ان أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره فقد طمعت فى غير مطمع بل بقدر مايخلو من الماء يدخل فيه الهواء لامحالة . فكذلك القلب المشغول بفكر مهم فى الدين يخلو عن جولان الشيطان والا فمن غفل ولو فى لحظة فليس له فى تلك اللحظة قرين إلا الشيطان ولذلك قال تعالى ﴿ ومَن يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرّحمَنِ نُقَيّضْ لهُ

شَيطاناً فَهُوَ لهُ قَرِينٌ ﴾ وفى خبر ﴿ إنّ اللهَ تعالى يُبغِضُ الشابَ الفارغ ﴾ وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغا ولم يبق قلبه فارغا بل يعشش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ ثم تزدوج أفراخه أيضاً وهكذا ولذا قال الحلاّج لما سئل عن التصوّف : ﴿ هِيَ نَفسُكَ إن لم تُشغِلها شَغَلَتكَ ﴾ فاذا حقيقة الصبر وكماله الصبرُ عن كل حركة مذمومة . وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك وهـذا صبر دائم لا يقطعه إلاّ الموت * نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه *

﴿ دواء الصبر وما يستعان به عليه ﴾

اعلم أن الذى أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء فالصبر وان كان شاقا أو ممتنعاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل وقد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى وكل مصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه الا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة فأما تقوية باعث الدين فانما تكون بطريقين (أحدهما) اطماعه فى فوائد المجاهـدة وثمراتها فى الدين والدنيا وذلك بأن يكثر فكره فى الأخبار التى أوردناها فى فضل الصبر وفى حسن عواقبه فى الدنيا والآخرة (الثانى) ان يصارع باعث الهوى بالتدريج الى أن يقمع تلك الصفات التى رسخت فيه *

وأما تضعيف باعث الشهوة فبقطع الأسـباب المهيجة له كغض البصر

الذى يحرك القلب أو الفرار من الصور المشتهاة بالكلية أو تسلية النفس بالمباح من الجنس الذى يشتهيه كالنكاح فان كل مايشتهيه الطبع ففى المباحات من جنسه مايغنى عن المحظورات منه . ومن عوّد نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد . فهذا منهاج العلاج فى جميع أنواع الصبر *

﴿ بيان فضيلة الشكر ﴾

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر فى كتابه فقال تعالى ﴿فاذكُرُونى أذكُرْكم وَاشكرُوا لى وَلا تَكفرُونِ﴾ وقال تعالى ﴿ مايَفعَلُ اللهُ بِعذَابِكم إنْ شَكَرْتم وآمَنْتم ﴾ وقال تعالى ﴿ وسَنَجزِى الشّاكِرِينَ ﴾ وقطع تعالى بالمزيد مع الشكر فقال سبحانه ﴿وَلَئِن شَكَرْتم لأَزِيدَنَّكُم﴾ ومن الأحاديث قوله صلوات الله عليه ﴿ الطّاعِمُ الشّاكِرُ بِمنزِلةِ الصّائِمِ الصّابِرِ ﴾ *

﴿ حقيقة الشكر ﴾

اعلم أن الشكر ينتظم من علم وحال وعمل فالعلم معرفة النعمة من المنعم والحال هو الفرح الحاصل بانعامه . والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه . ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان * اما بالقلب فقصد الخير واضماره لكافة الخلق * وأما باللسان فاظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه * وأما بالجوارح فاستعمال نعم الله تعالى فى طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته *

﴿ بيان الشكر فى حق الله تعالى ﴾

اعلم أن العبد لا يكون شاكرًا لمولاه الا اذا استعمل نعمته في محبته أى فيما أحبه لعبده لا لنفسه وأما اذا استعمل نعمته فيما كرهه فقد كفر نعمته كما اذا أهملها وعطلها وان كان هـذا دون الأول الا انه كفران للنعمة بالتضييع (وكل ماخلق فى الدنيا انما خلق آلة للعبد ليتوصل به الى سعادته) *

ثم ان فعـل الشكر وترك الكفر لا يتم الا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه ولتمييز ذلك مدركان (أحدهما) السمع ومستنده الآيات والأخبار (الثانى) بصـيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار لادراك حكمة الله تعالى فى كل موجود خلقه . إذ ما خلق شيأ فى العالم الا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب . وتلك الحكمة منقسمة الى جلية وخفية . أما الجلية فكالعلم بان الحكمة فى خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار فيكون النهار معاشا والليل لباسا فتتيسر الحركة عند الأبصار والسكون عند الاستتار فهذا من جمـلة حكم الشمس لا كل الحكم فيها بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة وكذلك معرفة الحكمة فى الغيم ونزول الأمطار وذلك لانشقاق الارض بأنواع النبات مطعما للخلق ومرعى للانعام . وقـد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجلية التى تحملها أفهام الخلق دون الدقيق الذى يقصرون عن فهمه إذ قال تعالى (إنَّا صَبَبْنا المـاءَ صبًّا ثمَّ شققْنا الأرضَ شقًا فأنبتْنا فيها حبًّا وعِنباً) الآية وأما الحكمة فى سائر الكواكب فخفيـة لا يطلع عليها كافة الخلق والقدر الذى يحتمله فهم الخلق انها زينة للسماء لتستلذ

العين بالنظر اليها وأشار اليه قوله تعالى (إنّا زيّنا السّماء الدّنيا بزينة الكواكب) فجميع أجزاء العالم سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمة واحدة الى عشرة الى ألف الى عشرة آلاف وكذا أعضاء الحيوان تنقسم الى ما يعرف حكمتها كالعلم بان العين للأبصار واليد للبطش والرّجل للمشى وهكذا فاذاً كل من استعمل شيأ فى جهة غير الجهة التى خلق لها ولا على الوجه الذى أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى . فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره . ومن نظر الى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين إذ خلقت ليبصر بها ما ينفعه فى دينه ودنياه ويتقى بها ما يضره فيهما وكذا من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير وبهما قوام الدنيا وهما حجران لا منفعة فى أعيانهما ولكن يضطر الخلق اليهما من حيث ان كل انسان محتاج الى أعيان كثيرة فى مطعمه وملبسه وسائر حاجاته وقد يعجز عما يحتاج اليه ويملك ما يستغنى عنه فخلقت لتقدر بهما الاموال فتتداولهما الأيدى ويكونا حاكين بين الاموال بالعدل ولحكمة أخرى وهى التوسل بهما الى سائر الاشياء ولحكم أخرى فكل من عمل فيهما عملا يخالف الغرض المقصود منهما فقد كفر نعمة الله فيهما فاذاً من كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما وكذا من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى فى خلق الاشجار وخلق

اليد . أما اليـد فانها لم تخلق للعبث بل للطاعة والاعمال المعينة على الطاعة .
وأما الشجر فانما خلقه الله تعالى وجعل له العروق وساق اليه الماء وخلق فيـه
قوّة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشؤه فينتفع به عباده فكسره قبـل منتهى
نشؤه لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العـدل
فان كان له غرض صحيح فله ذلك إذ الشجر والحيوان جعلا فداء لاغراض
الانسان فانهما جميعا فانيان هالـكان فافناء الأخسّ فى بقاء الأشرف مدة مّا
أقرب الى العدل من تضييعهما جميعا واليه الاشارة بقوله تعالى (وَسَخَّرَ لكم
ما فى السَّموَاتِ وما فى الارض جميعاً مِنـهُ) وبالجملة فمن فهم حكمة الله
تعالى فى جميع أنواع الموجودات قـدر على القيام بوظيفة الشكر . واستقصاء
ذلك يطول *

(السبب الصارف للخلق عن الشكر)

اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة الا الجهل والغفلة فانهـم منعوا
بالجهل والغفلة عن معرفة النعم ولا يتصور شكر النعمة الا بعد معرفتها ثم انهم
ان عرفوا نعمة ظنوا ان الشكر عليها أن يقول بلسانه الحمد لله الشكر لله ولم
يعرفوا ان معنى الشكر أن يستعمل النعمة فى اتمام الحكمة التى أريدت بها وهى
طاعة الله عز وجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين الا غلبة
الشهوة واستيلاء الشيطان *

﴿ ما يشترك فيه الصبر والشكر ﴾

اعلم انه ما من نعمة من النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تكون بلاء بالاضافة ونعمة كذلك . فرب عبد تكون الخيرة له فى الفقر والمرض ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى قال الله تعالى (ولوْ بَسطَ اللهُ الرّزقَ لعبادِهِ لبغَوْا فى الأرْض) وقال تعالى (كلاّ إنّ الإنسانَ لَيَطغى أنْ رَآهُ اسْتَغنى) وكذلك الزوجة والولد والقريب وأمثالها فان الله تعالى لم يخلق شيأ إلا وفيه حكمة ونعمة أيضا . فاذًا فى خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضا إما على المبتلى أو على غير المبتلى . فاذًا كل حالة لا توصف بانها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان الصبر والشكر جميعا فان قلت فهما متضادان فكيف يجتمعان إذ لا صبر إلا على غم ولا شكر إلا على فرح فاعلم أن الشئ الواحد قد يغتم به من وجه ويفرح به من وجه آخر فيكون الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح وفى كل فقر ومرض وخوف وبلاء فى الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها (أحدها) ان كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى فلو ضعفها الله وزادها ماذا كان يرده ويحجزه فليشكر اذ لم تكن أعظم منها في الدنيا (الثانى) انه كان يمكن أن تكون مصيبته فى دينه وفى الخبر (اللهُمّ لا تجعلْ مُصيبتَنا فى دِيننا) (الثالث) انه ما من عقوبة إلاّ ويتصور أن تؤخر الى الآخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهوّن المصيبة فيخف وقعها ومصيبة الآخرة تدوم فلعله لم تؤخر عقوبته

الى الآخرة وعجلت عقوبته فى الدنيا . فلم لا يشكر الله على ذلك

(الرابع) ان هـذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليـه فى أم الكتاب وكان لا بد من وصولها اليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها . فهـذه نعمة (الخامس) ان ثوابها أكثر منها فان مصائب الدنيا طرق الى الآخرة . وكل بلاء فى الامور الدنيوية مثاله الدواء الذى يؤلم فى الحال وينفع فى المآل . فمن عرف هـذا تصور منـه أن يشكر على البلايا ومن لم يعرف هذه النعم فى البلاء لم يتصور منه الشكر لان الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة . ومن لا يؤمن بان ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منـه الشكر على المصيبة . والاخبار الواردة في ثواب الصـبر على المصائب كثيرة ويكفى فى ذلك قوله تعالى (إنما يُوَفَّى الصابرُون أجرَهم بغيرِ حِسابٍ) *

ثم مع فضل النعمة فى البلاء كان صلى الله عليه وسلم يستعيذ فى دعائه من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة وكان يستعيذ من شماتة الأعداء وغيرها . وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم (سَلُوا اللهَ العافيةَ فما أُعطِيَ أحدٌ أفضلَ منَ العافيـةِ إلاّ اليقين) وأشار باليقين الى عافيـة القلب عن مرض الجهل والشك فعافية القلب أعلى من عافية البدن . وفى دعائه صـلى الله عليه وسـلم (وَعافِيتكَ أحبُّ اليَّ)

فنسأل الله تعالى المانّ بفضله على جميع خلقه العفو والعافيـة فى الدّين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين *

كتاب الخوف والرجاء

الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون الى كل مقام محمود ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود فلا يقود الى قرب الرحمن إلا أزمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم إلا سياط التخويف فلا بد اذا من بيان حقائقهما *

﴿ بيان حقيقة الرجاء ﴾

قد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالأرض والايمان كالبذر فيه والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء اليها . والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التى لاينمو فيها البذر ويوم القيامة يوم الحصاد ولا يحصد أحد إلا مازرع ولا ينمو زرع الا من بذر الايمان وقلما ينفع ايمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه كما لا ينمو بذر فى أرض سبخة فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذرًا جيدًا غير عفن ولا مسوّس ثم أمدّه بما يحتاج اليه وهو سوق الماء اليه فى أوقاته ثم نقى الشوك عن الارض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ثم جلس منتظرًا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة الى أن يتم الزرع ويبلغ غايته سمى انتظاره رجاء . وان بث البذر فى أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب اليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ثم

انتظر الحصاد منه سمى انتظاره حمقا وغرورًا لا رجاء . وان بثّ البذر في أرض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الامطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضا سمى انتظاره تمنيا لارجاء . فاذًا اسم الرجاء انما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق الا ماليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات . فالعبد اذا بث بذر الايمان وسقاه بماء الطاعات وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك الى الموت وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودًا فى نفسه باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الايمان فى اتمام أسباب المغفرة الى الموت . وان قطع عن بذر الايمان تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحونا برذائل الاخلاق وانهمك فى طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة فانتظاره حمق وغرور قال صلى الله عليه وسلم (الأحمقُ من أتبعَ نفسَه هواها وتمنّى على الله) وقال تعالى (فخلَفَ من بعدِهم خلفٌ أضاعوا الصّلاةَ واتّبعوا الشهوات فسَوْفَ يلقَوْنَ غيًّا) وقال تعالى (فخلف من بعدهم خلفٌ وَرِثوا الكتاب يأخذونَ عرَضَ هذا الأدنى ويقولون سيُغفرُ لنا) وذم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال (ما أظنّ أن تبيدَ هذه أبدًا وما أظنّ الساعةَ قائمةً ولئن رُدِدْتُ الى ربّي لأجدَنَّ خيرًا منها مُنقلَبا) فاذا العبد المجتهد فى الطاعات المجتنب للمعاصي حقيق بان ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة الا بدخول الجنة وأما العاصى فاذا تاب وتدارك جميع ما فرط

منه من تقصير فحقيق بان يرجو قبول التوبة وانما الرجاء بعد تأكد الأسباب ولذلك قال تعالى ﴿ إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيلِ اللهِ أولئكَ يَرْجُونَ رحمَةَ اللهِ ﴾ معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله وقال تعالى ﴿ إنّ الذين يتلونَ كتابَ اللهِ وأقاموا الصلاةَ وأنفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانيةً يرجونَ تجارةً لن تبورَ ﴾ فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بث البذر فى أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقى ولا تنقية قال يحيي ابن معاذ من أعظم الاغترار عندى التمادى فى الذنوب على رجاء العفو من غير ندامة . وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة . وانتظار زرع الجنة ببذر النار . وطلب دار المطيعين بالمعاصي . وانتظار الجزاء بغير عمل . والتمنى على الله عزّ وجلّ مع الافراط *

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لا تجرى على اليبس

فإذا حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال . ومن آثاره التلذذ بدوام الاقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف فى التملق له فان هذه الأحوال لابدّ وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك أو شخصاً من الأشخاص فكيف لا يظهر ذلك فى حق الله تعالى فان كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول فى حضيض الغرور والتمنى *

﴿ بيان حقيقة الخوف ﴾

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال . والعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لاحراق القلب وتألمه وذلك الاحراق هو الخوف . فالخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي وتارة يكون بهما جميعاً وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه وأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون تكون قوّة خوفه فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ﴿ أنا أخوفكم لله ﴾ وكذلك قال الله تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات أما في البدن فبالنحول والبكاء وأما في الجوارح فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط واستعدادا للمستقبل وأما في الصفات فبأن يقمع الشهوات ويكدّر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه اذا عرف أن فيه سماً فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ويحصل في القلب الذبول والخشوع والاستكانة ويفارقه الكبر والحقد والحسد ولا يكون له شغل إلاّ المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات . وما ورد في فضيلة

الخوف خارج عن الحصر . وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهى مجامع مقامات أهل الجنان قال الله تعالى ﴿ وَهدًى وَرَحمةً لِلّذِينَ هُم لِرَبّهِم يَرهَبُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ رَضِيَ اللهُ عَنهُم وَرَضُوا عَنهُ ذلكَ لِمَن خَشِيَ رَبّهُ ﴾ وكل مادلّ على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لأن الخوف ثمرة العلم *

﴿ الدواء الذى يستجلب به الخوف ﴾

اعلم أن من قعد به القصور عن الارتفاع الى مقام الاستبصار فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم وينسب عقولهم ومناصبهم الى مناصب الراجين المغرورين فلا يتمارى فى أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء . وأما الآمنون فهم الفراعنة والجهال والأغنياء أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الأولين والآخرين وكان أشد الناس خوفا حتى روى أنه سمع قائلا يقول لطفل مات هنيأ لك عصفور من عصافير الجنة فغضب وقال ﴿ مايُدرِيك أنّهُ كذلكَ واللهِ إنّى رسُولُ اللهِ وما أدرِى مايَصنَعُ بى إنّ اللهَ خَلَقَ الجنّةَ وخلقَ لها أهلاً لا يُزادُ فيهِم ولا يُنقَص مِنهُم ﴾ وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضاً على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأولين لما قالت أم سلمة هنيأ لك الجنة فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك والله لا أزكى أحداً بعد عثمان وروى فى حديث آخر عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيأ لك هاجرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت فى سبيل الله

فقال صلى الله عليه وسلم ﴿ وما يُدْرِيكِ لعلَّهُ كانَ يَتكلّم بما لا يَنفعُهُ وَيمنعُ مالا يَضرُّهُ ﴾ وفى حديث آخر أنه دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيأ لك الجنة فقال صلى الله عليه وسلم ﴿ مَن هذهِ المُتألِّيةُ على اللهِ تعالى وما يُدرِيكِ لَعلَّ فلانا كانَ يَتكلّمُ بما لا يَعنيهِ ويَبخَلُ بما لا يُغنيهِ ﴾ وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول ﴿ شَيَّبَتْني هُودٌ وأخواتُها سورَةُ الواقِعة وَإذا الشّمسُ كُوِّرَتْ وعمَّ يَتَساءلونَ ﴾ فقال العلماء لعل ذلك لما فى سورة هود من الابعاد كقوله تعالى ﴿ ألا بُعداً لِعادٍ قوم هُود ، ألا بُعداً لِثمودَ ، ألا بُعداً لمَدْينَ كما بَعُدَت ثمودُ ﴾ مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاءالله ماأشركوا إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها . وفى سورة الواقعة ﴿ لَيسَ لوَقعتِها كاذبةٌ خافِضةٌ رافِعةٌ ﴾ أى جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة أما خافضة قوماً كانوا مرفوعين فى الدنيا وأما رافعة قوماً كانوا مخفوضين فى الدنيا وفى سورة التكوير أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة وهو قوله تعالى ﴿وَإذا الجَحيمُ سُعِّرَت وَإذا الجَنّةُ أُزلِفَت علمَت نَفسٌ ماأَحضَرَت﴾ وفى عم يتساءلون ﴿ يومَ يَنظُرُ المَرءُ ماقدَّمت يَداهُ ﴾ الآية . وقوله تعالى ﴿ لا يَتكلّمُونَ إلاّ مَن أذِنَ لهُ الرَّحمنُ وقالَ صَواباً ﴾ ∗

والقرآن من أوله الى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ولو لم يكن فيه إلاّ قوله تعالى ﴿ وَإنّى لغفّارٌ لمَن تابَ وآمنَ وعَمِلَ صالحاً ثمّ اهتَدَى ﴾ لكانَ كافياً إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها . وأشد منه

قوله تعالى ﴿ فأمّا مَنْ تابَ وآمنَ وعمِلَ صالحاً فعسى أن يكونَ مِنَ المُفلِحينَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ لِيَسألَ الصّادقينَ عن صِدقِهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ سنفرُغُ لكم أيُّها الثقَلانِ ﴾ وقوله تعالي ﴿ أفأمنوا مكرَ اللهِ ﴾ الآية . وقوله ﴿ وكذلكَ أخذُ ربِّكَ إذا أخذَ القُرَى وهيَ ظالمةٌ إنّ أخذَهُ أليمٌ شديدٌ ﴾ وقوله ﴿ فمن يَعمَل مِثقالَ ذرّةٍ خيراً يرَهُ ﴾ الآيتين . وكذلك قوله تعالى ﴿ والعصرِ إنّ الإنسانَ لفي خُسْرٍ ﴾ الي آخر السورة فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران وانما كان خوف الأنبياء مع مافاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى ولا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون وخوف الكاملين لا يصدر إلاّ عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعاني صفاته . فأجهل الناس من آمنه وهو ينادي بالتحذير من الأمن . وكيف يؤمن تغيّر الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وأن القلب أشد تقلبا من القِدرِ في غليانها وقد قال معاذ بن جبل رضى الله عنه أن المؤمن لا يسكن روعه حتي يترك جسر جهنم وراءه وروى عن مخاوف الأنبياء والصحابة والتابعين ومن بعدهم مالا يحصى ونحن أجدر بالخوف منهم ولكن صدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا فلا قرب الرحيل ينبهنا ولا كثرة الذنوب تحرّكنا ولا خطر الخاتمة يزعجنا ومن العجائب إنا إذا أردنا المال فى الدنيا زرعنا وغرسنا واتجرنا وركبنا البحار والبرارى وخاطرنا ونجتهد فى طلب أرزاقنا ثم إذا طمحت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بأن نقول بألسنتنا اللهم اغفر لنا وارحمنا والذى اليه رجاؤنا جلّ جلاله يقول :

﴿ وَأن لَيسَ للإنسانِ إلاّ ما سَعَى . ولا يَغُرَّنكم باللهِ الغَرُورُ . يا أيُّها الإنسانُ ماغرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ ﴾ ثم كل ذلك لا ينبهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا فما هـذه الا محنة هائلة ان لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا بمنه وفضله *

كتاب الفقر والزهد

﴿ فضيلة الفقر والفقراء الراضين الصادقين ﴾

عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ اللهَ يُحِبُّ الفقيرَ المُتعفّفَ أباالعيالِ ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ يَدخلُ فُقَرَاءُ اُمّتي الجنّةَ قبلَ أغنيائِها بخمسمائةِ عامٍ ﴾ وعنه صلوات الله عليـه ﴿ مَن أصبحَ مِنكم مُعافًى فى جِسمِهِ آمِناً في سِربِهِ عنـدَهُ قوتُ يَومِهِ فـكأنّما حِيزَتْ لهُ الدُّنيا بِحذافيرِها ﴾ ولما طلبت سادات العرب وأغنياؤهم من النبيّ صلى الله عليه وسلم أن ينحى عن مجلسه فقراء الصحابة ترفعا عن مجالستهم اذا جلسوا اليـه نزل قوله تعالى ﴿ وَاصبِرْ نَفسَكَ معَ الّذينَ يَدعُونَ رَبَّهُم بالغَداةِ والعشيِّ يُريدُونَ وَجهَهُ ولا تَعدُ عَيناكَ عَنهُم ﴾ يعنى الفقراء ﴿ تُريدُ زِينةَ الحياةِ الدُّنيا ﴾ يعنى الأغنياء ﴿ ولا تُطِع مَن أغفلْنا قَلبَهُ عَن ذِكرِنا ﴾ يعنى الأغنياء : واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى ﴿ عبَسَ وتَولّى أن جاءَهُ الأعمَى . وما يُدريكَ لَعلّهُ يَزّكّى أو يذّكّرُ فتنفعَهُ الذِّكرَى ﴾ يعنى ابن

أم مكتوم ﴿ أَمَّا مَنِ استَغنى فأَنتَ لهُ تَصدَّى ﴾ يعنى هذا الشريف وقال يحيي بن معاذ حبك للفقراء من أخلاق المرسلين وايثارك مجالستهم من علامة الصالحين وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين وعن علىّ رضى الله عنه مرفوعا (أحبُّ العباد الى الله تعالى الفقير القانع برزقه الرّاضى عن الله تعالى) *

﴿ آداب الفقير فى فقره ﴾

اعلم أن للفقير آدابا فى باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغي أن يراعيها (فأما أدب باطنه) فأن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر أعنى أنه لايكون كارها فعل الله تعالى من حيث أنه فعله وان كان كارها للفقر (وأما أدب ظاهره) فان يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستر فقره ففى الحديث : أن الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال : وقال تعالى ﴿ يَحسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ وأما فى أعماله فأدبه أن لا يتواضع لغنىّ لأجل غناه قال علىّ كرّم الله وجهه ما أحسن تواضع الغنىّ للفقير رغبة في ثواب الله تعالى وأحسنُ منه تيهُ الفقير على الغنيّ ثقة بالله عزّ وجلّ فهذه رتبة . وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادئ الطمع . وينبغى أن لايسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء وطمعاً فى العطاء وأما أدبه فى أفعاله فأن لايفتر بسبب الفقر عن عبادة ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه فان ذلك جهد المقل وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى *

﴿ آداب الفقير فى قبول العطاء اذا جاءه بغير سؤال ﴾

ينبغى أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال . وغرض المعطى . وغرضه فى الأخـذ (أما نفس المال) فينبغى أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات فان كان فيه شبهة فليحترز من أخذه *

(وأما غرض المعطى) فلا يخلو إما أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته وهو الهدية . أو الثواب وهو الصدقة والزكاة.أو الذكر والرّياءوالسمعة *

(أما الأوّل وهو الهدية) فلا بأس بقبولها فان قبولها سنة رسول الله صلى الله عليـه وسلم ولكن ينبغى أن لا يكون فيها منـة فان كان فيها منـة فالأولى تركها فان علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض

(الثانى) أن يكون للثواب المجرد وذلك صدقة أو زكاة فعليه أن ينظر فى صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة فان اشتبه عليـه فهو محل شبهة . وان كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر الى باطنـه فان كان مقارفا لمعصية فى السر لو علمها المعطى لنفر طبعه ولما تقرّب الى الله بالتصدق عليـه . فهذا حرام أخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوى ولم يكن فان أخذه حرام محض لاشبهة فيه (الثالث) أن يكون غرضه السمعة والرّياء والشهرة فينبغى أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله إذ يكون معينا له على غرضه الفاسد *

(وأما غرضه فى الأخذ) فينبغى أن ينظر أهو محتاج اليـه فيما لا بدّ له منه أو هو مستغن عنه فان كان محتاجا اليـه وقد سلم من الشبهة والآفات التى ذكرناها فى المعطى فالأفضل له الأخذ قال صلى الله عليه وسلم ﴿ مَنْ

أتاهُ شيءٌ مِنْ هـذا المَالِ مِن غَيرِ مَسألةٍ ولا استشرافٍ فإنما هُوَ رِزقٌ ساقَهُ اللهُ إليهِ فلا يَرُدَّهُ ﴾ . فأما إذا كان ما أتاه زائداً على حاجته فلا يخلو إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه أو التكفل بأمور الفقراء والانفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء فان كان مشغولا بنفسه فلا وجه لأخذه وامساكه وان كان متكفلا بحقوق الفقراء فليأخذ ما زاد على حاجته فانه غير زائد على حاجة الفقراء وليبادر به الى الصرف اليهم . وبالجملة فالزيادة على قدر الحاجة انما تأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله اليك ماذا تعمل فيه وقدر الحاجة يأتيك رفقا بك فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء قال الله تعالى ﴿ إنّا جعَلنا ما على الأرضِ زِينةً لها لِنبلُوَهُمْ أيُّهُم أحسَنُ عملاً ﴾

﴿ تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب المضطر اليه ﴾

إعلم انه قد وردت مناهٍ كثيرة فى السؤال وتشديدات قال صلى الله عليه وسلم ﴿ مَنْ سألَ عنْ غنيٍّ فإنّما يَستكثِرُ من جَمرِ جهنمَ ومن سألَ ولهُ ما يُغنيهِ جاء يومَ القيامةِ ووجهُهُ عظمٌ يتقعقعُ وليسَ عليهِ لحمٌ ﴾ وفى لفظ آخر ﴿ كانتْ مَسألتُهُ خُدوشاً وكُدُوحاً فى وَجهِهِ ﴾ وهذه الالفاظ صريحة في التحريم والتشديد . وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيراً بالتعفف عن السؤال وسمع عمر رضى الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه عش الرجل فعشاه ثم سمعه ثانيا يسأل فقال ألم أقل لك عش الرجل قال قد عشيته فنظر عمر فاذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزا فقال لست سائلا ولكنك تاجر ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدى ابل الصدقة وضربه بالدرة

وقال لا تعد. ولولا ان سؤاله كان حراماً لما ضربه ولا أخذ مخلاته . وانما
استجاز ذلك رضى الله عنه لكونه لاح له فيه انه رآه مستغنيا عن السؤال
وعلم ان من أعطاه شيأ فانما أعطاه على اعتقاد انه محتاج وقد كان كاذبا فلم
يدخل فى ملكه بأخذه مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده الى أصحابه
اذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم فبقى مالاً لا مالك له فوجب صرفه الى المصالح
وابل الصدقة وعلفها من المصالح نعم يباح السؤال بضرورة أو حاجة مهمة
قريبة من الضرورة فالضرورة كسؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو
مرضا وسؤال العارى وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه . وهو مباح مادام
السائل عاجزا عن الكسب فان القادر على الكسب وهو بطال ليس له السؤال
الا اذا استغرق طلبُ العلم أوقاته . وأما المستغنى فهو الذى يطلب الشئ شيأ
وعنده مثله وأمثاله فسؤاله حرام قطعا . وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض
الذى يحتاج الى دواء وكمن له جبة لا قميص تحتها فى الشتاء وهو يتأذى بالبرد
وكمن يسأل الكراء لفرس . ولا ينبغى أن يأخذ مايعلم أن باعثه الحياء فانه حرام
محض . وما يشك فيه فليستفت قلبه فيه . وليترك حزاز القلب فانه الاثم
وليدع ما يريبه الى مالا يريبه . وادراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على
من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته . فان قوي الحرص وضعفت
الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة .
وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ أطيَبَ ما أكل
الرَّجلُ منْ كَسبِهِ ﴾ وقد ورد فى وعيد من يسأل وهو غنى قوله صلى الله

عليه وسلم ﴿ من سألَ عن ظَهرِ غِنًى فإنما يسألُ جمرًا فليَستقلَّ منه أو أو ليستكثِرَ ﴾ وقد ورد في حد الغنى المحرم للسؤال آثار مختلفة متنوعة يمكن تنزيلها على اختلاف أحوال المحتاجين اذ الحاجة لا تقبل الضبط . فأمرها منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى فيستفتي فيه قلبه ويعمل به ان كان سالكا طريق الآخرة نسأله تعالى حسن التوفيق بلطفه *

﴿ فضيلة الزهد وحقيقته ﴾

قال تعالى ﴿ ولا تمُدَّنَّ عينَيْكَ إلى ما متَّعنَا به أزواجاً مِنهُمْ زَهرَةَ الحياةِ الدُّنيا لِنَفتِنَهُمْ فيهِ ورزقُ ربِّكَ خيرٌ وأبقَى ﴾ وقال تعالى (من كان يريدُ حَرْثَ الآخرَةِ نَزِدْ لَهُ في حَرْثِهِ ومن كانَ يريدُ حَرثَ الدُّنيا نُؤْتِهِ مِنها وماله في الآخرَةِ مِنْ نَصيبٍ ﴾ وفي حديث عمر رضي الله عنه انه لما نزل قوله تعالى ﴿ والَّذينَ يَكنزونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنفِقونَها في سبيلِ اللهِ ﴾ قال صلى الله عليه وسلم ﴿ تبًّا للدُّنيا تبًّا للدِّينارِ والدِّرهَمِ ﴾ فقلنا يارسول الله نهانا الله عن كنز الذهب والفضة فأي شيء ندَّخر فقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لِيتَّخِذَ أحدُكُم لِساناً ذا كِرًا وقلباً شا كِرًا وزَوجةً صالِحةً تُعينُهُ على أمرِ آخرَتِهِ ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ السَّخيُّ قريبٌ مِنَ اللهِ قريبٌ مِنَ الناسِ قريبٌ مِنَ الجنَّةِ والبخيلُ بعيدٌ مِنَ اللهِ بَعيدٌ مِنَ الناسِ قريبٌ مِنَ النارِ ﴾ والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا والسخاء ثمرة الزهد والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لا محالة . وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ إزْهَدْ في الدُّنيا يُحبَّكَ اللهُ وازْهَدْ فيما في أيدِي الناسِ يُحبَّكَ الناسُ ﴾

ثم ان أصناف ما فيه الزهد تكاد تخرج عن الحصر وقد ذكر الله تعالى فى آية واحدة سبعة منها فقال تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلناس حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساء والبَنِينَ والقَناطيرِ المُقنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والفِضّة والخَيلِ المُسَوَّمةِ والأنعامِ والحَرْثِ ذلكَ مَتاعُ الحياةِ الدُّنيا ﴾ ثم ردّه فى آية أخرى الى خمسة فقال عز وجل ﴿ اعلَمُوا أنما الحَياةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهوٌ وَزِينةٌ وَتَفاخُرٌ بينَكُمْ وتَكاثُرٌ فى الأموالِ والأولادِ ﴾ ثم رده فى موضع آخر الى اثنين فقال تعالى ﴿ إنّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهوٌ ﴾ ثم رد الكل الى واحد في موضع آخر فقال ﴿ وَنَهَى النَّفسَ عَنِ الهَوَى فإنَّ الجنّةَ هيَ المأوَى ﴾ فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس فى الدنيا فينبغى أن يكون الزهد فيه *

والحاصل ان الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها الى ماهو خير منها علما بأن المتروك حقير بالاضافة الى المأخوذ *

واعلم انه قد يظن ان تارك المال زاهد وليس كذلك فان ترك المال واظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد بل لا بد من الزهد فى حظوظ النفس وينبغي أن يعول الزاهد فى باطنه على ثلاث علامات *

(الاولى) أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود كما قال تعالى ﴿ لِكيلاَ تأسَوْا على ما فاتكُمْ ولاَ تفرَحُوا بما آتاكُمْ ﴾ * (الثانية) أن يستوى عنده ذامه ومادحه (الثالثة) أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة *

كتاب النية والاخلاص والصدق

﴿ فضيلة النية ﴾

قال الله تعالى ﴿ ولا تَطرُدِ الّذينَ يَدعُونَ رَبَّهم بالغَدَاةِ والعَشيّ يريدُونَ وجهَهُ ﴾ وقال تعالى ﴿ إنْ يُريدَا إصلاحاً يُوَفّقِ اللهُ بينهُما ﴾ والمراد بتلك الارادة هي النية وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنما الأعمالُ بالنيّات ولكلّ امرِئ ما نَوَى فمنْ كانتْ هِجرَتهُ إلى اللهِ ورسولِهِ فَهجرَتُهُ إلى اللهِ ورسُولِهِ ومنْ كانَت هِجرتُه إلى دُنيا يُصيبُها أو امرأةٍ يَنكِحُها فَهجرَتُهُ إلى ما هاجَرَ اليهِ ﴾ وفي حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قال ﴿ إنّ بالمَدينةِ أقواماً ماقَطَعنا وادِياً ولاَ وَطِئنا مَوْطِئاً يَغيظُ الكفّارَ ولا أنفقنا نَفَقةً ولا أصابَتنا مَخمَصةٌ إلاّ شَرِكونا في ذلكَ وهُمْ بالمَدينةِ ﴾ قالوا وكيف ذلك يارسُولَ اللهِ ولَيسُوا مَعَنا قال ﴿ حَبَسَهُمُ العُذرُ ﴾ فشركوا بحسن النية وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ يُبعَثُ كلُّ عبدٍ على ماماتَ عليه ﴾ وفي حديث أبي هريرة ﴿ منْ تَزَوّجَ امرأةً على صَدَاقٍ وهُوَ لا يَنوِي أداءهُ فهُوَ زَانٍ ومَن ادّانَ دَيناً وهُوَ لاَ يَنوِي قضاءهُ فهُوَ سارِقٌ ﴾ *

﴿ تفضيل الاعمال المتعلقة بالنية ﴾

اعلم ان الاعمال تنقسم الى ثلاثة أقسام طاعات ومعاص ومباحات (فأما المعاصي) فلا تتغير عن موضعها بالنية أعني ان المعصية لا تنقلب طاعة بالنية

كالذى يغتاب انسانا مراعاة لقلب غيره أو يطعم فقيراً من مال غيره أو يبنى مدرسة أو مسجدا بمال حرام وقصده الخير فهذا كله جهل والنية لا تؤثر فى اخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر فان عرفه فهو معاند للشرع وان جهله فهو عاص بجهله إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم والخيرات انما يعرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا هيهات ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى ماعصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل قيل ياأبا محمد هل تعرف شيأ أشد من الجهل قال نعم الجهل بالجهل وهو كما قال لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم فمن يظن بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم ورأس العلم العلم بالعلم كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل وقد قال تعالى ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ ﴾ *

نعم للنية دخل فى المعاصى وهو أنه إذا انضاف اليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها *

(القسم الثانى الطاعات) وهى مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها وفى تضاعف فضلها أما الأصل فهو أن ينوى بها عبادة الله لا غير فان نوى الرياء صارت معصية وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة فان الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب إذ كل واحدة حسنة ثم تضاعف كل حسنة بعشر أمثالها كما ورد ومثاله القعود فى المسجد فانه طاعة ويمكن أن ينوى فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل

أعمال المتقين (أوّلها) أن يعتقد أنه بيت الله وأن داخله زائر الله *
(ثانيها) أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون فى صلاة *
(ثالثها) الترهب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات
(رابعها) عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر فى الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال الى المسجد (خامسها) التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره والتذكر به (سادسها) أن يقصد افادة العلم بأمر بمعروف ونهى عن منكر اذ المسجد لايخلو عمن يسيء فى صلاته أو يتعاطى مالا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده الى الدين فيكون شريكا معه فى خيره الذى يَعْلَم منه فتتضاعف خيراته (سابعها) أن يستفيد أخا فى الله فان ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة . والمسجدُ معشش أهل الدين المحبين لله وفى الله *
(ثامنها) أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى في بيت الله مايقتضى هتك الحرمة - فهذا طريق تكثير النيات وقس به سائر الطاعات اذ مامن طاعة الا وتحتمل نيات كثيرة وانما تحضر فى قلب العبد المؤمن بقدر جده فى طلب الخير وتشمره له - فبهذا تزكو الأعمال وتتضاعف الحسنات *

(القسم الثالث المباحات) وما من شئ من المباحات الا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات كالتطيب مثلا فانه بقصد التلذذ والتنعم مباح . وأما اذا نوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وترويح جيرانه ليستريحوا بروائحه . ودفع الرائحة الكريهة عن نفسه التى تؤدى الى

ايذاء مخالطيه . وزيادةَ فطنته وذكائه ليسهل عليه درك مهمات دينـه بالفكر فهذا وأمثاله من النيات الحسنة التى لا يعجز عنها من غلب طلب الخـير على قلبـه مما ينال بها معالي الدرجات . وأما من قصـد بالتطييب اظهار التفاخر بكثرة المال أو رياء الخلق ليذكر بذلك أو ليتودد الى قلوب النساء الأجنبيات أو لغير ذلك فهذا يجعل الطيب معصية ويكون فى القيامة أنتن من الجيفة والمباحات كثيرة لا يمكن احصاء النيات فيها فقس بهذا الواحـد ماعداه . ولهذا قال بعض السلف (إنى لأستحب أن يكون لى فى كل شيء نية حتى فى أكلى وشربى ونومى ودخولى للخلاء) وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب الى الله تعالى لأن كل ماهو سبب لبقاء البـدن وفراغ القلب من مهمات البـدن فهو معين على الدّين . فمن قصـد من الأكل التقوّى على العبادة ومن الوقاع تحصين دينه وتطييب قلب أهله والتوصل به الى ولد صالح يعبد الله تعالى بعـده كان مطيعا بأكله ونـكاحه وبالجملة فاياك ثم إياك أن تستحقر شيأ من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها ولا تعـدّ جوابها يوم السؤال والحساب فان الله مطلع عليك وشهيد وما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد وقد قال الحسن أن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول بينى و بينك الله فيقول والله ما أعرفك فيقول بلى أنت أخـذت لبنة من حائطى وأخـذت خيطا من ثوبى فهـذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين فان كنت من أولى العزم والنهى ولم تكن من المغـترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك *

﴿ فضيلة الاخلاص وحقيقته ﴾

قال الله تعالى ﴿ وما أُمِرُوا إلاّ لِيعبُدُوا اللهَ مُخلِصينَ لهُ الدّينَ ﴾ وقال ﴿ ألاَ لهُ الدّينُ الخالِصُ ﴾ وقال تعالى ﴿ إلاّ الّذينَ تابوا وَأصلَحُوا واعتَصَمُوا باللهِ وأخلَصُوا دينَهُم للهِ ﴾ وقال تعالى ﴿ فمَنْ كانَ يَرجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيعمَلْ عملاً صالِحاً ولا يُشرِكْ بِعبادَةِ رَبِّهِ أحَدًا ﴾ وعن عليّ كرم الله وجهه : لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول . فان النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل ﴿ أخلِصِ العَمَلَ يَجزِكَ مِنهُ القَليلُ ﴾ وقال يعقوب المكفوف : المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيآته *

واعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره فاذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصا ويسمى الفعل المصفى المخلص اخلاصاً . والاخلاص يضاده الاشراك فمن ليس مخلصا فهو مشرك إلاّ أن الشرك درجات وقدجرى العرف على تخصيص اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب الى الله تعالى عن جميع الشوائب فاذا امتزج قصد التقرب بباعث آخر من رياء أو غيره من حظوظ النفس فقد خرج عن الاخلاص ومثاله أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر أو يتخلص من عدوّ له . أو يصلى بالليل لغرض دنيوى أو يتعلم العلم أو يخدم العلماء والصوفية لذلك أو يعود مريضاً ليعاد اذا مرض أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله أو يفعل شيأ من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر اليه بعين الصلاح والوقار فمهما كان باعثه التقرب الى الله تعالى ولكن انضاف

اليه خطرة من هـذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هـذه الأمور فقد خرج عمله عن حدّ الاخلاص وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق اليه الشرك* وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح اليه النفس ويميل اليه القلب قلّ أم كثر اذا تطرّق الى العمل تكدر به صفوه وزال به اخلاصه فان الخالص من العمل هو الذى لاباعث عليه إلاّ طلب القرب من الله تعالى وهـذا لايتصور إلاّ من محب لله لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار ولذا كان علاج الاخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب فاذ ذاك يتيسر الاخلاص وكم من أعمال يتعب الانسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرورا لأنه لايرى وجه الآفة فيها فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق والا التحق باتباع الشياطين وهو لايشعر *

﴿ فضيلة الصدق ودرجاته ﴾

قال الله تعالى ﴿ رِجالٌ صَدَقوا ماعاهَدُوا اللهَ عليهِ ﴾ وقال النبيّ صلى الله عليـه وسلم ﴿ إنّ الصّدْقَ يَهدى إلى البِرّ والبِرّ يَهدى إلى الجَنّةِ وَإِنّ الرّجُلَ لَيَصدُقُ حتّى يُكتَبَ عِندَ اللهِ صِدّيقاً وإِنّ الكذبَ يهدى إلى الفُجُورِ والفُجُورَ يهدى الى النّارِ وإِنّ الرّجـلَ لَيَـكذِبَ حتّى يُكتَبَ عندَ اللهِ كذّاباً ﴾ *

والصدق درجات (الأولى صدق اللسان) وحق على كل عبـد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم الا بالصدق وكمال صـدق القول الاحتراز عن

المعاريض فقد قيل فى المعاريض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب الا أن ذلك مما تمسّ اليه الحاجة وتقتضيه المصلحة فى بعض الأحوال وفى تأديب الصبيان والنسوان ومن يجرى مجراهم وفى الحذر عن الظلمة وفى قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على الأسرار . فمن اضطر الى شئ من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين فاذا نطق به فهو صادق وان كان كلامه مفهما غير ماهو عليه لأن الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء اليه فلا ينظر الى صورته بل الى معناه . نعم فى مثل هذا الموضع ينبغى أن يعدل الى المعاريض ماوجد اليه سبيلا . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا توجه الى سفر ورّى بغيره . وذلك كى لاينتهى الخبر الى الأعداء فيقصد . وليس هذا من الكذب فى شئ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لَيس بكَذّابٍ من أصلَح بين اثنَينِ فقال خيرًا أو أنمى خيرًا ﴾ ورخص فى النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع . من أصلح بين اثنين . ومن كان له زوجتان . ومن كان فى مصالح الحرب . والصدق ههنا يتحول الى النية فلا يراعى فيه الا صدق النية وارادة الخير (فمهما صح قصده وصدقت نيّته وتجردت للخير ارادته صار صادقا وصديقاً كيفما كان لفظه) ثم التعريض فيه أولى وطريقه ماحكى عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو فى داره فقال لزوجته خطي بأصبعك دائرة وضعي الأصبع على الدائرة وقولى ليس هو ههنا . واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه فكان قوله

صدقا وأفهم الظالم أنه ليس في الدار . وهذا الذى ذكرناه من الاحتراز عن صريح اللفظ وعن المعاريض الا عند الضرورة هو الكمال الأول فى صدق القول . وهنـاك كمال ثانٍ وهو أن يراعى معنى الصدق فى ألفاظه التى يناجي بهـا ربه كقوله ﴿ وجَّهتُ وجهِى للّذى فطَرَ السَّمواتِ والأرضَ ﴾ فان قلبـه ان كان منصرفا عن الله تعـالى مشغولا بأمانى الدنيا وشـهواته فهو كذب . وكقوله ﴿ إِيَّاكَ نَعبُدُ ﴾ وكقوله أنا عبد الله فانه اذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صـدقا . ولو طولب يوم القيامة بالصدق فى قوله أنا عبـد الله لعجز عن تحقيقه فانه ان كان عبـدا لنفسه أو عبد الدنيا أو عبـدا لشهواته لم يكن صادقا فى قوله . (وكل ماتقيد العبد به فهو عبد له) كما قال صلى الله عليه وسلم ﴿ تَعِسَ عبدُ الدِّينارِ تعِسَ عبدُ الدِّرْهمِ وعبدُ الخَميصةِ ﴾ سمى كل من تقيد قلبه بشئ عبدا له وانما العبد الحق لله عزّ وجلّ من أعتق من غير الله تعالى واشتغل بالله وبمحبته وتقيد ظاهره وباطنه بطاعته فلا يكون له مراد إلاّ الله تعالى *

(الدرجة الثانية) الصدق فى النية والإرادة ويرجع ذلك الى الاخلاص وهو أن لا يكون له باعث فى الحركات والسكنات إلاّ الله تعالى فان مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية *

(الثالثة) صدق العزم وهو الجزم فيه بقوة والصادق فيـه هو الذى تصادف عزيمتـه فى الخيرات كلها قوةً تامة ليس فيها ميـل ولا ضعف ولا تردّد بل تسخو نفسه أبدا بالعزم المصمم الجازم على الخـيرات كمن يقول ان

رزقنى الله مالا تصدّقت بشطره وان أعطانى الله ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل الى خلق فصدق هذه العزيمة هو سخاء نفسه بما نوى *

(الرابعة) فى الوفاء بالعزم فان النفس قد تسخو بالعزم فى الحال اذ لا مشقة فى الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة فاذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم وهذا يضاد الصدق فيه ولذلك قال الله تعالى ﴿ رِجالٌ صَدَقوا ما عاهَدُوا اللهَ عليه ﴾ فقد روى عن أنس ان عمّه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه أما والله لئن أرانى الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ماأصنع قال فشهد أحدا فى العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال الى أين فقال واهاً لريح الجنة أنى أجد ريحها دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته ما عرفت أخى الا بثيابه فنزلت هذه الآية ﴿ رِجالٌ صَدَقوا ما عاهَدُوا اللهَ عليهِ ﴾ *

وقال مجاهد : رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود فقالا ان رزقنا الله تعالى مالا لنصدقن فبخلوا به فنزلت ﴿ ومِنهُمْ مَنْ عاهَدَ اللهَ لئِنْ آتانا مِنْ فَضلِهِ لَنصدَّقَنّ ولَنكونَنَّ مِنَ الصّالحينَ فلمّا آتاهُمْ مِنْ فَضلهِ بَخِلوا به وتَوَلّوْا وهُمْ مُعْرِضونَ فأعقَبَهُمْ نِفاقاً فى قُلوبِهِمْ إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أخلَفوا

الله ما وَعَدُوهُ وبما كانوا يَكذِبُونَ ﴾ فجعل العزمَ عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا *

(الخامسة) الصدق فى الاعمال وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لا يتصف هو به فمن وقف على هيئة الخشوع في صلاته لا يرائى غيره ولكنه فى الباطن قائم فى السوق بين يدى شهوة من شهواته فهو كاذب بلسان الحال فى عمله غير صادق فيه فالصدق فيه هو استواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره *

اذا السرّ والاعلان فى المؤمن استوى ‏ فقد عزّ فى الدارين واستوجب الثنا
فان خالف الاعلانُ سرًّا فما له ‏ على سعيه فضل سوي الكدّ والعنا

ثم درجات الصدق لا نهاية لها وقد يكون للعبد صدق فى بعض الامور دون بعض فان كان صادقا فى الجميع فهو الصديق حقاً *

كتاب المحاسبة والمراقبة

﴿ بيان لزوم المحاسبة ﴾

قال الله تعالى ﴿ ونَضَعُ المَوازِينَ القِسطَ ليوم القيامةِ فلا تُظلَمُ نفسٌ شيأً وإن كانَ مِثقالَ حبةٍ من خَردَلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسِبينَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَوُضِعَ الكتابُ فترى المُجرِمينَ مُشفقينَ ممّا فيهِ ويقولونَ ياوَيلَتَنا مالِ هذا الكتابِ لا يُغادِرُ صغيرَةً ولا كبيرَةً إلاّ أحصاها ووَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضراً ولا يَظلِمُ رَبُّكَ أحداً ﴾ وقال تعالى ﴿ يَومَ يَبعثُهُمُ اللهُ جميعاً فيُنَبِّئُهُم

بما عملوا أحصاهُ اللهُ ونسوهُ واللهُ على كلِّ شيء شهيدٌ ﴾ وقال تعالى ﴿ يومئذ يَصْدُرُ النّاسُ أشتاتاً ليُرَوْا أعمالَهُمْ فمنْ يَعملْ مِثقالَ ذَرّةٍ خيراً يرَهُ ومنْ يعمَلْ مِثقالَ ذَرّةٍ شرًّا يَرَهُ ﴾ وقال تعالى ﴿ ثمّ تُوَفّى كلُّ نفسٍ ما كَسَبَتْ وهُمْ لا يُظلَمُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ يومَ تَجِدُ كلُّ نفسٍ ما عمِلتْ منْ خيرٍ مُحضَراً وما عمِلتْ منْ سُوءٍ تَوَدُّ لوْ أنّ بينَها وبينَهُ أمَدًا بعيدًا ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نفسَهُ ﴾ وقال تعالى ﴿ واعلمُوا أنّ اللهَ يعلَمُ ما في أنفسِكم فاحذرُوه ﴾ *

استدل بذلك أرباب البصائر أن الله تعالى لهم بالمرصاد . وانهم سيناقشون فى الحساب . و يطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات . فتحققوا انهم لا ينجيهم من هـذه الاخطار الا لزوم المحاسبة . وصدق المراقبة . ومطالبة النفس فى الانفـاس والحركات . ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات . فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف فى القيامة حسابه . وحضر عنـد السؤال جوابه . وحسن منقلبه ومآبه . ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته . وطالت فى عرصات القيامة وقفاته . وقادته الى الخزى والمقت سيئاته . فحتم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها فى حركاتها وسكناتها . وخطراتها وخطواتها . فان كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لاعوض لها يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد فانقضاء هذه الانفاس ضائعة أو مصروفة الى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل *

﴿ بيان مشارطة النفس ﴾

اذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه لمشارطة النفس فيقول لها مالى بضاعة إلا العمر ومهما فنى فقدفنى رأس المال ووقع الياس عن التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد أمهلنى الله فيه وأنسأ في أجلى وأنعم عليّ به . ولو توفانى لكنت أتمنّى أن يرجعنى الى الدنيا يوماً واحدا حتى أعمل فيه صالحا فاحسبي انك قد توفيت ثم قد رددت فاياك ثم اياك أن تضيعى هذا اليوم فان كل نفس من الانفاس جوهرة لاقيمة لها فلاتميلى الى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وان دخلت الجنة فألم الغبن وحسرته لايطاق . وقد قال بعضهم هب ان المسيء قد عفى عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين . أشار به الى الغبن والحسرة وقال الله تعالى ﴿ يومَ يَجمعُكمْ ليوْمِ الجمعِ ذلكَ يومُ التّغابُن ﴾ فهذه وصيته لنفسه فى أوقاته ثم ليستأنف لها وصية فى أعضائه السبعة وهى العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل فيوصيها بحفظها عن معاصيها ✻

(أماالعين) فيحفظها عن النظرالى وجه من ليس له بمحرم أوالى عورة مسلم أو النظرالى مسلم بعين الاحتقار ثم اذا صرفها عن هذا لم يقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهو ما خلقت له من النظر الى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر الى أعمال الخير للاقتداء والنظر فى كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة ✻

وهكذا ينبغي أن يفصل الامر عليها فى عضو عضو لاسيما اللسان والبطن (أما اللسان) فلانه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه فى الحركة . وجنايته عظيمة بالغيبة . والكذب . والنميمة . وتزكية النفس . ومذمة الخلق والاطعمة والطعن . والدعاء على الاعداء . والمماراة فى الكلام . وغير ذلك مما ذكرناه فى كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله مع انه خلق للذكر . والتذكير . وتكرار العلم . والتعليم . وارشاد عباد الله الى طريق الله . واصلاح ذات البين . وسائر خيراته (واما البطن) فيكلفه ترك الشره . وتقليل الاكل من الحلال . واجتناب الشبهات . ويمنعه من الشهوات وهكذا يشرط عليها فى جميع الاعضاء واستقصاء ذلك يطول . ولا تخفي معاصى الاعضاء وطاعتها ثم يستأنف وصيتها فى وظائف الطاعات التى تكرر عليه فى اليوم والليلة وكيفية الاستعداد لها بأسبابها وكذا فيمن يشتغل بشئ من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس وقلما يخلو يوم عن مهم جديد وواقعة جديدة يحتاج الى أن يقتضي حق الله فيها فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق فى مجاريها ويحذرها مغبة الاهمال ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد فان النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ *

﴿ فضيلة المراقبة ﴾

روى ان جبريل عليه السلام سأل النبى صلوات الله عليه عن الاحسان

فقال ﴿ أنْ تَعبُدَالله كأنّكَ تَرَاهُ فإنْ لم تكُنْ تَرَاه فإنهُ يرَاكَ ﴾ وقد قال تعالى (أفَمَنْ هوَ قائمٌ على كلّ نفسٍ بما كَسَبَتْ) وقال تعالى (ألم يَعلَمْ بأنّ اللهَ يرَى) وقال تعالى (إنّ اللهَ كانَ عليكُمْ رَقيباً) وقال تعالى (والّذينَ هُمْ لِأماناتِهِمْ وعَهْدِهِمْ راعُونَ . والذين هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائمُون) وسئل بعضهم عن قوله تعالى (رَضِيَ اللهُ عنهُمْ وَرَضُوا عنهُ ذلكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبّهُ) فقال معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده . وقال رجل للجنيد بم استعين على غض البصر فقال بعلمك أن نظر الناظر اليك أسبق من نظرك الى المنظور اليه *

﴿ حقيقة المراقبة ﴾

المراقبة هى ملاحظة الرقيب وانصراف الهمّ اليه ويُعنَى بها حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالا فى الجوارح وفى القلب أمّا الحالة فهى مراعاة القلب للرقيب وملاحظته اياه وأما المعرفة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وان سرّ القلب فى حقه مكشوف كما ان ظاهر البشرة للخلق مكشوف ثم للمراقب في أعماله نظران نظر قبل العمل ونظر فى العمل . أما قبل العمل فلينظر ان همه وحركته أهى لله خاصة أو لهوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق فان كان لله تعالى أمضاه وان كان لغير الله استحيى من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله اليه وعرفها سوء فعلها وانها عدوة نفسها وأما

النظر الثانى للمراقبة عند الشروع فى العمل فذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ويحسن النية فى اتمامه ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه *

وهذا ملازم له فى جميع أحواله . لانه لا يخلو اما أن يكون فى طاعة أو فى معصية أو فى مباح . فمراقبته فى الطاعات بالاخلاص والاكمال ومراعاة الادب وحراستها عن الآفات . وان كان فى معصية فمراقبته بالتوبة والندم والاقلاع والحياء والاشتغال بالتكفير . وان كان فى مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم فى النعمة وبالشكر عليها ولا يخلو العبد فى جملة أحواله عن بلية لابد له من الصبر عليها ونعمة لابد له من الشكر عليها وكل ذلك من المراقبة بل لاينفك العبد فى كل حال من فرض لله تعالي عليه . أما فعل يلزمه مباشرته . أومحظور يلزمه تركه . أو ندب حث عليه ليسارع به الي مغفرة الله تعالي ويسابق به عباد الله . أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ولكل واحد من ذلك حدود لابد من مراعاتها بدوام المراقبة (وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفسَهُ) ومن كان فارغا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتمس أفضل الاعمال ليشتغل بها . فان من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون . والارباح تنال بمزايا الفضائل *

﴿ بيان محاسبة النفس بعد العمل ﴾

قال تعالى ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمنوا اتَّقوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفسٌ ماقَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ وهذه اشارة الى المحاسبة على مامضى من الأعمال . وقال تعالى ﴿ وَتوبوا الى

اللهِ جميعاً أيُّها المؤْمنونَ لعلَّكم تُفلِحُونَ ﴾ والتوبة نظر فى الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه وقال تعالى (إنَّ الَّذينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طائف مِنَ الشَّيطانِ تذَكَّرُوا فإذَاهُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ وقال النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّى لأستَغفرُ اللهَ تعالى وَأتوبُ إليهِ فى اليَوْمِ مائةَ مَرَّةٍ ﴾ وقال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا . وقال مالك بن دينار رحم الله عبدا قال لنفسه ألست صاحبة كذا ألست صاحبة كذا ثم ذمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائداً : اذا علمت هذا فينبغي أن يكون للمرء في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار فى الدنيا مع الشركاء فى آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدنيا . وكيف لايحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد . ماهذه المساهلة الا عن الغفلة وقلة التوفيق ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر فى رأس المال وفى الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان فان كان من فضل حاصل استوفاه وشكره وان كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل . فكذلك رأس مال العبد فى دينه الفرائض وربحه النوافل والفضائل وخسرانه المعاصى وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء فليحاسبها على الفرائض أولا فان أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها فى مثلها وان فوتها من أصلها طالبها بالقضاء . وان أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل . وان ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها ومعاتبتها ليستوفى منها

مايتدارك به مافرط كما يصنع التاجر بشريكه . وليتكفل بنفسه من الحساب
ما يتولاه غيره فى صعيد القيامة *

﴿ توبيخ النفس ومعاتبتها ﴾

اعلم أن أعدى عدوّك نفسك التى بين جنبيك وقد خلقت أمارة
بالسوء ميالة الى الشر فرارة من الخير وأمرتَ بتزكيتها وتقويمها وقودها
بسلاسل القهر الى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها
فان أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك وان لازمتها بالتوبيخ
والمعاتبة والعذل والملامة رجوت أن تصير النفسَ المطمئنة المدعوة الى أن
تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تغفلنّ ساعة عن تذكيرها
ومعاتبتها قال تعالى ﴿ وذَكِّر فإنّ الذّكرَى تَنفعُ المؤْمنينَ ﴾ وسبيلك أن تقبل
عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وأنها أبدا تتعزز بفطنتها وهدايتها ويشتد
أنفها واستنكافها اذا نسبت الى الحمق فتقول لها يانفس ما أعظم جهلك
تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا . أما تعرفين
مابين يديك من الجنة والنار وانك صائرة الى احداهما على القرب فما لك
تشتغلين باللهو وأنت مطالوبة لهذا الخطب الجسيم . أما تعلمين أن كل ماهو
آت قريب وأن البعيد ماليس بآت أما تتدبرين قوله تعالى (اقتَرَبَ
لِلنّاسِ حِسابُهمْ وَهمْ فى غَفلَةٍ مُعرِضُونَ مايأتِيهمْ مِنْ ذكرٍ مِنْ رَبّهِم مُحدَثٍ
إلاّ استَمعُوهُ وهم يَلعبُونَ لاهِيةً قلُوبُهمْ) ويحك يانفس ان كانت جراءتك
على معصية الله لاعتقادك أن الله لايراك فما أعظم كفرك . وان كان مع

علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك *

ويحك يا نفس لو واجهك عبـد من عبيدك بل أخ من اخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليـه ومقتك له فبأى جسارة تتعرّضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه أفتظنين أنك تطيقين عذابه هيهات جرّبى نفسك ان ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسى ساعة فى الشمس أو فى بيت الحمام أو قربى أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك . أم تغترين بكرم الله وفضله فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى فى مهمات دنياك فاذا أرهقتك حاجة الى شهوة من شـهوات الدنيا مما لاينقضى إلا بالدينار والدرهم فما لك تنزعين الروح فى طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلم لاتعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل اليك حاجتك من غير سـعى منك ولا طلب أفتحسبين أن الله كريم فى الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أنّ سنة الله لاتبديل لها وأن رب الآخرة والدنياواحد وأن ليس للانسان إلاّ ماسعى . يانفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسـباب ولا تتكلين فى ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولَبِدٍ وحطَبٍ وغير ذلك فانه قادر على ذلك أفتظنين أن العبد ينجو بغير سـعي هيهات كما لايندفع برد الشتاء إلاّ بالجبة والنار وسائر الأسـباب فلا ينـدفع حر النار وبردها الا بحصن التوحيد وخندق الطاعات وانما كرم الله تعالى فى أن عرّفك طريق التحصن ويسّر لك أسبابه لافى أن يدفع عنك العـذاب

دون حصنه انظري يانفس بأى بدن تقفين بين يدى الله وبأى لسان تجيبين وأعدى للسؤال جوابا وللجواب صوابا واعملى بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال وفى دار زوال لدار مقامة وفى دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود واعلمى أنه ليس للدين عوض ولا للايمان بدل ولا للجسد خلف ومن كانت مطيته الليل والنهار فانه يسار به وان لم يسر فاتعظى يانفس بهذه الموعظة واقبلى هذه النصيحة فان من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار فهذه طريق القوم فى معاتبة نفوسهم ومقصودهم منها التنبيه والاسترعاء ومن أهمل المعاتبة لم يكن لنفسه مراعيا ويوشك أن لا يكون الله عنه راضيا *

كتاب التفكر

﴿ فضيلة التفكر ﴾

اعلم انه قد أمر الله تعالي بالتفكر والتدبر فى كتابه العزيز فى مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالي (الَّذينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وقُعُودًا وعلى جنوبِهِم ويتفكَّرُونَ فى خَلقِ السَّمواتِ والارضِ رَبَّنا ما خَلقْتَ هذَا باطِلاً) وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما ان قوماً تفكروا فى الله عز وجل فقال النبى صلى الله عليه وسلم (تَفكَّرُوا فى خَلقِ اللهِ ولاتَتَفَكَّرُوا فى اللهِ) وروى فى السنة (تفَكُّر ساعةٍ خيرٌ من عبادَةِ سنَةٍ) وقال حاتم (من العبرة يزيد العلم ومن الذكر يزيد الحب ومن التفكر يزيد الخوف)

وقال الشافعي رحمه الله تعالى : استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر . ثم أن ثمرة الفكر هى العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة واذا حصل العلم فى القلب تغير حال القلب واذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالفكر إذا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها لأنه الذى ينقل من المكاره الي المحاب ويهدى الى استثمار العلوم ونتاج المعارف والفوائد *

﴿ بيان مجارى الفكر ﴾

اعلم أن أنواع مجارى الفكر أربعة : الطاعات . والمعاصى . والصفات المهلكات . والصفات المنجيات *

(فأما المعاصى) فينبغى أن يفتش الانسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة ثم بدنه هل هو فى الحال ملابس لمعصية بها فيتركها . أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم . أو هو متعرض لها فى نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها فينظر فى اللسان ويقول انه متعرض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والممازحة والخوض فيما لا يعنى الى غير ذلك من المكاره فيقرر أولا فى نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر فى شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها فيحترز منها ويتفكر فى سمعه أنه يصغى به الى الغيبة والكذب وفضول الكلام والى اللهو وأنه ينبغى أن يحترز عنه ويتفكر فى بطنه أنه انما يعصى الله تعالى فيه بالأكل والشرب اما بكثرة الأكل من الحلال وذلك مكروه عند الله وإما بأكل

الحرام والشبهة فيتفكر فى الاحتراز عن مداخله ويتفكر فى طريق الحلال وموارده ويقرر على نفسه ان العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام وان أكل الحلال هو أساس العبادات كلها فهكذا يتفكر فى أعضائه حتى يحفظها *

(وأما الطاعات) فينظر أوّلاً فى الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير . أو كيف يجبر نقصانها بالنوافل *

ثم يرجع الى عضو عضو فيتفكر فى الأفعال التى تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيقول أن العين خلقت للنظر فى ملكوت السموات والأرض عبرة ولتستعمل فى طاعة الله تعالى وتنظر فى كتاب الله وسنة رسوله وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله وأنا قادر على أن أنظر الى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه فلم لا أفعله وكذلك يقول فى سمعه انى قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم فمالى أعطله وقد أنعم الله علىّ به وأودعنيه لأشكره فمالى أكفر نعمة الله فيه بتضييعه وتعطيله وكذلك يتفكر فى اللسان ويقول انى قادر على أن أتقرب الى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد الى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وادخال السرور على قلب زيد الصالح . وعمرو العالم بكلمة طيبة وكل كلمة طيبة فانها صدقة وكذلك يتفكر فى ماله فيقول أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلانى فانى مستغن عنه ومهما احتجت اليه رزقنى الله تعالى مثله وان كنت محتاجا الآن فانا الى ثواب الايثار أحوج منى الى ذلك المال وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله بل عن

دوابه وأولاده فان كل ذلك أدواته وأسبابه ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ويتفكر فيما يرغبه فى البدار الى تلك الطاعات ويتفكر فى اخلاص النية فيها وقس على هذا سائر الطاعات *

(وأما الصفات المهلكة التي محلها القلب) فيعرفها مما تقدم وهى استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك ويتفقد من قلبه هذه الصفات ويتفكر فى طريق العلاج لها مما سلف ذكره *

(وأما المنجيات) فهى التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهد فى الدنيا والاخلاص والصدق فى الطاعات ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق اليه والخشوع والتواضع له مما تقدم ذكره فيتفكر كل يوم فى قلبه ما الذى يعوزه من هذه الصفات التى هى المقربة الى الله تعالى فاذا افتقر الى شئ منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلاّ علوم وأن العلوم لا يثمرها إلاّ أفكار فاذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم فليفتش ذنوبه أوّلا وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها فى قلبه ثم لينظر فى الوعيد والتشديد الذى ورد فى الشرع فيها وليحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى حتى ينبعث له حال الندم واذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر فى احسان الله اليه وأياديه عليه وفى إرساله جميل ستره عليه واذا أراد حال

المحبة والشوق فليتفكر فى جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر فى عجائب حكمته وبدائع صنعه واذا أراد حال الخوف فلينظر أولا فى ذنوبه الظاهرة والباطنة ثم لينظر فى الموت وسكراته ثم فيما بعده من سؤال القبر وحيّاته وعقاربه وديدانه ثم في هول النداء عند نفخة الصور ثم فى هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ثم فى المناقشة فى الحساب والمضايقة فى النقير والقطمير ثم ليحضر فى قلبه صورة جهنم وأهوالها وسلاسلها واغلالها وزقومها وصديدها وأنواع العذاب فيها وانهم كلما نضجت جلودهم بدّلوا جلودا غيرها وأنهم اذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وهلم جرّا الى جميع ما ورد فى القرآن من شرحها واذا أراد أن يستجلب حال الرجاء فلينظر الى الجنة ونعيمها وأشجارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم فهكذا طريق الفكر الذى يطلب به العلوم التى تثمر اجتلاب أحوال محبوبة أو التنزه عن صفات مذمومة *

وأما ذكر مجامع تلك الأحوال فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكر فان القرآن جامع لجميع المقامات والأحوال وفيه شفاء للعالمين فيه مايورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال وفيه مايزجر عن سائر الصفات المذمومة فينبغى أن يقرأه العبد ويردّد الآية التى هو محتاج الى التفكر فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمة بغير تدبر وفهم فليتوقف فى التأمل فيها ولو ليلة واحدة فان تحت كل كلمة منها أسرارا لاتنحصر ولا يوقف عليها إلاّ بدقيق الفكر

عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة *

وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه قد أوتى جوامع الكلم وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره *

﴿ بيان كيفية التفكر فى خلق الله تعالى ﴾

اعلم أن كل ما فى الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه وكل ذرة من الذرات ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته واحصاء ذلك غير ممكن فلنذكر من الموجودات ما يدرك بحس البصر فانه الأقرب الى الافهام وذلك من الآيات التى حث على التفكر فيها القرآن الكريم *

﴿ آية الانسان ﴾

من آياته تعالى الانسان المخلوق من النطفة . وأقرب شئ اليك نفسك وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالي ماتنقضى الأعمار فى الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه . فيامن هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع فى معرفة غيرك وقد أمرك الله تعالى بالتدبر فى نفسك فى كتابه العزيز فقال ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال ﴿ قُتِلَ الإنسانُ ما أكفرَهُ مِنْ أىّ شىءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثمّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثمّ أماتَهُ فأقبَرَهُ ثمّ إذا شاءَ أنشرَهُ ﴾

وقال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾
وقال تعالى ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾
وقال تعالى ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُم مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ
مَعْلُومٍ ﴾ ثم ذكر تعالى كيف جعل النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاما
فقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي
قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ الآية . فتكرير ذكر النطفة فى الكتاب
العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر فى معناه فانظر الآن الى النطفة وهى
قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت كيف
أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب . وكيف جمع بين الذكر
والأنثى وألقى الألفة والمحبة فى قلوبهم وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة
الى الاجتماع وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع وكيف
استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه فى الرحم ثم كيف خلق
المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وكبر وكيف جعل
النطفة وهى بيضاء مشرقة علقة حمراء ثم كيف جعلها مضغة ثم كيف قسم
أجزاء النطفة وهى متشابهة متساوية الى العظام والأعصاب والعروق والأوتار
واللحم . ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق الأعضاء الظاهرة
فدوّر الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ثم مد
اليد والرجل وقسم رؤسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل ثم كيف
ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم

والمثانة والامعاء كل واحـد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعـمل مخصوص . وفى آحاد هـذه الأعضاء من العجائب والآيات مالو ذهبنا الى وصـفها لانقضى فيها الاعمار فانظر الآن الى العظام وهى أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له ثم قدّرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير . وطويل ومستدير ومجوّف ومصمت . وعريض ودقيق . ولما كان الانسان محتاجا الى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه مفتقراً للتردد فى حاجاته لم يجعـل عظمه عظما واحداً بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة . وقدر شكل كل واحـدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ثم وصـل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرف العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ثم خلق فى أحد طرفى العظم زوائد خارجة منه . وفى الآخر حُفَراً غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها فصار الانسان انأراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعذّر عليه ذلك ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركّبها فألّف بعضها الى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه فمنها مايخص القحف واللّحىَ الأعلى واللحى الأسفل والبقية هي الأسـنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادّة تصلح للقطع وهى الأنياب والأضراس والثنايا ثم جعل الرقبة مركبا للرأس ثم ركب الرقبة على الظهر وركب الظهر من أسـفل الرقبة الى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام

الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز ثم عظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين وتعداد ذلك يطول فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة والقصد أن ينظر فى مدبرها وخالقها أنه كيف قدرها وخالف بين أشكالها وخصّصها بعددها المخصوص لأنّه لو زاد عليها واحداً لكان وبالاً على الانسان يحتاج الى قلعه ولو نقص منها واحداً لكان نقصانا يحتاج الى جبره ثم أمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعابها أعجب من هذا كله وشرحه يطول وكل ذلك صنع الله فى قطرة ماء قذرة فترى من هذا صنعه فى قطرة ماء فما صنعه فى ملكوت السموات وكواكبها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلا تظنن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم بل هي أحكم خلقاً وأتقن صنعاً وأجمع للعجائب من بدن الانسان بل لانسبة لجميع مافى الأرض الى عجائب السموات ولذلك قال تعالى ﴿ أءنتم أشَدُّ خَلقاً أم السَّماء بَناها رَفعَ سَمكَها فَسَوّاها وَأغطَشَ لَيلَها وَأخرَجَ ضُحاهَا ﴾ فارجع الآن الى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت اليه ثانيا وتأمل أنه لو اجتمع الجن والانس على أن يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصراً أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا أو يخلقوا فيها عظما أو عرقا أو عصباً أو جلداً أو شعراً هل يقدرون على ذلك . بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالي ذلك لعجزوا عنه . فالعجب منك لو نظرت الي صورة تأنق النقاش في تصويرها لكثر تعجبك منه وأنت تري النطفة القذرة

كانت معدومة فخلقها خالقها في الأصلاب والترائب ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها وقسم أجزائها المتشابهة الى أجزاء مختلفة فأحكم العظام فى أرجائها وحسَّنَ أشكال أعضائها وزيَّن ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغـذائها ليكون ذلك سبب بقائها وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة . وخلق لها الظهر أساساً لبدنها والبطنَ حاويا لآلات غذائها والرأس جامعاً لحواسها ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئتها ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقذاء عنها . ثم أظهر فى مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر اليها ثم شق أذنيه وأودعهما ماء مُرًّا ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوّطها بصدفة الاذن لتجمع الصوت فترده الى صماخها ولتحس بدبيب الهوام اليها . وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة مايدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها اذا قصدها دابة فى حال النوم ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شـكله وفتح منخريه وأودع فيـه حاسة الشمّ ليستدلّ باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته . وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غـذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنـه وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقا وترجمانا ومعربا عما فى القلب وزيّن الفم بالأسـنان ولتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحـدد رؤسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤس متناسـقة الترتيب كأنها الدر المنظوم وخلق الشفتين وحسنَ لونها وشكلها

لتنطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بها حروف الكلام ثم خلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتَقَطُّعِ الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقان حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ . وزين الوجه باللحية والحاجبين وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل وزين العينين بالأهداب ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص فسخر المعدة لنضج الغذاء والكبد لاحالة الغذاء الى الدم والمثانة لقبول الماء حتى تخرجه في طريق الاحليل والعروق تخدم الكبد في ايصال الدم الى سائر أطراف البدن ثم خلق اليدين وطوّلها لتمتد الى المقاصد وعرّض الكف وقسم الأصابع الخمس وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ووضع الأربعة في جانب والابهام في جانب لتدور الابهام على الجميع. وبهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والاعطاء ثم خلق الأظفار على رؤسها زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها حتى لاتتقطع وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لاتتناولها الأنامل وليحك بها بدنه عند الحاجة ثم هدى اليد الى موضع الحك حتى تمتد اليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة الى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلاّ بعد تعب طويل ثم خلق هذا كله من

النطفة وهي فى داخل الرحم فى ظلمات ثلاث فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه ثم انظر مع كال قدرته الى تمام رحمته فانه لما ضاق الرحم عن الصبيّ لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرّك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كانه عاقل بصير بما يحتاج اليه ثم لما خرج واحتاج الى الغذاء كيف هداه الى التقام الثدى ثم لما كان بدنه سخيفاً لايحتمل الاغذيةالكثيفة كيف دبر له فى خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغاً خالصاً . وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وأنبت منهما حلمتين على قدر ماينطبق عليهما فمُ الصبىّ ثم فتح فى حلمة الثدى ثقبا ضيقاً جدًّا حتى لايخرج اللبن منه إلاّ بعد المص تدريجاً فان الطفل لايطيق منه إلاّ القليل ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدّة الجوع ثم انظر الى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الاسنان الى تمام الحولين لانه فى الحولين لايتغذى إلاّ باللبن فيستغنى عن السن واذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج الى طعام غليظ ويحتاج الطعام الى المضغ والطحن فأنبت له الاسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة فى تلك اللثات اللينة ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره فى الوقت الذى كان عاجزاً عن تدبير نفسه فلولم يسلط الله الرّحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجاً حتى بلغ وتكامل فصار مراهقاً . ثم شابا . ثم كهلا . ثم شيخاً اما كفورًا أو شكورًا مطيعاً أو

عاصياً مؤمناً أو كافراً تصديقاً لقوله تعالى ﴿ هل أتى على الإنسان حين من من الدّهر لم يكنْ شيئاً مذكوراً . إنا خلقنا الانسان من نطفةٍ أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرًا . إنا هـديناه السبيل إمّا شا كرًا وَإمّا كفورًا ﴾ فانظر الى اللطف والكرم ثم الى القـدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الرّبانيّة والعجب كلّ العجب ممن يرى خطا حسنا أو نقشا حسنا على حائط فيستحسنه فيصرف جميع همته الى التفكر فى النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخطّهُ وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه فى نفسه ويقول : ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته . ثم ينظر الى هـذه العجائب فى نفسه وفى غـيره ثم يغفل عن صانعه ومصوّره فلا يدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته فهذه نبـذة من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها فهو أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهـدٍ على عظمة خالقك وأنت غافل عن ذلك مشـغول ببطنك وفرجك لاتعرف من نفسك إلاّ أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام وتشتهى فتجامع وتغضب فتقاتل والبهائم تشاركك في معرفة ذلك وانما خاصـية الانسان التى حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر فى ملكوت السـموات والأرض وعجائب الآفاق والأنفس إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقرّبين ويحشر فى زمرة النبيين والصـدّيقين مقرّبا من حضرة ربّ العالمين وليست هـذه المنزلة للبهائم ولا لانسان رضى من الدنيا بشهوات البهائم فانه شر من البهائم بكثير إذ لاقدرة للبهيمة على ذلك وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها وكفر نعـمة الله فيها فأولئك كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً . واذا

عرفت طريق الفكر فى نفسك فتفكر فى الأرض التى هى مقرّك ثم فى أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها ثم ارتفع منها الى ملكوت السموات *

﴿ آية الأرض ﴾

من آياته تعالى أن خلق الأرض فراشاً ومهاداً وسلك فيها سبلا فجاجا وجعلها ذلولا لتمشوا فى مناكبها وجعلها قارة لاتتحرّك وأرسى فيها الجبال وتادا لها تمنعها من أن تميد ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وقد أكثر تعالى فى كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر فى عجائبها فظهرها مقرّ الأحياء وبطنها مرقد الاموات قال الله تعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الارْضَ كِفاتاً أَحْيَاءً وأَمْوَاتاً﴾ فانظر الى الارض وهى ميتة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات ثم انظر كيف أحكم جوانب الارض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف أودع المياه تحتها ففجر العيون وأسال الانهار يجري على وجهها وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقاً صافيا زلالا وجعل به كل شئ حىّ فأخرج به فنون الاشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة لاتحصى مختلفة الاشكال والالوان والطعوم والصفات والروائح يفضّلُ بعضها على بعض فى الأُكُل تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة فان قلت أن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها فمتى كان فى النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ومتى كان فى حبة واحدة سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ثم انظر الى أرض

البوادى وفتش ظاهرها وباطنها فتراها ترابا متشابها فاذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ألوانا مختلفة ونباتا متشابها وغير متشابه لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر فانظر الى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة فهذا النبات يغذى وهذا يقوّى وهذا يحيي وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا يفرح وهذا ينوّم فلم تنبت من الارض ورقة ولا تبنة إلاّ وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح فى تربيته الى عمل مخصوص ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانقضت الايام في وصف ذلك فيكفيك من كل نبذةٌ يسيرة تدل على طريق الفكر فهذه عجائب النبات *

﴿ آية أصناف الحيوانات ﴾

اعلم أن من آياته تعالى أصناف الحيوانات وانقسامها الى ما يطير والى مايمشى وانقسام مايمشى الى ما يمشى على رجلين وعلى أربع وعلى عشر وعلى مائة كما يشاهد فى بعض الحشرات ثم انقسامها في المنافع والصور والاشكال والاخلاق والطباع فانظر الى طيور الجو والى وحوش البر والى البهائم الاهلية ترى فيها من العجائب مالا تشك معه فى عظمة خالقها وقدرة مقدرها وحكمة مصورها وكيف يمكن أن يستقصى ذلك بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت وهى من صغار الحيوانات في بنائها بيتها وفي

جمعها غذائها وفى ألفها لزوجها وفي إدخارها لنفسها وفى حذقها في هندسة بينها وفي هدايتها الى حاجاتها لم تقدر على ذلك . وكل يشهد بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم . فالبصير يرى في هـذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الالباب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات *

وهذا الباب أيضا لاحصر له فان الحيوانات وأشكالها وطباعها غير محصورة وانما سقط تعجب القلوب منها لانسها بكثرة المشاهدة . نعم اذا رأى حيوانا ولو دودا ـ تجدد تعجبه . وقال : سبحان الله ما أعجبه والانسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر الى الانعام التى ألفها ونظر الى أشكالها وصورها ثم الى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التى جعلها الله لباسا لخلقه واكنانا لهم فى ظعنهم واقامتهم وآنية لاشربتهم وأوعية لاغذيتهم وصوانا لاقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للاثقال قاطعة للبوادى والمفازات البعيدة لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها فانه ما خلقها الا بعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه إياها فسبحان مَنْ الأمور مكشوفة فى علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استعانة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده فما للخلق إلا الاذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والاقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته فمن ذا الذى يحصى ثناء عليه ؟ بل هو كماأثنى

على نفسه وانما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته

﴿ آية البحار ﴾

من آياته تعالى البحار العميقة المكتنفة لاقطار الارض وفيها من عجائب الحيوان والجواهر اضعاف ما تشاهده على وجه الارض كما أن سعته أضعاف سعة الارض. انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوره فى صدفه تحت الماء وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور ثم تأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التى يقذفها البحر وتستخرج منه ثم انظر الى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الاموال وغيرهم وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم *

وأعجب من ذلك كله الماء ما هو أظهر من كل ظاهر وهو كيفية قطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف متصل الاجزاء كانه شيء واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع به حياة كل ما على وجه الارض من حيوان ونبات فلو احتاج العبد الى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الارض وملك الدنيا فى تحصيلها لو ملك ذلك ثم لو شربها ومنع من اخراجها لبذل جميع خزائن الارض وملك الدنيا فى اخراجها *

فالعجب من الآدمى كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله فى شربة ماء اذا احتاج الى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها فتأمل فى عجائب المياه والانهار والآبار والبخار ففيها

متسع للفكر ومجال وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته *

﴿ آية الهواء وعجائب الجوّ ﴾

ومن آياته تعالى الهواء اللطيف . فان شاء جعله نشراً بين يدى رحمته كما قال سبحانه ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ فيصل بحركته روح الهواء الى الحيوانات والنباتات فتستعد للنماء. وان شاء جعله عذابا على العصاة من خليقته كما قال تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ *

ثم انظر الى عجائب الجوّ وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق فهى عجائب ما بين السماء والأرض وقد أشار القرآن الى جملة ذلك فى قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴾ وهذا هو الذى بينهما وأشار الى تفصيله فى مواضع شتى حيث قال تعالى ﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ وحيث تعرض للرعد والبرق والسحاب والمطر . فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع فى جوّ صاف لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل وممسك له فى جوّ السماء الى أن يأذن الله فى إرسال الماء وتقطيع القطرات حتى يصيب الأرض قطرة قطرة فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة لعجزوا وكل ذلك من فضل الجبار القادر لا إله إلاّ هو *

﴿ آية السموات ﴾

ومن آياته تعالى ملكوت السموات وما فيها من الكواكب وقد عظم الله تعالى أمر السموات والنجوم في كتابه فما من سورة إلا وتشتمل على تفخيمها فى مواضع وكم من قسم فى القرآن بها كقوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ وقوله تعالى ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأولون والآخرون وما أقسم الله بها فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاق عليه وأضافها اليه فقال تعالى ﴿ وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ وأثنى على المتفكرين فيه فقال ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فارفع رأسك الى السماء وانظر فيها وفى كواكبها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤبها فى الحركة على الدوام من غير فتور فى حركتها ومن غير تغيّر فى سيرها بل تجرى جميعاً فى منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله تعالى طىّ السجل للكتاب . وتدبر كثرة كواكبها واختلاف ألوانها وكيفية أشكالها ثم انظر إلى مسير الشمس فى فلكها فى مدة سنة ثم هى تطلع فى كل يوم وتغرب ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقيت ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة وانظر إلى ايلاجه الليل فى النهار والنهار فى الليل وادخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص وانظر كيف أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة

من فوقها وعجائب السموات لامطمع فى إحصاء عشر عشير جزء من أجزائها وانما هذا تنبيه على طريق الفكر وعلى الجملة فما من كوكب من الكواكب إلاّ ولله تعالى فيه حكم كثيرة . وكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه فالعجب منك أنك تدخل بيت غنيّ فتراه مزوقا بالصبغ مموّها بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك وأنت أبدا تنظر الى هذا البيت العظيم والى أرضه والى سقفه والى هوائه والى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته ثم لاتتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك اليه ليس لك هم إلاّ شهوتك اشتغلت بأنواع الغرور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والأرض . فاستكثر من معرفة عجيب صنع الله تعالى لتكون معرفتك بجلاله وعظمته أتم . والله الملهم *

كتاب ذكر الموت وما بعده

﴿ فضل ذكر الموت ﴾

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ﴿ أَكثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ ﴾ وعنه صلوات الله عليه ﴿ أَكثِرُوا مِنْ ذِكْرِ المَوْتِ فإِنَّهُ يُمَحِّصُ الذُّنوبَ وَيُزَهِّدُ فى الدُّنيا ﴾ وعنه عليه الصلاة والسلام ﴿ كَفَى بِالمَوْتِ وَاعِظًا ﴾ وعنه ﴿ أَكيَسُ النَّاسِ أَكثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلموتِ وَأَشَدُّهُمْ اسْتِعْدَادًا لَهُ أُولَئِكَ هُمُ الأَكياسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدُّنيا وَكَرَامَةِ الآخِرَةِ ﴾

وعن عبد الله بن مطرّف قال : ان هذا الموت قد نغص على أهل

النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيما لاموت فيه *

واعلم أن المنهمك في الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لامحالة عن ذكر الموت فلا يذكره واذا ذُكِّرَ به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ثم الناس إما منهمك واما تائب مبتدئ واما عارف منته . أما المنهمك فلايذكر الموت وان ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته وهذايزيده ذكر الموت من الله بعدا . وأما التائب فانه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفي بتمام التوبة . وأما العارف فانه يذكر الموت دائما لأنه موعد للقائه لحبيبه والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب ثم ان أنجع طريق في ذكر الموت أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم وأنه مثلهم وستكون عاقبته كعاقبتهم فملازمة هذه الأفكار مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب فيستعد له ويتجافى عن دار الغرور ومهما طاب قلبه بشئ من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لابد من مفارقته : نظر ابن مطيع ذات يوم الى داره فأعجبه حسنها ثم بكي فقال : والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ولولا مانصير

اليه من ضيق القبور لقرّت بالدنيا أعيننا ثم بكى رحمه الله تعالى *

﴿ فضيلة قصر الأمل ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر ﴿ إذَا أصبَحْتَ فَلا تنتَظِرِ المَساء وَإذا أمسَيْتَ فَلاَ تَنتَظِرِ الصَّباحَ وخُذْ مِنْ حَياتِكَ لِمَوتِكَ وَمِنْ صِحّتِكَ لِسقُمِكَ ﴾ وعن عليّ رضى الله عنه رفعه : ان أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فانه يصد عن الحق وأما طول الأمل فانه الحب للدنيا *

وسبب طول الأمل حب الدنيا والأنس بها والجهل باستبعاد الموت فجأة ولا يدرى أن ذلك غير بعيد فان الموت لا وقت له من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع ومن ليل ونهار فلا يقدر نزول الموت به مع رؤياه من مات بين يديه ولا يقدر أن تشيع جنازته وهو لايزال يشيع الجنائز فما أغفله وما أجهله فسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لابدّ وأن تحمل جنازته ويدفن فى قبره ولا علاج لذلك إلاّ الايمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب فمهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فان حب الخطير هو الذى يمحو عن القلب حب الحقير *

﴿ المبادرة الى العمل وحذر آفة التأخير ﴾

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ﴿ إغْتَنِمْ خَمساً قَبلَ خَمسٍ

شبابَكَ قبلَ هرَمِكَ وَصِحتَكَ قبلَ سُقمِكَ وَغِناكَ قبلَ فقرِكَ وَفرَاغَكَ قَبلَ شُغلِكَ وحَياتَكَ قَبلَ مَوتِكَ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ نِعمَتانِ مَغبونٌ فِيهِما كَثيرٌ مِنَ النّاسِ الصّحّةُ وَالفَرَاغُ ﴾ أى أنه لا يغتنمهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما وكان الحسن يقول فى موعظته المبادرة المبادرة فانما هى الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التى تتقرّبون بها الى الله عز وجلّ رحم الله امرأ نظر الى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية ﴿ إنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ يعنى الانفاس . آخر العدد خروج نفسك . آخر العدد فراق أهلك . آخر العدد دخولك فى قبرك *

وسبب التأخير هو الانس بالدنيا وشهواتها والتسويف فلا يزال يسوّف ويؤخر ولا يخوض فى شغل إلاّ ويتعلق باتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر وهكذا على التدريج يؤخر يوما بعد يوم ويفضى به شغل الى شغل بل الى أشغال الى أن تخطفه المنية فى وقت لايحتسبه فتطول عند ذلك حسرته. وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون واحزناه من سوف. والمسوّف المسكين لايدرى أن الذى يدعوه الى التسويف اليوم هو معه غدا . وانما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا ويظن أنه يتصوّر أن يكون للخائض فى الدنيا فراغ قط وهيهات . فما يفرغ منها إلاّ من أطرحها *

فما قضى أحد منها لبانته وما انتهى أرب إلاّ إلى أرب

نسأله تعالى أن لايجعل لنا بعد الموت حسرة إنه سميع الدّعاء *

﴿ بيان سكرة الموت والاعتبار بالجنائز وزيارة القبور ﴾

اعلم أنه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديراً بأن يتنغّص عليه عيشه ويتكدّر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته وحقيقاً بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده لاسيما وهو فى كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء كرب بيد سواك لاتدرى متى يغشاك *

واعلم أن الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير لا لأهل الغفلة فانها لاتزيدهم مشاهدتها إلاّ قسوة لأنهم يظنون أنهم أبدا الى جنازة غيرهم ينظرون . ولا يحسبون أنهم لامحالة على الجنائز يحملون . أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لايقدرون . ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا يحسبون . فبطل حسبانهم . وانقرض على القرب زمانهم . فلا ينظر عبد الى جنازة إلاّ ويقدّر نفسه محمولا عليها فانه محمول عليها على القرب وكان قد . ولعله فى غد وبعد غد . قال ثابت البنانى : كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلاّ متقنعا باكيا . فهكذا كان خوفهم من الموت والآن لاننظر الى جماعة يحضرون جنازة إلاّ وأكثرهم يضحكون ويلهون ولا يتكلمون إلاّ فى ميراثه وما خلفه لورثته ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلاّ فى الحيلة التى بها يتناول بعض ماخلفه ولا يتفكر واحد منهم الى ماشاء الله فى جنازة نفسه وفى حاله إذا حمل عليها ولا سبب لهذه الغفلة إلاّ قسوة القلوب بكثرة المعاصى والذنوب حتى نسينا الله تعالي واليوم الآخر والأهوال التى بين أيدينا فصرنا نلهوا ونغفل ونشتغل

بما لا يعنينا . فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة *

(فمن آداب حضور الجنازة) التفكر والتنبه والاستعداد والمشى أمامها على هيئة التواضع ومن آدابه حسن الظن بالميت وان كان فاسقا واساءة الظن بالنفس وان كان ظاهرها الصلاح فان الخاتمة مخطرة لايدرى حقيقتها *

(وأما زيارة القبور) فهى مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم أذن فى ذلك بعد . وأما النساء فلا يفى خيرُ زيارتهنّ بشرّها لأنهن يكثرن الهجر على رؤوس المقابر ولا يخلون فى الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظائم والزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لأجلها نعم لابأس بخروج المرأة فى ثياب بذلة تردّ أعين الرجال عنها وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر *

والمستحب فى زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلاً لوجه الميت وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يمسه ولا يقبله فان ذلك من عادة النصارى قال نافع كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أكثر يجيء الى القبر فيقول السلام على النبي * السلام على أبى بكر * السلام على أبى وينصرف وكان بعض السلف إذا وقف على باب المقابر يقول : آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيآتكم وقبل الله حسناتكم . فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها وللمزور الانتفاع بدعائه فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به وانما يحصل له الاعتبار به بأن يتصور فى

قلبه الميت كيف تفرّقت أجزاؤه وكيف يبعث من قبره وأنه على القرب سيلحق به ويستحب الثناء على الميت وأن لايذكر إلاّ بالجميل . قال صلى الله عليه وسلم ﴿ لاتَسُبُّوا الأَمْوَاتَ فإِنَّهم قد أفضَوْا إلى ماقدَّمُوا ﴾ *

﴿ بيان المأثور عند موت الولد ﴾

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله فى تقدمه عليه فى الموت منزلة مالو كانا فى سفر فسبقه الولد الى البلد الذى هو مستقره ووطنه فانه لايعظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على القرب وليس بينهما إلاّ تقدم وتأخر . وهكذا الموت فان معناه السبق الى الوطن الى أن يلحق المتأخر . واذا اعتقد هـذا قلّ جزعه وحزنه . لاسيما وقد ورد فى موت الولد من الثواب مايعزى به كل مصاب فعن أبى هريرة رفعه إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ﴿ لَسَقَطٌ أُقَدِّمُهُ بينَ يَدَيَّ أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ فارِسٍ أُخَلِّفُهُ خَلْفِي ﴾ وانما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى والا فالثواب على قدر محل الولد من القلب . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لاَيَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسلمِينَ ثَلاَثَةٌ مِنَ الوَلَدِ فَيَحتَسِبُهُمْ إلاّ كانوا لهُ جُنَّةً مِنَ النَّارِ ﴾ فقالت امرأة أو اثنان يارسول الله قال ﴿ أوِ اثْنانِ ﴾ وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فانه أرجى دعاء وأقرب به الى الاجابة وقف أبو سنان على قبر ابنه فقال اللهم إنى قد غفرت ماوجب لى عليه فاغفر له ماوجب لك عليه فانك أجود وأكرم ووقف اعرابى على قبر ابنه فقال اللهم إنى قد وهبت له ماقصر فيه من برى فهب له ماقصر فيه من طاعتك ويَنبغى أن يتذكر عند موت الولد الفجائع

الكبرى ليتسلى بها عن شدّة الجزع فما من مصيبة إلاّ ويتصوّر ماهو أعظم منها وما يدفعه الله فى كل حال فهو الأكثر *

﴿ ذكرى مابعد الموت من البرزخ وأهوال القيامة ﴾

كما أن للموت شدّة فى أحواله وسكراته وخطرًا فى خوف العاقبة كذلك الخطر فى مقاساة ظلمة القبر وديدانه ثم لمنكر ونكير وسؤالهما ثم لعذاب القبر وخطره ان كان مغضوبا عليه وأعظم من ذلك كله الاخطار التى بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور والعرض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير ونصب الميزان لمعرفة المقادير ثم جواز الصراط ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالاسعاد واما بالاشقاء . فهذه أحوال وأهوال لابدّ لك من معرفتها ثم الايمان بها على سبيل الجزم والتصديق ثم تطويل الفكر فى ذلك لينبعث من قلبك دواعى الاستعداد لها . وأكثر الناس لم يدخل الايمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم ويدل على ذلك شدّة تشمرهم واستعدادهم لحرّ الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحرّ جهنم وزمهريرها مع ماتكتنفه من المصاعب والاهوال بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم . ومَنْ أُخبِرَ بأن مابين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الذى أخبره صدقت ثم مدّ يده لتناوله كان مصدّقا بلسانه ومكذّبا بعمله وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان . فمثل نفسك وقد بعثت من قبرك مبهوتا من شدّة الصعقة شاخص العين نحو النداء وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التى

طال فيها بلاؤهم وقد أزعجهم الرعب مضافا الى ماكان عندهم من الهموم والغموم وشدّة الانتظار لعاقبة الأمر كما قال تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاء اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخرَى فإِذَا هم قِيامٌ يَنظُرُونَ ﴾ فتفكر فى الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكانتهم انتظارا لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم فكيف حالك وحال قلبك هنالك وقد بدّلت الأرض غير الأرض والسموات وطمس الشمس والقمر وأظلمت الأرض واشتبك الناس وهم حفاة عراة مشاة وازدحموا فى الموقف شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم . فتأمل يامسكين فى طول هذا اليوم وشدّة الانتظار فيه والخجلة والحياء من الافتضاح عند العرض على الجبار تعالى وأنت عار مكشوف ذليل متحير مبهوت منتظر لما يجرى عليك القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم بهذه الحال فانها عظيمة واستعدّ لهذا اليوم العظيم شأنه القاهر سلطانه القريب أوانه . يومَ تذهل فيه كلّ مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد يوم ترى السماء فيه قد انفطرت والكواكب من هوله قد انتثرت والنجوم الزواهر قد انكدرت والشمس قد كوّرت والجبال قد سيّرت والعشار قد عطلت والوحوش قد حشرت والبحار قد سجرت والنفوس الى الأبدان قد زوّجت والجحيم قد سعرت والجنة قد أزلفت *

وقد وصف الله بعض دواهى يوم القيامة وأكثر من أساميه لتقف

بكثرة أساميه على كثرة معانيه فليس المقصود بكثرة الاسامي تكرير الاسامى والالقاب بل الغرض تنبيه أولى الالباب فتحت كل اسم من أسماء القيامة سرّ وفى كلّ نعت من نعوتها معنًى فاحرص على معرفة معانيها فمن أساميها يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم المحاسبة ويوم الزلزلة ويوم الصاعقة ويوم الواقعة ويوم القارعة ويوم الغاشية ويوم الراجفة ويوم الحاقة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم التلاق ويوم التناد ويوم الجزاء ويوم الوعيد ويوم العرض ويوم الوزن ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الخزى ويوم عسير ويوم الدّين ويوم النشور ويوم الخلود ويوم لاريب فيه ويوم لاتجزى نفس عن نفس شيأ ويوم تشخص فيه الابصار ويوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه يوم لاينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم *

فالويل كل الويل للغافلين . يرسل الله لنا سيد المرسلين . وينزل عليه الكتاب المبين . ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين . ثم يعرفنا غفلتنا ويقول ﴿ اِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَهُمْ فى غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ما يأْتِيهِم مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِم مُحْدَثٍ إلاّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لاَهِيَةً قُلُوبُهُم ﴾ ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول ﴿ اِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانشقّ القَمَرُ . إنّهم يَرَوْنَهُ بَعيدًا ونَرَاهُ قَرِيباً . وَما يُدرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملا فلا نتدبر معانيه ولا ننظر فى كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه . ولا نستعد للتخلص من دواهيه . فنعوذ بالله

من هذه الغفلة ان لم يتداركنا الله بواسع رحمته *

﴿ صفة السؤال ﴾

ثم تفكر يامسكين بعد هذه الاحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان فتسأل عن القليل والكثير والنقير والقطمير فبينما أنت فى كرب القامية وعرقها وشدة عظائمها اذ نزلت ملائكة من ارجاء السماء الى موقف العرض على الجبار فيقومون صفا صفا محدقين بالخلائق من الجوانب وينادون واحدا بعد واحد فعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول ويتمنى أقوام أن يذهب بهم الى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار ولا يكشف سترهم على ملأ الخلائق. وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش ﴿ وأشرقت الأرضُ بنورِ ربّها ﴾ وأيقن قلب كل عبد باقبال الجبار لمسائلة العباد وظن كل واحد انه ما يراه أحد سواه . وانه المقصود بالاخذ والسؤال دون من عداه . فيبدأ سبحانه بالانبياء ﴿ يومَ يجمعُ اللهُ الرُّسلَ فيقولُ ماذا أُجبتم قالوا لا عِلمَ لنا إنّكَ أنتَ علاّمُ الغيوبِ ﴾ فيالشدة يوم تذهل فيه عقول الانبياء من شدة الهيبة . ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره وعن سرّه وعلانيته وعن جميع جوارحه وأعضائه فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعد عليك انعامه ومعاصيك وأياذيه ومساويك فان أنكرت شهدت عليك جوارحك وأنت بقلب خافق وطرف خاشع وأعطيت كتابك الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف

لك عن مساويها فليت شعرى بأىّ قدم تقف بين يديه بأى لسان تجيب و بأى قلب تعقل ما تقول وفي الخبر ﴿ لا تَزُولُ قَدَمَا ابنِ آدمَ يومَ القيامةِ من عِنْدَ رَبِّهِ حتى يُسْأَلَ عن أربعِ خصالٍ عَن عُمُرِهِ فيما أفناهُ وعن شبابهِ فيما أبلاه وعن مالهِ مِن أين اكتَسَبَهُ وفيما أنفقَهُ وماذا عَمِلَ فيما عَلِمَ ﴾ فأعظم يامسكين بحياتك عند ذلك و بخطرك ثم لا تغفل عن الفكر فى الميزان . وتطاير الكتب الى الشمائل والايمان ﴿ فمن ثقُلَتْ مَوازِينُهُ فهُوَ فى عِيشَةٍ راضِيةٍ ومَنْ خفَّتْ موازينُهُ فأُمهُ هاوِيَةٌ وما أدراكَ ماهِيَهْ نارٌ حامِيَةٌ ﴾ *

﴿ صفة الخصماء ورد المظالم ﴾

إعلم انه لاينجو من خطر الميزان الا من حاسب فى الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته . وانما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل أن يموت توبة نصوحا ويتدارك ما فرط من تقصيره فى فرائض الله تعالى ويرد المظالم حبة بعد حبة حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة فهذا يدخل الجنة بغير حساب وان مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه فهذا يأخذ بيده وهذا يقبض على ناصيته وهذا يقول ظلمتنى وهذا يقول شتمتنى وهذا يقول استهزأت بى وهذا يقول جاورتنى فأسأت جوارى وهذا يقول عاملتنى فغششتنى وهذا يقول أخفيت عيب سلعتك عنى وهذا يقول كذبت فى سعر متاعك وهذا يقول رأيتنى محتاجاً وأنت غنى فما أكرمتنى وهذا يقول وجدتنى مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عنى فما راعيتنى فبينما أنت كذلك وقد أنشبت الخصماء فيك مخالبهم وأنت

مبهوت متحير من كثرتهم اذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله ﴿ اليومَ تُجزَى كلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ لا ظُلمَ اليومَ ﴾ فعند ذلك ينخلع قلبك وتتذكر ما أنذرك الله على لسان رسوله حيث قال ﴿ ولا تَحسَبنَّ اللهَ غافِلاً عمّا يَعمَلُ الظَّالمونَ إنّما يُؤَخّرُهُمْ لِيومٍ تَشخَصُ فيهِ الأبصارُ مُهطعينَ مُقنِعِي رُؤُسِهِم لا يَرتَدُّ إليهِم طَرفُهُم وأفئِدَتُهُم هَواءٌ ﴾ فما أشد ترحك اليوم بتمضمضك باعراض الناس وتناولك أموالهم وما أشد حسراتك فى ذلك اليوم اذا وقف بك على بساط العدل وكشف عن فضائحك ومساويك . فاحذر من التعرض لسخط الله وعقابه الاليم . واستقم على صراطه المستقيم . فمن استقام فى هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا . ومن عدل عن الاستقامة فى الدنيا . وأثقل ظهره بالاوزار وعصي . تعثر فى أول قدم من الصراط وتردى *

* القول فى أهوال جهنم وقانا الله عذابها *

يا أيها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر الى موردك فانك أخبرت بأن النار مورد للجميع اذ قال سبحانه ﴿ وَإنْ مِنكُم إلاّ وَارِدُها كانَ عَلى رَبّكَ حَتماً مَقضِيّاً . ثُمّ نُنَجّى الّذينَ اتّقَوا ونَذَرُ الظّالِمينَ فِيها جِثِيّاً ﴾ فأنت من الورود على يقين ومن النجاة فى شك . فاستشعر فى قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعد للنجاة منه وتأمل فى حال الخلائق وقد قاسوا من دواهى القيامة ماقاسوا فبينما هم فى كربها وأهوالها

وقوفا ينتظرون حقيقة أنبائها . وتشفيع شفعائها . إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب . وأظلت عليهم نار ذات لهب . وسمعوا لها زفيرًا يفصح عن شدّة الغيظ والغضب . فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب . وجثت الأمم على الركب . حتى أشفق البرآء من سوء المنقلب . فهناك تسوق الزّبانية المجرمين إلى العذاب الشديد ويكسونه في قعر الجحيم . ويقولون له ذق إنك أنت العزيز الكريم . فاسكنوا دارًا يخلد فيها الأسير . ويوقد فيها السعير . شرابهم فيها الحميم . ومستقرّهم الجحيم . شدّت أقدامهم الى النواصى . واسودت وجوههم من ظلمة المعاصى . ينادون من أكنافها . ويصيحون في نواحيها وأطرافها . يامالك قد نضجت منا الجلود . يامالك أخرجنا منها فانا لانعود . فتقول الزبانية هيهات لات حين أمان ولا خروج لكم من دار الهوان فاخسئوا فيها ولا تكلمون ولو أخرجتم منها لكنتم الى مانهيتم عنه تعودون فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرّطوا في جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف يدعون بالويل والثبور وتغلى بهم النار كغلى القدور تهشم بمقامع الحديد جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون فكيف بك لو نظرت اليهم وقد اسودت وجوههم أشد سواد من الحميم وأعميت أبصارهم وأبكمت ألسنتهم وكسرت عظامهم ومزقت جلودهم ولهيب النار سار في بواطن أجزائهم وحيّات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم هذا بعض جملة أحوالهم وانظر الى تفاوت الدركات فان الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا

فكما أن إكباب الناس على الدّنيا يتفاوت فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها ومن خائض فيها الى حد محدود فكذلك تناول النار لهم متفاوت فان الله لا يظلم مثقال ذرّة فلا تترادف أنواع العذاب على كل من فى النار كيفما كان بل لكل واحد حدّ معلوم على قدر عصيانه وذنبه إلاّ أن أقلهم عذابا لو عرضت عليه الدّنيا لافتدى بها من شدّة ماهو فيه . فيالحسرة هؤلاء وقد بلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شيء من نعيم الدّنيا ولذّاتها *

. فانظر يامسكين فى هذه الأهوال والعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدّنيا ولست تدرى بماذا سبق القضاء فى حقك (فان قلت) فليت شعرى ماذا موردى والى ماذا مآلى ومرجعى وماالذى سبق به القضاء فى حقى فلك علامة تستأنس بها وتصدّق رجاءك بسببها وهو أن تنظر الى أحوالك وأعمالك فان كلا ميسر لما خلق له . فان كان قد يسر لك سبيل الخير فابشر فانك مبعد عن النار وان كنت لاتقصد خيرًا إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شرًّا إلاّ ويتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضيٌّ عليك . فان دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدّخان على النار فقد قال الله تعالى ﴿ إنَّ الأَبرَارَ لَفِي نَعيمٍ وَإنَّ الفُجّارَ لَفِي جَحيمٍ ﴾ فاعرض نفسك على الآيتين . وقد عرفت مستقرّك من الدّارين *

﴿ صفة الجنة وأصناف نعيمها ﴾

اعلم أن تلك الدّار التى عرفت همومها وغمومها يقابلها دار أخرى فتأمل

في نعيمها وسرورها . فان من بعد من احداهما استقرّ لا محالة فى الأخرى فتق نفسك بسوط التقوى لتنال الملك العظيم . وتسلم من العذاب الأليم فتفكر فى أهل الجنة وفى وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم جالسين على منابر الياقوت متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل محفوفة بالغلمان والولدان مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهنّ الياقوت والمرجان لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جان ينظرون فيها الى وجه الملك الكريم وقد أشرقت فى وجوههم نضرة النعيم وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لايخافون فيها ولا يحزنون ومن ريب المنون آمنون فياعجباً لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لايموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها كيف يأنس ويتهنأ بعيش دونها . والله لولم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان لكان جديرًا بأن يهجر الدُّنيا بسببها وأن لايؤثر عليها ما التصرّم والتنغص من ضرورته كيف وأهلها ملوك آمنون وفى أنواع السرور ممتعون لهم فيها كل ما يشتهون والى وجه الله الكريم ينظرون وينالون بالنظر من الله ما لاينظرون معه الى سائر نعيم الجنان ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن . فليس وراء بيان الله تعالى بيان . واقرأ قوله تعالى ﴿ وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ ﴾ الى آخر سورة الرحمن . واقرأ سورة الواقعة وسورة الانسان . وغيرها من السور . ففيها مايدلك على أن ثمة مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . كما ورد فى الاثر . ويكفى

من الاطلاع على جملتها مابينا وقد ورد فى تفصيل صفاتها كثير من الاخبار المدوّنة فى الاسفار الكبار . واعلم أن درجات الآخرة متفاوتة. فان الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا وكما أن بين الناس فى الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتا ظاهرًا. فكذلك فيما يُجازَوْنَ به تفاوت ظاهر فان كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى ﴿ وَسابِقوا إلى مَغفِرَةٍ مِنْ رَبّكم وَجنّةٍ عَرْضُها السّموَاتُ وَالأرضُ أعِدّتْ لِلمتّقِينَ ﴾ وقال تعالى ﴿ إنّ الأبرارَ لَفِي نَعيمٍ عَلى الأرائِكِ ينظُرُونَ تَعرِفُ فى وُجُوهِهِم نَضْرَةَ النّعيمِ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحيقٍ مختومٍ خِتامُهُ مِسكٌ وَفى ذَلكَ فَليَتنافَسِ المُتَنافِسُونَ وَمِزاجُهُ مِنْ تَسنِيمٍ عيناً يَشرَبُ بِها المُقرّبونَ ﴾

اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب اليها من قول أو عمل . ونعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول أو عمل . ونستغفرك من كلّ مازلت به القدم . أو طغى به القلم . يا واسع المغفرة يا أرحم الرّاحمين *

قال مؤلفه

تم بحمده تعالى إختصار ﴿إحياء علوم الدّين﴾ ليلة الجمعة السادسة عشرة من ربيع الثانى قبيل العشاء سنة ١٣٢٤ هـ . فى دارنا ظاهر باب الجابية فى زقاق العلامة المكتبي على يد جامعه الفقير ﴿محمد جمال الدّين﴾ ابن محمد سعيد ابن قاسم بن صالح القاسمى الدمشقى عفا المولى عن زلله . بمنه وفضله آمين *

خاتمة الكتاب لناشره

نحمد ربنا العلىّ الكبير ونشكره على ما وهبنا من العقل والتفكير للإرشاد والتبشير حتى لاتسرى الغفلة من الصغير إلى الكبير ونصلّى ونسلّم على نبيه البشير النذير وعلى آله وأصحابه أولى الفضل الخطير *

﴿ أمّا بعد ﴾ فإنّ أفضل ماوعظ به المتقون ووصل به العارفون كتاب الله وسنّة نبيه وهَدْى الرّاشدين من بعده فطوبى لمن اتّعظ وبشرى لمن استيقظ واستعدّ لمآبه وإيابه إلى ربه بالأعمال الصالحة والنّظر فى آياته الواضحة حتى استنار وأنار الطرق للطالبين وياسعادة من نصب نفسه للإفادة وقوّمها بالإستفادة فذلك مقام الأنبياء والمرسلين وقد حذا حذوهم العارفون واستمدّ بنور معارفهم العالمون فأوضحوا ما ستروه وفصّلوا ما أجملوه حتى ارضوا ربّهم وضميرهم وقابلوه بوجوه بيضاء وقلوب سليمة نوراء قد أعدّ لهم أحسن الجزاء وكان فى مقدّمتهم بل واسطة عقد سعادتهم (الإمام الغزالي) حيث لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلاّ أنارها وأوضحها ووقف حياته خدمة للدّين وموعظة للمؤمنين وتمحيصاً للحقائق من شبهات المرتابين فألّف ووضح وبيّن وأفصح حتى تلاشت الشبهات وأتى بالآيات البيّنات فاستحق أن يسمّى بحجة الإسلام وإمام المسلمين وكان من أجمع كتبه للحقائق وأنفعها فى كشف الغوامض والدقائق كتابه ﴿ إحياء العلوم ﴾ غير أنه لا يخلو من أبحاث علمية ومواضيع فلسفية تعزب

عن معرفتها عامة المؤمنين ويبعد عن تناولها أفهام القاصرين فكان محتاجا لتمحيصه من المباحث وتخليصه من مواضع الخوض فى بحار الجدل وتشريح المسائل فى الردّ على المبطلين ودحضه حجج المرتابين ليكون مَعيناً عذباً للواردين وعسلا مصفًّى للشاربين وقد تمنى مثل هذا العمل المبرور والسعي المشكور حضرة المرحوم الأستاذ الامام الشيخ (محمدعبده) مفتى مصر سابقاً وصرّح بحاجة الأمة الاسلامية الى اختصار كتاب الاحياء والاكتفاء من مواضعه وأبحاثه بالقدر الذى يسهل فهمه على عموم الطبقات ولا يصعب دركه على غير المشتغلين باللغويّات والاصطلاحات وكان ذلك بحضرة الأستاذ الكبير والعالم العارف الشهير صاحب هذا المختصر النفيس حضرة (الشيخ محمد جمال الدين القاسمى الدمشقى) رضى الله عنه أيّام ان كان نزيلا عنده كما أشار الى ذلك فى خطبته فتوافقا على حسن هذا العمل ولزومه للأمة فى هذا الزّمن فأخذ على عاتقه هذا العمل المبرور حضرة الأستاذ القاسمى المذكور فصنّف مختصره الموسوم *

موعظة المؤمنين * من احياء علوم الدين

فجاء بحمد الله سفينة الواعظ وعجالة المرشد وجبهة النّصوح وتذكرة الدعوة وموعظة المؤمنين وروح الاحياء صنفه بعد الرويّة واستقراء حال الأمم من مسلميهم وبعد أن عبر بواطن قلوبهم مستطلعا * وخاض فى بحر أحوالهم مستخبرا * أيّ الدواء أنجع وأيّ العلاج أنفع فلذلك قام بهذه الخدمة الدينية ولا أخال الا أن الغزالي نفث فى روعه ليكتب أو أملى عليه

مايناسب العصر ليستخلصه حتى أتم كما أرادا معاً * واتّفقا عليه وضعاً * وأتاح الله الأسباب لنشره وسهّل طريق طبعه لنفع الأمة أن قد تشرّفتُ بمقابلة حضرة مؤلفه وتذاكرنا معه فيما ينفع الأمة ويهمّ العامة من الوعظ والارشاد

ولما رأى شغفي لنشر أمثال تلك المواضيع النافعة سمحت نفسه الكبيرة وارتاح ضميره الى اهدائي هذا الكتاب المستطاب لأنه من أنفع ما يهدى لأولى الالباب في هذا الزمن خصوصاً وهو يرد شبوبيّة الدين بعد شيخوخته وينهض بالعالم الاسلامى من وهدته وسقطته فتقبلته منه شاكرا لأنعمه ومكثت أترقب المكنة لنشره وانتهز الفرص لطبعه فوافق حظّ الوعظ ان ذكرت ذلك لحضرة الأديب الفاضل الذى لم يجد طريقاً للخير إلاّ سلكه حضرة (محمد أفندى اسماعيل) صاحب الأيادى البيضاء على الادب وذويه فنشط في الفور وأخذ على عهدته مساعدتى على طبعه ونشره بمطبعته العامرة ﴿ مطبعة السعادة ﴾ وكان سبباً قويّا لاخراجه الى عالم المطبوعات كتابا جاء بهجة لذوى الافكار والابصار قد اعتُنى بطبعه على ورق جيّد وحروف جميلة مع ضبط الشكل للآيات والأحاديث وساعدنى على تصحيحه جماعة من فضلاء العلماء حتى جاء كتابا لم يسبق له نظير صحةً وجمالاً وقد أعطى لنا حضرة مؤلفه حقوق الطبع حتى لا يعاد طبعه الا بمعرفتنا . فنشكره على هذه العناية في البداية والنهاية *

محيي الدين صبرى

الكردى

فهرست

الجزء الثانى من كتاب

موعظة المؤمنين

من

إحياء علوم الدين

كتاب رياضة النفس

﴿ كتاب آفات اللسان ﴾

﴿ كتاب ذم الغضب والحقد والحسد ﴾

﴿ كتاب ذم الدنيا ﴾

﴿ كتاب ذم البخل وذم المال ﴾

٨٧ ﴿ كتاب ذم الجاه والرياء ﴾

﴿ كتاب ذم الكبر والعجب ﴾

﴿ كتاب ذم الغرور ﴾

﴿ كتاب التوبة ﴾

﴿ كتاب الصبر والشكر ﴾

﴿ كتاب الخوف والرجاء ﴾

﴿ كتاب ذكر الموت وما بعده ﴾

﴿ تمت الفهرست ﴾






Bibliotheca Alexandrina
03744404